بسم الله الرحمن الرحيم

اختصار مقدمة المفسر رحمه الله

الحمد لله الذي افتتح كتابه بالحمد ، وافتتح خلقه واختتمه بالحمد ، فله الحمد في الأولى والآخرة في جميع ما خلق وما هو خالق .

والحمد لله الذي أرسل رسله ﴿مبشرين ومنذرين لئلاّ يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل﴾ وختمهم بالنبيّ الأميّ مرسَلاً إلى جميع خلقه من الإنس والجن من لدن بعثته إلى قيام الساعة . قال الله تعالى : ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إلَه إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبيّ الأميّ الذي يؤمن بالله وكلماته واتّبعوه لعلكم تهتدون﴾ وقال تعالى :

﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم وأسود وأحمر وإنس وجان فهو نذير له . كما قال تعالى : ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده﴾ وحث الله عباده على فهم كتابه فقال تعالى: ﴿أفلا يتدبّرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ وقال تعالى : ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ وقال سبحانه : ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها .﴾

فالواجب على العلماء : الكشف عن معاني كلام الله وتفسيره ، وطلبه من مظانّه وتعلّم ذلك وتعليمه . كما قال تعالى : ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننّه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون﴾ وقال عزّ من قائل : ﴿إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ، ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يومَ القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ .

فقد ذمّ الله تعالى أهلَ الكتاب قبلنا، بإعراضهم عن كتاب الله المنزل عليهم ولاشتغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله . فعلينا أيها المسلمون أن ننتهي عما ذمهم الله تعالى من أجله، وأن نأتمر بما أمرنا به من تعلّم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهُّمه وتفهيمه. قال الله تعالى : ﴿ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشعَ قلوبُهم لذكر الله وما نزل من الحق .

ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون . إعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بيّنا لكم الآيات لعلكم تعقلون . ﴾

وفي ذلك تنبيه على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها ، كذلك يلين القلوب بالإيمان والهدى بعد قسوتها ، والله نسأل أن يفعل بنا هذا إنه جواد كريم .

أحسن طرق التفسير :

ان أصح طرق التفسير : أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أُجمِلَ في مكان ، فإنه بُسِطَ في موضعٍ آخر . وإن أعياك ذلك ، فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن . قال الشافعي رحمه الله : كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو مما فهمه من القرآن : ﴿إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً .﴾ ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ١ [ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه] يعني السنّة فإن لم تجد تفسير القرآن بالسنّة، فارجع في ذلك لأقوال الصحابة رضي الله عنهم فإنهم أدرى بذلك ، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصّوا بها، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح .

قال الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: كان الرجل منّا إذا تعلّم عشر آياتٍ لم يجاوزْهن حتى يعرف معانيهُنّ، والعمل بهن ، وهكذا فقد كانوا رضي الله عنهم لا ينتقلون إلى آية قبل أن يفهموا التي قبلها ، ويعملوا بها .

ومنهم ترجمان القرآن : عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ابنُ عمّ رسول الله ﷺ فقد دعا له رسول الله ﷺ حيث قال: ٢ [اللهم فقهْهُ في الدين وعلمه التأويل] ، وإذا لم تجد تفسير القرآن في القرآن ، ولا في السنة ، ولا في أقوال الصحابة ، فالتمس التفسير في أقوال التابعين : كمجاهد بن جبر ، وسعيد ابن جبير ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وعطاءِ بن أبي رباح، والحسنِ البصري ، ومسروق بن الأجدع وسعيد بن المسيّب وأبي العالية ، والربيع بن أنس ، وقتادة ، والضحاكِ بنِ مزاحم وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم ؛ فإذا أجمعوا فيكون تفسيرهم حجةً . وإن اختلفوا فلا يكون قولهم حجةً على قول بعض .

أما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام . لما رواه محمد بن جرير بسنده عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ٣ [من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ

مقعده من النار] وأخرجه الترمذي والنسائي عن سفيان الثوري به ورواه أبو داود مرفوعاً وقال الترمذي هذا حديث حسن .

لهذا فقد تحرَّج جماعةٌ من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به ، كما روى شعبةُ بسنده عن أبي بكر الصديق أنه قال : « أيُّ أرضٍ تُقلّني ، وأي سماءٍ تُظلّني إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم .

وأما من تكلّم بما يَعلَمُ من كتاب الله لغةً وشرعاً فلا حرَج عليه . وإن تَحرُّجَ السلفِ عن التفسير ، محمولٌ على الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه . وقد قال ابو عبيد بسنده عن مسروق قال : إتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله . وأكثر السلف قالوا هذا .

وقد روي عن السلف كثير من التفاسير ، وهذا هو الواجب على كل أحد فإنه كما يجب السكوتُ عمّا لا علمَ له به ، فكذلك يجب أن يجيب على ما سئل عنه مما يعلمه لقوله جل وعلا : ﴿ لتُبيننّه للناس ولا تكتمونه ﴾ ولما جاء في الحديث الذي روي من طرق : ٤ [من سئلَ عن عِلْمٍ فكَتَمَهُ أُلجِمَ يَوْمَ القِيامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ]

أوجه التفسر :

روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال : التفسير على أربعة أوجه :

١ : وجه تعرفه العرب من كلامها

٢ : وتفسير لا يعذر أحدٌ بجهالته

٣ : وتفسير يعلمه العلماء

٤ : وتفسير لا يعلمه أحد إلاّ الله

أما التفسير الذي تعرفه العرب من كلامها فهو باعتبار الكلمات اللغوية . والتفسير الذي لا يعذر أحد بجهالته، هو الحلال والحرام ، والتفسير الذي يعلمه العلماء هو : ما يستنبطونه من تفسير القرآن بالقرآن والحديث ، وما ينطوي عليه من معانٍ لا يهتدَى إليها إلا بعد علم قويم [1] . وأما التفسير الذي لا يعلمه إلا الله فهو المتشابه ، ومن ادّعى علم المتشابه أحد سوى الله ، فهو كاذبٌ .

---

(١) ولا يجوز أن يخالف التفسير – على أي حال – ظاهر القرآن .

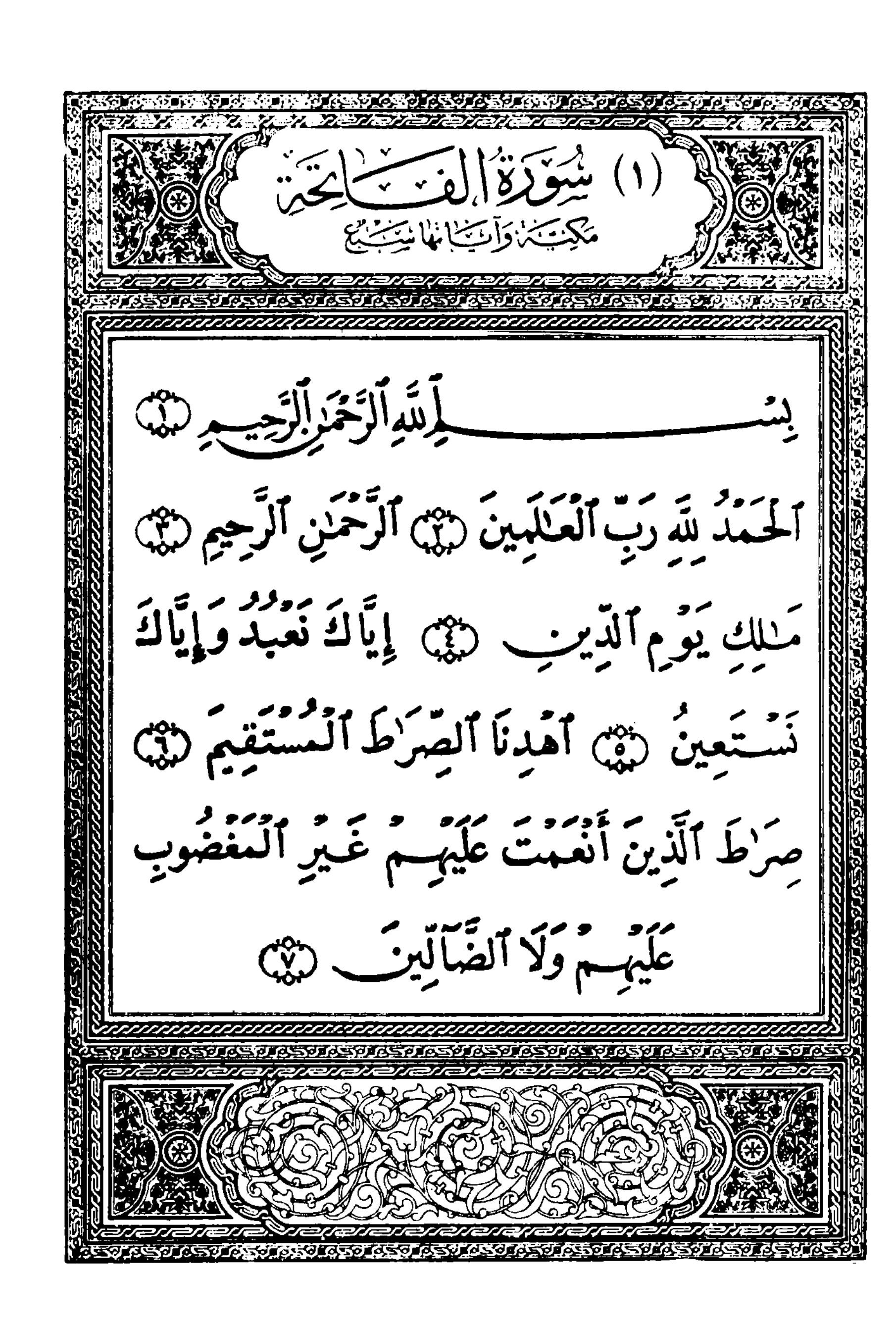
قال الله تعالى :

﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . وما يعلم تأويله إلاّ الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كلٌّ من عند ربنا وما يتذكّر إلاّ أولو الألباب ﴾ .

السور المدنيّة والمكيّة :

عن قتادة قال : نزل في المدينة من القرآن : البقرة وآل عمران و النساء والمائدة وبراءة والرعد والنحل والحج والنور والأحزاب ومحمّد والفتح والحجرات والرحمن والحديد والمجادلة والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق والتحريم إلى رأس العشر . وإذا زلزلت وإذا جاء نصر الله . وسائر السور نزلت بمكة .

فصل : نفى القرطبيّ ان يكون في القرآن شيء من التراكيب الأعجميّة سوى بعض أسماء الأنبياء وأنكر ذلك الباقلاني والطبري وقالا : وقع فيه مما يوافق الأعجمية مما توافقت فيه اللغات



(١) سُورَةُ الفَاتِحَةِ

مَكِّيَّة وآيَاتُها سَبْع

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

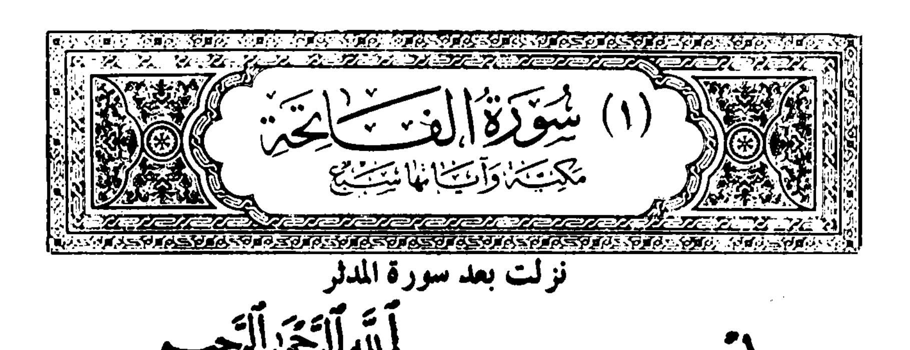
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ

عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾



نزلت بعد سورة المدثر

بسم الله الرحمن الرحيم

أسماء الفاتحة :

فاتحة الكتاب ، أي فاتحة الكتاب خطّاً ، وبها تفتتح القراءةُ في الصلوات .

وأمّ الكتاب ، وأمُّ القرآن . لأن معاني القرآن ترجع إلى ما تضمنته . والسبع المثاني والقرآن العظيم ، وقد ثبت في الصحيح عند الترمذي وصححه ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٥ [الحمد لله رب العالمين : أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني والقرآن العظيم] ويقال لها : الحمد ، والصلاة ، لقوله ﷺ عن ربه : ٦ [قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفَيْنِ فاذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله: حمدني عبدي » الحديث. فسميت الفاتحة صلاة لأنها شرط فيها

ويقال لها الشفاء . لما رواه الدارمي عن أبي سعيد مرفوعاً : ٧ [فاتحة الكتاب شفاء من كل سُم ٍ] ويقال لها : الرقية . لحديث أبي سعيد الخدري حين رقي بها الرجل السليم فقال له رسول الله ﷺ ٨ : [وما يدريك أنها رقية] ويقال لها: أساس القرآن . لما رواه الشعبي عن ابن عباس أنه سماها أساس القرآن . قال : وأساسها بسم الله الرحمن الرحيم وسمّاها سفيان بن عيينة الواقية وسمّاها يحيى بن أبي كثير الكافية لمـــا جاء في بعض الأحاديث المرسلة : ٩ [أم القرآن عوض من غيرها وليس من غيرها عوض منها] ويقال لها : سورة الصلاة والكنز . ذكرهما الزمخشري في كشّافه .

نزولها :

نزلت سورة الفاتحة بمكة . قاله:ابن عباس وقتادة وأبو العالية.فهي إذاً سورة مكّية

وقيل مدنية . وقيل نزلت مرتين بمكة ثم بالمدينة .[١]

فضلها :

روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ١٠ [خرج رسول الله ﷺ على أبيّ بن كعب وهو يُصلي فقال « يا أبيُّ » فالتفت ، ثم لم يجبه ، ثم قال : « يا أُبيُّ » فخفّف أُبيُّ ، ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ فقال : السلام عليك أي رسول الله فقال « وعليك السلام ، ما منعك أي أُبيُّ إذْ دعوتك أن تجيبني ؟ » فقال أي رسول الله : إني كنت في الصلاة . قال (أولست تجد فيما أوحى الله تعالى إليّ ﴿إستجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ قال بلى يا رسول الله ، لا أعود . قال : « أتحب أن أعلمك سورة لم تنزل لا في التوراة ولا في الأنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلُها ؟ » قلت : نعم أي رسول الله . قال رسول الله ﷺ : « إني لأرجو أن لا أخرج من هذا الباب حتى تعلمَها » قال : فأخذ رسول الله بيدي ، يحدثني وأنا أتباطأ مخافة أن يبلغَ قبل أن يقضي الحديثَ فلما دنونا من الباب ، قلت : أي رسول الله : ما السورة التي وعدتني ؟ قال : « ما تقرأ في الصلاة ... ؟ » قال : فقرأت عليه أمَّ القرآن ، قال : [والذي نفسي بيده ، ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان ، مثلهَا إنها السبعُ المثاني] ورواه الترمذي فذكره ... وعنده : ١١ [إنها السبع المثاني والقرآنُ العظيم الذي أعطيتُه] ثم قال : هذا حديث حسن صحيح .

وروى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده : عن أبي سعيد بن المعلّى رضي الله عنه قال : ١٢ [كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبْهُ ، حتى صليت ، قال فأتيته . فقال : « ما منعك أن تأتيني ؟ » قال : قلت : يا رسول الله إني كنت أصلي قال : « ألم يقل الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ ثم قال : « لأعلمنّك أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد » قال فأخذ بيدي ، فلما أراد أن يخرج من المسجد، قلت: يا رسول الله إنك قلت لأعلمنّك أعظم سورة في القرآن قال : « نعم ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته »] وهكذا رواه البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجة من طرق .

---

(١) والأصح : أنها نزلت في مكة لقوله تعالى : ولقد آتيناك سبعاً من المثاني « أي لأنها تثنى في الصلاة فتقرأ في كل ركعة . وعليه ولما فرض الله الصلاة وكان ذلك بمكة تبين الحق واضحاً بأنها نزلت بمكة بدليل أن الفاتحة تقرأ في كل ركعة من الصلاة منذ أن فرضت الصلاة وبدليل الحديث. : (قسمت الصلاة ...) وهي سبع آيات بلا خلاف إنما الاختلاف بالبسملة ... هل إنها آية من الفاتحة أم لا .

* حديث آخر :

وروى مسلم في صحيحه والنسائي في سننه بالسند عن ابن عباس قال ١٣ [بينا رسول الله ﷺ وعنده جبرائيل إذ سمع نقيضاً فوقه فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط ، قال : فنزل منه ملك فأتى النبيَّ ﷺ فقال : أبشر بنوريْن قد أوتيتَهما لم يؤتهما نبي قبلك:فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لم تقرأ حرفاً منه إلاَّ أوتيتَهُ] وهذا لفظ النسائي ولمسلم نحوُه .

* حديث آخر :

وروى مسلم : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال : ١٤ [« من صلّى صلاة لم يقرأ فيها بأمّ القرآن فهي خَداجٌ ــ ثلاثا ــ غير تمام » فقيل لأبي هريرة : إنّا نكون خلفَ الإمام فقال إقرأ بها في نفسك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول :قال الله عز وجل : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل ، فإذا قال: ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال الله : حمدني عبدي ، وإذا قال ﴿ الرحمن الرحيم﴾ قال الله: أثنىَ علي عبدي فإذا قال ﴿مالك يوم الدين﴾ قال الله مجّدني عبدي ، أو قال مرةً : فوض إليَّ عبدي فإذا قال : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ قال هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، فإذا قال ﴿إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالّين ﴾ قال الله هذا لعبدي ولعبدي ما سأل »] وهكذا رواه النَسّائي ...

« حكم قراءة الفاتحة في الصلاة »

فيه ثلاثة أقوال :

١ ــ تجب القراءة أي قراءة الفاتحة للإمام والمأموم والمنفرد لعموم الأحاديث الواردة في هذا الباب ١٥ [لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب] و ١٦ [من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج] أي غير تمام و ١٧ [لا تجزيءُ صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن] وهذا ما عليه الشافعي رحمه الله .

٢ ــ لاتجب على المأموم قراءةٌ بالكلية للفاتحة ولالغيرها لافي الصلاة الجهرية ولاالسرية ، لما رواه أحمد بن حنبل في مسنده عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ انه قال : ١٨

[من كان له ، امام فقراءة الإمام له قراءة] ولكن في سنده ضعف ورواه مالك عن وهب ابن كيسان عن جابر من كلامه . وقد روي هذا الحديث من طرق لا يصح شيء منها عن النبي ﷺ ، والله أعلم .

٣ إنه تجب القراءة على المأموم في السرية ،ولا يجب ذلك في الجهرية لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ ١٩ : [إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا ...] وذكر بقية الحديث ... وهكذا رواه أهل السنن أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال ٢٠ [وإذا قرأ فأنصتوا] وقد صححه مسلم بن الحجاج أيضاً فدلّ هذان الحديثان على صحة هذا القول وهو قول قديم للشافعي رحمه الله تعالى (١) .

(تفسير الاستعاذة واحكامها)

قال الله تعالى : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم. ﴾ وقوله تعالى : ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون.﴾ أي بربهم قالت طائفة : من القراء وغيرهم : يتعوذ بعد القراءة . واعتمدوا على ظاهر سياق الآية . ولدفع الإعجاب عن النفس بعد فراغ العبادة ، واستغرب ذلك أبو بكر بن العربي . وقيل قولٌ آخر : إن الاستعاذة تكون أول القراءة وبعدها. والمشهور الذي عليه الجمهور ، إنما الاستعاذة تكون قبل القراءة لدفع الموسوس عنها ،ومعنى الآية عندهم : ﴿فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ أي إذا أردت القراءة كقوله تعالى : ﴿إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم﴾ الآية : أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة والدليل على ذلك: الأحاديث عن رسول الله ﷺ . روى أحمد بن حنبل رحمه الله عن أبي سعيد الخدري قال ٢١ : [كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبّر قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدّك ولا إله غيرك» ثم يقول: «لا إله إلا الله (ثلاثا) » ثم يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطـان الرجيم ، من همزه (٢) ونفخه ونفثه] . وقد رواه أهل السنن الأربعة من رواية جعفر بن سليمان عن علي بن علي

---

(١) راجع الصفحة /١٩/ ففيها متعلق بالبحث ...
(٢) الهمزة : الموتة وهي الخنق . والنفخ : الكبر . النفث : الشعر .

الرفاعي اليشكري . وقال الترمذي:وهو أشهر شيءٍ في هذا الباب . وقال أبو حنيفة رحمه الله ومحمد : الاستعاذة إنما هي للتلاوة وقال أبو يوسف بل للصلاة .

ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللّغو والرفث وتطييب له . وهي لتلاوة كلام الله ، وهي استعاذة بالله ، واعتراف له بالقدرة ، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدوّ المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلاّ الله الذي خلقه ولا يقبل مصانعة ، ولا يدارَى بالإحسان بخلاف العدوّ من نوع الأنسان . ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذ منه بالذي يراه ، ولا يراه الشيطان . ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أي : استجير بجناب الله من الشيطان الرجيم ألاّ يضرّني في ديني أو دنياي أو يصدّني عن فعلٍ ما أمرت به ، أو يحثّني على فعل ما نهيت عنه ، فإن الشيطان لا يكفّه عن الإنسان إلاّ الله ، لذلك أمر الله بالاستعاذة به من الشيطان .

وجمهور العلماء : أن الاستعاذة مستحبّة ليست بمتحتّمةٍ يأثم تاركها . قال ابن سيرين : إذا تعوذ مرة واحدة في عمره ، فقد كفى في إسقاط الوجوب [١] وان رسول الله صلى الله عليه وسلم واظب عليها . وأنها تدرأ الشيطان وما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب . وأن الجهر بالاستعاذة أو الإسرار واحد قاله الشافعي — بالمعنى —

والشيطان مشتق من (شَطَنَ) إذا بَعُدَ . فهو بعيد بطبعه وبفسقه عن كل خير . والرجيم : أي أنه مرجوم أي مطرود من الخير كلّه . [٢]

« بسم الله الرحمن الرحيم »

روى أبو داود بإسنادٍ صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف فصل السورة حتّى ينزل عليه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾) واتفق العلماء على إنها بعض آيةٍ من سورة « النمل » ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كلّ سورة ، أم أنها في الفاتحة دون غيرها ، أو أنها للفصل بين السور والأرجح أنها للفصل بين السور ، كما سبق من قول ابنِ عباس الذي رواه أبو داود آنفا ومن قال أنها آية من

---

(١) و(٢) قلت : وحاصله : إذا قلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : أي التجيء الى الله واحتمي به من شر الشيطان المطرود من رحمة الله ومن كل خير من أن يضرني في ديني أو دنياي أو يصدني عن فعل ما أمرت به أو يحثني على فعل ما نهيت عنه فان الشيطان لا يكفه الا الله تعالى .

الفاتحة ، فقد رأى الجهرَ بها في الصلاة ، والذين لم يروا ذلك فقد أسرُّوا بها . ولكلّ من أصحاب القولين جماعةٌ من الصحابة رأوا ما رأوا... والذي ثبت عن الخلفاء الأربعة أنهم كانوا يُسرّون بالبسملة ، وكذلك طوائف من سلف التابعين والخلف وهو أيضا مذهب أبي حنيفة والثوري وابن حنبل وعند الإمام مالك : انه لا يقرأ البسملة لا جهراً ولا سراً وخلاصة القول: روي عن رسول الله ﷺ والأئمة أجمعوا على صحة من جهرَ ومن أسر .

ـ فضلهـــا ـ

روى الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم رحمه الله في تفسيره بسنده عن عثمان ابن عفان ٢٢ [سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فقال « هو اسم من أسماء الله وما بينه وبين الاسم الأكبر إلا كما بين سواد العينين وبياضهما من القرب »] .

وروى وكيع بسنده عن ابن مسعود قال : من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر فليقرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فيجعل الله له من كل حرف منها جُنّةً من كل واحد . ذكره ابن عطية والقرطبي ووجّهه ابن عطية ونصره بحديث ٢٣ : [لقد رأيت بضعاً وثلاثين ملكاً يبتدرونها لقول الرجل : ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه] من أجل أنها بضعة وثلاثون حرفاً .

ومن حديث بشر بن عمارة عن الضحاك عن ابن عباس قال: [إن أول ما نزل به جبريل على محمّد ﷺ قال ٢٤ (يا محمّد قل أستعيذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قال : قل : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾] وروى النسائي في اليوم والليلة وابن مردويه في تفسيره من حديث خالد الحذاء عن الهجيمي عن أبي مليح بن أسامة بن عمير عن أبيه قال ٢٥ : (كنت رديف النبيّ ﷺ عثر بالنبيّ ﷺ فقلت : تعس الشيطان فقال النبيّ ﷺ « لا تقل هكذا فإنه يتعاظم حتى يكون كالبيت ولكن قل : بسم الله فإنه يصغر حتى يكون كالذبابة»] فهذا من تأثير بركة بسم الله .

وتستحبُّ البسملة عند دخول الخلاء ، وعند أول الوضوء ، وعند الأكل وعند الذبيحة وبعضهم أوجبها عند الذبيحة ، وتستحب عند الجماع لما في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال ٢٦ : (لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن يقدّر بينهما ولد لم يضرّه الشيطان أبداً]

﴿ الله ﴾ علَمٌ على الربّ أي اسم للربّ تبارك وتعالى ، ويقال إنه الاسم الأعظم . لأنه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارىء المصوّر له الأسماء الحسنى يسبّح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ٢٧ (إن لله تسعة وتسعين إسماً مئة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة) [١] ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة . ﴿ الرحمن ﴾ أشد مبالغة من الرحيم . والرحمن مشتقٌ بخلاف من زعم أنه غير مشتق وسيأتي تفصيل ذلك في تفسير ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ عند تفسير سورة الفاتحة إن شاء الله تعالى وبه التوفيق وعليه التكلان .

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ١ ﴾

﴿ الحمد لله ﴾ الشكر له خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد من غير استحقاق منهم ذلك عليه . فلربّنا الحمد على ذلك أولاً وآخراً .

والألف واللام في الحمد ، لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى ؛ كما جاء في الحديث : ٢٨ [اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله ...] الحديث .

﴿ رب العالمين ﴾ الرب : هو المالك المتصرف . ولا يقال « الرب » معرّفاً بالألف واللام إلاّ لله تعالى . ولا يجوز استعمال كلمة الرب لغير الله إلا بالإضافة... فنقول: ربّ الدار ، وربّ السيف ، وأما الرب فلا يقال إلاّ لله عز وجل .

---

(١) قلت. : ومعنى أحصاها. : أي فهم معناها حق الفهم وعمل بحقها . وحقها أن يكون موحداً بها توحيد الذات وتوحيد الصفات وتوحيد الربوبية وتوحيد الألوهية من كل جوارحه . وفي قرارة نفسه ، ثم مات على ذلك من التوحيد الخالص دون أن يخل بأي معنى من معانيها . وله من العمل ما لا ينافيها لا قولا ولا اعتقاداً دخل الجنة . أما فهم معنى الإحصاء بالحفظ غيباً . ، فإن كثيراً من الناس من يحفظها ويغيبها عن ظهر قلب ويرددها بسرعة دون تفهم لمعانيها وله من العمل ما ينافيها فهذه المنافاة نقض للقول ....!! ومثل هذا ... لا يكون قد أحصاها إذ ليس المقصود من الإحصاء إلا الفهم والإخلاص لما فهم. ، والعمل بما فهم. ، على وجه مطابق لمراد الله تعالى. ، ولما بلغ رسول الله (ص) .

﴿ العالمين ﴾ جمع عالم . وهو كل موجود سوى الله جل وعلا والعالم جمع لا واحدَ له من لفظه . والعوالم أصناف المخلوقات في السموات والأرض في البر والبحر فالإنس عالم ، والجن عالم ، والملائكة عالم... وهكذا قال بشر بن عمارة بسنده عن ابن عباس: ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ الحمد لله الذي له الخلق كله في السموات والأرض وما فيهن وما بينهن مما نعلم ومّما لا نعلم .

(الرحمن الرحيم) ٢

﴿ الرحمن الرحيم ﴾ إسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ، والرحمّن أشدّ مبالغةً من الرحيم . والرحمّن مشتق بخلاف من قال وزعم أنه غير مشتقّ ودليل ذلك ما أخرجه الترمذي وصحّحه عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ٢٩ : [قال الله تعالى : أنا الرحمّن خلقتُ الرحِمَ وشققت لها اسماً من اسمي **فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته]** قال هذا نص في **الاشتقاق** فلا معنى للمخالفة والشقاق .

روى ابن جرير بسنده عن العزرمي يقول : ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال الرحمن لجميع الخلق (١) الرحيم قال بالمؤمنين . قالوا ولهذا قال ﴿ثم استوى على العرش الرحمن﴾ وقال : ﴿الرحمّن على العرش استوى﴾ فذكر الاستواء باسمه الرحمن ، ليعم جميع خلقه برحمته. وقال : ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ فخصّهم باسمه الرحيم . قالوا : فدلَّ على أن الرحمن أشدُّ مبالغةً في الرحمة لعمومها في الدارَيْن (٢) .

---

(١) قلت. : (الرحمن) أي يرحم أهل الدنيا والآخرة و (الرحيم) خاص بالمؤمنين يوم القيامة . إن الله يرحم المؤمنين والكافرين في الدنيا على السواء وذلك من نواحي أمورهم المعاشية. ، وأسباب حياتهم. ، ومما يكفل لهم حياتهم الدنيا . فرحمته هنا عامة وإذا لم تكن الرحمة هذه عامة. ، لا تتكامل أسباب التكليف من الإنعام عليهم بنعمة العقل الذي بواسطته يعرفون الحق من الباطل ، ونعمة تسخير ما في الكون ليستفيد منها أهل الأرض من الإنس والجن ««هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً»» فتكامل أسباب التكليف في الدنيا سيكون عليه في الآخرة مدار الحساب .

(٢) قلت. : وأما ما جاء في الدعاء المأثور. :. ٣٠ (يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها) . فقوله رحيمها محمول على معنى أنه يرحم المؤمنين في الدنيا فيما أطاعوه من الإيمان به ، وتنفيذ أوامره. ، واجتناب نواهيه وتسهيل سبل ذلك لهم . ويرحمهم في الآخرة بإدخالهم الجنةجزاء ما أسلفوا من إيمان وطاعة. ؛ فطاعتهم له في الدنيا رحمة منه تعالى. ، وجزاؤهم بالجنة ، رحمة منه تعالى وهذا معنى قوله. : ورحيمهما والله أعلم .

وقال القرطبي : إنما وصف نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله ربّ العالمين ، ليكون من باب الترغيب بعد الترهيب . فالرحمن الرحيم فيه ترغيب جاء من بعد«رب العالمين» الذي فيه ترهيب وذلك مطابقةً للآية : ﴿نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم .﴾ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٣١ [لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد] ﴿الرحمن﴾ اسم ليس للناس أن ينتحلوه ، ولا يجوز أن يسمى أحد من الناس به . فهو خاص به تعالى ، ولمّا تجهرم مسيلمةُ الكذاب ، وتسمَّى بـ/ رحمن اليمامة / كساه الله جلباب الكذب وشهّر به ، فلا يقال إلاّ : (مسيلمةُ الكذّاب) وصار يضرَب به المثل بين أهل الحضر والبادية فيقال : (أكذب من مسيلمة) .

﴿ مٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ٣﴾

قرأ بعض القراء : ﴿مَلِكِ يوم الدين﴾ وقرأ آخرون ﴿مالِك﴾ وكلا القراءتين صحيح متواتر في السبع . ويقال ﴿ مِلْك ﴾ بكسر اللام وإسكانها . وليس تخصيص المُلْك بيوم الدين خاصاً بيوم الدين من غير الدنيا ، فهو مالك يومَيْ الدنيا والدين لأنه تقدّمَ الإخبار بأنه رب العالمين . وذلك عامّ في الدنيا والآخرة ؛ إنما أضيف إلى يوم الدين لأنّه لا يدّعي هنالك أحد شيئاً غيره ولا يتكلم أحد إلاّ بإذنه كما قال تعالى : ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلاّ من أذن له الرحمن وقال صوابا﴾ وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿مالك يوم الدين﴾ يقول لا يملك من أحد في ذلك اليوم كملكهم في الدنيا أن يقول أحد ــ تجوزاً ــ هذا ملكي ... هذا مالي . . أما هناك أي في يوم القيامة ليس لأحد ملك ولا مال .

﴿يوم الدين﴾ يوم الحساب للخلائق ، وهو يوم القيامة ، يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ . إلاّ من عفا عنه . أللهم إنك عفوٌّ تحب العفو فاعفُ عنا .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾٤

﴿إيّاك﴾ مفعول قدّم للحصر ، ليحصر مراد المتكلم فيما يريد أن يفصح عنه ، ﴿إياك نعبد﴾ أي لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك وهذا هو كمال الطاعة . والعبادة في اللغة من الذلة ، يقال طريق معبّد ، وبعير معبّد ، أي مذلّل . وفي الشرع عبارة عما

يجمع كمال المحبّة والخضوع والخوف. قال بعض السلف : الفاتحة سر القرآن وسرها ـ أي سر الفاتحة ـ هذه الكلمة: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فالأول أي: ﴿إياك نعبد﴾ تبرؤٌ من الشرك . والثاني أي ﴿وإياك نستعين﴾ تبرؤٌ من الحول والطول والقوة . والتفويض إلى الله عز وجل .

وفي هذه الآية : تحوَّلَ الكلامُ من صيغة الغائب إلى صيغة المخاطب بكاف الخطاب بقوله ﴿إيّاك﴾ وذلك مناسب ، لأن العبد لما حمد الله وأثنى عليه ومجّده وتبرأ من عبادة غيره ، ومن الاستعانة بسواه فكأنه اقترب من الله عز وجل ، وأصبح حاضراً بين يديه تعالى، فناسب أن يخاطبه بكاف الخطاب بقوله : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿إياك نعبد﴾ يعني إياك نوحّد ونخاف ونرجو يا ربنا لا غيرك ﴿وإياك نستعين﴾ أي على طاعتك ، وعلى أمورنا كلها وإنما قدم (إياك نعبد) على (وإياك نستعين) ، لأن العبادة هي الغاية ، والاستعانة هي الوسيلة إليها .

(اهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٥)

لما تقدّم الثناء على المسؤول تبارك وتعالى ناسب أن يعقب بالسؤال كما قال :

٣٢ [فنصفها لعبدي ولعبدي ما سأل] وهذا أكمل أحوال السائل أن يمدح مسؤوله ثم يسأل حاجته، وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله : ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ وفي هذا دليل على الحضّ على التوسّل بالصفات العلى وبالأعمال الصالحة ، فقد حمد الله وأثنى عليه ومجّده بصفاته، رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، ثم افرده بالعبادة والاستعانة . فبعد أن قدم بين يدي ربه هذه الأعمال الصالحة تقدم منه سائلاً حاجته وهي أن يهديه وإخوانه المؤمنين صراطه المستقيم الذي هو الإسلام الصحيح الخالي من الزيادة والنقصان ، النقي من كل بدعة وخرافة، هذا الصراط الذي هو أقرب الطرق للوصول إلى ما يحب الله ويرضى طبق ما أمر ، وبلغ رسوله ﷺ. وإذا أمعن المسلم في آيـــات القرآن فإنه يرى جميع آيات الدعاء ، لا بد أن يسبقها توسل إليه تعالى ، إمّا بذات الله ، أو بأسمائه الحسنى ، أو صفاته العلى، أو بالأعمال الصالحة التي يتقرب بها إلى ربّه، أو أن يتوسل إليه بدعاء إخوانه المؤمنين له أو بدعائه لهم .

قال الله تعالى : على لسان ذي النون عليه السلام ﴿ لا إلّه إلاّ أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ فإن ذا النون لما ابتلعه الحوت لم يجد من التوسل إلى الله أقرب من توحيده تعالى

وتنزيهه ، والإقرار والاعتراف بذنبه الذي ظلم به نفسه . فهذا الإقرار بالذنب ، والمصحوب بالندامة على ما فرط هو بمثابة التوبة إليه تعالى ، والتوبة ولا شك من أمّهات الأعمال الصالحة التي يتقبلها الله وسيلةً اليه للمغفرة . وشواهد القرآن كثيرة من هذا القبيل ومن ذلك قوله تعالى على لسان أبوينا آدم وحواء : لما اقترفا الخطيئة ﴿قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ وتلك هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتاب عليه . وكذلك قوله تعالى:﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا ﴾ ولا شك أن الايمان بالله ورسول الله ﷺ رأس الأعمال الصالحة فبعد أن قدموا بين يدي الله من هذا العمل الصالح وهو الإيمان به ﷺ بادروا الى ذكر حاجتهم بطلب الغفران فقالوا : ﴿ ... ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئآتنا وتوفّنا مع الأبرار ﴾ وهذا تعليم منه تعالى كيف نتوسل إليه ... [1]

﴿ صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ٦ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧

﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ مفسِّرٌ للصراط المستقيم . والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء حيث قال الله تعالى ﴿ومن يُطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ✽ ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما﴾ وقال الضحاك عن ابن عباس : صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من ملائكتك وأنبيائك والصديقين والشهداء والصالحين وذلك نظير ما قال ربُنا تعالى ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ . وقوله تعالى : ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ أي غير صراط المغضوب عليهم . المغضوب عليهم وهم الذين فسدت إرادتهم فعلموا الحق وعدلوا عنه.وغير صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم هائمون في الضلالة ، لا يهتدون إلى الحق وأكد الكلام بـ﴿لا﴾ ليدل أن ثَمَّ مسلكَيْن فاسدين وهما : طريقة اليهود وطريقة النصارى .

وإن طريقة أهل الإيمان مشتملةٌ على العلم بالحق والعمل به واليهود فقدوا العمل والنصارى فقدوا العلم ، ولهذا كان الغضب لليهود ، والضلال للنصارى . لأن من علم وترك استحق الغضب بخلاف من لم يعلم . والنصارى كما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إليه لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه وهو اتباع الحق ... ضلّوا ... وكل من اليهود والنصارى ضالٌّ مغضوب عليه . لكن أخص أوصاف اليهود الغضب كما قال تعالى عنهم ﴿من لعنه الله وغضب عليه﴾ وأخص أوصاف النصارى الضلال كما قال تعالى : ﴿قد ضلوا من قبل

(١) راجع كتابنا : (التوصل إلى حقيقة التوسل)

وأضلّوا كثيراً وضلّوا عن سواء السبيل﴾ روى حماد بن سلمة عن عدي بن حاتم قال : ٣٣ [سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿غير المغضوب عليهم﴾ قال : اليهود ﴿ولا الضالين﴾ قال النصارى هم الضالون .] وهكذا رواه سفيان بن عيينة بسنده عن عدي ابن حاتم . وروى ابن مردويه عن أبي ذر قال : ٣٤ [سألت رسول الله ﷺ عن ﴿المغضوب عليهم﴾ قال : اليهود . قلت و ﴿الضالين﴾ قال : النصارى .]

والخلاصة :

قد اشتملت هذه السورة الكريمة ـ وهي سبع آيات ـ على حمد الله ، وتمجيده ، والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنى المستلزمة لصفاته العلىٰ وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين وعلى إرشاد عباده إلى سؤآله والتضرع إليه، والتبرُّىء من حولهم وقوتهم وإلى اخلاص العبادة له وتوحيده توحيد الألوهية تبارك وتعالى ، وتنزيهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل . وإلى سؤالهم إياه الهداية إلى الصراط المستقيم وهو الدين القويم وتثبيتهم عليه حتى يقضي لهم بذلك إلى جواز الصراط الحسي يوم القيامة، المفضي إلى جنات النعيم في جوار النبيّين والصديقين والشهداء والصالحين ، واشتملت على الترغيب في الاعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيامة ، وعلى الترهيب والتحذير من مسالك الباطل لئلا يحشروا مع سالكيها يوم القيامة وهم المغضوب عليهم والضالون .

وما أحسن ما جاء في إسناد الإنعام إليه سبحانه في قوله تعالى : ﴿صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم﴾ وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى ﴿غير المغضوب عليهم﴾ وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة . كما قال تعالى : ﴿من يهدِ الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ وقال : ﴿ومن يضلل فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المتفرد بالهداية والإضلال . لا كما تقول الفرقة القدرية ومن حذا حذوهم : إن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه ويحتجون على بدعتهم بمتشابه من القرآن ويتركون ما يكون فيه صريحاً في الرد عليهم وهذا حال أهل الضلال والغي ، وقد ورد في الحديث الصحيح ٣٥ [إذا رأيتم الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله فاحذروهم]يعني الذين وصفهم الله في قوله تعالى : ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾ فليس بحمد الله لمبتدعٍ في القرآن حجة. لأن القرآن جاء ليفصل الحق من الباطل، مفرقاً بين الهدى والضلال،

وليس فيه تناقض ولا اختلاف ، لأنه من عند الله تنزيل من حكيم حميد .[(١)]

ويستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها : آمين ، ومعناه : اللهم استجب . والصحيح : أنه يستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة ؛ ويتأكد في حق المصلي سواءٌ كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً وفي جميع الأحوال . لما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : ٣٦ (إذا أمّن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفرله ما تقدم من ذنبه) ولمسلم : أن رسول الله ﷺ قال: ٣٧ (اذا قال أحدكم في الصلاة آمين والملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه) . وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ ٣٨ (أعطيت « آمين » في الصلاة وعند الدعاء لم يُعطَ أحد قبلي إلاّ أن يكون موسى ، كان موسى يدعو وهارون يؤمن فاختموا الدعاء بـ « آمين » فإن الله يستجيبه لكم .]

ومن هنا نزع بعضهم في الدلالة بهذه الآية الكريمة وهي قوله :

﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينةً وأموالاً في الحياة الدنيا ربّنا ليضلّوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ٭ قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾

---

(١) قلت : لا شك ولا ريب أن الهداية والإضلال من الله تعالى . ولكن ليس هناك من شيء إلا وله سبب . فلما كان العناد والكفر حاصلين من قبل المشركين والكفار بعد بيان الحجة وقيامها عليهم ... كان من المناسب أن يعاقبهم الله على عنادهم وكفرهم من جنس العمل ، فعاقبهم بأن مدهم في الضلال كما في قوله تعالى : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » وقوله سبحانه « وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » فكان جزاء وفاقاً .

أما المؤمنون فإنهم لما أصغوا إلى الحق وأخلصوا النية بالفهم والتعقل وآمنوا كان من المناسب أن يكافئهم من جنس العمل فيسر لهم طريق الهداية ومدهم بزيادة من الفهم والعقل والإيمان ... كما في قوله تعالى : « وأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى » فكان ذلك جزاء وفاقاً .

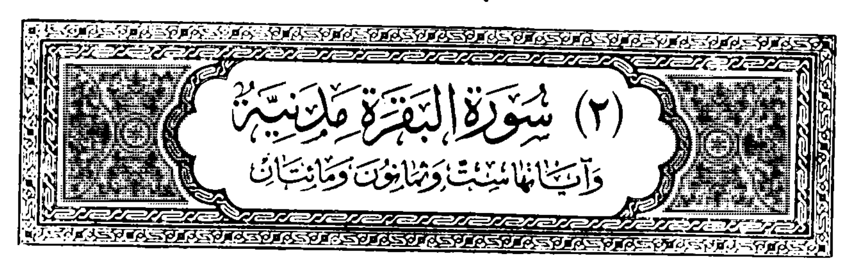
ومما هو معلوم أن الهداية والإضلال من الله خلق . فهو الذي هدى المؤمنين بسبب استجابتهم للإيمان ، وأضل الكافرين بسبب عنادهم وإعراضهم ، فكان كما قلنا جزاء وفاقاً وهذا هو الذي رمى اليه المؤلف « ابن كثير » رحمه الله بقوله : (لا كما تقول الفرقة القدرية ومن حذا حذوهم أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلونه) أي الضلال والهدى لأن الهادي والمضل هو الله تعالى ولكن العباد يهيئون الأسباب وهذه الأسباب هي التفهم والعمل من المؤمنين ، والعناد والاعراض من الكافرين ، وهذه أفعال اختيارية محضة والاختيار عليه مدار الثواب والعقاب أما الهداية نفسها ، والإضلال نفسه ، فهما قطعاً من الله تعالى ولو أن الهداية من نفس المؤمن ومختار فيها ... لما طلبها منه تعالى بقوله : «« اهدنا الصراط المستقيم »» وقوله «« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ... »» والله سبحانه وتعالى أعلم وهو الموفق للصواب .

فذكر الدعاء عن موسى وحده ومن سياق الكلام ما يدل على أن هارون أمّن فنزل منزلة من دعا، لقوله تعالى: ﴿قد أجيبت دعوتكما﴾ فدل ذلك على أن من أمّن على دعاء فكأنما قاله . فلهذا قال من قال أن المأموم لا يقرأ لأن تأمينه على قراءة الفاتحة بمنزلة قراءتها . فدل هذا المنزع ايضاً على ان المأموم لا قراءة عليه في الجهرية والله أعلم . [1]

---

(١) قلت. : وهذا هو الحق الموافق لما جاء في القرآن من قوله تعالى. : «وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون » فالاستماع والانصات أمر من الله تعالى حتى نرحم . فإذا استمعنا وأنصتنا تفرغ القلب للفهم. ، وإذا فهمنا مراده تعالى ، عملنا بمقتضاه ، فيرحمنا الله جزاء ما عملنا بما فهمنا . أما إذا قرأ الإمام جهراً ونحن قرأنا معه فلا نستطيع في آن واحد فهم ما نقرأ وفهم ما نسمع. ، وإذا لم يحصل الفهم لا يحصل العمل. ، وإذا لم يحصل العمل فلا نرحم . وكذلك فإنه موافق لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ٣٩. : (إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا قرأ فأنصتوا ...) الحديث . هذا في الصلاة الجهرية أما في الصلاة السرية فتجب قراءة الفاتحة وراء الإمام وها هنا يأتي دور الحديث. ٤٠ (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب) والله تعالى أعلم

بسم الله الرحمن الرحيم



وهي أول سورة نزلت في المدينة بعد سورة المطففين التي نزلت آخر سورة في مكة قبل الهجرة.

فضلها :

روى أحمد ومسلم والترمذي والنسائي من حديث سهل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ٤١ [لا تجعلوا بيوتكم قبوراً فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله شيطان] وقال الترمذي حديث حسن صحيح .

وروى الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث عبد الحميد بن جعفر بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ٤٢ : [بعث رسول الله ﷺ بعثاً وهم ذوو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كلّ واحد منهم ما معه من القرآن فأتى على رجل من أحدثهم سناً فقال: «ما معك يا فلان فقال معي كذا وكذا وسورة البقرة فقال « أمعك سورة البقرة ؟ » قال.: نعم ، قال: « إذهب فأنت أميرهم » فقال رجل من أشرافهم والله ما منعني أن أتعلم سورة البقرة إلاّ أني خشيت أن لا أقوم بها فقال رسول الله ﷺ: «تعلموا القرآن واقرءوه فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به ، كمثل جراب محشو مسكاً يفوح ريحه في كل مكان ، ومثل من تعلّمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب أوكي على مسك] . حديث حسن . وروى البخاري عن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال ٤٣ : [بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس. فسكت، فسكنت . فقرأ فجالت الفرس، فسكت فسكنت. ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف وكان ابنه يحيى قريباً منها ، فأشفق أن تصيبه ، فلما أخذهُ رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها فلما أصبح حدّث النبيَّ ﷺ فقال : « إقرأ يا ابن حضير » قال قد أشفقت يا رسول الله على يحيى ، وكان منها قريباً، فرفعت رأسي وانصرفت إليه فرفعت رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح ، فخرجت حتى لا أراها قال « وتدري ما ذاك » قال لا ، قال « تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم »] قال بعض العلماء إنها — أي سورة البقرة — مشتملة على ألف خبر وألف أمر وألف نهي .

ما ورد في فضل سورة البقرة مع سورة آل عمران :

ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قرأ بسورتي البقرة وآل عمران في ركعة واحدة . روى الإمام أحمد عن أبي أمامة قال : ٤٤ [سمعت رسول الله ﷺ يقول : [اقرأوا القرآن فانه شافع لأهله يوم القيامة إقرأوا الزهراوين : البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف ، يحاجان عن أهلهما يوم القيامة » ثم قال : « أقرأوا البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة] وقد رواه مسلم . الزهراوان ـ المنيرتان . والغياية ـ ما أظلك من فوقك . والفرق ـ القطعة من الشيء . والصواف ـ المصطفة المتضامة . والبطلة ـ السحرة .

ومعنى لا تستطيعها أي لا يمكنهم حفظها ، وقيل لا تستطيع النفوذ في قارئها والله أعلم .

نزولها :

سورة البقرة : جميعها نزلت في المدينة . وهي أول ما نزل من السور فيها لكن قوله فيها : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ... الآية ﴾ يقال إنها آخر ما نزل من القرآن ، وكذلك آيات الربا من آخر ما نزل .

قال ابن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وزيد بن ثابت : نزلت بالمدينة سورة البقرة وهكذا قال غير واحد من الأئمة والعلماء والمفسرين ولا خلاف فيه .

(بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ الٓمٓ) ١

التفسير :

﴿ آلم ﴾ وجميع فواتح السور اختلف المفسرون في تفسيرها .

١ ـ : فمن قائل : هي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه بها والله أعلم بمراده منها.

٢ ـ : ومن قائل أنها أسماء الله تعالى .

٣ ـ : ومن قائل إنّ لها معاني ، ولم ينزلها الله عبثاً ولا سدى بخلاف من قال من الجهلة إن في القرآن ما هو تعبّد لا معنى له بالكليّة ، فقد أخطأ خطأ كبيرا . وعليه فإن فواتح السور لها معنى ولا شك . فإن صحّ لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به ، وإلاّ وقفنا

حيث وقفنا وقلنا: ﴿آمنا به كل من عند ربنا﴾ أما الحكمة من إيراد هذه الحروف، فقد قال بعضهم :

٤ – : لتنبيه المشركين حتى يسمعوا كلام الله.وهذا ضعيف جداً لعدم وجود الأحرف المقطعة في كل السور.ثم إن هذه السورة سورة البقرة والتي تليها «آل عمران» نزلتا في المدينة وليس فيها مشركون [1] .

٥ – ومن قائل أن فيها بياناً لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته وإلى هذا ذهب كثير من المحققين،منهم شيخ الإسلام ابن تيمية ودليل ذلك أن جميع الأحرف المقطعة الواردة في القرآن،يأتي بعدها ذكر القرآن وتنزيله عن رب العالمين . مثال ذلك ﴿ الم . ذلك الكتاب ﴾ . ﴿حم ... والكتاب المبين ﴾ ، ﴿آلم . الله لا إله إلا هو الحي القيوم . نزّل عليك الكتاب ﴾ ﴿ الر . كتاب أنزلناه اليك ... ﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢ ﴾

﴿ذلك﴾ معناه : هذا . وكثير مثل ذلك في لغة العرب. والقرآن الذي هو الموئل الوحيد للغة العرب أتى بهذا الأسلوب . قال تعالى :

﴿لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك﴾ وقال تعالى : ﴿ذلكم حكم الله يحكم بينكم﴾ وقال تعالى ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ .

﴿ الكتاب ﴾ فسّر بالتوراة والإنجيل ، وهذا بعيد جداً وتكلّف ما لا علم لهم به . والحق أنه القرآن .

﴿ لا ريب فيه ﴾ أي لا شك فيه . ومنهم من قرأ : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب ﴾ فوقف.ثم قرأ : ﴿ فيه هدى للمتقين ﴾ ولكن الوقوف على ﴿ لا ريب فيه ﴾ ثم متابعة قراءة : ﴿ هدى للمتقين ﴾ أولى ؛ باعتبار أن الهدى صفة له جميعاً وذلك أبلغ من كون :فيه هدى ... أي فيه هدى وفيه غير ذلك .

﴿ هدى للمتقين ﴾ أي نوراً للمتقين أي المؤمنين الذين يتقون الشرك بالله ويوحدونه

---

(١) قلت : ومما يزيد في ضعف هذا القول ... أن الاحتجاج بما في القرآن قد يكون في وسط السورة أو آخرها حسب المناسبة والاستشهاد، وهناك ليس من أحرف مقطعة أيضاً حتى يقرأها لينبه بها المشركين إلى ما سيقول من الحق .

ويعملون بطاعته ، ويخافون عذابه ، ويرجون رحمته ، ويتقون حرماته . وهذا موافق للمعنى في الآية التي بعدها ، والتي فيها صفات المؤمنين المتقين الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ .

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ٣ ﴾

« الإيمان » هو التصديق قولاً وعملاً واعتقاداً . يزيد بالطاعات ، وينقص بالعصيان . والإيمان بالوصف المتقدم ، يولّد الخشية لله تعالى ، فلا يعمل المؤمن ذو الخشية من الله أعمالاً أو يعتقد عقائد ، أو يقول قولاً يخالف أمر الله .

والإيمان ﴿ بالغيب ﴾ هو إيمانك بالشيء دون أن تراه. وإيمانك هو تصديق، بل شدّة تصديق للذي بلّغك . والإيمان بالغيب في مفهوم الشرع : هو الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره وبالبعث بعد الموت وبالجنة والنار ، فهذا غيب كله.

﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ الصلاة في الأصل الدعاء ثم استعملت في الشرع في العبادة ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة ، في الأوقات المخصوصة بشروطها المعروفة ، وصفاتها وأنواعها المشهورة التي فرضها الله على عباده خمس مرات في اليوم والليلة وهي الركن الثاني من أركان الإسلام .

وإقامتها : أي المحافظة عليها في مواقيتها ، وإسباغ الطهور فيها وإتمام قيامها وركوعها واعتدالها وسجودها وتلاوة القرآن فيها ، والتشهد والصلاة على النبيّ ﷺ فهذه إقامتها .

﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣ ﴾

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ كانت النفقة ، نفقة الرجل على أهله قبل أن تنزل الزكاة. والمراد هنا النفقة من الصدقة والزكاة. وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك ثم الأجانب . والنفقة تكون ولا شك لوجه الله وطاعة له . لا طمعاً في ثواب أحد من المخلوقين أو خوفاً من عقابهم ... إنما طمعاً في ثواب الله ورضاه ، وخوفاً من سخطه وعقابه وحده لا شريك له وكل نفقة ـ نفلاً كانت أو فرضاً ـ داخلة في قوله تعالى ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ ولهذا ثبت في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : ٤٥ [بُني الإسلام على خمس . شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت] . وسيأتي الكلام مفصلاً عن الزكاة إن شاء الله .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ ﴾

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٥ ﴾

﴿ والذين يؤمنون بما أنزل إليك ﴾ أي الذين يصدّقون بهذا القرآن الذي أنزل إليك من ربك .

﴿ وما أنزل من قبلك ﴾ أي يصدقون بما جاء به الرسل من قبلك من التوراة والإنجيل والزبور والصحف الأخرى ولا يفرّقون بين الرسل ولا يجحدون ما جاءوهُم به من ربّهم . ﴿ وبالآخرة هم يوقنون ﴾ اليقين ضد الشك لا يخامرهم أدنى شك بالآخرة أي البعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان . والآخرة إنما سمّيت آخرة لأنها بعد الدنيا .

وهؤلاء هم المؤمنون عامة من العرب وأهل الكتاب الذين آمنوا بالرسول ﷺ وكل من آمن به وصدقه من الإنس والجن وكان متحققا بمعنى ما سبق من أوصاف المؤمنين في الآيات المتقدمة إلى يوم القيامة ، أولئك ﴿على هدى من ربّهم﴾ أي على نورٍ وبيانٍ وبصيرةٍ من الله تعالى ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ أي الناجحون بما طلبوا من الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله من الفوز بالثواب والخلود في الجنات ، والنجاة مما أعدّ الله لأعدائه من العقاب والعذاب .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٦ ﴾

﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي الذين غطوا الحق وستروه ، وكفروا بما أنزل على محمّد ﷺ علم الله منهم أنهم سيكفرون عندما تأتيهم الآيات ، فقدّر ذلك عليهم وكتبه ، فهؤلاء لن يؤمنوا ، فسواء عليهم أأنذرتهم يا محمّد أم لم تنذرهم فإنّهم استحبوا الكفر على الإيمان وجحدوا ما آتاهم الرسول من البينات عن ربه . وكأن هذه الآية تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وتعزيةً له . لأنه كان يحرص على أن يؤمن الناس جميعهم ويتابعوه على الهدى فأخبره تعالى أنه لا يؤمن إلاّ من سبق علم الله بهم أنهم سيؤمنون بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وسبقت لهم من الله السعادة والحسنى ولا يضل إلا من علم الله منهم أنهم سيكفرون، وسبقت لهم من الله الشقاوة والعياذ بالله تعالى. فلا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ وبلّغهم الرسالة ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب . إنما أنت نذير والله على كل شيءٍ وكيل ﴾ .

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٧ ﴾

قال قتادة في هذه الآية : إستحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة فهم لا يبصرون ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون . يؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ وقوله ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ وشبيه ذلك في القرآن كثير ... وفيه دلالة على أن الله تعالى ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاءً وفاقاً ، على تماديهم بالباطل وتركهم الحق ، وهذا عدل منه تعالى .

وفي الحديث : ٤٦ [يا مقلّب القلوب ثبت قلوبنا على دينك] وروى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٧ [إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه . فإن تاب ونزع واستعتب ، صقل قلبُه وإن زاد زادت حتّى تعلو قلبه ، فذلك الرّان الذي قال الله تعالى : ﴿ كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾] وهكذا فقد ذكر الله تعالى في الآيات الأولى : حال المؤمنين ، ثم ذكر في هاتين الآيتين حال الكافرين ، ثم شرع تعالى في بيان حال المنافقين ، الذين يظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر ، ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس،أطنب الله في ذكرهم بصفاتٍ متعدّدة كلٌّ منها نفاق . قال الله تعالى :

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٩ ﴾

« النفاق » هو إظهار الخير وإسرار الشر . وهو نوعان :

إعتقادي : وهو الذي يخلّد صاحبه في النار أبداً

وعملي : وهو من أكبر الذنوب ، وقد نزلت صفات المنافقين في السُّوَر المدنية ، لأن مكة لم يكن فيها نفاق ، بل كان خلافه ؛ فمن الناس من كان يظهر الكفر مستكرهاً وهو في الباطن مؤمن ، فلما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة ، وكان فيها الأنصار من الأوس والخزرج ، وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب ؛ وفيها

اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم وكانوا ثلاث قبائل :

١ – بنو قينقاع ، وكانوا حلفاء الخزرج ، ٢ – وبنو النضير . ٣ – وبنو قريظة حلفاء الأوس فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، أسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج ، وقلّ من أسلم من اليهود مثل « عبدالله بن سلام » رضي الله عنه ولم يكن يومذاك نفاقٌ أيضاً ، لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تُخاف ، بل كان النبي عليه الصلاة والسلام وادع اليهود، وقبائل كثيرة من أحياء العرب حول المدينة. فلما كانت وقعة بدر العظمى ، وأظهر الله كلمته وأعز الإسلام وأهله ؛ قال عبد الله بنُ أبيّ بنُ سلول –وكان رأساً في المدينة– وهو من الخزرج . وكان سيد الطائفتين في الجاهلية . وكانوا قد عزموا على أن يُملّكوه عليهم فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه ، فبقي في نفسه من الإسلام وأهله ، فلما كانت وقعة بدر قال : هذا أمر قد توجه فأظهر الدخول في الإسلام ، ودخل وطوائف ممن هم على طريقته ونحلته . وآخرون من أهل الكتاب ، فمن ثم وجد النفاق في أهـــل المدينه ومَن حولها من الأعراب فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد منافقاً لأنهم لم يهاجروا مكرَهين من قومهم بل يهاجر الواحد منهم مختاراً ويترك ماله ، وولدَه ، وأرضَه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة .

إذن فالمنافقون هم من قبيلتي الأوس والخزرج واليهود . ولذا فقد نبّه الله سبحانه على المنافقين لئلا يغترَّ المؤمنون بظاهر أمرهم ، ويقع فساد عريض من اعتقاد إيمانهم وهم في الحقيقة كفار .

ولهذا فمن المحذور أن يُظنَّ جزماً بأهل الفُجور خيرٌ فقال تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنّك لرسوله ﴾ أي إنما يقولون ذلك بأفواههم وقد كذبهم الله في آخر الآية ، فقال ﴿ والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون ﴾ وبقوله ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾ وقوله تعالى ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ أي يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بقولهم : ﴿ آمنا ﴾ ظانّين أنّ ذلك نافعُهم عنده ... وأنه يُرَوَّج عليه كما قد يُرَوَّج على بعض المؤمنين كما قال تعالى: ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيءٍ ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿ وما يخدعون إلا أنفسَهم وما يشعرون ﴾ أي إذا كان خِداعاً للمؤمنين في عاجل الدنيا فهو لنفسه بذلك خادع . لأنه يظهر لها بفعله ذلك بها ، أنه يعطيها أمنيّتها ، ويَسقيها كأس سرورها وهو موردُها حياضَ عطبِها ، ومجرّعُها كأسَ عذابها، وموقعها في غضب الله وأليم عقابه ما لا

قبل لهابه ، فذلك خديعة المنافق نفسَه ، ظناً منه أنه محسن إليها كما قال تعالى : ﴿ وما يخدعون إلاّ أنفسهم وما يشعرون ﴾ .

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ١٠ ﴾

﴿ في قلوبهم مرض ﴾ قيل شك وقيل رياء ، وقيل رجس ، والصحيح جميعها . أي أن المرض الذي في قلوب المنافقين هو شك ورياء ورجس . إنه شك ، لأنهم شاكون في رسالته ﷺ ، ورياء ، لأنهم يُظهرون الإيمان وهم كافرون . ورجس لأنهم كافرون بما أنزل الله على محمد ﷺ . والكفر ولا شك رجس ﴿ فزادهم الله مرضاً ﴾ أي شكاً ورياءً ورجساً . وهكذا فالجزاء من نوع العمل ، وذلك كقوله تعالى: ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ۝ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ وقوله : ﴿ بما كانوا يكذبون ﴾ أي يكذبون على الله والمؤمنين بمخادعتهم. وقولهم : ﴿ آمنا ﴾ وما هم بمؤمنين ، وقد أعلم الله رسوله قسماً من المنافقين واستأثر بمعرفته بالباقين، فلم يُعْلِمْه بهم ؛ فقد قال تعالى : ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ وقد يقول قائل : لمَ لم يقتل رسولُ الله المنافقين مع علمه بقسم منهم ؟ فجواب ذلك ما ورد في الصحيحين أنه ﷺ قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : ٤٨ [أكره أن تتحدث العرب أن محمّداً يقتل أصحابه] ومعنى هذا خشية أن يقع تغيير لكثير من الأعراب عن دخول الإسلام فإن العرب لا يعلمون نفاق هؤلاء ، فيظنون أنه يقتلهم رغم إيمانهم به ، فيقولون : محمّدٌ يقتل اصحابه . : وقال مالك : « إنما كفَّ رسول الله ﷺ عن المنافقين ليبيِّن لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه [1] » .

وقال الشافعي : انما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرون من الإسلام مع العلم بنفاقهم لأن ما يظهرونه يَجُبُّ ما قبله يؤيد ذلك حديث : ٤٩ (امرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله فإذا قالوها [2] ..] الحديث ... هذا متعلق بشأن

---

(١) قلت في هذا الكلام نظر ... لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ينعاق عن الهوى. ، بخلاف الحاكم الذي هو غير نبي فلا يوحَى إليه ولماذا نعدل عن جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم. : (أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه) ؟ أما أن الحاكم لا يحكم بعلمه فهذا بحق غير الأنبياء الذين إذا أتاهم العلم إنما يأتيهم من الله ، وأمر الله يجب تنفيذه .

(٢) قلت. : إن من طبع المنافق أن يقول (لا إلّه إلاّ الله) إنما يجحدها قلبُه. ، ولو أن الله أمره بقتلهم ، لما توقف رسول الله عن قتلهم من أجل أنهم يقولون. : (لا إلّه إلا الله) ما دام قد ثبت منهم نقضها . ، وثبت كفرهم ونفاقهم . ولماذا نعدل عن قوله صلى الله عليه وسلم. : (أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه) .؟

من يعلم أعيانهم وأسماءهم وأن الذين لم يعلم الله رسوله بنفاقهم فقد قال فيهم سبحانه وتعالى : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينّك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلاّ قليلاً ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتّلوا تقتيلاً . ﴾ ففيها دليل على أنه لم يُغْرَبهم ولم يُدرك أعيانهم وإنما كان تُذكَر له صفاتهم فيتوسّمها في بعضهم كما قال تعالى : ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنّهم في لحن القول ﴾

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ١٢ ﴾

الفساد هنا : هو الكفر والنفاق والمعصية فقوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض ﴾ أي بالكفر والنفاق والمعصية في الأرض ، لأن من عصى الله أو أمر بمعصية فقد أفسد في الأرض ، لأن الصلاح إنما يكون بالطاعة . والمنافقون ظنوا أنهم بدعواهم بالإيمان يخدعون المؤمنين ، ولكن الله فضح أمرهم ، كيلا يغترّ بهم المؤمنون ، فيتّخذوهم أولياء من دون المؤمنين ، بينما هم في الحقيقة منافقون . فاتخاذهم أولياء من قبل المؤمنين في الوقت الذي هم من أعدى أعداء المؤمنين ، هو الفساد الكبير في الأرض . ولما كان ظاهرهم الإيمان ، إشتبه أمرهم على المؤمنين فكان الفساد من جهة المنافق حاصلاً لأنه هو الذي غرّ المؤمنين بقوله الذي لا حقيقة له ، ووالى الكافرين على المؤمنين ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم لا تُفسدوا في الأرض قالوا إنّما نحن مصلحون ﴾ إنما نريد الإصلاح بين الفريقين من المؤمنين والكافرين من المشركين وأهل الكتاب . لكن الله المطلع على ضمائرهم وما تخفي صدورهم ، كذّبهم بقوله تعالى : ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾ أي إن هذا الذي يعتمدونه ، ويزعمون أنه إصلاح ، إنما هو عين الفساد ، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً . (اللهم ثبتنا على دينك وطاعتك واجعلنا من المؤمنين الذين لا يخالف ظاهرُهم باطنهم) .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ ٱلسُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ١٣ ﴾

يقول تعالى : وإذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس ، أي كإيمان الناس بالله وملائكته

وكتبه ورسله والبعث والجنة والنار وغير ذلك ، إيماناً حقيقياً . وأطيعوا الله ورسوله بامتثال الأوامر وتركِ النواهي قالوا : ﴿ أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾ يقصدون بالسفهاء أصحاب الرسول ﷺ ويقولون : أنصبح وهؤلاء ... في منزلة واحدة وهم سفهاء ؟ !! وقد تولى الله سبحانه جوابَهم فقال : ﴿ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾ أي لا يعلمون حالهم الدالة على ضلالهم وجهلهم . وإن عدم علمهم هو أردى لهم ، وأبلغ لهم في العمى ، والبعد عن طريق الهدى ، حتى يزداد طغيانهم فيزداد غضب الله وعذابُه عليهم ، فيكون الجزاءُ من نوع العمل ، ولا يظلم ربك أحدا .

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ١٤ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٥ ﴾

يقول الله تعالى : وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا : آمنّا وأظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافاة غروراً منهم للمؤمنين ونفاقاً ومصانعة وتقيّةً وليشركوهم فيما أصاب المؤمنون من خير ومغنم ﴿ وإذا خلَوْا إلى شياطينهم ﴾ يعني وإذا مضوا إلى رؤسائهم وسادتهم وكبرائهم من أحبار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين ﴿ قالوا إنّا معكم ﴾ أي نحن معكم على مثل ما أنتم عليه من الكفر والشرك ﴿ إنّما نحن مستهزئون ﴾ أي إنما نحن مستهزئون بأصحاب محمّد ﷺ فقال تعالى جواباً لهم ومقابلة على صنيعهم : ﴿ الله يستهزيء بهم ويمدّهم في طغيانهم يعمهون ﴾ أي إن الله يستهزىء بهم ، فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا يعني من عصمة أموالهم ودمائهم بإظهارهم الإيمان ، وقولهم لا إلَه إلا الله محمّد رسول الله ، خلاف الذي لهم عنده في الآخرة من العذاب والنكال ، هذا هو اختيار ابن جرير وذلك : لأن المكر والخداع والسخرية ، على وجه اللعب والعبث ، منتفٍ عن الله عزّ وجل بالإجماع . وأما على وجه الانتقام ، والمقابلة بالعدل والمجازاة ، فلا يمتنع ذلك ؛ ويؤيده قول الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ قال : يسخر بهم للنقمة منهم . وقوله تعالى : ﴿ ويمدّهم في طغيانهم يعمهون ﴾ فقد روي عن ابن عباس وابن مسعود عن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ : يمدهم أي يُملي لهم . وقال مجاهد يزيدهم . وقال بعضهم كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمةً وهي في الحقيقة نقمة كقوله تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كلّ شيءٍ حتى إذا فرحوا بما

وتوا أخذناهم بغتةً فإذاهم مبلسون ● فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ . قال ابن جرير : والصواب : نزيدهم على وجه الإملاء والترك في عتوّهم وتمردهم كما قال تعالى : ﴿ ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ والعمهُ : الضلال ، والعمى : يكون في العين ، والعمهُ : في القلب وقد يستعمل العمَى في القلب .

﴿ أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ١٦ ﴾

أي أخذ أولئك المنافقون الكفر والضلال وتركوا الإيمان والهدى واستحبّوا فعلهم هذا . ويشبهه في المعنى قوله تعالى : ﴿ فأما ثمود فهديناهم فاستحبّوا العمَى على الهدى ﴾ وهكذا فإنهم اعتاضوا عن الهدى بالضلال ، وبذلوا الإيمان ثمناً واشتروا به الكفر ولهذا قال تعالى : ﴿ فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ أي ما ربحت صفقتهم في هذه البيعة ، ولم يكونوا راشدين في صنيعهم ذلك ، وإنهم خرجوا من الهدى إلى الضلال ومن الجماعة إلى الفرق ، ومن الأمن إلى الخوف ومن السنّة إلى البدعة .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ١٧ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ١٨ ﴾

إن المنافقين باشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى : مثلهم كمن استوقد ناراً أي طلب الاستنارة بالنار ليرى ما حوله ، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله ، وأنس بها.فبينما هو كذلك إذ طفئت النار وصار في ظلام شديد ، لا يبصر ولا يهتدي ، ومع هذا فهو أصم لا يسمع ، أبكم لا ينطق ، أعمى ولو كان ضياءً لما أبصر ... فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك وهكذا ، هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى، واستحبابهم الغي على الرشد،كانوا موضع مضرب المثل في الغي والضلالة والعمى . وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا كما أخبر تعالى عنهم في قوله : ﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ والتشبيه ها هنا في غاية الصحة لأن المنافقين لما آمنوا بادىء ذي بدء اكتسبوا نوراً ثم أبطلوا ذلك بالنفاق فوقعوا في حيرة عظيمة فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين .

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٢٠ ﴾

وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى لنوع آخر من المنافقين ، وهم قوم يظهر الحق لهم تارةً ويشكّون به تارة أخرى. فقلوبهم في حال شكهم وكفرهم وتردّدهم .. ﴿ كصيّب ﴾ والصيب المطر نزل في حال ﴿ ظلمات ﴾ وهي الشكوك والكفر والنفاق ﴿ ورعد ﴾ وهو ما يزعج القلوب من الخوف فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع ، كما قال تعالى ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ ﴿ والبرق ﴾ هو ما يلمع في قلوب هذا النوع من المنافقين أحياناً من نور الإيمان . ولهذا قال ﴿ يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ﴾ أي لا ينفع حذرُهم شيئاً لأن الله محيط بهم بقدرته وهم تحت مشيئته وإرادته ثم قال ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ أي لشدّته وقوته في نفسه وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للإيمان وعن ابن عباس يقول : يكاد محكم القرآن يدلّ على عورات المنافقين ، ﴿ كلما أضاء لهم مشوْا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾ يقول ابن عباس : أي يعرفون الحقّ ويتكلمون به فهم من قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا أي متحيرين وكذا روي عن الصحابة ، وهو أظهر وأصح ما قيل في تفسير هذه الآية ، وهكذا يكونون يوم القيامة ، عندما يعطي الناس النور بحسب إيمانهم فمنهم من يُعطى من النور ما يضيء له مسيرة فرسخ ، وأكثر من ذلك وأقل ، ومنهم من يطفأ نوره تارةً ويُضيءُ أخرى ، ومنهم من يمشي على الصراط تارة ، ويقف أخرى ، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية ، وهم الخلّص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ﴾ وقال في المؤمنين : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورُهم بين أيديهم وبأيمانهم ﴾ ﴿ بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ الآية ... وقال تعالى ﴿ يوم لا يخزي الله النبيَّ والذين آمنوا معه نورُهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربّنا أتممْ لنا نورنا واغفر لنا إنك على كلّ شيء قدير ﴾ وقوله تعالى :

﴿ ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إنّ الله على كل شيء قدير ﴾ قال ابن

عباس : أي بسبب ماتركوا من الحق بعد معرفته ﴿ ان الله على كل شيء قدير﴾ قال ابن عباس : أي إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير « وقال ابن جرير : انما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط وعلى إذهاب سمعهم وأبصارهم قدير ، ومعنى ﴿ قدير ﴾ قادر

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ٢٢ ﴾

قال محمد بن اسحق بالسند عن ابن عباس : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربّكم ﴾ خطاب للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين أي وحّدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم ، وفي هذه الآية شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة بأن جعل لهم الأرض فراشاً أي مهداً كالفراش مقرّرة موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات . ﴿ والسمـــاء بناء ﴾ وهو السقف كما قال في الآية : ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون ﴾ ﴿ وانزل من السماء ماءً ... ﴾ المراد به السحاب ها هنا في وقته عند احتياجهم إليه ، فأخرج لهم من انواع الزروع والثمار ما هو مشاهد رزقاً لهم ولأنعامهم ، وهو الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم . فهذا يستحق أن يُعبدَ وحده لا شريك له . لهذا قال : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ أي لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر ، وأنتم تعلمون أنه لا رب يرزقكم غيره . وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : ٥٠ (قلت : يا رسول الله : أي الذنب أعظم عند الله قال : [أن تجعل لله نداً وهو خلقك] وكذا حديث معاذ ٥١ [« أتدري ما حق الله على عباده؟» أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً] وفي الحديث الآخر : ٥٢ [لا يقولنّ أحدكم ما شاء الله وشاء فلان ولكن ليقل ما شاء الله ثم شاء فلان] وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾ قال : الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل وهو أن يقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي ، ويقول لولا كلبة هذا لأتانا اللصوص ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل لولا الله وفلان ...

هذا كله به شرك وفي الحديث : ٥٣ [إن رجلاً قال لرسول الله ﷺ : ما شاء الله وشئت قال : أجعلتني لله نداً] وفي الحديث الآخر : ٥٤ [نعم القوم انتم لولا أنكم تندّدون تقولون: ما شاء الله وشاء فلان .]

﴿وأنتم تعلمون﴾ أي وأنتم تعلمون أنه لا ربّ لكم يرزقكم غيره . والآية: دالّة على توحيده بالعبادة وحده لا شريك له ، وقد استدلّ كثير من المفسّرين على وجود الصانع، وهي دالة على ذلك بطريق الأولى . فإنّه من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة ، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه ، وعظيم سلطانه .كما قال بعض الأعراب : وقد سئل ما الدليل على وجود الله تعالى ... قال: يا سبحان الله ! ! ! إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام ليدلُّ على المسير ، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدلُّ ذلك على وجود اللطيف الخبير...؟!

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢٣ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ٢٤ ﴾

بعد أن قرر الله تعالى أنه لا إلّه إلا هو ،وذلك في الآيات السابقة شرع سبحانه في تقرير النبوة لعبده ورسوله محمد ﷺ فقال مخاطباً للكافرين : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾ أي محمّد ﷺ فأتوا بسورة من مثل ما جاء به،إن زعمتم أنه من عند غير الله ، فعارضوه بمثل ما جاء به ، واستعينوا على ذلك إن شئتم من دون الله بآلهتكم وبلُغائكم وفصحائكم ، وحكام فصحائكم وبمن تشاءون جميعاً إن كنتم صادقين في زعمكم ، وفي هذا تحدّ من الله لهم ، وقد تحداهم في غير موضع من القرآن فقال في سورة القصص : ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ وقال في سورة سبحان : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ وقال في سورة هود : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ وقال في سورة يونس : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . ﴾

وكل ما تقدّم فآياتٌ مكية . ثم تحدّاهم بذلك أيضاً في المدينة فقال في هذه الآية ﴿ وإن كنتم في ريبٍ مما نزّلنا على عبدنا ﴾ يعني محمّداً ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾ وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ يعني فأتوا بسورة من مثل هذا القرآن . وقد تحدّى اللهُ الجميع ، متفرّقين ومجتمعين ، سواءً في ذلك اميُوهــم وكتابيّوهم ، وذلك أكمل في التحدي وأشمل من أن يتحدّى آحادهم الأمّيين ممن لا يكتب ولا يعاني شيئاً من العلوم ، فالتحدي كان عاماً لهم في مكة والمدينة مراتٍ عديدة ، مع شدة عداوة المشركين والمنافقين للنبيّ ﷺ وبغضهم لدينه . ومع هذا عجزوا عن ذلك.ولهذا قال تعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار ﴾ أي فإذا لم تستطيعوا ولن تستطيعوا ذلك أبداً وهنا معجزة يتحدّى بها الكافرين عامةً ــ بسورة من مثله ــ إلى يوم القيامة ، وهذه المعجزة هي أنهم لن يستطيعوا ذلك أبد الآبدين.ودهر الداهرين ،وكذلك قد وقع الأمر ،فلم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا وإلى الأبد . لأن القرآن كلام الله ، وكلام الله لا يشبه كلام المخلوقين لفظاً ولا معنى . ﴿ الر . كتاب أحكمت آياتُه ثم فصّلتْ من لدنْ حكيمٍ خبيرٍ ﴾ .

يقول تعالى لهم : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ إلى الأبد مجاراةَ القرآن والإتيان بمثله فما عليكم إلاّ أن تسلّموا بعد عجزكم ، بأنه كلام الله تعالى وتؤمنوا وتعملوا بأحكامه ، فتتقوا بذلك النار التي أعدت للكافرين .

قال الله تعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ والاتقاء : التجنب . أي تجنبوا النار التي سيكون وقود هايوم القيامة الناس أي الكافرون بهذا القرآن . والحجارة أي تلك الحجارة،التي يعبدها الكافرون من دون الله . قال الله : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون . لو كان هؤلاء آلهةً ما وردوها وكل فيها خالدون ﴾ ولا مانع أن يكون المعنى أيضاً أنها حجارة من كبريت بالإضافة إلى الأصنام تسعَّرُ بها النار فتلتهب وتشتد ليكون ذلك أشدَّ عذاباً لأهلها . كما ذكر ذلك عن ابن مسعود وناس من الصحابة . وقوله تعالى : ﴿ أعدت للكافرين ﴾ أي هيئت وأرصدت للكافرين الذين هم كانوا على ما أنتم عليه من الكفر ، واستدل كثير من الأئمة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن . لقوله تعالى ﴿ أعدت للكافرين﴾ أي أرصدت وهيّئت . وقال رسول الله ﷺ : ٥٥ [تحاجّت الجنة والنار] فتحاجّهما دليل على وجودهما. وهناك أحاديث صحيحة أخرى تدل على ذلك. وهكــذا فإن الله تحدّى الكافرين ، أن يأتوا بسورة من القرآن وأُخبر أنهم لن يأتوا بمثله لا قليلاً ولا كثيراً ، أي لا سورة طويلة ولا قصيرة لأن كل سورة من القرآن ، معجزة للعالمين أن

يأتوا بمثلها ، وقد روي أن عمرو بن العاص وفد قبل إيمانه على مسيلمة الكذاب ، فقال له مسيلمة : ماذا أنزل على صاحبكم بمكّة ، في هذا الحين ؟ فقال له عمرو : لقد نزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال : وما هي فقال ﴿ والعصر ۝ إنّ الإنسان لفي خسر إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر ﴾ ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال : ولقد أنزل عليّ مثلُها فقال : وما هو ؟ فقال مسيلمة : يا وَبْر يا وَبْر ، إنما أنت أذنان وصدر ، وسائرك حقر فقر . ثم قال : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم إني لأعلم أنك تكذب .



﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٢٥ ﴾

لما ذكر الله تعالى ما أعدّه لأعدائه المنافقين والكافرين من العذاب والنكال ، ناسب أن يذكر بالمقابل حال المؤمنين وما أعدّ لهم من النعيم المقيم . الذين صدّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة. وقد جرى القرآن على هذا الأسلوب من الترغيب والترهيب . وهذا معنى تسمية القرآن بالمثاني على أصح الأقوال عند العلماء لأنه لا يذكر حال المؤمنين وما أعدّ لهم من النعيم إلاّ ويذكر مباشرة أحوال الكافرين وما أعدّ لهم من النكال والعذاب ولهذا قال : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ فوصف الجنات التي تجري من تحتها الأنهار أي من تحت أشجارها وغرفها وقد جاء في الحديث : أن أنهارها تجري في غير أخدود وجاء في الكوثر أن حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف ولا منافاة بينهما فطينها المسك الأزفر وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر ، نسأل الله تعالى أن يوفقنا لدخولها بفضله ورحمته وقوله تعالى : ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل ﴾ . قال جمع من الصحابة فيما روى السدي بالسند عنهم أنهم أُتوا بالثمرة في الجنة فلما نظروا إليها قالوا هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا ، وقيل التشابه حاصل بين أثمارها نفسها بعضها ببعض. ولكن اللون واحد والطعم مختلف وقوله تعالى : ﴿ ولهم فيها أزواج مطهّرة وهم فيها خالدون ﴾ أي أزواج مطهّرة من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمنيّ والولد . وقوله : ﴿ وهم فيها خالدون ﴾ هذا هو تمام السعادة فإنهم مع هذا النعيم ، في مقام أمين من الموت والانقطاع ، فلا آخر له ولا انقضاء . بل في نعيم سرمدي ، أبدي على الدوام والله المسؤول أن يحشرنا في زمرتهم إنّه جواد كريم .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا ٱلْفَاسِقِينَ ٢٦ ٱلَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ٢٧﴾

قال السدي في تفسيره بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة : لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين يعني قوله تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً ﴾ وقوله ﴿ أو كصيب من السماء ﴾ قال المنافقون : الله أعلا وأجل من أن يضرب هذه الأمثال ، فأنزل هذه الآية : ﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما ﴾ إلى قوله : ﴿ ... هم الخاسرون ﴾ وقد أخبر تعالى : أنه لا يستصغر شيئاً يضرب به مثلاً ولو كان في الحقارة والصغر، مثل البعوضة . فكما أنه لا يستنكف عن خلقها،كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها . كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في غير موضع من القرآن .

ومعنى ﴿ لا يستحيي ﴾ لا يستنكف وقيل لا يخشى أن يضرب مثلاً ما بأي شيء صغيراً كان أو كبيراً و ﴿ ما ﴾ هنا للتقليل كما تقول : لأضربنّ ضرباً ما ، فيصدق بأدنى شيء ﴿ فما فوقها ﴾ بمعنى أي فما دونها في الصغر والحقارة كما اذا وُصِفَ لك رجل باللؤم والشح فيقول السامع نعم وهو فوق ذلك أي من الشحّ والبخل . وهذا قول الكسائي وأبي عبيد،قاله الرازي وأكثر المحققين. ﴿ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربّهم ﴾ أي إن الذين آمنوا يؤمنون بما يضرب الله من الأمثال صغيرها وكبيرها ويعلمون أنها الحق من ربّهم ويهديهم الله بها لأنه كلام الرحمن .

﴿ وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ مستصغرين هذه الأمثال ضلالاً منهم كما قال في سورة المدثر : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلاّ ملائكةً وما جعلنا عدّتهم إلاّ فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون . وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً . كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ وكذلك قال ها هنا : ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ فعن السدّي أنه قال ، في تفسيره عن أبي مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة : أن المقصود من

﴿ يضل به كثيراً ﴾ أي المنافقين ، ﴿ ويهدي به كثيراً ﴾ أي المؤمنين فيزيد المنافقين ضلالاً لتكذيبهم بما علموه حقاً ويقيناً من المثل الذي ضربه الله ، وأنه لما ضرب له موافق . فذلك إضلال الله إياهم به ويهدي به كثيراً من أهل الإيمان والتصديق فيزيدهم إيماناً وهدى إلى هداهم ، لتصديقهم بما قد علموه حقاً ويقيناً أنه موافق لما ضربه الله له مثلاً وإقرارهم به وذلك هداية من الله لهم ﴿ وما يضلّ به إلاّ الفاسقين ﴾ الفاسق في اللغة : هو الخارج عن الطاعة وتقول العرب فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها فالفاسق يشمل الكافر والعاصي ولكن الفسق في الكافر أشد وأفحش والمراد من الآية بالفاسق الكافرُ والله أعلم بدليل أنه وصفهم بقوله تعالى : ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون . ﴾ وهذه الصفات صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين وقوله : ﴿ عهد الله ﴾ هو ما عهد إليهم في القرآن فأقروا به ثم كفروا فنقضوه . ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصلَ ﴾ أي كل ما أمر الله بوصله وفعله فقطعوه وتركوه ﴿ ويفسدون في الأرض ﴾ أي يفسدون بكفرهم بعدم تمسكهم بما أمر الله فيحلون المحرمات ويحرمون المحللات ويشيعون الشرك والكفر بين الناس ، ويزينونه لهم بأنه هو الصواب والحق ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ في الآخرة قال الضحاك عن ابن عباس : كل شيء نسبه الله إلى غير أهل الاسلام من اسم مثل خاسر فإنما يعني به الكفر وما نسبه إلى أهل الأسلام . فإنما يعني به الذنب . والخاسرون جمع خاسر وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم من رحمة الله بمعصيتهم إياه . وفي قوله الخاسرون أي الخاسرون في الآخرة ، دليل على الصفات المتقدمة مقصود بها صفاتُ الكفار لأنهم خسروا الآخرة ولا يخسرها الا الكافرون .

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٢٨ ﴾

يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته، وأنه الخالق المتصرف في عباده ﴿ كيف تكفرون بالله ﴾ أي كيف تجحدون وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف ، أو تشركون به فتعبدون سواه . ﴿ وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ ويفسر هذا قوله تعالى كما قال ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة ﴿ ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ قال كنتم تراباً قبل أن يخلقكم فهذه ميتة . ثم أحياكم فخلقكم ، فهذه حياة . ثم يميتكم فترجعون إلى القبور ، فهذه ميتة أخرى . ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى . فهذه ميتتان وحياتان . وهو تفسير قوله ﴿ كيف تكفرون ... ﴾

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٩ ﴾

لما ذكر الله دلالة من خلقهم وما يشاهدونه من أنفسهم ، ذكر دليلاً آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض فقال ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهنّ سبع سموات .. ﴾ قال مجاهد وخلق الله الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان – بإذن الله – فذلك حين يقول ﴿ ثم استوى إلى السماء ﴾ أي قصد إلى السماء . والاستواء ها هنا ، مضمّن معنى القصد والإقبال لأنه عُدّي بإلى ﴿ فسواهن سبع سموات ﴾ أي فخلق السماءَ سبعاً . يوجد خلاف بين المفسرين من حيث خلق الأرض قبل السماء أو السماء قبل الأرض . ولكل من الطرفين حجّة إلاّ أن حجة القائلين بابتداء خلق الأرض ثم السماء أقوى لقوله تعالى : ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء ﴾ فقوله «ثمَّ» يفيد الترتيب أي أن الله خلق الأرض وما فيها ، ثم من بعد ذلك قصد السماء فسواهنَّ سبعاً . وحجة القائلين بابتداء خلق السموات ثم الأرض قوله تعالى : ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسوّاها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها. ﴾ نقل هذا ابن جرير عن قتاده ولكن هذا القول أي تقدم السماء على الأرض ليس صحيحاً. والصحيح بخلافه أي تقدم الأرض على السماء . ففي صحيح البخاري أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه فأجاب : بأن الأرض خلقت قبل السماء وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء . وحاصل ذلك أن الدحي مفسر بقوله تعالى : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها . ﴾ ففسر الدحي بإخراج ما كان مُودعاً فيها من المياه فنبتت النباتات على اختلاف أنواعها وصفاتها وأصنافها وألوانها وأشكالها .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٣٠ ﴾

يخبر تعالى بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم ، فقال تعالى: ﴿ وإذ قال ربك للملائكة ﴾ أي : أقصص يا محمّد على قومك ذلك : ﴿ إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ، كما قال تعالى:

﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾ وهذا هو الصواب في تفسير ﴿ خليفة ﴾ لا قول من يقول أن آدم خليفة الله في الأرض مستدلاً بقوله تعالى : إني جاعل في الأرض خليفة [1]

---

(١) قلت : إن معنى الخليفة يستلزم قطعاً غياب المخلوف، كلياً كان ذلك أو جزئياً . أعني إما بموت أو ارتحال أو عزل او اعتزال ، أو أي أسباب أخرى تحول دون متابعة المخلوف مزاولة عمله ، كقولك مثلا : أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أي بعد موته . أو كقولك : استخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً على المدينة ، أي حال غيابه صلى الله عليه وسلم عنها في إحدى غزواته . فاذا اتضح هذا وحصلت به القناعة ، أدرك المقتنع حالا خطأ قول القائل أن آدم عليه السلام جعله الله خليفة عنه في الأرض وذلك للأسباب الآتية :

١– يستحيل غياب الله سبحانه عن ملكه كلياً أو جزئياً ، فهو قيوم السموات والأرض ، ولا تعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء فلا يحتاج إذاً لخليفةٍ ولا لوكيل ولا لنائب ولا لمن يليه ، وهو الغني عن العالمين .

٢– من أجل أن يكون آدم أو النوع الإنساني صالحاً للخلافة عن الله، يستلزم أن تكون له صفات مماثلة لصفات الله تعالى وتقدس ، ولما كان الإنسان – ككل مخلوق – لا يحمل صفات مماثلة لصفات الله ، بل هو ناقص في جميع صفاته والله سبحانه كامل في جميع صفاته صار تباين كلي ... فكيف تجوز خلافة الناقص للكامل ... ؟ تعالى الله عن المثيل والنظير « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير . »

٣– ثبت أن الانسان لا يصلح أن يكون خليفة لله ولا وكيلا عنه . بل العكس هو الصواب فالله سبحانه هو الوكيل والخليفة . وإليك قوله تعالى : « حسبنا الله ونعم الوكيل » و « والله على كل شيء وكيل » « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » و « وكفى بالله وكيلا » وقوله صلى الله عليه وسلم : في دعاء السفر : ٥٦ (اللهم أنت الرفيق في السفر والخليفة في الأهل) .

٤ – ليس في الكتاب ولا في السنة أي دليل ظاهر أو خفي أو مستنتج ... بأن الإنسان خليفة الله في الأرض ، لأنه قال « إني جاعل في الأرض خليفة » ولا يفهم من هذا القول أن آدم عليه الصلاة والسلام خليفة الله في الأرض لأنه قال : « إني جاعل في الأرض خليفة » نعم . قال هذا ... إنما لم يقل : إني جاعل لي في الأرض خليفة ، أو : إني جاعل في الأرض خليفة لي . أو خليفتي . فمن أين استنتجنا أن آدم عليه السلام أو النوع الانساني خليفة الله في الأرض ...؟ ألا إن شأن الله لأجل وأعظم من ذلك ، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيراً . على أن أكثر المفسرين قالوا : أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلا بعد جيل أو على قول من قال : خلائف لمن قبلهم من الجن أو المخلوقين الآخرين الذين يحتمل أنهم كانوا على ظهر الأرض قبل أن يكون النوع الانساني على ظهرها . والتفسير الأول أظهر ومؤيد بالكتاب والسنة . أما من قال : أن المقصود بالخلافة هي الخلافة فقط بالأحكام ... فهذا قول ليس مسلماً به . لأن الحكم المعتبر المأخوذ من الوحيين الذي حكم به ، ليس حكمه ... إنما هو حكم الله ... وهو تعبّد لله ، وشتانَ ما بين العبادة وبين النيابة والخلافة . وهكذا يتضح أن الذي حكم إنما حكم بحكم الله لا نيابة عنه .

على أن القائلين بهذه الخلافة (خلافة الله في الحكم) ليس لهم أي دليل من الكتاب والسنة على ذلك ، وكما اتضح أن الدليل بخلاف قولهم ، فلم يبق إلا اجتهادات الرجال ، واحتمالاتهم ومعلوم أن الإجتهاد والاحتمال شيء ... وقوله الله ورسوله شيء آخر ، إذ لا اجتهاد في مورد النص ، وإذا طرأ الاحتمال بطل الاستدلال . لا سيما كهذه القضية التي لا تثبت إلا بخبر عن الله أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم الذي ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي . والله الموفق للصواب .

وقال عبدالرزاق عن معمر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ كأن الله أعلمهم أنه إذا كان في الأرض خلق ، أفسدوا فيها وسفكوا الدماء ، فذلك حين ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ فقول الملائكة هذا ، ليس على وجه الإعتراض على الله كما قد يُتوهّم : لأن الملائكة وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أي لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه .

قال ابن جريج : إنما تكلموا بما أعلمهم الله أنه كائن من خلق آدم فقالوا : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ قال ابن جرير : وقال بعضهم إنما قالت الملائكة ما قالت... لأن الله أذن لهم في السؤال عن ذلك بعد ما أخبرهم : أن ذلك كائن من بني آدم، فقالوا : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء . ﴾ فإنهم أرادوا أنّ من هذا الجنس من يفعل ذلك . وهو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة . فقال تعالى مجيباً لهم : ﴿ قال إني أعلم ما لا تعلمون . ﴾ أي أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ، ما لا تعلمون أنتم . لأني سأجعل فيهم الأنبياء والرسل والصالحين والأولياء .وسيأتي إن شاء الله عن ابن مسعود وابن عباس وبعض الصحابة والتابعين أقوال في حكمة قوله تعالى ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ .

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٣ ﴾

هذا مقامٌ ذكر الله فيه آدم وشرّفه على الملائكة ،لأن الله تعالى علّمه ما لم يُعلّم الملائكةَ فقد قال : ﴿ وعلّم آدم الأسماء كلها ﴾ أي أسماء جميع المخلوقات جليلها ودقيقها ويؤيد هذا ما جاء في حديث الشفاعة العظمى قوله ﷺ : ٥٧ [« ... فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس ، خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء] من حديث صحيح البخاري فدل هذا على أنه علمه أسماء المخلوقات ولهذا قال : ﴿ ثم عرضهم على الملائكة ﴾ يعني المسمَّيات وقوله : ﴿ عرضهم ﴾ بصيغة من يعقل للتغليب فيدخل معهم غير العاقل كما قال تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ... الآية ﴾ قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن

مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة : ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة﴾ أي عرض الخلق على الملائكة. ﴿ فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ أي أنبئوني بأسماء من عرضتهم عليكم من المخلوقات وكانت الملائكة تظن أن الله لا يخلق خلقاً إلاّ ويكونون هم أعلمَ منهم ، فإن كنتم صادقين بأنكم أعلم من كل خلقي الذي منهم آدم ، فأنبئوني بأسماء الخلق الذين عرضتهم عليكم . قاله الحسن وقتادة . وقال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود عن ناس من الصحابة : ﴿ان كنتم صادقين﴾ أن كل بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء .

قال ابن جرير عن ابن عباس بمعناه : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء من غيرنا أم منا ؟ فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك أي أنهم ظنوا أنهم جميعاً سيسفكون الدماء، ويفسدون في الأرض ، ولم يعلموا أنه سيكون منهم أنبياء وأولياء صالحون . ولذلك قال الله لهم ﴿ أنبئوني بأسماء هؤلاء ﴾ إعجازاً لهم ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في قولكم أنهم سيسفكون وسيفسدون في الأرض . فإن كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم ، وأنتم تشاهدونهم ، فأنتم بالأمور الكائنة التي لم توجد أحرى أن تكونوا غير عالمين بها .

﴿ قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ أي العليم بكل شيء الحكيم في خلقك وأمرك ، وفي تعليمك ما تشاء، ومنعك ما تشاء لك الحكمة في ذلك والعدل التام . وسبحان الله : تنزيه الله نفسه عن السوء . وقال عمر لعلي : لا إله الا الله قد عرفناها ، فما سبحان الله ؟ فقال علي : كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها وأحب أن تقال . وسأل رجل ميمون بن مهران عن سبحان الله فقال : اسم يُعظَّم اللهُ به ، ويُحاشَى به عن الله . وأوكلوا العلم بذلك له سبحانه لأنه هو العليم الحكيم . فقال الله : ﴿ قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .

قال زيد بن أسلم قال أنت جبرائيل ، أنت ميكائيل ، أنت أسرافيل حتى عدد الأسماء كلها . وقال مجاهد: إسم كل شيء وروي عن سعيد بن جبير والحسن وقتادة نحو ذلك ... فلما ظهر فضلُ آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام في سرده ما علّمه الله تعالى من الأسماء قال الله تعالى للملائكة ، ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ قال ابن جرير : وأولى الأقوال في ذلك قول ابن عباس وهو أن المعنى من قوله تعالى ﴿وأعلم ما تبدون﴾ أي قولهم : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ والذي كانوا يكتمون : ما كان منطوياً عليه إبليسُ من الخلاف على الله في أوامره والتكبرّ عن

طاعته . أما شبهة أن الله تعالى قال :﴿وما كنتم تكتمون﴾أي أن الفعل وارد في صيغته الجمع بينما المقصود هو إبليس الذي كان يكتم عصيان الله تعالى وهو مفرد ؛ فنقول : إن العرب كانت تقول مثلاً قتل الجيش وهزموا ... وإنما قتل الواحدُ أو البعض وهزم الواحد أو البعض. وعلى هذا أيضاً جرى أسلوب القرآن في بعض الآيات ،كقوله تعالى : ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات »﴿فينادونك﴾فعل وارد بصيغة الجمع بينما المنادي كان واحداً من بني تميم . وكذلك قوله : ﴿ وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ٣٤ .

وهذه كرامة عظيمة لآدم عليه السلام من الله تعالى إمتنَّ الله بها على ذريّته ، فأخبر أنه أمر الملائكة بالسجود لآدم ،كما في حديث الشفاعة المتقدم : ٥٨ [... وأسجد لك ملائكته] وذلك أكراماً وإعظاماً،واحتراماً وسلاماً،وطاعة لله عز وجل.لأنها امتثال لأمره تعالى. وقال قتادة: قوله تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ فكانت الطاعة للهوالسجود لآدم وهكذا سجد الملائكة طائعين لأمر الله إلاّ إبليس. ﴿ فسجدوا إلاّ إبليس أبىٰ واستكبر وكان من الكافرين ﴾ وقد وردت أقوال في وصف إبليس قبل أن يرتكب المعصية ، نذكرها هنا للبيان : فقيل أنه كان من حيّ الملائكة ، يقال له الجن ، وكان رئيساً لهم ، وخازناً للجنان ، وله سلطان سماء الدنيا وله سلطان على الأرض إلى آخر ما ورد في وصفه . ولكن ابن جرير نقل السند عن الحسن أنه قال : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط . وإنه لأصل الجن، كما أن آدم أصل الأنس . هذا إسناد صحيح عن الحسن .

وهكذا لما أمر الله له الملائكة بالسجود، فدخل إبليس في خطابهم ؛ وكان قبل المعصية عبداً صالحاً يتعبد مع الملائكة ، فلما أمر الله بالسجود لآدم فسجد الملائكة طاعةً لله ، إلاّ إبليس أبى واستكبر عدوُّ الله أن يسجد لآدم عليه السلام ، حسداً منه على ما أعطاه الله من الكرامة وقال : أنا ناري ، وهذا طيني ، وكانت المعصية ابتداء ذنوبه وسببها الكِبر . وقد ثبت في الصحيح: ٥٩ [لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبةمن خردل من كبر] وقد كان في قلب إبليس من الكِبرْ والكفر والعناد ما اقتضى طرده ، وإبعاده عن جناب الرحمة ، وكان من الكافرين، بسبب امتناعه، أي صار من الكافرين.وقيل: أن السجود كان خاصاً بملائكة الأرض . والراجح : أن الملائكة جميعهم سجدوا أي ملائكة الأرض والسماء ، وظاهر الآية الكريمة العموم ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس ... ﴾ .

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ٣٥ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ٣٦ ﴾

يقول الله تعالى إخباراً عمّا أكرم به ادم ، أنه أمر الملائكة بالسجود فسجدوا إلا إبليس، وإنه أباح له الجنّة يسكن فيها حيث يشاء ، ويأكل منها حيث يشاء ما شاء ، رغداً أي هنيئاً واسعاً طيباً ، وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن أبي ذر رضي الله عنه قال : ٦٠ [قلت يا رسول الله أرأيت آدم ...أنبياً كان ؟ قال : « نعم نبيّاً رسولاً يكلّمه الله قبيلا »] – يعني عياناً – فقال : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ وقد اختلف في الجنة التي أسكنها اللهُ آدم ، أهي في السماء أم في الأرض فالأكثرون على أنها في السماء ، وقال المعتزلة والقدرية بأنها في الأرض ، وسيأتي بيان ذلك في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى . وسياق الآية يقتضي أن حوّاء خلقت قبل دخول آدم الجنـــة ، كما صرح بذلك محمد بن اسحق . وقيل أن خلق حواء كان بعد دخول آدم الجنة كما صرح بذلك السدى في خبرٍ ذكَرَهُ عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ما خلاصته : إن آدم كان يمشي وحيشاً في الجنة ليس له زوج فنام فاستيقظ وعند رأسه امرأة خلقها الله من ضلعه، فسألها من أنتِ؟ قالت : امرأة قال: ولم خلقتِ؟ قالت: لتسكن إليّ فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه : ما أسمُها يا آدم ؟ قال : حواء، قالوا ولمَ حوّاء؟ قال لأنها خلقت من شيء حي .

وأما قوله : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ فهو إخبار من الله تعالى، وامتحان آدم وقـــد اختلف في هذه الشجرة ما هي ؟ فمن قائل أنها الكرم ، وقائلٍ أنها الحنطة ، وقائل أنها التينة وقائلٍ أنها السنبلة وقائل أنها النخلة .

والصواب : إنها شجرةٌ مّا ... في الجنة، ولم يعين الكتاب ولا السنة نوعها، ومعرفة نوعها لا ينفع والجهل به لا يضرّ . هذا ما ذكره ابن جرير ملخصاً وكذلك رجّح الرازي الإبهام في تفسيره .

وقوله تعالى : ﴿ فأزلّهما الشيطان عنها ﴾ أي بسبب أكلهما منها فنحّاهما، ووقعا في

الزلل والخطيئة، ومعصية أمر الله ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ من اللباس والمنزل الرحب، والراحة والنعيم.

﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌ ولكم في الأرض مستقرٌ ومتاع إلى حين﴾ أي قرار وأرزاق وآجال ﴿إلى حين﴾ إلى وقت معيّن، ثم تقوم القيامة، وقد اختلفت الروايات في محل هبوط آدم، وحواء والشيطان، فقيل أن آدم نزل في الهند، ونزل معه الحجر الأسود، وحواء بجدّة، وإبليس بدستميسان بالقرب من البصرة. رواه ابن أبي حاتم. وقال عبد الرزاق: قال معمر: اخبرني عوف وساق السند إلى أبي موسى قال: ان الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علّمه صنعة كل شيء، وزوّده من ثمار الجنة، فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغير، وتلك لا تتغير. وروى مسلم والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ٦١ [خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة. فيه خُلقَ آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أُخرِج منها.] وقال الرازي: إعلم أن في هذه الآية تهديداً عن كل المعاصي.

﴿فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾

قيل أن هذه الكلمات مفسَّرة بقوله تعالى: ﴿قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمْنا لنكوننّ من الخاسرين﴾ روي ذلك عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبي العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب القرظي وخالد بن معدان وعطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم. قال سفيان الثوري عن عبد العزيز بن رفيع، أخبر من سمع من مجاهد عن عبيد بن عمير أنه قال: قال آدم: يا رب خطيئتي التي أخطأت شيء كتبتَه عليَّ قبل أن تخلقني أو شيء ابتدعتُه من قِبل نفسي؟ قال: بل شيء كتبتُه عليك قبل أن أخلقك. قال فكما كتبته عليَّ فاغفره لي، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿فتلقى آدم من ربّه كلماتٍ فتاب عليه﴾ وعن ابن عباس: قال آدم عليه السلام: ألم تخلقني بيدك؟ قيل له بلى، ونفخت فيَّ من روحك؟ قيل له بلى، وكتبتَ علي أن أعمل هذا. قيل له بلى؟ قال: أفرأيت إن تبتُ هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: نعم. وكذا رواه العوفي، وسعيد بن جبير، وسعيد بن معبد ورواه الحاكم في مستدركه إلى ابن عباس.

وروى ابن أبي حاتم حديثاً مرفوعاً شبيهاً بهذا وعن مجاهد قال: الكلمات: اللّهم لا إله إلاّ أنت سبحانك وبحمدك ربي إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك خيرُ الغافرين. اللّهم لا إله

إلاّ أنت سبحانك وبحمدك ربي إني ظلمت نفسي فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم (١)

(١) قلت : كل ما تقدم يؤيده قوله تعالى : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » ومعنى ذلك أن آدم وحواء إعترفا بذنبيهما وجعلا هذا الاعتراف الذي هو مضمون ما علمهما الله سبحانه من التوسل وهو : (الاعتراف بالذنب) ثم طلبا المغفرة متوسلَيْن اليه تعالى بتوبتيهما إليه أن يغفر لهما ذنبيهما ؛ فتاب عليهما إنه هو التواب الرحيم .

وأما ما رواه البيهقي في كتابه « دلائل النبوة » عن عمر بن الخطاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لما اقترف آدم الخطيئة قال : يا رب أسألك بحق محمد الا ما غفرت لي فقال الله تعالى : يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقه . قال يا رب إنك لما خلقتني رفعت رأسي ، فرأيت على قوائم العرش مكتوباً « لا إله إلا الله محمد رسول الله » فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحبَّ الخلق إليك فقال الله تعالى صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي، وإذا سألتني بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك.». رواه الحاكم وصححه . في هذا الحديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم. قال الهيثمي: (رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم وان تصحيح الحاكم له خطأ لأنه هو الذي طعن بعبد الرحمن بن زيد بن أسلم في كتابه : (الضعفاء) فكيف يصححه وفيه من طعن هو به . . . ! ! ؟؟ أجل إن الكلمات التي تلقاها آدم من ربه هي قوله تعالى « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . ولا عبرة لما خالف ذلك لأن الحجة بما يثبت عن الصحابة وعن سلف الأمة وأئمتها، ، ولا يجوز تفسير القرآن بأقوال شاذة أو موضوعة لا تثبت عند أهل العلم ، والحديث وأئمة التصحيح والترجيح . كما ينسب أيضا حكاية إلى مالك رضي الله عنه مع أبي جعفر المنصور وفيها أنه أي أبو جعفر سأل مالكاً فقال : يا أبا عبد الله : أأستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة. ، بل استقبله واستشفع به. هذا ما رواه ابن حميد عن مالك . وقد ردَّ الحفاظ على ابن حميد هذه الحكاية وذكروا أن أسنادها مظلم منقطع مشتمل على من يتهم بالكذب . أما من جهة الكذب فهناك أقوال الأئمة قالوا . : إبن حميد هذا، تكلم فيه غير واحد من الأئمة ونسبه بعضهم إلى الكذب فقال يعقوب بن أبي شيبة السدوسي : محمد بن حميد الرازي كثير المناكير . وقال البخاري : حديثه فيه نظر . وقال النسائي : ليس بثقة . وقال الجوزجاني : رديء المذهب غير ثقة ، قال فضلك الرازي : عندي عنه خمسون ألف حديث لا أحدث عنه بحرف . وقال أبو العباس أحمد بن محمد الأزهري سمعت إسحق بن منصور يقول. أشهد على محمد بن حميد الرازي وعبيد بن اسحق العطار بن يدي الله أنهما كذابان . وتكلم فيه غير هؤلاء من الحفاظ. وقال صالح بن محمد الحافظ : كل شيء كان يحدثنا به ابن حميد ، كنا نتهمه فيه .

وأما من جهة الانقطاع ، فيقول ابن تيمية رحمه الله : قلت: وهذه الحكاية منقطعة ، فإن محمد بن حميد الرازي لم يدرك مالكاً ، لا سيما في زمن أبي جعفر المنصور ، فإن أبا جعفر توفي بمكة سنة ١٥٨ وتوفي مالك سنة ١٧٩. ، وتوفي محمد بن حميد الرازي. ٢٤٨ ولم يخرج من بلده حين رحل في طلب العلم. ، إلا وهو كبير مع أبيه وهو مع ذلك ضعيف عند أكثر أهل الحديث. ، كذبه أبو زرعة وابن وارة ، وقال صالح بن محمد الأسدي. : ما رأيت أحداً أجرأ على الله منه ، وأحذق بالكذب منه . وآخر من روى الموطأ عن مالك هو أبو مصعب وتوفي سنة ٢٤٢ وآخر من روى عن مالك على الإطلاق هو أبو حذيفة أحمد بن اسماعيل السهمي توفي سنة ٢٥٩ وفي الإسناد من لا تعرف حاله لا سيما وإن مذهب مالك يناقض هذه الحكاية، فالمعروف من مذهب مالك وغيره، من الأئمة وسائر السلف. أن الداعي إذا سلم على النبي صلى الله عليه وسلم استقبل القبر ودعا له ، أما إذا دعا لنفسه فيستقبل القبلة ويدعو .

وقوله تعالى : « انه هو التواب الرحيم » أي انه يتوب على من تاب اليه وأناب . وهذا من رحمته بعبيده .

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٣٩ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما أنذر به آدم وزوجته ، وإبليس حين أهبطهم من الجنة والمراد ذرية الجميع ، أنه سينزّل الكتب ، ويبعث الرسل ، والبينات والبيان ﴿ فمن تبع هداي ﴾ أي من أقبل على ما أنزلت من الكتب ، وأرسلت به الرسل ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ أي فيما يستقبلونه من أمر الآخرة . ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا ، كما قال تعالى في سورة طه :

— وهكذا فإنه يؤخذ من هذا البحث المتقدم ، أن الوسيلة التي علمها الله لآدم ، ليغفر له ذنبه وخطيئته ، هي إعترافه بظلم نفسه ، وتوبته من هذا الظلم ، متوسلا ، إلى الله تعالى بهذا الاعتراف ، وهذه التوبة . قال الله تعالى : « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . ويؤخذ أيضا مما تقدم ... أن الأحاديث التي وردت بتوسل آدم عليه السلام بنبينا عليه الصلاة والسلام موضوعة ، فلا يحتجُّ بها قطعاً . وإن التوسل إليه تعالى لا يكون إلا بما شرع سبحانه من التوسل إليه بذاته وأسمائه وصفاته ، أو بالأعمال الصالحة التي هي من عمل المتوسل نفسه . لأن الله تعالى يقول : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » فعمل غيرك لا ينفعك ولا يصح أن تتوسل به ، لأنه ليس لك منه نصيب فلا ينفعك إلا ما عملته من الصالحات . مثال ذلك : توسل أصحاب الغار كل بعمله هو . أو التوسل بدعاء أخيك المؤمن لك ، فدعاء المؤمن لأخيه المؤمن جائز ، وهو من قبيل : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . ومثال التوسل بدعاء المؤمن لأخيه المؤمن ، كدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعمى الذي استجاب الله فيه دعاء رسوله صلى الله عليه وسلم فرد عليه بصره . واستسقاء المؤمنين بالعباس أي بدعاء العباس الذي دعا وقت الجدب بناء على طلب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي قال : اللهم كنا نتوسل بنبيك فتسقينا وإن نبيك قد قبضته إليك ، فها إننا نتوسل بعمه العباس ، أدع يا عباس . فرفع العباس يديه وقال : اللهم إننا نعلم أنك لا تنزل عقاباً إلا بذنب ، ولا ترفعه إلا بتوبة ، فها قد تبنا إليك اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين . فأرخت السماء . ومن هنا يتبين أنه لو كان قصد أمير المؤمنين ذات الرسول صلى الله عليه وسلم لقال : اللهم اننا نتوسل اليك بنبيك . إنما لما قال : وأن نبيك قد قبضته إليك أي أن نبيك كان يدعو لنا حال حياته ، أما الآن فقد قبضته إليك ، فلم يعد يدعو . لذلك نتوسل بعمه العباس أي بدعاء عمه العباس لأنه حي ويستطيع أن يدعو فدعا العباس كما تقدم بعد أن قال له عمر : ادع ، واختار عمر العباس للدعاء لأنه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما التوسل بذوات المخلوقين ، هذا مما ليس عليه دليل من الكتاب والسنة ، فلا يصح أبدا . وكل ما جاء من الأحاديث بجواز ذلك فهي موضوعة ومكذوبة والله الموفق . وإن شئت المزيد فراجع كتابنا : التوصل إلى حقيقة التوسل

﴿قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدوّ فإما يأتينّكم مني هدى فمن اتّبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾ ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي مخلدون فيها لا محيد لهم عنها ولا محيص .

أورد ابن جرير ههنا حديثاً بالسند المتصل إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٦٢ [أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ولكـــن أقواماً أصابتهم النار بخطاياهم فأماتتهم إماتةً حتى إذا صاروا فحماً ، أذن في الشفاعة .] وقد رواه مسلم من حديث شعبه عن أبي سلمة به .

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ٤٠ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ٤١ ﴾

يذكّر الله تعالى بني أسرائيل بمناداته لهم بهذا النداء .. يا بني إسرائيل «أي يا بني العبد الصالح المطيع لله ، كونوا مثل أبيكم في طاعته لله ، ومتابعته الحق ، كما تقول مثلاً : يا ابن الكريم كن كأبيك كريماً . وحاصله يا بني إسرائيل آمنوا بمحمّد ﷺ وكونوا متّبعين للحق الذي جاءكم به. وإسرائيل : هو يعقوب عليه السلام. ﴿أذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ أي نعمة الله التي نجاكم بها من عبودية فرعون ، وفجّر الحجر ، وأنزل المنّ والسلوى ، وجعل منكم الأنبياء والرسل. ﴿وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم﴾ أي أوفوا بعهدي الذي أخذته عليكم في التوراة ، أن تتبعوا محمّداً ﷺ فإن فعلتم ، أوفِ بعهدكم ، بوضع ما كان عليكم من الذنوب التي أحدثتموها ، وأدخلكم الجنّة .

﴿وإياي فارهبون﴾ أي فأخشوني وحدي. وقد انتقل من الترغيب إلى الترهيب بما نزل بمن كان قبلهم من آبائهم ، من النقمات التي عرفوها فدعاهم بالرغبة والرهبة لعلّهم يرجعون إلى الحق ويتّبعون محمّداً ﷺ . ﴿وآمنوا بما أنزلتُ مصدّقاً لما معكم﴾ أي آمنوا بالقرآن الذي فيه الإيمان بالله ورسوله كما في الذي معكم من التوراة التي تجدون فيها محمّداً ﷺ مكتوبـــاً ومأمورون أن تؤمنوا به وتنصروه وتتّبعوا القرآن الذي أنزل عليه ﴿فلا تكونوا أول كافر به﴾ يعني أول من كفر به من بني إسرائيل في ذلك الزمن أي يهود المدينة الذين هم أول من بلغوا بالقرآن من اليهود وليس الأولية إطلاقاً لأن مشركي العرب هم أول من كفر به : إنما المقصود يهود المدينة ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قايلاً﴾ . أي لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي

بالدنيا وشهواتها ، فإنها قليلة فانية. كما قال عبدالله بن المبارك عن قوله تعالى : ﴿ ثمناً قليلاً ﴾ قال الثمن القليل الدنيا بحذافيرها أي تستبدلوا ما في القرآن من إيمان وعمل به بما في الدنيا من مباهج خلابة موقتة وعرض فان ﴿ وإياي فاتقون ﴾ التقوى : العمل بطاعة الله رجاء رحمته على نور من الله وان تترك المعاصي على نور من الله خوف عقاب الله. والمعنى : إن الله يتوعدهم فيما يتعمدون من كتمان الحق وإظهار خلافه ومخالفتهم الرسول ﷺ .

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٤٢ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ٤٣ ﴾

نهى الله سبحانه وتعالى عن شيئين هامين . وهما تمويه الحق، وكتمانه، وأمرهم بأن لا يخلطوا الحق بالباطل، وأن يظهروا الحق جلياً . أي لا تخلطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام وأنتم تعلمون أن اليهودية والنصرانية إنما طور تموها إلى بدعة. والإسلام هو دين الله الحق . وروى ابن عباس : إن كتمان الحق هنا ، أي كتمان ما عند اليهود من معرفتهم بمحمد ﷺ وبما جاء به ، بينما يجدونه مكتوباً عندهم في التوراه التي بين أيديهم . ﴿وأقيموا الصلاة﴾ أي مُرهُمْ بالصلاة وذلك بعد إيمانهم بما جاء به رسول الله عن ربه من البينات لأن الصلاة لا تصح بدون إيمان . وكذلك الزكاة والصوم والحج . فالإيمان برسالة محمد ﷺ أساس كل عمل ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ وأمرهم بالزكاة ، يدفعونها للنبي ﷺ ﴿ واركعوا مع الراكعين ﴾ أي كونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم وأكملها وهي الصلاة . والصلاة هنا تفيد الجماعة أي صلوا مع الجماعة . وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب صلاة الجماعة .

نصف الحزب

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ٤٤

يقول تعالى : كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر وهو جماع الخير أن تنسوا أنفسكم ، فلا تأتمرون بما تأمرون به الناس ؟ وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصّر في أوامر الله ؟ أفلا تعقلون ..؟ ! ما أنتم صانعون بأنفسكم فتنبهوا من رقدتكم وتبصّروا من عمايتكم . وهكذا فقد ذمّ الله تعالى أهل الكتاب في هذه الآية ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ لأنهم كانوا يأمرون الناس بالخير ولا يفعلونه فاستحقوا من الله الذم .

وليس المراد ذمهم على أمرهم بالمعروف مع تركهم له ، بل على تركهم له . فإن الامر بالمعروف معروف ، وهو واجب على العالم . ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ، ولا يتخلّف عنهم كما قال شعيب عليه السلام : ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ .

وليس معنى ما تقدم ، أن العالم اذا كان يعمل منكراً مثلاً ، يجب أن لا ينهى عن المنكر الذي يرتكبه... قال مالك عن ربيعة : سمعت سعيد بن جبير يقول: لو كان المرء لايأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتّى لا يكون فيه شيء ... ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر . وقال مالك :وصدق ، من ذا الذي ليس فيه شيء ... ؟ قلت – يعني ابن كثير – لكنه والحالة هذه .. مذموم على ترك الطاعة ،وفعله المعصية ، لعلمه به ومخالفته على بصيرة . فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم ولهذا جاءت الأحاديث على ذلك في الوعيد .

روى الامام أحمد في مسنده : عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ٦٣ [مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار قال : قلت : من هؤلاء .. ؟ قالوا خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون] .

وروى الإمام أحمد – بالسند – عن أبي وائل قال : قيل لأسامة وأنا رديفه : ألا تكلم عثمان ... ؟ فقال : إنكم ترون أني لا أكلمه إلاّ أسمعكم ... ؟ إني لأكلمه فيما بيني وبينة دون أن أفتتح أمراً أحب أن أكون أول من افتتحه ، والله لا أقول لرجل إنك خير الناس وإن كان عليَّ أميراً بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول : قالوا وما سمعته يقول ؟ قال سمعته يقول : ٦٤ [يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقَى في النار فتندلق به أقتابه فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون يا فلان ما أصابك .. ؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه .] ورواه البخاري ومسلم .

وقال تعالى ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب﴾ وروى ابن عساكر في ترجمة الوليد بن عقبة عن النبي ﷺ قال : ٦٥ [إن أناساً من أهل الجنة يطّلعون على أناس من أهل النار فيقولون : بم دخلتم النار؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلاّ بما تعلّمنا منكم فيقولون : كنّا نقول ولا نفعل]

﴿ وَٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ٤٦ ﴾

يقول تعالى آمراً عبيده فيما يؤملون من خير الدنيا بالاستعانة بالصبر والصلاة ، قال ابن أبي حاتم بسنده إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه : الصبر صبران ، صبر عند المصيبة حسن وأحسن منه الصبر عن محارم الله . وقال ابن المبارك بسنده عن سعيد بن جبير قال : الصبر اعتراف العبد لله بما أصيب فيه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر .

وأما قوله : ﴿ والصلاة ﴾ فإن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر وعن حذيفة ابن اليمان ٦٦ [كان رسول الله ﷺ [إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة] وعن علي رضي الله عنه عنه قال ٦٧ [رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلي ويدعو حتى أصبح] وروى ابن جرير بسنده إلى عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه أن ابن عباس نعي إليه أخوه /قثم/ وهو في سفر فاسترجع ثم تنحىً عن الطريق فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس ثم قام يمشي إلى راحلته، وهو يقول : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلاّ على الخاشعين ﴾ وقال ابن جرير معنى الآية : واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله ، وإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر المقربة لرضاء الله ، العظيمة أقامتها إلا على الخاشعين أي المتواضعين المستكينين لطاعته من مخافته . اهـ

والظاهر أن الآية وإن كانت خطاباً في سياق إنذار بني إسرائيل فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص ، وإنما هي عامة لهم ولغيرهم والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم اليه راجعون ﴾ . هذا من تمام الكلام الذي قبله أي إن الصلاة لثقيلة إلاّ على الخاشعين الذين يظنّون أنهم ملاقوا ربهم أي يعلمون أنهم محشورون اليه يوم القيامة ، معروضون عليه وأنهم إليه راجعون.أي أمورهم راجعة إلى مشيئة الله يحكم فيها ما يشاء بعدله . فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات . فأما قوله: ﴿ يظنون أنهم ملاقو ربهم ﴾ قال ابن جرير عن مجاهد: كل ظن في القرآن يقين وفي رواية فهو علم .

قال ابن كثير : وفي الصحيح إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ٦٨ [ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخّر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربّع ، فيقول : بلى ، فيقول الله

تعالى : أظننت انك ملاقيّ ؟ فيقول : لا . فيقول الله تعالى : اليوم أنساك كما نسيتني] . وسيأتي مبسوطاً عند قوله تعالى : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ إن شاء الله .

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يذكرهم الله بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم ، وإنزال الكتب عليهم ، وعلى سائر الامم من أهل زمانهم ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾ قال أبو العالية : قال : بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم زمانهم فإن لكلّ زمان عالماً وروي عن مجاهد وغيره : ويجب الحمل على هذا ، لأن هذه الأمة أي الأمة الاسلامية أفضل منهم ، لقوله تعالى خطاباً لهذه الأمة : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ﴾ ولا يجوز صرف المعنى إلى تفضيلهم على العالمين أي على من قبلهم ومن بعدهم. فإبراهيم عليه الصلاة والسلام كان قبلهم وهو أفضل من كافة أنبيائهم . ومحمد ﷺ بعدهم ، وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة صلوات الله وسلامه وبركاته عليه .

﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

لما ذكّرهم الله تعالى بنعمه أولاً ... عطف على ذلك التحذير من طول نقمه بهم يوم القيامة فقال : ﴿ واتقوا يوماً ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ﴾ أي لا يغني أحد عن أحد كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾ فهذا أبلغ المقامات. إن كلاً من الوالد وولده لا يغني أحدهما عن الآخر شيئاً ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ﴾ يعني من الكافرين كما قال ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ أي فدية .كما قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ ويفسره قوله تعالى : ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم ﴾ فأخبر تعالى أنهم لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه الله به ، ووافوا الله يوم القيامة على ما هم عليه فإنه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذي جاه ولا يقبل منها فداءٌ

ولو بملء الأرض ذهباً . ويروى عن رسول الله ﷺ أنه قيل له : ٦٩ [يا رسول الله : ما العدل ؟ قال : « العدل الفدية. »] ﴿ ولاهم ينصرون ﴾ أي ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله.وقال ابن جرير في قوله تعالى :﴿ ولاهم ينصرون ﴾ يعني إنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر ،كما لا يشفع لهم شافع،ولا يقبل منهم عدل ولا فدية ، بطلت هنالك المحاباة ، واضمحلت الرُّشى والشفاعات ، وارتفع من القوم التناصر والتعاون وصار الحكم للجبّار العدل الذي لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء فيجزي بالسيئة مثلها وبالحسنة أمثالها وأضعافها.وذلك نظير قوله تعالى : ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون مالكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون ﴾ .

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ٤٩ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ٥٠ ﴾

يقول تعالى أذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم إذ خلّصتكم من آل فرعون، وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه الصلاة والسلام وقد كانوا يذيقونكم أشدّ العذاب ، وذلك إن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته ... ! رأى ناراً خرجت من بيت المقدس ، فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر إلاّ بيوت بني إسرائيل . مضمونها أن زوال ملكه على يد رجل من بني إسرائيل ويقال بعد تحدّث سمّاره عنده بأن بني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة . وهكذا جاء في حديث الفتون كما سيأتي في موضعه في سورة طه ... إن شاء الله . لذا فقد أمر فرعون بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بني إسرائيل ، وترك البنات ، واستعمل بني إسرائيل في أشق الأعمال وأرذلها وسيأتي تفسير ذلك مفصلاً في سورة القصص ، إن شاء الله .

ومعنى ﴿ يسومونكم ﴾ أي يديمون عذابكم وإنما قال ها هنا : ﴿ يُذبِّحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ ليكون ذلك تفسيراً للنعمة عليهم بقوله آنفاً : ﴿ يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ بمعنى أن فرعون وآله كانوا يسومونهم سوء العذاب ، فيذبّحون أبناءهم ويستحيون نساءهم . فيذكرهم الله بنعمته إذ نجاهم من ذلك بعد البلاء الشديد . وفرعون علَمٌ على كل ملك من ملوك مصر الكافرين في ذلك الزمن ويقال أنه من

العمالقة واسمه « الوليد بن مصعب بن الريّان » وقيل مصعب بن الريان وأيّاً من كان عليه لعنة الله .[1]

وقوله تعالى : ﴿ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ قال ابن جرير : وفي الذي فعلنا بكم من إنجائكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم ، أي نعمة عظيمة عليكم في ذلك . وكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره كمجاهد وأبي العالية وأبي مالك والسدي وغيرهم وأصل البلاء : الأختبار . وقد يكون بالخير والشر كما قال تعالى : ﴿ ونبلوهم بالشر والخير فتنة ﴾ وقال ابن جرير : وأكثر ما يقال في الشر بلوتُه أبلوه بلاءً وفي الخير : أبليه إبلاءً وبلاءً . ﴿ وإذ فرَقنا بكم البحر فأنجيناكم ﴾ أي بعد أن أنقذناكم من آل فرعون ، وخرجتم مع موسى عليه السلام ، خرج فرعون في طلبكم ففرقنا بكم البحر أي أوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فلما ضرب موسى بعصاه البحر فانفلق ، فكان كل فرقٍ كالطود العظيم . ثم سار موسى ومن معه وأتبعهم فرعون في طريقهم، حتى إذا تتامُّوا فيه ، أطبقه الله عليهم : فلذلك قال الله تعالى: ﴿ وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾ وكذلك قال غير واحد من السلف. وقد ورد أن هذا اليوم أي يوم غرق فرعون ونجاة بني اسرائيل كان يوم عاشوراء أي العاشر من المحرّم كما روى أحمد بن حنبل عن ابن عباس قال : ٧٠ [قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهوديصومون يوم عاشوراء فقال : (ما هذا اليوم الذي تصومون ؟) قالوا هذا يوم صالح . هذا يوم نجىً

---

(١) قلت : فرعون هذا ، كان يقول أنا ربكم الأعلى ... فرعون هذا ، إدعى الربوبية ، وعذب المؤمنين من بني إسرائيل ... فليس في المسلمين من لا يشهد بكفر فرعون وكونه خالداً في نار جهنم أبداً لا يخفف عنه العذاب . وهذا ما تشهد له الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة ولكن برغم هذا كله فإن هناك فرقة زعمت إنها من المسلمين ! ! ! يقولون بنجاة فرعون من النار وأنه سيدخل الجنة وأنه آمن وما إلى ذلك من الكلام المخالف لصريح القرآن وصحيح السنة . أما ما يستندون إليه في إيمانه هو قوله أثناء غرقه وحين النزع ، وحين أن بلغت روحه الخبيثة الحلقوم ، ورأى ما كان يكفر به حاضراً أمام عينيه ؛ إذ رأى مقعده من النار ـ : «آمنت بالذي آمنت به بنو اسرائيل » وفي هذه الحالة معلوم من نص القرآن أنه لا يقبل إيمان نفس لم تكن آمنت من قبل . وانه لما قال : "آمنت بالذي آمنت به بنو اسرائيل قال الله له « آلآن ... ؟ يعني الآن ... ؟ وبعد ما فات الأوان ... ؟ لأن الذي كان مكلفاً أن يؤمن به بظهر الغيب ، رآه شهادة وكان يكفر به قبل ذلك . فرؤيته شهادة وإيمانه به بعد هذه المشاهدة ، لا يقدم القضية ولا مثقال ذرة لأن الإيمان بالشيء المشاهد ، يؤمن به كل إنسان ، ولا يكفر به أحد ، لأنه مشاهد » ولكن الإيمان الحقيقي هو الإيمان بالغيب ، أي أن تؤمن بالشيء الذي لا تراه كأنك تراه تماماً ، وفي ذلك يكون شدة تصديق بالمبلغ عليه الصلاة والسلام عندك . وعلى كل نحن نسأل الله تعالى أن يهدي هؤلاء الذين يؤمنون بنجاة فرعون إلى الحق والصواب فيشهدوا بكفره . وإذا أبوا ... فنسأل الله أن يحشرهم مع فرعون حيث كان . ألا لعنة الله على فرعون ، وآل فرعون الأولين ...(والآخرين ... ؟! ! !)أعاذنا الله من الكفر والخذلان وسوء المنقلب .

الله عز وجل بني اسرائيل من عدوّهم فصامه موسى عليه السلام فقال رسول الله ﷺ : (أنا أحقّ بموسى منكم) فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصومه] البخاريُّ ومسلم والنسائي وابنُ ماجه من طرقٍ عن أيوب السختياني .

﴿ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ٥١ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٥٢ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ٥٣ ﴾

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في عفوي عنكم لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى عليه السلام لميقات ربّه عند انقضاء أمدِ المواعدة وكانت أربعين يوماً وهي المذكورة في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ﴾ قيل إنها ذو القعدة بكماله وعشر من ذي الحجة وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإنجائهم من البحر . وقوله تعالى : ﴿ وإذْ آتينا موسى الكتاب ﴾ يعني التوراة . ﴿ والفُرقان ﴾ وهو ما يفرق بين الحق والباطل والهدىَ والضلالة.وقيل إنّ الواو هنا زائدة وهذا غريب . وقيل عطف عليه وإن كان المعنى واحداً كما في قول الشاعر :

وقدّمتُ الأديم لـراقشيــه ... فألفي قولَها كذباً ومينا

وقول الآخر : ألا حبذا هند وأرض بها هند ... وهند أتى من دونها النأيُ والبعدُ

فالكذب هو المين ، والنأيُ هو البعدُ .

﴿ لعلكم تهتدون ﴾ بالتوراة التي هي الفرقان بين الهدىَ والضلالة . وكانت المواعدة بعد خروجهم من البحر ،كما دلّ على ذلك سياق الكلام في سورة الأعراف.ولقوله تعالى: ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى ... ﴾

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ٥٤ ﴾

في هذه الآية صفة توبتهِ تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل في غياب موسى عليه

الصلاة والسلام في مواعدة ربّه وقد شعروا بعظم الجريمة العظمى التي اقترفوها ... ! وهي الشرك بالله سبحانه ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا : ﴿ لئن لم يرحمنا ربنا ويغفرْ لنا ... الآية ﴾ فقال موسى : ﴿ يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم ﴾ [١] وفي قوله هنا: ﴿ إلى بارئكم ﴾ تنبيه على عظم جرمهم أي فتوبوا إلى الله الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره .

وقد روى النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث يزيد بن هارون بالسند إلى ابن عباس قال : فقال الله تعالى : إن توبتهم أن يقتل كل واحد منهم من لقي من والد وولد فيقتله بالسيف . ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن فتاب أولئك الذين كانوا خفي على موسى وهارون ما أطلع الله على ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا به فغفر الله للقاتل والمقتول .

قال ابن جرير : اخبرني القاسم بن أبي برة أنه سمع سعيد بن جبير ومجاهداً يقولان في قوله تعالى : ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾ قالا : قام بعضهم إلى بعض بالخناجر يقتل بعضهم بعضاً لا يحنو رجل على قريب ولا بعيد حتى ألوى موسى بثوبه فطرحوا ما بأيديهم فكشف عن سبعين ألف قتيل . وإن الله أوحى إلى موسى أن : حسبي فقد أكتفيت . فذلك حين ألوى موسى بثوبه . [٢]

وروى ابن جرير باسناد جيد عن الزهري قال فيما قاله بشأن هذا الأمر ... وحزن موسى وبنو اسرائيل للذي كانَ من القتل فيهم فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى . ما يحزنك؟ أما من قتل منهم فحيٌ عندي يرزقون وأما من بقي فقد قبلت توبته . فسُرَّ بذلك موسى وبنو إسرائيل فذلك قوله : ﴿ فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ٥٦

يقول تعالى : أذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم بعد الصعق إذ بعثتكم بعد أن سألتم رؤيتي جهرةِ عياناً مما لا يستطاع لكم ، ولا لأمثالكم. قال ابن عباس في هذه الآية : ﴿ وإذ

(١) قلت : إن عبادة العجل شرك بالله تعالى . والشرك أعظم الظلم عند الله ، ولذا قال موسى لهم : « ظلمتم أنفسكم » وما راعيتم حق الذي خلقكم وأنعم عليكم بإنجائكم من فرعون والغرق ، فكيف تعبدون سواه ؟ فالذي خلق وأنعم ونجى وحده هو الذي يستحق العبادة وحده. وهو الله تعالى وتقدس لا شريك له له الملك وله الحمد .

(٢) اكتفاء يليق بجلاله لا كاكتفاء المخلوقين فإن الله غني عن العالمين .

قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرة ﴾ قال علانية . وعن الربيع بن أنس هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه قال فسمعوا كلاماً فقالوا ﴿ لن نؤمن لك حتّى نرىٰ الله جهرة ﴾ قال فسمعوا صوتاً فصعقوا . قال مروان بن الحكم فيما خطب به على منبر مكة : الصاعقة صيحةٌ من السماء ، وقال السدّي في قوله تعالى : « فأخذتكم الصاعقة » نار[1]» وقال عروة بن رويم في قوله : « وأنتم تنظرون » قال صعق بعضهم وبعض ينظرون ، ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء[2] قال السدى ؛ « فأخذتكم الصاعقة » فماتوا فقام موسى يبكي ويدعو الله ويقول : ربي ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكتَ خيارهم ﴿ لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منّا ﴾ فأوحى الله إلى موسى إن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل ثم إن الله أحياهم فقاموا وعاشوا رجلاً رجلاً ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون[3] ويقول السدى في ذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾ قال الربيع بن أنس كان موتهم عقوبة لهم فبعثوا من بعد موت (العقوبة)ليستوفوا آجالهم وقد ذهب البعض إلى أن رؤية بني إسرائيل لهذه النعم وهذه المعجزات المتقدمة أسقطت عنهم التكليف لمعاينتهم الأمر جهرة حتّى صاروا مضطرين إلى التصديق وقد قال آخرون : هذا قول مردود لأن معاينتهم للأمور الفظيعة لا تمنع تكليفهم لأن بني إسرائيل قد شاهدوا أموراً عظاماً من خوارق العادات وهم في ذلك مكلفون وقد أورد القولين الماوردي ووافقه القرطبي على الثاني وهو الأصح لئلاّ يخلو عاقل من التكاليف والله أعلم .[4]

---

(١) قلت : ويمكن الجمع بين قولي مروان والسدي : بأن الصاعقة لها صوت، ولها نار ومصدر هامن السماء والله أعلم .

(٢) قلت : وهذا بعيد لأن المفهوم أن الصعق كان مرة واحدة للجميع ولعل قول السدي هو الأصح والله أعلم .

(٣) قلت : فذلك قوله تعالى : « وأنتم تنظرون » وهذا أقرب من قول عروة بن رويم والله أعلم .

(٤) قلت : وثمة دليل آخر على تأييد القول الثاني . وهو : أن الأنبياء عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام على علم حقيقي تام بمعاينتهم أموراً أعظم مما عاينه بنو اسرائيل بكثير ، كرؤية جبريل وإخبارهم بأنهم رسل الله إلى الناس وإنزال الوحي عليهم ، وتأييد الله لهم ، ورؤية أشياء من عالم الغيب ، كأنها شهادة ، كما حصل لنبينا عليه الصلاة والسلام من مواجهة الأنبياء ليلة الاسراء وإمامته فيهم، ورؤية السموات العلى سماء فسماء ورؤية من فيهن وما فيهن ، والجنه والنار والصراط، ورؤية بعض أشخاص في الجنة أو في النار والتحدث بذلك لصحابته وتكليم الله له ليلة المعراج بلا واسطة – دونما رؤية – ثم عودته إلى الأرض إلى مكة قبل أن ينصدع الفجر وسوى ذلك من المعجزات كل ذلك كان موجباً لاسقاط التكليف – فيما لو صح القول الأول – ولكن مع كل هذا لم تسقط التكاليف عن أحد منهم .

حتّى لما قيل له قد غفر الله لك من ذنبك ما تقدم وما تأخر فلم لإجهاد النفس في العبادة؟ وكانت قد تورمت قدماه من طول القيام – فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ٧١ (أفلا أكون عبداً شكوراً). وقوله تعالى «« واعبد ربك حتّى يأتيك اليقين » أما معاينتهم تلك تلزمهم بالتصديق فهذا مؤكد والله أعلم .

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ٥٧

لمّا ذكر الله تعالى ما دفعه عنهم من النقم ، شرع يذكرهم أيضاً بما أسبغ عليهم من النعم فقال : ﴿ وظلّلناعليكم الغمام ﴾ وهو جمع غمامة لأنه يغم السماء أي يسترها وهو السحاب الأبيض ظُلّلوا به في التية ليقيهم حرّ الشمس . قال ابن جرير وآخرون : غمام أبرد من هذا وأطيب ، وهو ليس من نوع السحاب المعروف عندنا . وقد قال ابن أبي حاتم بالسند عن مجاهد قال : ليس بالسحاب . هو الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيامة و لم يكن إلاّ لهم . وهكذا رواه ابن جرير والثوري عن ابن عباس وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر وقال ابن عباس : وكان معهم في التيه وقوله تعالى : ﴿ وانزلنا عايكم المن والسلوى ﴾ اختلف المفسّرون في المنّ ما هو... ؟ فمن قال إنه كالطلّ ويشبه الربَّ الغايظ(١) ومنهم من قال: إنه كان ينزل مثل الثلج أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس يأخذ الرجل منه قدر ما يكفيه يومه ذلك فاذا تعدّى ذلك فسد ولم يبق حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعته أخذ ما يكفيه يوم سادسه ويوم سابعه لأنه كان يوم عيد لا يشخص فيه لأمر معيشته ولا يطلبه لشيء . والظاهر والله أعلم انه كل ما أُمتن الله بـه عليهم من طعاموشراب وغير ذلك مما ليس فيه عمل ولا كدّ ، فالمنّ المشهور إن أُكل وحدَه ، كان طعاماً وحلاوة ، وإن مزج مع الماء ، صار شراباً طيباً ، وإن ركّب مع غيره صار نوعاً آخر ، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده . والدليل على ذلك ما رواه البخاري عن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ ٧٢ : [الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين] ورواه أحمد والجماعة في كتبهم إلا أبا داود (٢)

واما السلوى : فقال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس : السلوى طائر يشبّهُ بالسماني كانوا يأكلون منه . وقال ابن أبي حاتم بالسند إلى ابن عباس قال : السلوى هو السماني وكذا قال مجاهد والشعبي والضحاك والحسن وعكرمة والربيع بن أنس رحمهم الله وقال قتادة : السلوى كان من طير أقرب إلى الحمرة تحشرها عليهم الريح الجنوب . وكان الرجل يذبح منها بقدر

---

(١) أي ما نسميه اليوم بالمربى وهو نوع من الحلوى .

(٢) قلت : من قوله (الكمأة من المان ...) يدل على أن المن ليس نوعاً واحدا انما هو أنواع ومن أنواعه الكمأة ... والله تعالى أعلم .

ما يكفيه يومه ذلك فإذا كان يوم جمعته أخذه وليوم سبته لأن السبت يوم عبادة لا يشخص فيه لشيء ولا يطلبه . ﴿ كلـوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ أي كلوا من هذه الطيبات الـتي رزقناكم ، وهو أمر إباحة وإرشاد وامتنان وقوله تعالى : ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسـهم يظلمون ﴾ أي أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا. كما قال ﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له ﴾ وشكر الله عبادته كما أمر فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم بأخذهم الكفر وتفضيلهم له على الإيمان رغم ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات ، وخوارق العادات فاستحقوا من الله عذاب النار فذلك قوله : ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ ومن ها هنا تتبيّن فضيلة أصحاب محمّد ﷺ رضي الله عنهم على سائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم مع ما كانوا معه في أسفاره وغزواته ، منها عام تبوك في ذلك القيظ والحر الشديد والجهد لم يسألوا خرق العادة ، ولا إيجاد أمر ، مع أن ذلك كان سهلاً على النبي ﷺ إلا سؤالهم له تكثير الطعام لما أجهدهم الجوع ، وكذلك لما أحتاجوا إلى الماء ، فسأل الله ودعاه فزاد الأكل حتى ملأوا كل وعاء .

وسأل الله من أجل المـاء ، فجاءتهم سحابة ، فأمطرتهم فشربوا وسقوا الإبل وملأوا أسقيتهم . فهذا هو الأكمل في اتّباع الشيء مع قدر الله مع متابعة الرسول ﷺ

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَاكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ ٱلسَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ٥٩ .

يقول الله تعالى على نكولهم عن الجهاد ، ودخولهم الأرض المقدسة لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه الصلاة والسلام فأمروا بدخول الأرض المقدّسة التي كانت ميراثاً لهم عن أبيهم إسرائيل عليه الصلاة والسلام . وقتال من فيها من العماليق الكفرة فنكلوا عن قتالهم وضعفوا فرماهم الله في التيه عقوبة لهم .

وقد اختلف المفسرون في تعيين اسم لهذه القرية ؛ فمن قائل : إنها أريحا فلسطين ومن قائل إنها مصر ، ولكن أصح الأقوال أنها بيت المقدس بدليل ما قاله الله تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام في سورة المائدة : ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكـم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾ هذا ولما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة ، مع يوشع بن نون عليه السلام، وفتحها الله عليهم عشية جمعة ولما فتحوها أمرهم الله: ﴿ وادخلوا

الباب سجداً ﴾ أي باب بيت المقدس سجّداً أي ركّعاً وذلك شكراً لله تعالى على نعمة الفتح والنصر وانقاذهم من التيه والضلال، وأمرهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وقولوا حطّة ﴾ أي مغفرةً يا ربّ عما صدر منّا من الذنوب اللهم فحط عنا خطايانا [١]

ولكن بني إسرائيل عوضاً عن أن يدخلوا باب بيت المقدس سجّداً أي ركّعاً شاكرين لله، دخلوه زحفاً على أستاههم مستهزئين، وعوضاً عن أن يقولوا ﴿حطّة﴾ أي احطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهزأوا وقالوا: / حبّة في شعرة /.

فقد روى عبد الرزاق عن أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: ٧٣ [قال الله لبني إسرائيل: ﴿ أدخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفرْ لكم خطاياكم. ﴾ فبدّلوا ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم فقالوا: حبّة في شعرة] وهذا حديث صحيح رواه البخاري عن إسحق بن نصر ومسلم: عن محمد بن رافع والترمذي عن عبد الرحمن بن حميد كلهم عن عبد الرزاق به. ﴿ فبدّل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم ﴾ أي بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل فاستهزأوا ... !!! وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ولهذا أنزل بأسه وعذابه بفسقهم، وهو خروجهم عن طاعته فقال: ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب. والرجز أيضاً الطاعون لما قال ابن أبي حاتم بالسند المتصل إلى سعد بن مالك، وأسامة بن زيد، وخزيمة بن ثابت رضي الله عنهم قالوا: قال رسول الله ﷺ: ٧٤ [الطاعون رجز، عذابٌ عذّب به من كان قبلكم]



﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَٱشْرَبُوا مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ ٦٠

يذكّر الله سبحانه وتعالى بني إسرائيل بنعمته عليهم بإجابة موسى عليه الصلاةُ والسلام حين استقى لهم فيسر الله الماء. وأخرجه سبحانه لهم من الحجر وفجر لهم منه اثنتا عشرة عيناً لكل سبط من أسباطهم عين قد عرفوها. وقال لهم: ﴿ كلوا واشربوا ﴾ أي كلوا من المنّ والسلوى واشربوا من هذا الماء الذي أنبعه الله بلا سعي منكم ولا كدّ، واعبدوا الله الذي سخرّ لكم ذلك ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ أي ولا تقابلوا النعم بالعصيان، فتُسلَبوها

---

(١) قلت: وفيه دليل على التوسل بالأعمال الصالحة إلى الله سبحانه وذلك بأن الله تعالى طلب إليهم أن يعترفوا بذنوبهم حتى يكون هذا الاعتراف وسيلة لمغفرة الذنب.

وقد اختلف في نوع الحجر الذي انفجرت منه العيون الأثنتا عشرة هل هو حجر معيّن أو هو حجر مّا من الأحجار. فقيل وقيل وقيل. قال الحسن : لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه قال: وهذا أظهر للمعجزة وأبين في القدرة فكان يضرب الحجر بعصاه ثم يضربه فييبس . وهو أقـرب للصواب والله أعلم .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾

يُذكّر الله بني إسرائيل بنعمته في إنزاله عليهم المنّ والسلوى طعاماً طيباً نافعاً ويذكّرهم بضجرهم من هذا الرزق الهنيء السهل، وسؤالهم موسى عليه السلام إستبداله ، بقولهم له : ﴿ يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربّك يخرجْ لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها . ﴾ فإنهم لم يصبروا على طعام واحد وهو المن والسلوى دون أن يتبدّل أو يتغيّر ، فملّوه وكرهوه وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه قبل التيه وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل وبقل، فأرادوا تنويع مآكلهم مما تنبت الأرض من هذه الأشياء التي كانوا يزرعونها . فأما البقل والقثاء والعدس والبصل فكلها معروفة . وأما الفوم فقد أختلف السلف في معناه . فمن قال : الفوم هو الثوم كما وقع في قراءة ابن مسعود : ﴿ وثومها ﴾ بالثاء . وكذا فسّره مجاهد والربيع بن أنس فإن كان ذلك صحيحاً فإنه أي حرف الفاء من الحروف المبدلة في أثافي : أثاثي . وأشباه ذلك مما تقلب فيه الفاء ثاءً والثاء فاءً لتقارب مخرجيهما والله أعلم .

وقال آخرون : إن الفوم : الحنطة . كما قال ابن عباس : إن الفوم الحنطة بلسان بني هاشم . وقال آخرون : إن الفوم هو ، كل ما يختبز منه . قال البخاري : وقال بعضهم : الحبوب التي تؤكل: كلها فوم [1]

---

(١) قلت : لعل تفسير الفوم بالحنطة أو بكل ما يختبز .. أقرب إلى الصواب من تفسيره بالثوم وذلك من وجهين

١ ـ يفهم من ترتيب ذكر هذه الأشياء في الآية الكريمة : أن الله ذكر البقل والقثاء إلى بعضهما لتقارب النوع في الأصل وهو البذور . ثم ذكر الفوم والعدس لتقارب نوعيهما في الأصل لأنهما من نوع الحبوب ولو أن الفوم هو الثوم لتأخر ترتيب ذكره مع البصل لتقاربهما في الأصل وفي الخبث .

٢ ـ إن الحنطة وكل ما يختبز منه ضرورة معاشية أكثر من الثوم إذ حاجة الناس للحنطة ، ولكل ما يختبز كالشعير والذرة ... أكثر من حاجتهم إلى الثوم والله أعلم . أضف إلى ذلك أن الفوم: الحنطة في لغة بني هاشم فلما طلب بنو إسرائيل هذه الأشياء ... وفضلوها على المن والسلوى وبخهم الله تعالى فقال : « أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، إهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم » .

وقوله تعالى : ﴿ اهبطوا مصراً ﴾ هكذا هو منوَّن مصروف مكتوب بالألف بالمصاحف الأئمة العثمانية وهو قراءة الجمهور بالصرف . وقال ابن جرير : ولا أستجيز القراءة بغير ذلك لإجماع المصاحف على ذلك . والمعنى : أنِ اهبطوا مصراً من الأمصار لا / مصر فرعون / لأن موسى عليه الصلاة والسلام قال لهم : هذا الذي سألتم ليس بأمرٍ عزيزِ المنال ؛ بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه . فليس يساوي مع دناءته وكثرتِهِ في الأمصار أن أسأل اللهَ فيه . ولهذا قال : ﴿ أتستبْدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير إهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم ﴾ أي ما طلبتم ولما كان سؤآلهم من باب البطر والأشر ، ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه والله أعلم.

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ ٦١

يقول تعالى : ﴿ وضرِبت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ أي وضعت عليهم وألزموا بها شرعاً وقدراً [١] أي لا يزالون مستذَلّين ... وكل من وجدهم إستذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصَّغار وهم مع ذلك أذلاء في نفوسهم مستكينون بما أذنبوا . قال الحسن : أذلّهم الله فلا منعة لهم ، وجعلهم تحت أقدام المسلمين [٢] وقد أدركتهم هذه الأمة ، وإن المجوس لتجبيهم الجزية . ﴿ وباءوا بغضَب من الله ﴾ يعني رجعوا بآثامهم ، وانصرفوا متحملين غضب الله وسخطه اللذين وجبا عليهم بما أسلفوا من الآثام .

﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيّين بغير الحق. ﴾ يقول تعالى : إن مجازاتهم بضرب الذلة والمسكنة عليهم ، وبغضب الله وسخطه كانت بسبب استكبارهم عن اتباع الحق . وإهانتهم حمَلةَ الشرع وهم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وعدم اتباعهم . وقد انتقصوا

---

(١) قلت – : شرعاً : أي بما اقترفوه من الكفر والآثام لذا فإنهم – بعد ما كفروا – كانوا ولا يزالون مستذلين ... وكل من وجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار .
وقدراً : أي بما سبق في علم الله سبحانه مما سيكون منهم من اختيار الكفر على الإيمان بعد ما يهدون إليهما من قبل الله – هداية دلالة – وسيعاقبون على كفرهم بالذلة والمسكنة والغضب لذلك فإنهم في أنفسهم وجبلتهم أذلاء مستكينون .

(٢) قلت – : نعم « جعلهم تحت أقدام المسلمين – هم وغيرهم – لما كان للمسلمين دولة تحكم بما أنزل الله. وكانوا أهلا لحمل رسالة الإسلام فحملوها وتمثلوها بإخلاص لله ولكتابه ولرسوله لا يحيدون عنها قيد أنملة . ولكنهم لما جعلوا كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وراء ظهورهم واستبدلوها بشرع أعداء الله وأعدائهم ، أذلهم الله وجعل بلادهم « فلسطين » تحت أقدام اليهود بينما كان اليهود بالأمس تحت أقدام المسلمين لا لأن اليهود خير فاليهود هم المغضوب عليهم... بل لأن المسلمين تخلوا عن مسؤولياتهم في حمل رسالة الاسلام وحكموا بغير ما أنزل الله . فهل للمسلمين أن يعودوا إلى الله ، ليعود مجدهم ويعود اليهود كما كانوا تحت أقدام المسلمين؟

حقهم لدرجة أن أفضى الحال إلى قتلهم بغير الحق أي بلا جرم فعلوه . فلا كفرَ أعظم ولا أبلغ من ذلك . روى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : ٧٥ [أشد الناس عذاباً يوم القيامة ، رجل قتله نبي ، أو قتل نبياً، وإمام ضلالة ، وممثل مـن الممثلين .] وجاء في الحديث المتفق عليه : ٧٦ [الكِبْرُ بطَر الحقّ وغمط الناس] أي ردّ الحق وانتقاص الناس والازدراء بهم والتعاظم عليهم ولذا أحلَّ الله بهم بأسه الذي لا يردُّ ، وكساهم ذلاً في الدنيا والآخرة ... جزاءً وفاقا . ﴿ ذلك بما عصَوا وكانوا يعتدون ﴾ وثمة علةٍ أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به، وذلك بموجب فعلهم المعاصي وارتكابهم محارم الله،واعتدائهم حدّ ما نُـهوا عنه والله أعلم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَارَىٰ وَٱلصَّابِئِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ٦٢

لما بين الله سبحانه في الآيات السابقة ، حال الكفار والمنافقين واليهود وسائر من خالفوا أوامره ، وتعدوا فعل ما لا إذن لهم فيه منه تعالى ، وبين ما أحلّ بهم من النكال نبّه تعالى على أن كذلك من أحسن من الأمم السالفة، وأطاع أوامر الله كما أمر سبحانه فإن له جزاءً الحسنى . وكذلك الأمر إلى يوم القيامة ... فكل من اتبع رسول الله النبيّ الأمي فله السعادة الأبدية ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه في الآخرة ، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلّفونه في الدنيا . ﴿ إن الذين آمنوا ﴾ وهم أمة محمّد ﷺ ، وسميت هذه الأمة : مؤمنين لكثرة إيمانهم وشدة إيقانهم ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية (١)

﴿ والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر . ﴾

أي الذي آمن من اليهود والنصارى والصابئين (٢) سواءً في ذلك الأمم السابقة منهم الذين

---

(١) قلت : وسواء في ذلك من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد مبعثه ، أو من آمن به قبل بعثته أمثال : قس بن ساعدة الأيادي ، وزيد بن عمر بن نفيل ، وورقة بن نوفل ، والبراء الشني ، وأبي ذر الغفاري وسلمان الفارسي ، وبحيرا الراهب ووفد النجاشي . فمنهـم من أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وتابعه ومنهـم من لم يدركه ... فهؤلاء جميعاً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهم الذين عناهم الله فيمن عناهم إلى يوم القيامة في قوله بهذه الآية « إن الذين آمنوا » والله تعالى أعلم .

(٢) قلت – : اليهود والنصارى هم – كما هو معلوم – الأمتان اللتان تنتسبان إلى موسى وعيسى عليهما السلام وهذان الاسمان لزما اليهود والنصارى زمن موسى وعيسى عليهما السلام لما كانوا على الحق وبقيا لازمين لهما كاسم الإسلام لأمة محمد صلى الله عليه وسلم. أما «الصابئون فقد اختلف المفسرون في أمرهم ... فمنهم من –

آمنوا بأنبيائهم وكتبهم ولم يغيروها ولم يبدّلوها وماتوا على ذلك . أو ممن أدركوا منهم رسول الله ﷺ أمثال عبدالله بن سلام والنجاشي وسلمان الفارسي وآمنوا بالله ورسوله وعملوا صالحاً فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . فإن الله لا يقبل عملاً من أحد إلاّ ما كان موافقاً لشريعة نبيّه عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين . ﴾

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٦٣ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٦٤ ﴾

يذكّر الله تعالى بني إسرائيل ما أخذه عليهم من العهود والمواثيق باتباع التوراة وما فيها من التوحيد والأحكام . ولما أبوا أن يطيعوا أمر الله ، أمر الله الجبل أن يقع عليهم وقد غشيهم كأنه ظلّة ، وظنوا أنه واقع بهم فسقطوا سجّداً على شقٍ ، ونظروا بالشق الآخر ، تائبين لله . فكشف الله عنهم الجبل . وذلك قوله تعالى : ﴿ ورفعنا فوقكم الطور ﴾ ثم تولّيتم من بعد ذلك ونقضتم ما عاهدتم الله عليه ﴿ فلولا فضل الله عليكم ﴾ بتوبته ، وإرسال النبيّين والمرسلين إليكم لكنتم بنقض الميثاق المؤكّد العظيم من الخاسرين في الدنيا والآخرة .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ٦٥ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ٦٦ ﴾

– قال: هم قوم كانوا على فطرتهم ، ولا دين مقرر لهم يتبعونه. ولذا كان المشركون ينبزون من أسلم ... بالصابىء أي أنه خرج من سائر الأديان . وقال آخرون : الصابئون هم الذين لم تبلغهم دعوة نبي ومن قال : أنهم عبدةالنجوم والكواكب. ومن قال أنهم سموا صابئة لأنهم خرجوا من دين اليهود وعبدوا الملائكة والكواكب.
وقال ابن تيمية : رحمه الله تعالى : – وقوله هو الأصح والله أعلم – نلخصه هنا من كتابه « الرد على المنطقيين » : كانت « حران » دار الصابئة وكان بها هيكل العلة الأولى ، وهيكل العقل الأول وهيكل النفس الكلية ، وهيكل زحل ، وهيكل المشتري ، وهيكل المريخ ، وهيكل الشمس وكذلك الزهرة وعطارد والقمر .
وكان دينهم قبل ظهور النصرانية ، ثم ظهرت النصرانية فيهم مع بقاء أولئك الصابئة المشركين وكان جامع دمشق معبداً كبيراً... له قبلة إلى القطب الشمالي . والصابئة نوعان : ١ – حنفاء موحدون ، ٢ : وصابئة مشركون . فالأول هم الذين أثنى عليهم الله بهذه الآية . فأثنى الله على من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً . » اهـ

يقول تعالى: ولقد علمتم يا معشر اليهود ما أحل من البأس والنكال بأهل « إيلة » الذين عصوا أمر الله فيما أُخذَ عليهم من تعظيم يوم السبت وعدم العمل فيه. فتحايلوا على اصطياد الحيتان التي كانت ما تأتيهم إلاّ يوم السبت، بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل والبرك فلا تستطيع الخروج منها طيلة يوم السبت فيأتون إليه ليلة الأحد، ويأخذون زاعمين أنهم لم يصطادوه يوم السبت بحيلهم هذه مع أن فعل الصيد، وقع في السبت بفعل ما فعلوه قبل يوم السبت فلذلك مسخهم الله قردة مسخاً حقيقياً.

وقد كان أهل هذه القرية قسمين .. قسم أحتالوا وقسم لم يحتالوا أبداً، وهؤلاء على قسمين أيضاً قسم كان ينهى عن الصيد وقسم آخر لم ينه، فلما حل العذاب نزل بالذين احتالوا ... وبالذين لم ينهوهم سواءً ... جزاء عدم النهي. ولم ينجُ إلا أولئك الذين نهوهم عن هذه المعصية. قال عطاء الخراساني: نودوا يا أهل القرية: كونوا قردة خاسئين فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون: ألم ننهكم؟ فيقولون برؤوسهم أي بلى ولما كان المسخ لا يعيش أكثر من ثلاثة أيام، فبقوا قردة ثلاثة أيام لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناسلون ثم ماتوا. قال ابن عباس: فلولا ما ذكر الله أنه نجّى الذين نهوا عن السوء لأهلك الله جميع القرية.

قوله تعالى: ﴿ وجعلناها نكالاً ﴾ فالضمير عائد على القرية وقيل على المسخة والعقوبة والصحيح القرية، أي جعل الله أهل هذه القرية بسبب اعتدائهم في السبت نكالاً أي عاقبناهم عقوبة فجعلناها عبرةً، ولمن حولها من القرى ولبني اسرائيل كيلا يعملوا مثل أعمالهم. وقوله تعالى: ﴿ وموعظة للمتقين ﴾ أي موعظة للمتّقين الذين من بعدهم إلى يوم القيامة. فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم. وقد كان ذلك في عهد داود عليه السلام. قال الله تعالى: ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ۝ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون. ﴾

روى ابن بطة بالسند المتصل إلى أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ٧٧ [لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارمَ الله بأدنى الحيل] وهذا إسناد جيد وفي سنده أحمد بن محمد بن مسلم وثقهالحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي وباقي رجاله مشهورون على شرط الصحيح والله أعلم.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَاهِلِينَ ٦٧

قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ٦٨ قَالُوا ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ٦٩ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ ٱللهُ لَمُهْتَدُونَ ٧٠ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ٧١

روى ابن أبي حاتم بالسند المتصل إلى محمد بن سيرين عن عبيدة السلماني قال : « كان رجل من بني إسرائيل عقيماً، وكان له مال كثير وكان ابن أخيه وارثه فقتله. ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدَّعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض فقال ذوو الرأي منهم والنُّهىَ : علامَ يقتل بعضكم بعضاً ، وهذا رسول الله فيكم فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له، فقال ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرةً قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . ﴾ قال فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة . ولكنهم شددوا فشدَّد الله عليهم حتى أنتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فقال : والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً فأخذوها بملء جلدها ذهباً . فذبحوها فضربوه ببعضها فقام فقالوا من قتلك ... ؟ فقال هذا ... وأشار إلى ابن أخيه ثم مال ميتاً . فلم يُعطَ من ماله شيئاً، فلم يورَّث قاتلٌ بعد . والظاهر أن هذه القصة مأخوذة من كتب بني إسرائيل . وهي مما يجوز نقلها ... ولكن لا تصدّق ولا تكذّب ، ولذلك لا يعتمد عليها إلا بما وافق الحق عندنا ... والله أعلم .

• • •

يقول تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ .

يذكّر الله تعال بني إسرائيل بنعمته عليهم في خرق العادة لهم في شأن البقرة وبيان القاتل فلما شكوا أمرهم إلى موسى عليه السلام قال : ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، قالوا أتتخذنا هزوا ﴾ أي تستهزيء بنا... ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ فهو يلجأ إلى الله عائذاً به أن يكون من المستهزئين الجاهلين والنبيّ لا يفعل هذا ... فلما تيقنوا الجدّ في قول موسى عليه السلام ﴿ قالوا أدعُ لنا ربك يبيّن لنا ما هي... ﴾ وما كان الله ليأمر إلاّ أن يذبحوا بقرةً ما ... أيّاً كانت ... ولكنّ عنادهم ، وكثرة سؤالهم على أنبيائهم ، دعاهم أن يقولوا : ﴿ أدع لنا ربّك يبينْ لنا ما هي ... قال أنه يقول إنها بقرةٌ لا فارض ولا بكر ، عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون ﴾ أي لا كبيرة ولا صغيرة لم يلحقها الفحل ، بل هي أقوى ما تكون من البقر . وأطيعوا أمر الله فيما يأمركم به من ذبح البقرة . ﴿ قالوا : أدعُ لنا ربّك يبينْ لنا ما لونها ... قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين . ﴾

قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس : ﴿ فاقع لونها ﴾ يعني شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض وقوله : ﴿ تسر الناظرين ﴾ أي تُعجب الناظرين

﴿ قالوا أدعُ لنا ربّك يبينْ لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإنّا إن شاء الله لمهتدون ﴾ وهذا أيضاً من شدة عنادهم واختلافهم ؛ ﴿ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلّمةٌ لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾

قوله : ﴿ لا ذلول تثير الأرض ﴾ أي أنها ليست مذلّلة بالحراثة. ﴿ ولا تَسقي الحرث ﴾ أي ولا معدّة للسقي في السانية ، بل هي مكرّمة حسنة صبيحة ﴿ مسلّمةٌ ﴾ أي صحيحة لا عيب فيها ﴿ لا شية فيها ﴾ أي ليس فيها لون غير لونها . ﴿ قالوا الآن جئت بالحق ﴾ أي مطابق للوصف الذي رأوه في البقرة عند الرجل ... ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس : كادوا أن لا يفعلوا ... ولم يكن ذلك الذي أرادوا ... لأنهم أرادوا ألاّ يذبحوها يعني إنهم مع كل هذا البيان ، وكل هذه الأجوبة والأسئلة ، والاستيضاح ، ما ذبحوها إلا بعد الجهد ، وفي هذا ذم لهم . وذلك إنه لم يكن غرضهم إلاّ التعنّت فلهذا ما كادوا يذبحونها .

قال ابن جريج : قال رسول الله ﷺ ٧٨ [إنما أمروا بأدنى بقرة ولكنهم لما شدّدوا شدّد الله عليهم وأيم الله لو أنهم لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد .]

مسألة : أستدل بهذه الآية في حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت، أو تم تقييدها بعد الإطلاق، على صحة السَّلَم في الحيوان كما هو مذهب مالك والأوزاعي والليث والشافعي وأحمد وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً بدليل ماثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ : ٧٩ [لاتنعت المرأة المرأة لزوجها كأنه ينظر إليها] وكما وصف النبيّ ﷺ إبل الدية في قتل الخطأ وشبه العمد بالصفات المذكورة بالحديث وقال أبو حنيفة والثوري والكوفيون : لا يصحّ السلم في الحيوان لأنه لا تنضبط أحواله وحكى مثله عن ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعبد الرحمن بن سمرة وغيرهم .

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَءْتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * ٧٢ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ٧٣

قوله تعالى : ﴿ وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ﴾ أي واذكروا يوم قتلتم نفساً فادّارأتم فيها قال البخاري : ﴿ فادارأتم فيها ﴾ أي أختلفتم وقال ابن جريج فادّارأتم فيها قال قال بعضهم انتم قتلتموه وقال آخرون بل انتم قتلتموه أي كل فريق يدرأعن نفسه الجريمة . ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ قال مجاهد: ما تغيبون ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ هذا البعض هوأي شيء كان من أعضائها فالمعجزة حاصلةٌ به فلو كان في تعيين هـــذا البعض فائدة تعود علينا في أمر الدين والدنيا لبيّنه الله تعالى لنا، ولكنه أبهم ولم يجيء من طريق صحيح عن المعصوم بيانه فنحن نُبهمُ كما أبهم الله . وقوله تعالى : ﴿كذلك يحي الله الموتى﴾ أي فضربوا القتيل ببعض أجزاء البقرة فحي ... وفي ذلك تنبيه من الله تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من امر القتيل جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجةً لهم على المعاد ... وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والعناد . روى أبو داود الطيالسي عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه قال (قلت يا رسول الله : كيف يحيي الله الموتى ... ؟ قال: ٨٠ [«أما مررت بوادٍ مَحْلٍ ثم مررتَ به خَضِراً ... » قال بلى . قال : « كذلك النشور » أو قال : «كذلك يحيي الله الموتى»].

استدل لمذهب الإمام مالك في كون قول الجريح : فلان قتلني [1] لوثاً بهذه القصة ، لأن القتيل لما حيَّ سئل عمن قتله فقال : فلان قتلني ، فكان ذلك مقبولاً منه ، لأنه لا يخبر حينئذٍ إلا بالحق، ولا يتهم والحالة هذه، ورجحوا ذلك لحديث أنس: ٨١[أن يهودياًقتل جارية على أوضاح لها [2] فرضخ رأسها بين حجرين ، فقيل : من فعل بك هذا ، أفلان ؟ أفلان ؟

(١) (اللوث) : شبه الدلالة (قاموس) .
(٢) الأوضاح : جمع (وضح) وهي الحلي من الفضة (قاموس) .

حتى ذكروا اليهودي ، فأومأت برأسها فأخذ اليهودي فلم يزل به حتى أعترف فأمر رسول الله ﷺ [أن يرض رأسه بين حجرين]

وعند مالك إذا كان لوثاً ، حلف أولياء القتيل قسامةً ، [١] وخالف الجمهور في ذلك ، ولم يجعلوا قول القتيل في ذلك لوثاً .

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ٧٤

يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل وتقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ﴾ فهي كالحجارة التي لا يكون من طبيعتها اللين أبداً ، لهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل . فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون . ﴾

قوله تعالى : ﴿ فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ أي صارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسيةً بعيدةً عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات. فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها ﴿ أو أشد قسوة﴾ من الحجارة ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشّقّقُ فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾ كما قال ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهنّ وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً﴾ قال مجاهد : كل حجر يتفجر منه الماء أو يتشقق عن ماء أو يتردّى من رأس جبل ، لمن خشية الله . نزل بذلك القرآن . فهذه الحجارة ألين من قلوب بني إسرائيل لأنهم كذّبوا بالحق بعد أن رأوه . وقد قال بعض المفسرين « إنّ ما ورد من وصف الحجارة من قبيل المجاز». ولكن قال الرازي والقرطبي وغيرهما من الأئمة : «لا حاجة إلى المجاز فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى : ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبَيْنَ أن يحملْنها وأشفقن منها ﴾» وقوله ﴿تسبّح له السموات السبع والأرض ومن فيهن﴾ وقوله تعالى ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ وقوله تعالى

(١) القسامة : الجماعة يقسمون على الشيء ويأخذونه أو يشهدون (قاموس) .

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدّعاً من خشية الله ﴾ وفي الصحيح : ٨٢ [هذا جبل يحبنا ونحبه] ، وكحنين الجذع المتواتر خبره . وقوله تعالى : ﴿ وما الله بغافلٍ عما تعملون ﴾ (١) (٢)



﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ٧٥ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٧٦ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ٧٧

يقول تعالى : أفتطمعون أيها المؤمنون أن يؤمنوا لكم أي ينقادوا اليكم بالطاعة... لا .. إن هؤلاء الفرق الضالة من اليهود الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه ثم قست قلوبهم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه أي يتأوّلونه على غير تأويله من بعد ما عقلوه أي فهموه على الجلية ، ومع هذا يخالفونه على بصيرةٍ وهم يعلمون أنهم مخطئون فيما ذهبوا اليه من تحريفه وتأويله وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسيةً يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ قال السدي : وقد كان فريقاً منهم يسمعون كلام الله ثم يحرّفونه ، قال : هي التوراة حرفوها قال قتادة : ﴿ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ قال هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعوه من نعت رسول الله ﷺ ومن تحليل الحرام وتحريم الحلال وإحقاق الباطل وإبطال الحق .

وعن ابن عباس : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ أي أن صاحبكم رسول الله ولكنه إليكم خاصة : ﴿وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجّوكم به عند ربكم أفلا تعقلون﴾ أي وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا لا تحدثوا العرب بهذا فإنكم

(١) قلت : أي ليس بغافل عما يعمل هؤلاء من المخالفات الظاهرة والباطنة وكيف يغفل ، وهو الذي لا تعزب عن ملكه مثقال ذرة في السموات والأرض .

(٢) قال صديق حسن خان رحمه الله : « بغافل عما تعملون » أي فيه من التشديد والتهديد والوعيد ما لا يخفى فإن الله عز وجل اذا كان عالما بما يعملونه مطلعاً عليه غير غافل عنه ، كان لمجازاتهم بالمرصاد والله أعلم .

قد كنتم تستفتحون به عليهم ، فكان منهم . فأنزل الله : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا ... الآية﴾ أي تقرون بأنه نبيٌّ وقد علمتم أنه قد أخذله الميثاق عليكم باتباعه ، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر ونجده في كتابنا ، إجحدوه ولا تُقِرُّوا به . فيردُّ عليهم الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ أولا يعلمون أن الله يعلم ما يُسرّون وما يعلنون ﴾ قال أبو العالية يعني ما أسرّوا من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به وهم يجدونه مكتوباً عندهم .

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ ٧٩

يقول تعالى : ﴿ ومنهم أميّون ﴾ أي ومن أهل الكتاب والأمي عند العرب : هو الذي لا يكتب ولا يحسب . وقال عليه الصلاة والسلام : ٨٣ (إنا أمة اميَّة لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا وهكذا ... الحديث] والمقصود أن ومن أهل الكتاب أميّون لا يقرأون ولا يكتبون ﴿ إلاّ أمانيّ ﴾ إلاّ أقوالاً وأحاديث يقولون بأفواههم كذباً ، ويتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله ويقولون هو من الكتاب ﴿ إن هم إلاّ يظنون ﴾ أي يكذبون ولا يدرون ما فيه وهم يجدون نبوتك بالظن . ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ﴾ هؤلاء صنف آخر من اليهود . وهم أحبارهم الداعون إلى الضلال بالزور والكذب وأكل أموال الناس بالباطل .

قال السدي : كان ناس من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم يبيعونه من العرب ويحدثونهم أنه من عند الله ، فيأخذوا به ثمناً قليلاً . ومن حديث رواه البخاري عن الزهري من طرقٍ إلى ابن عباس ... أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيّروه وكتبوه بأيديهم وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً .

﴿ فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ أي فويل لهم مما كتبت أيديهم من الكذب والبهتان والافتراء وويل لهم مما أكلوا به من السحت . والله أعلم .

﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ٨٠

إدعى اليهود أن نار جهنم لن تمسّهم أكثر من الأيام التي عبدوا فيها العجل ، وهي أربعين يوماً فقط فردّ الله عليهم : ﴿ قل أتخذتم عند الله عهداً ﴾ بذلك فإن كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده ولكن ما جرى أبداً مثل هذا العهد ﴿ أم ﴾ بمعنى بل ﴿ تقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ من الكذب والافتراء عليه . ومن حديث رواه أبو بكر بن مردويه بالسند المتصل إلى أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ٨٤ [سأل اليهود بعد فتح خيبر في جملة ما سألهم : (... من أهل النار ؟ فقالوا نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها فقال رسول الله ﷺ : [إخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبداً]

بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٨١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٨٢

يردّ الله سبحانه وتعالى على بني إسرائيل الذين زعموا قائلين : ﴿ ... لن تمسنا النار إلاّ أياماً معدودة ﴾ بأن الأمر ليس كما زعمتم وتمنيتم ولا كما تشتهون بل الأمر : إنّه من عمل سيّئة وأحاطت به خطيئته . وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة بل جميع أعماله سيئات ، فهذا من أهل النار . ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة فهم من أهل الجنة . قال ابن عباس : ﴿بلىٰ من كسب سيئة﴾ أي عمل مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتم به حتى يحيط به كفره فما له من حسنة وروى الإمام أحمد بسنده إلى ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ٨٥ [إيّاكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه] قال ابن عباس : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنّة هم فيها خالدون. ﴾ أي من آمن بما كفرتم ، وعمل بما تركتم من دينه فلهم الجنة خالدين فيها . ويخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبداً بلا أنقطاع والله أعلم .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ٨٣

يذكر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر ، وأخذ ميثاقهم على ذلك، وأنهم أعرضوا عن ذلك كله عمداً وهم يعرفونه ويذكرونه . فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به

شيئاً ، وبهذا أمر جميعَ خلقهِ ولذلك خلقهم كما قال تعالى : ﴿وما أرسلنا من قبلكَ من رسول إلاَّ نوحي إليه أنه لا إلٰه إلا أنا فاعبدونِ﴾ وهذا هو حق الله تبارك وتعالى أن يُعبدَ وحده لا شريك له ثم يأتي بعده حقُّ المخلوقين ، وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين . ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى : ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ...﴾ وفي الصحيحين عن ابن مسعود : ٨٦ [قلت يا رسول الله أي العمل أفضل قال : (الصلاة على وقتها) قلت ثم أي .. ؟ قال : (بر الوالدين) قلت ثم أي .. ؟ قال : (الجهاد في سبيل الله] وجاء في الحديث الصحيح : ٨٧ [أن رجلاً قال يا رسول الله من أبر قال : (أمك) قال ثمَّ مَنْ ؟ قال : (أمك) قال : ثمَّ مَنْ ؟ قال : (أباك ثم أدناك ثم أدناك] ﴿واليتامى﴾ وهم الصغار لا كاسب لهم من الآباء ﴿والمساكين﴾ الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم .

قال الحسن البصري ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ فالحُسْنُ من القول يأمر بالمعروفِ وينهى عن المنكر ويحلم ويعفو ويصفح ويقول للناس حسناً كما قال الله . وهو كل خُلقٍ حسن رضيه الله . روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : ٨٨ [لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً وإن لم تجد فالقَ أخاك بوجه منطلق] وأخرجه مسلم .

ومن بعد ما أمرهم بالإحسان للناس بالفعل فجمع بين طرفي الإحسان الفعلي والقولي ، ناسب أن يأمرهم أن يقولوا للناس حسْناً . ثم أكّد الأمر بعبادته ، والإحسان إلى الناس بالمتعيّن من ذلك ، وهو : الصلاة والزكاة . وأخبر أنهم أي بنو إسرائيل تولّوا عن ذلك كله أي تركوه وراء ظهورهم ، وأعرضوا عنه على عمْد بعد العلم به إلاّ القليل منهم . هذا حال هذه الأمة أي حال بني إسرائيل أما حال هذه الأمّة الاسلامية فقد أمرهم الله بنظير ذلك فقامت بما لم تقمْ به أمة من الأمم قبلها ولله الحمد والمنة . والله أعلم [١] .

---

(١) قلت : نعم كان حال الأمة الإسلامية كما ذكر المؤلف المفسر رحمه الله وذلك في صدر الاسلام عندما كانت الأمة الاسلامية تحكم بما أنزل الله . ولكن كلما تقادم العهد أنقصوا من تنفيذ أوامر الله فينقصهم الله بقدر ذلك من هيبتهم ودولتهم ، إلى أن وصلت الحال في زمننا الحاضر – القرن الرابع عشر – إلى تفكك الأمة الاسلامية إلى دويلات متخاذلة متفرقة ... ! ! ! وكلها محكومة بل أكثرها محكوم من الكفار حكماً مباشراً أو غير مباشر . ولن تعود أمة الإسلام لمثل ما وصفها المفسر رحمه الله إلاّ إذا عادت للحكم بما أنزل الله ، كما كانت في الزمن الأول . لأن مهمة المسلم أن يقيم حكم الله في نفسه وفي مجتمعه بل وفي العالم أجمع ، ليحقق الوصاية التي انتدبه الله إليها على الدنيا ، ليقيم حكمه فيها ، فإذا تنازل عن هذا الواجب المكلف به ، أصابه الله بقارعة من نوع العمل ، فيسلبه الحكم ويحكم غيره فيه حتى يرجع إلى الله .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ٨٤ ثُمَّ أَنْتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٨٥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ٨٦ ﴾

يقول تبارك وتعالى منكراً على اليهود الذين كانوا في زمان الرسول ﷺ بالمدينة من القتال مع الأوس والخزرج أيام جاهليتهم . وكانوا إذ ذاك عبّادَ أصنام وكانت بينهم حروب كثيرة وكان يهود المدينة ثلاث قبائل : بنو قينقاع وبنو النضير وكانوا حلفاء الخزرج ، وبنو قريظة حلفاء الأوس . فكانت الحرب إذا نشبت بينهم كان كل فريق مع حلفائه . وقد يقتل اليهوديّ الآخرين الفريق الآخر وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم . ويخرجونهم من بيوتهم وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال . وبانتهاء الحرب استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة ، لهذا قال تعالى ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ﴾ . أي لا يقتل بعضكم بعضاً ، ولا يخرجه من منزله ولا يظاهر عليه ، وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة . وقوله تعالى ﴿ ثم أقررتم وأنتم تشهدون ﴾ أي أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ﴾ وذلك ابتغاء عرض الدنيا وقد كانت العرب تعيّرهم بذلك ، يقولون لهم كيف تقاتلونهم وتفادونهم !؟ أجاب اليهود إنّا أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم . قالوا فلم تقاتلونهم ؟ قالوا : إنا نستحي أن تُستذَلّ حلفاؤنا ! والحقيقة هي ابتغاء عرض الدنيا ...

والذي أرشدتْ إليه الآية ذم اليهود في قيامهم بأمر التوراة التي يعتقدون صحتها ومخالفة شرعها ، مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة [1] فلهذا لا يؤتمنون على ما فيها ولا على

(١) قلت : ولهذا غضب الله عليهم لأنهم يعرفون الحق وشهدوا أنه الحق ثم خالفوه فاستحقوا مقت الله وغضبه ولعنهم وجعلهم خالدين في جهنم لا يخفف عنهم العذاب ولا ينصرون .

نقلها ، ولا يصدّقون فيما كتموه من صفة النبيّ ﷺ ونعته ومبعثه ومخرجه ومهاجره ، مما أخبرت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . واليهود – عليهم لعائن الله – يتكاتمونه بينهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزيٌ في الحياة الدنيا ﴾ أي بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ويوم القيامة يردُّون إلى أشد العذاب جزاءً على مخالفتهم التوراة .

﴿ وما الله بغافلٍ عما تعملون أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ أي استحبُّوها على الآخرة واختاروها ﴿فلا يخفف عنهم العذاب﴾ أي لا يفتر عنهم العذاب ساعةً واحدة ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي ولا يجيرهم منه . والله أعلم .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ٨٧ ﴾

ينعت تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعتوّ والعنادِ والمخالفة والاستكبار على الأنبياء ، وأنهم إنما يتّبعون أهواءهم ؛ فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب ، وهو التوراة ، فحرّفوها وبدّلوها وخالفوا أمرها وأوّلوها ، وأرسَل الرسُلَ والنبّيين من بعده الذين يحكمون بشريعته كما قال تعالى : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيُّون ﴾ وقال تعالى ﴿ وقفّينا من بعده بالرسُل ﴾ وقال تعالى : ﴿ ثم أرسلنا رسلَنا تَترى ﴾ حتى ختم أنبياءَ بني إسرائيل بعيسى بن مريمَ فجاء بمخالفة التوراةِ في بعض الأحكامِ ؛ ولهذا أعطاه الله من البيّنات وهي المعجزات من إحياء الموتى ، وخلقه من الطين كهيئةَ الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله ، وإبراء الأسقام ، وإخباره بالغيوب ، وتأييده بروح القُدس وهو : جبريل عليه الصلاة والسلام ، ما يدلُّهم على صدقهِ فيما جاءهم به فاشتدّ تكذيبُ بني إسرائيل له . وحسدُهم وعنادُهم لمخالفة التوراة في البعض ، قال تعالى : إخباراً عن عيسى عليه الصلاة والسلام. ﴿ ولأحلّ لكم بعضَ الذي حرِّم عليكم وجئتكم بآية : من ربكم ... ﴾ الآية فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ معاملة ففريقاً يكذبونه ،وفريقاً يقتلونه وما ذاك إلاّ لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفةلأهوائهم وآرائهم ،وبالإلزام بأحكام التوراة التي قد تصرفوا بمخالفتها . فلهذا كان ذلك يشقّ عليهم فكذبوهم وربّما قتلوا بعضَهم ولهذا قال تعالى : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾

تقدّم قولنا أن روحَ القدس : هو جبريل عليه الصلاة والسلام والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ وروى ابن حبان عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: ٨٩ [إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكملَ رزقها وأجلها ، فاتّقوا الله وأجملوا في الطلب .] وعن عائشه : أن رسول الله ﷺ وضع لحسان بن ثابت منبراً في المسجد فكان ينافح عن رسول الله ﷺ : ٩٠ [اللهم أيدْ حسان بروح القدس...] رواه البخاري . وقول حسان :

« وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس به خفاء »

قال ابن جرير : وأولى التأويلات بالصواب قول من قال : الروح في هذا الموضع [1] جبرائيل . فإن الله تعالى أخبر أنه أيدً عيسى به قال تعالى : ﴿ إذ أيدتك بروح القدس... ﴾ وليس هو الأنجيل على حدّ قول بعض المفسرين بدليل قوله تعالى : ﴿ وإذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾ فلو كان روح القدس هو الأنجيل لكان قوله المتقدم تكرير قول لا معنى له وإن سبحانه لأعلى وأجل من أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به [2] والله أعلم .

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ٨٨ ﴾

قالوا عن قلوبهم أنها غلف يعني أنها ممتلئة بما سبق من علومنا، فهي لا تتسع لما عندك يا محمد وكأنها بامتلائها هذا مغلقة ومُغلّفَة على ما فيها فلا يخلص إليها مما تقوله شيء. كما في قوله تعالى : ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ ورجّحه ابن جرير واستشهد بما روى من حديث عمرو بن مرة الجملي عن البختري عن حذيفة قال : القلوب أربعة ... فذكر منها : وقلب أغلف مغضوب عليه وذاك قلب الكافر ولهذا قال تعالى : ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون ﴾ أي ليس الأمر كما ادعوا ، بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها ، كما قال في سورة النساء · ﴿ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ أي ما آمن منهم إلاّ قليل . والله أعلم .

(١) قلت : أي في هذه الآية : « وأيدناه بروح القدس » .

(٢) قلت : إن روح القدس مخلوق لله ، والإنجيل كلام الله غير مخلوق . وقول الرسول : (اللهم أيد حسان بروح القدس) هل معناه أيده بالإنجيل ... ؟!!! لا. وقوله صلى الله عليه وسلم : (أن روح القدس نفث في روعي ...) هل معناه أن الأنجيل نفث في روعي ... ؟!!! لا . فهذا مما يدل على أن روح القدس ليس الإنجيل إنما هو جبريل عليه الصلاة والسلام .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ٨٩

يقول تعالى : ﴿ ولما جاءهم ﴾ يعني اليهود ﴿ كتاب من عند الله ﴾ وهو القرآن الذي نزل على محمد ﷺ ﴿ مصدّق لما معهم ﴾ يعني من التوراة.وقوله : ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ﴾ أي وقد كانوا قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم المشركين إذا قاتلوهم ، يقولون إنه سيُبعَث نبيٌ في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عادٍ وإرم . كما قال محمّد بن إسحق بسنده عن عكرمة أو إلى سعيد بن جبير عن ابن عباس : أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه فلما بعثه الله من العرب كفروا وجحدوا ما كانوا يقولون فيه فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء بن معرور ، وداود بن سلمة : يا معشر يهود : اتقوا الله وأسلِموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته . فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه وما هو بالذي كنا نذكر لكم في ذلك من قولهم : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدّق لما معهم ... الآية ﴾

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ ٩٠

قال السدي : أي بئسما اعتاضوا لأنفسهم فرضوا به ، وعدلوا إليه من الكفر،بما أنزل الله على محمّد رسول الله ﷺ عن تصديقه ومؤازرته ونصرته ، وإنّما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية ، لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده . ولا حسد أعظم من هذا . قال ابن عباس في الغضب على الغضب ، فغضب عليهم فيما كانوا ضيّعوا من التوراة وهي معهم وغضب بكفرهم بهذا النبي الذي بعث الله إليهم . فاستحقوا ، واستوجبوا واستقروا بغضب على غضب ﴿ وللكافرين عذاب مُهين ﴾ لما كان كفرهم سببه البغي والحسد ومنشأ ذلك التكبّر ، قوبلوا بالإهانة والصَّغار في الدنيا والآخرة . كما قال تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٩١ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾ ٩٢



يقول تعالى ﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب آمنوا بما أنزل الله على محمّد ﷺ وصدّقوه واتبعوه ﴿ قالوا نؤمن بما أنزل علينا ﴾ أي يكفينا الأيمان بما أنزل علينا من التوراة والأنجيل ولا نقر إلا بذلك ﴿ ويكفرون بما وراءه ﴾ يعني بما بعده ﴿ وهو الحق مصدقاً لما معهم ﴾ أي وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ الحق مصدقاً لما معهم فالحجة قائمة عليهم بذلك كما قال تعالى : ﴿ فلمَ تقتلون أنبياء الله من قبلُ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم فلم قتلتم الأنبياء الذين جاءوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم، والحكم بها وعدم نسخها، وأنتم تعلمون صدقهم. قتلتموهم بغياً وعناداً واستكباراً على رسل الله فلستم تتبعون إلاّ مجرد الأهواء والآراء والتشهي. ﴿ ولقد جاءكم موسى بالبينات ﴾ أي بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات على أنه لا إله إلاّ الله وأنه رسول الله. والآيات البيّنات هي الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم والعصا واليد وفرق البحر وتظليلهم بالغمام والمن والسلوى والحجر وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها ﴿ ثم اتخذتم العجل من بعده ﴾ أي من بعد ما ذهب إلى الطور، لمناجاة الله فاتخذتم العجل معبوداً من دون الله ﴿ وانتم ظالمون ﴾ أي وأنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه وأنتم تعلمون أنه لا إله إلاّ الله.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ٩٣

يُعَدّد سبحانه وتعالى أخطاءهم ومخالفاتهم للميثاق، وعتوّهم وإعراضهم عنه، حتى رفع الطور فوقهم أي عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه ولهذا ﴿ قالوا سمعنا وعصينا ﴾ وقد تقدم تفسير ذلك[1] ﴿ وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم ﴾ قال عبد الرزاق عن قتادة قال أشربوا حبّه

(١) راجع الآية ٦٣ و ٦٤ .

حتى خلص ذلك إلى قلوبهم وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس . كما روى أحمد بسنده إلى أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال : ٩١ [حبّك الشيء يعمي ويصم] ورواه أبو داود .

وقوله﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ أي بئسما تعتمدونه من قديم الدهر وحديثه من كفركم بآيات الله ومخالفتكم الانبياء ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد ﷺ . وهذا أكبر ذنوبكم وأشد الأمور عليكم إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الانبياء والمرسلين المبعوث للناس أجمعين فكيف تدّعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة من نقض المواثيق والكفر بالله وعبادة العجل . ؟ !!!

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ٩٥ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ٩٦ ﴾

روى محمّد بن إسحق عن ابن عباس رضي الله عنه : يقولى تعال لنبيّه محمد ﷺ : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ أي ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب . فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ ﴿ولن يتمنّوه أبداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾ أي يعلمهم بما عندهم من العلم بل والكفر بذلك . ولو تمنّوه يوم قال لهم ذلك ما بقي على الأرض يهودي إلاّ مات . روى ابن جرير : عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : ٩٢ [لو أن اليهود تمنّوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً] ونظير هذا قوله تعالى في سورة الجمعة : ﴿قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنّوا الموتَ إن كنتم صادقين • ولا يتمنّونه أبداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين • قل إنّ الموت الذي تفرّون منه فإنّه ملاقيكم ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبّئكم بما كنتم تعملون﴾ فهم عليهم لعائن الله لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه وقالوا : لن يدخل الجنة الا من كان هوداً او نصارى دُعوا إلى المباهله والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين فلمّا نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك فلما تأخروا عُلِم كذبهم . وهذا كما دعا رسول الله ﷺ وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم في المناظرة وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة . فقال تعالى: ﴿فمن

حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ فلمّا رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض : والله لئن باهلتم هذا النبيّ لايبقى منكم عين تطرف. فعند ذلك جنحوا للسلم ، وبذلوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون . وهكذا فإن اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة امتنعوا عن المباهلة لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة ، لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت ولهذا قال تعالى : ﴿ ولن يتمنّوه أبداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾ . ﴿ ولتجدنّهم أحرص الناس على حياة﴾ أي على طول العمر لما يعلمون من مآلهم السيء وعاقبتهم الخاسرة عند الله لأن الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر فهم يودّون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم .. وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة حتى . وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم . وهذا من باب عطف الخاص على العام . يودّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة أي يودّ أحد اليهود لو يعمّر ألف سنة قال مجاهد: حبّبتِ الخطيئة إليهم طول العمر ﴿ وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر . ﴾ أي وما هو بمنجيه من العذاب وذلك أنّ المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت ، فهو يحب طول الحياة . وان اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي بما ضيّع ما عنده من العلم . قال العوفي عن ابن عباس : ﴿وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر﴾ قال هم الذين عادوا جبريل قال أبو العالية وابن عمر : فما ذاك بمغيثه من العذاب ولا منجيه ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ أي خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر وسيجازَى كل عاملٍ بعمله .

﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ٩٧ مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ٩٨ ﴾

قوله تعالى : — ﴿ قل من كان عدوّاً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله . ﴾ أي من عادى جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذن له في ذلك، فهو رسول من رسل الله ملكيّ ومن عادى رسولاً فقد عادى جميع الرسل كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل كما قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ﴾ فحكم عليهم بالكفر المحقق إذ آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم وكذلك من عادى جبرائيل فإنه عدو الله لأن جبرائيل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه ، وإنما ينزل بأمر ربه كما قال تعالى : ﴿ وما نتنزل

إلاَّ بأمر ربك ... الآية ﴾ وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : ٩٣ [من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب] ولهذا غضب الله لجبرائيل على من عاداه فقال تعالى: ﴿ من كان عدوّاً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدّقاً لما بين يديه﴾ أي من الكتب المتقدمة ﴿ وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ أي هدًى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة وليس ذلك إلاّ للمؤمنين كما قال تعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ... الآية ﴾ ثم قال تعالى ﴿ من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين﴾ تعالى من عاداني وملائكتي ورسلي . ورسله : تشمل رسله من الملائكة والبشر .كما قال تعالى : تعالى : ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ ﴿وجبريل وميكال ﴾ وهذا من باب عطف الخاص على العام. فإنهما دخلا في الملائكة في عموم الرسل، ثم خصّصا بالذكر ، لأن السياق في الانتصار لجبرائيل، وهو السفير بين الله وأنبيائه وقرن معه ميكائيل باللفظ ، لأن اليهود زعموا أن جبرائيل عدوهم وميكائيل وليُّهم ! ! فأعلَمهم الله تعالى أن من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً . وقوله تعالى : ﴿ فإن الله عدوٌّ للكافرين ﴾ فيه إيقاع المظهر مكان المضمر حيث لم يقل: فإنه عدوّ بل قال : ﴿ فإن الله عدو للكافرين ﴾ كما قال الشاعر :

لا أرى الموتَ يسبق الموت شيءٌ   سبق الموت ذا الغنى والفقيرا

وإنّما أظهر الله هذا الاسم ههنا لتقرير هذا المعنى ، وإظهاره وإعلامهم أنّ من عادى لي ولياً فقد آذنته بالمحاربة وفي الحديث الآخر : ٩٤ [إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب] وفي الحديث الصحيح : ٩٥ [من كنت خصمَه خصمتُه]

قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله : أجمع أهل العلم بالتأويل أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود إذ زعموا أن جبريل عدوٌّ لهم ، وأن ميكائيل وليٌّ لهم .

فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل ... ﴾ الآية

۞ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا ٱلْفَاسِقُونَ ٩٩ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠٠ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ كِتَابَ ٱللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠١ وَٱتَّبَعُوا مَا

تَتْلُوا ٱلشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ ٱلشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ ٱشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ١٠٢ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَٱتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ١٠٣

قوله تعالى : ﴿ولقد أنزلنا اليك آيات بينات وما يكفر بها إلاّ الفاسقون﴾ أي أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالاّت على نبوّتك وهي ما حواه القرآن من أسرار وأخبار اليهود ، التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم وما حرّفه أوائلهم وأواخرهم من التوراة . فأطلع الله نبيه محمّداً ﷺ عليها جميعاً فلا يسأله اليهود عن شيء من أمور التوراة . إلا أنزل الله سبحانه ما سألوا عنه فيخصمهم فلمّا رأوا ذلك قالوا : هذا أعلم منا بما أنزل الله إلينا ، وإن هذه الآيات البينات ملزمة ولا شك لكلّ ذي فطرة صحيحة ، تصديقَ ما جاء به ﷺ ، من غير تعلم تعلّمه من بشرٍ . لا سيما وهو معروف عندهم أنه أمي ، لم يقرأ كتاباً فهذه الآيات البينات لا شك أنها حجةٌ عليهم ولكنهم جحدوها وكفروا بها .

قال ابن عباس : قال ابن صوريا القطويني لرسول الله ﷺ : يا محمد : ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك . فأنزل الله في ذلك ﴿ولقد أنزلنا إليك آيـات بيناتٍ وما يكفر بها إلاّ الفاسقون﴾ وقال مالك بن الصيف حين بُعث رسول الله ﷺ وذكّرهم بما أخذ الله عليهم من الميثاق وما عهد إليهم في محمد ﷺ : والله ما عهد إلينا في محمد ... وما أخذ علينا ميثاقاً... فأنزل الله تعالى : ﴿أوكلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم﴾ وقال الحسن في قوله تعالى ﴿بل أكثرهم لا يؤمنون﴾ قال نعم ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه ... إلاّ نقضوه ونبذوه . يعاهدون اليوم وينقضونه غداً .

فالقوم ذمّهم الله بنبذهم العهود ، وتكذيبهم رسول الله ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة وهو الذي يجدون في كتبهم نعته وصفته ، وقد أمروا فيها باتباعه ومؤازرته ونصرته. كـمـا قال تعالى ﴿الذين يتبعون الرسول النبيَّ الأميَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والأنجيل﴾ وقال ها هنا : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الـذين

أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾ أي طرح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم مما فيه من البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم أي تركوها كأنهم لا يعلمون ما فيها ! وأقبلوا على تعلّم السحر واتّباعه ، وأرادوا كيداً برسول الله ﷺ وسحروه في مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر ، تحت راعوفة بئر أروان . وتولّى ذلك منهم / لبيد بن الأعصم / لعنه الله وقبحه . وقد أطلع الله رسوله ﷺ على ذلك وشفاه منه وأنقذه ، كما ثبت ذلك مبسوطاً في الصحيحين عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها .

وقوله تعالى : ﴿ واتّبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ... ﴾ قال السدي : كانت الشياطين تصعد إلى السماء فتقعد منها مقاعد للسمع ، فيستمعون من كلام الملائكة مما يكون في الأرض من موت أو غيب أو أمر ، فيأتون الكهنة فيخبرونهم فتحدث الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا. فلما أمنتهم الكهنة كذبوا لهم وأدخلوا فيه غيره ، فزادوا مع كلّ كلمة سبعين كلمة . فاكتتب الناس ذلك الحديث في الكتب ، وفشا ذلك في بني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب . فبعث سليمان في الناس، فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق ثم دفنها تحت كرسيه. ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلاّ احترق . وقال : لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يعلّمون الغيب إلاّ ضربت عنقه . فلما مات سليمان عليه السلام وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان . وخلف من بعد ذلك خلف ، تمثل الشيطان في صورة إنسان ... ثم أتى نفراً من بني إسرائيل فقال لهم : هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً قالوا : نعم ، قال : فاحفروا تحت الكرسي ، فذهب معهم وأراهم المكان وقام ناحيته فقالوا له: فادنُ ... فقال : لا .. ولكنني ها هنا في أيديكم فإن لم تجدوه فاقتلوني . فحفروا فوجدوا تلك الكتب. فلمّا أخرجوها قال الشيطان: إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر ثم طار وذهب . وفشا في الناس أنّ سليمان كان ساحراً واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب ، فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها فذلك حين يقول الله تعالى : ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ﴾ وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان آصف كاتب سليمان وكان يعلم الاسم الأعظم ، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيّه فلما مات سليمان ، أخرجته الشياطين فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً . وقالوا : هذا الذي كان سليمان يعمل بها قال : فأكفره جهال الناس وسبّوه ووقف علماء الناس ، فلم يزل جهال الناس يسبّونه حتى أنزل الله سبحانه على محمد ﷺ : ﴿ واتّبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس

السحر . ﴾ وقال آخرون أقوالاً تدور حول هذا .. ولا تعارض بين السياقات على اللبيب الفهم . والله الهادي . والخلاصة أن اليهود الذين أوتوا الكتاب بعد إعراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم ومخالفتهم لرسول الله محمد ﷺ اتبعوا ما تتلوه الشياطين أي ما ترويه وتخبر به وتحدّثه الشياطين على ملك سليمان [١] وعدّاه بعَلى / لأنه تضمن / تتلو / تكذب (لأنها تلاواتُ وأحاديثُ الشيطان .. وهل هي إلاّ الكذب ... ؟ ! !) وقوله تعالى : ﴿وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحدٍ حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر . فيتعلمون منهما ما يفرّقون به بين المرء وزوجه﴾ كان يعتقد اليهود أن جبرائيل وميكائيل عليهما الصلاة والسلام هما اللذان أنزلا السحر على سليمان عليه السلام . فكذبهم الله سبحانه ، وأخبر نبيّه محمّداً ﷺ أن جبرائيل وميكائيل لم ينزّلا السحر وبرّأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر ، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين ، وإنها تُعلّم الناس ذلك ببابل وإن الذين يعلمونهم رجلان أحدهما هاروت وأسم الآخر ماروت وعلى هذا : تكون / ما / في قوله تعالى : ﴿وما أنزل على الملكين﴾ نافيةً لا أسم موصول بمعنى الذي .

قال القرطبي : (ما : نافية ، ومعطوف على قوله ﴿وما كفر سليمان﴾ ثم قال : ﴿ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على المَلكين﴾ وذلك أن اليهودَ كانوا يزعمون أنه نزل به جبريل وميكائيل فأكذبهم الله تعالى وجعل قوله : ﴿هاروت وماروت﴾ بدلاً من الشياطين . قال وصح ذلك إما لأن الجمع يطلق على الأثنين كما في قوله تعالى : ﴿فإن كان له أخوة﴾ أو لكونهما لهما أتباع أو ذكرا من بينهم لتمرّدهما . تقدير الكلام : ولكن الشياطين يعلّمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ثم قال : وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصحّ . ولا يلتفت إلى ما سواه .

وروى ابن جرير باسناده من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله : ﴿وما أنزل على المَلكين ببابل﴾ يقول لم ينزل السحر . وباسناده – أي ابن جرير – عن الربيع بنَ انس في قوله تعالى : ﴿وما أنزل على الملكين﴾ قال : ما أنزل الله عليهما السحر . قال ابن جرير : (فتأويل الآية على هذا ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان﴾من السحر وما كفر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل

---

(١) قلت إن معنى – ملك سليمان – والله أعلم – أي رعيته ... وبخاصة منهم كهنة بني اسرائيل تتلو فيها معنى / تكذب / كما قال ابن كثير . فيكون المعنى – والله أعلم – واتّبع بنو إسرائيل ما تكذب الشياطين على رعية سليمان وما تلقيه من السحر . وما كفر سليمان وليس له أن يكفر فهو نبي مكرّم معصوم ولكن الشياطين كفروا بسحرهم وكذبهم .

هاروت وماروت فيكون قوله ببابل هاروت وماروت من المؤخر الذي معناه المقدم .

وهناك أقوال أخرى ، فمن قائل : ﴿ وما أنزل على المَلِكين ﴾ بكسر اللام أنهما داود وسليمان عليهما السلام أي باعتبار أن / ما / نافية أيضاً وتقدير الكلام : أن الله تعالى ما أنزل السحر ولا علّمه للملِكَيْن داود وسليمان .

ومن قائل : أن هاروت وماروت ، قبيلان من الجن ، ومن قائل أنهما رجلان أسم أحدهما هاروت والآخر ماروت فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس والأصحّ ما قرره القرطبي آنفاً من أن هاروت وماروت بدل من الشياطين وهذا كما قال – أولى ما حُملت عليه الآية وأصح ولا يلتفت إلى ما سواه . (١)

ومن قائل : أنهما ملَكان من الملائكة وتروى هنا قصة كوكب الزهرة ! ! مع الملَكين هاروت وماروت . وزعم الذين رووا هذه القصة أن هاروت وماروت ملكان أهبطهما الله من السماء وألقى عليهما الشهوة التي لبني آدم ، ثم عرضت عليهما امرأة كأجمل ما تكون من النساء ... فراوداها عن نفسها فأجابتهما إلى ذلك بشرط أن يشركا بالله فأبيا ذلك ... ثم عَرَضت ثانية فراوداها ولكنها اشترطت أن يقتلا نفساً فأبيا ذلك ثم عَرَضَتْ ثالثةً فراوداها فخيرتهما بين الشرك بالله أو قتل النفس أو شرب قدحٍ من الخمر فاختارا اقل ذلك إثماً وهو شرب الخمر ، فشرباه ، فلعبت الخمرة بهما ، فأشركا بالله ، وقتلا النفس ، وزنيا بالمرأة ، فلما صحُوا من الخمر ، وأخبرتهما المرأة بما صنعا من تأثير الخمر فندما ... وأرادا العودة إلى السماء ، فلم يستطيعا ذلك ، فأحسّا بشناعة جرمهما . وقد خيرهما الله بين عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة ، فاختارا عذاب الدنيا الموقّت على عذاب الآخرة المؤبد. أما المرأة فقد سألتهما عن الكلمة التي إذا قالاها صعدا في السماء أو هبطا منها ، فأعلماها بها ، فقالتها فطارت إلى السماء ولكن مُسِخَتْ هناك نجمة ... ! ! ! فكانت كوكب الزهرة ... ! ! ! ؟ .

---

(١) قلت : إننا مع ابن كثير في تبنّيه تأويل القرطبي ... إلا في ما ذهب اليه القرطبي من أن هاروت وماروت بدل من الشياطين لأن الشياطين ليس من فطرتهم النصح لبني آدم حتى يقولوا لهم : « انما نحن فتنة فلا تكفر » بل إن من أولى مهماتهم وفطرهم التي جبلوا عليها أن يفتنوا بني آدم ويغووهم . لذا فإنني أرجح أن يكون هاروت وماروت بدلا من الناس وعلى هذا ... يكون تأويل الآية : وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين السحر ، ولكن الشياطين كفروا بتعليمهم السحر للناس أي يعلمون هاروت وماروت اللذين هما رجلان من الناس ثم يعلم هذان الناس ... وما يعلمان أحداً منهم حتى يقولا له إنما نحن فتنة فلا تكفر . فيكون هاروت وماروت بدلا من الناس الذين من فطرتهم النصح ، وفي هذا ينزَّه الله عن تنزيل السحر على الملَكين ثم ننزههما من تعليم السحر للناس ، والسحر هو في أساسه كفر فلن يستطيع أحد أن يعلم السحر إلاّ أن يكفر ، ولا يستطيع المتعلم أن يتعلّم إلا أن يكفر والملائكة منزّهون عن الكفر وتعلّمه وتعليمه . وإن الله لا يرضى لعباده الكفر

هذه القصة ... رُويت من طرقٍ عديدة بلغت العشرين طريقاً ولكن ليس في هـــذه الطرق على كثرتها ولا طريق واحدة مرفوعة إلى رسول الله ﷺ . وقـــد ردّها كثير مـــن المحدّثين والحفاظ والمفسرين ، وحاصل ذلك راجع في تفصيلها إلى أخبار بني إسرائيل ...إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الأسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي مـــا ينطق عن الهوى ... وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا أطناب فيها . فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراد الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال الموافقة لتنزيه الله سبحانه وتعالى عما لا يليق به ولا بملائكته [1] وقوله تعالى : ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا : إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ قال أبو جعفر الرازي بسنده عن ابن عباس قال : فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نهياه أشد النهي، وقالا له إنما نحن فتنة فلا تكفر . وذلك لأنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان فعرفا أن السحر من الكفر . قال فإذا أتى عليهما .. أمراه أن يأتي مكان كذا وكذا ... فإذا أتاه عاين الشيطان فعلّمه خرج منه النور فنظر اليه ساطعاً في السماء فيقول : يا حسرتاه يا ويله ماذا صنع . قال السدي : إذا أتاهما إنسان يريد السحر ، وعظاه وقالا له : لا تكفر إنما نحن فتنة ... فإذا أبى قالا له : إئت هذا الرماد فبُلْ عليه ، فإذا بال خرج منه

---

(١) قلت : هذه القصة لا أساس لها من الصحة كما قاله كثير من المحدثين والمفسرين إذ ليس فيها حديث صحيح ، فهي واهية سنداً ومتناً ولا تصح من وجوه : «١» يزعمون أن الله أنزل على الملكين السحر والسحر كفر فكيف يأذن الله لملائكته المعصومين أن يكفروا ويعلموا الناس السحر والكفر ؟ والله يقول : إن الله لا يرضى لعباده الكفر . ٢ – إن مسخ الإنسان كوكباً هذا من المحال الذي لم تجر به سنة الله . ٣ – : مقتضى هذه القصة أن هاروت وماروت اختارا عذاب الدنيا فيلزم من ذلك أنهما حيّان إلى يوم القيامة حتى يتحقق عليهما عذاب الدنيا ويستكملانه ويجب أن يكونا أبداً في بئر بابل ويعلمان الناس السحر بشكل مستمر .
فهذا مرده من وجوه :
أ – : قوله صلى الله عليه وسلم : ٩٦ [لا يبقى على ظهر الأرض بعد مئة عام من على ظهرها اليوم] . فعلى افتراض أنهما حيان إلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيلزم أن يكونا قد ماتا بعد مئة عام من قوله عليه الصلاة والسلام . وهذا مخالف لعذابهما الدنيوي الخالد إلى يوم القيامة حسب ما جاء بالقصة .
ب – : اذا كانا ما يزالان إلى الآن ببئر بابل يعذبان ويعلمان الناس السحر فكان ولا بد أن يتعرض الرسول لهما بذكر ، أو تصلنا أخبارهما ، وأخبار الناس الذين عادوا متعلمين من مدرستهما [السحرية ! ! ! ؟]
جـ – إذا كان مكانهما مقصوداً من الناس لتعليم السحر لزم أن يكون معروفاً ببابل وبابل مكانها بالعراق ولكن لم يصلنا إلى الآن خبر اكتشاف هذا البئر أو أي خبر عنه .
٤ – : هذه القصة من أخبار بني اسرائيل وأكاذيب أحبارهم .
فحريٌّ بقصة مثل هذه ... قال عنها العلماء الأثبات والمفسرون أنها محكيّة عن أحبار اليهود أن تكون مكذوبة ولعلها من رموز الأولين كما ذكر ذلك الخطيب ، واستبعد الشيخ ابن حجر الهيتمي المكي هذه القصة في كتابه الزواجر بما لا مزيد عليه ، وقال القرطبي إن هذا كله ضعيف ، وبعيد عن ابن عمر ، ولا يصح منه شيء ، وقال الخفاجي : قال المحدثون وجميع رجاله غير موثوق بهم . أجل لحري بمثل هذه القصة المكذوبة الموضوعة الباطلة المهلهلة ألاّ يؤبهَ لها ، ولا تذكر أو تكتب إلا للتنبيه على ما فيها من طامات ، وقد فعلنا .

نور ساطع حتى يدخل السماء وذلك الإيمان . وأقبل شيء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل في مسامعه وكل شيء وذلك غضب الله ، فإذا أخبرهما ، بذلك علّماه السحر ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وما يعلّمان من أحد حتى يقولا إنّما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه ﴾ أي فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرّفون ، فيما يتصرفون فيه من الأفاعيل المذمومة ، ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف . وهذا من صنيع الشياطين كما رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ٩٧ [إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه في الناس ، فأقربهم عنده منزلةً أعظمهم عنده فتنة . يجيء أحدهم فيقول ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا ... فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئاً ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرّقت بينه وبين أهله فيقرّبه ويدنيه ويلتزمه ويقول : نعم أنت] . وسبب التفريق بين الزوجين ما يخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء المنظر والخلق ، أو نحو ذلك من الأسباب المفضية للتفرقة .

قوله تعالى : ﴿ وما هم بضارّين به من أحد إلاّ بإذن الله ﴾ قال سفيان الثوري : إلاّ بقضاء الله ، وقال الحسن البصري : نعم من شاء سلّطهم عليه ومن لم يشأ لم يسلطهم . وقوله تعالى : ﴿ ويتعلّمون ما يضرّهم ولا ينفعهم ﴾ أي يضرّهم في دينهم ولا ينفعهم بنفع يوازي ضرره . ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق . ﴾ أي ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول ﷺ لمن فعل فعلهم ذلك ، ما له في الآخرة من خلاق أي من نصيب ، قاله ابن عباس ومجاهد والسدى . وقوله تعالى : ﴿ ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون ﴾ يقول تعالى : ولبئس البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسول لو كان لهم علم بما وعظوا به ولو أنهم آمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ ورسله من قبل عليهم الصلاة والسلام واتقوا المحارم لكان مثوبةً لهم من الله ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به . وقد استدلّ بقوله : ﴿ ولو أنهم آمنوا واتقوا ﴾ على تكفير الساحر . وقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة وقد أخرجه البخاري في صحيحه وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها سحرتها جارية لها فأمرت بها فقتلت وقال عليه الصلاة والسلام : ٩٨ [حدّ الساحر ضربه بالسيف] رواه الترمذي . وقد رواه الطبراني من وجه آخر عن الحسن عن جندب مرفوعاً . ولا يدفع السحر مثله ، إنما أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل

الله على رسوله ﷺ في إذهاب ذلك وهما المعوذتان (الفلق والناس) وفي الحديث : ٩٩ [لم يتعوّذ المتعوّذون بمثلهما] . وكذلك قراءة آية الكرسي ، فإنها مطردة للشيطان .

والسحر في الواقع له حقيقةٌ خلافاً لمن أنكر ذلك من المعتزلة وغيرهم ، والسحر كفر وتعلمه كفر وتعليمه كفر والساحر كافر ومعلّم الساحر كافر واختلف في استتابته ، فمنهم – أي العلماء – من قال أنه يستتاب وإلاّ قتل . ومنهم من قال لايستتاب ويقتل آنياً . وذلك لقوله ﷺ [حدّ الساحر ضربه بالسيف] وفعلُ حفصة رضي الله عنها مع جاريتها التي سحرتها فأمرت بها فقتلت ولم يذكر أنها استتابتها وكذلك كتابة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عماله : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة [١] والسحر أنواع وكلها شرٌّ إن كان باستعانة الشياطين أو كان شعبذة أو كان رُقىً وتعاويذ [٢] أو أدوية وأدخنة فكله باطل . والله أعلم .

﴿ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٠٤ مَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ١٠٥

نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن التشبه بالكافرين . والآية هنا تخص اليهود فقد كانوا يورّون في كلامهم متنقّصين رسولَ الله ﷺ فكانوا – عليهم لعائن الله – إذا أرادوا أن يقولوا له ﷺ : إسمع لنا ؛ قالوا : / راعنا / يورّون بالرعونة . وكذلك إن سلّموا يقولون : / السّامُ عليكم / والسّامُ : هو الموت . ولهذا أمرنا أن نردّ عليهم بـ / وعليكم / وإنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا . والغرض : أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً فقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا ... ﴾ ومن حديث للإمام أحمد بالسند إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول ﷺ : ١٠٠ [بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يُعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعلت الذلة والصَّغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم] . ورواه أبو داود ففيه دلالة على النهي الشديد ، والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار في كل أحوالهم

(١) قلت : وأنا أرجح عدم استتابة الساحر بل قتله فوراً وذلك:(١) لما جاء في الآيات والأحاديث (٢) سداً لباب تعلم السحر وتعليمه ومزاولته وتفشّيه بين الناس . وقد أخطأ كثيراً من قال بجواز تعلم السحر ليدفع عنه أو عن غيره السحر . ما دام رسول الله قد علمنا دفعة بالمعوذتين

(٢) أي الرقى والتعاويذ غير الشرعية

وأمورهم التي لم تشرع . وقال عطاء : لا تقولوا راعنا كانت لغةً تقولها الأنصار فنهى الله عنها . وفي ذلك أقوال متقاربة . قال ابن جرير والصواب من القول في ذلك عندنا : أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيّه ﷺ ﴿ راعنا ﴾ لأنها كلمةٌ كرهها الله تعالى أن يقولوها لنبيّه ﷺ ونظير ذلك من كلامه ﷺ : ١٠١ [لا تقولوا للعنب الكرمَ ولكن قولوا/الحبلة / ولا تقولوا عبدي ولكن قولوا / فتاي /]

وقوله تعالى : ﴿ ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾ يبين ذلك تعالى شدّة عداوة المشركين وأهل الكتاب للمؤمنين الذين حذر الله من مشابهتهم لهم ، ليقطع المودّة بين الفريقين ثم نبّه على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذي شرعه لنبيّهم محمّد ﷺ حيث يقول تعالى : ﴿ والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٠٦ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ١٠٧

نصف الحزب

أصل النسخ : من نسخ الكتاب وهو نقله من نسخة إلى غيرها . والنسخ الشرعي هو : رفع الحكم بدليل شرعيّ متأخّر . ويكون النسخ : إما بتثبيت الخط ورفع الحكم ، مثل نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ ، ونسخ مصابرة المسلم لعشرة من الكفرة إلى مصابرة اثنين ، ومن ذلك أيضاً أن يحوّل الحلال حراماً والحرامُ حلالاً ، والمباح محظوراً والمحظور مباحاً . ولا يكون ذلك إلاّ في الأوامر والنواهي والحظر والإطلاق ، والمنع والإباحة . فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ومنسوخ [1] . وإما بتثبيت الحكم ورفع الخط مثل قوله ﷺ ١٠٢ : [الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة ...]

فقوله : « ما ننسخ من آية » أي نبدّل حكمَها وقوله : « أوننسها » فقد قرئت على قراءتين : « نُنْسِهَا » و « نَنْسأُها » فعلى القراءة الأولى من النسيان أي يُنسي اللهُ رسولَه ما أنزل عليه ، وعلى القراءة الثانية من النسيئة أي التأجيل والتأخير

---

(١) قلت : وكذلك آيات التوحيد فلا يكون فيها ناسخ ومنسوخ فإن الله واحد أحد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته فلا يكون في ذلك ناسخ ولا منسوخ .

وروى عبد الرزاق عن معمَر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أوننسِها﴾ قال كان الله عز وجل ينسي نبيّه ﷺ ما يشاء وينسخ ما يشاء . وقال عبد بن عمير ومجاهد وعطاء أو ننسأها نؤخرها ونرجئها. وروى ابن أبي حاتم بالسند إلى ابن عباس قال خطبنا عمر رضي الله عنه فقال : يقول الله عز وجل: ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسأها ﴾ أي نؤخرها وقوله: ﴿ نأتِ بخير منها أو مثلها ﴾ أي في الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلّفين وقال قتادة: ﴿ نأتِ بخير منها أو مثلها ﴾ ويقول : آية فيها تخفيف ، فيها رخصة ، فيها أمر ونهي .

وقوله تعالى : « ألم تعلم أن الله على كلّ شيء قديرهألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير » يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء فله الخلق والأمر فكما أنّه خلقهم كما يشاء ويسعد من يشاء ويشقي من يشاء ويُصحّ ويمرض من يشاء ويوفق ويخذل من يشاء ، كذلك يحكم في عباده بما يشاء فيحلّ ما يشاء ويحرّم ما يشاء ويبيح ما يشاء ، ويحظر ما يشاء ، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عمّا يفعل وهم يسألون . ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها ثم ينهى عنه لما يعلمه فالطاعة كلّ الطاعة في امتثال أمره واتّباع رسُلهِ في تصديق ما أخبروا وامتثال ما أمروا، وترك ما نهوا وماعنه زجروا وفي هذا المقام ردّ عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبهتهم – لعنهم الله – في دعوى استحالة النسخ . فقد أنكروا نسخ أحكام التوراة وجحدوا نبوة عيسى ومحمّد عليهما الصلاة والسلام . فأخبرهم الله أن له ملكُ السموات والأرض وسلطانهما وأن الخلق أهل مملكته وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه وأن له أمرهم بما يشاء ، ونهيهم عما يشاء ونسخ ما يشاء وإقرار ما يشاء وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه .

واليهود أنكروا النسخ كفراً وعناداً ، إذ لا يمتنع على العقل امكانية النسخ في الأحكام لأنه يحكم بما يشاء ويفعل ويريد . وقد وقع النسخ في الكتب المتقدّمة والشرائع الماضية كما أحلّ لآدم ترويج بناته من بنيه، ثم حرّم ذلك. كما أحلّ أكل الحيوانات لنوح بعد خروجه من السفينة ثم نسخ حِلّ بعضها . وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه وقد حرم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها . وأمر إبراهيم بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل وهم أي اليهود يعترفون بذلك ، ويصدفون عنه ، والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى لما له في ذلك من الحكمة البالغة .

﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ١٠٨

نهى الله تعالى المؤمنين عن كثرة السؤال للنبيّ ﷺ عن الأشياء قبل وقوعها .

كما قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تَسُؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تُبْدَ لكُم﴾ . أي وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبيّن لكم ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه فلعلّه أن يحرّم من أجل تلك المسألة . ولهذا جاء في الحديث الصحيح ١٠٣ : [إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرّم فحرّم من أجل مسألته] وفي الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ : ١٠٤ [كان ينهي عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال] وفي صحيح مسلم ١٠٥ [ذروني ما تركتكم فإنما هلك من قبلكم بكثرة سؤآلهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه] ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل..﴾ هذا القول يعم المؤمنين والكافرين فإنه عليه الصلاة والسلام رسول الله إلى الجميع كقوله ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرةً فأخذتهم الصاعقة بظلمهم﴾ والمراد: إن الله ذمّ من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنّت والاقتراح كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتاً وتكذيباً وعناداً. قال الله تعالى: ﴿ومن يتبدّل الكفر بالإيمان﴾ أي ومن يشتر الكفر بالإيمان﴿فقد ضل سواء السبيل﴾أي فقد خرج عن الصراط المستقيم الى الجهل والضلال .

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٠٩ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ١١٠

يحذّر الله عباده المؤمنين من سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ، ويُعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيّهم .

ويأمر عباده بالصفح والعفو ، والاحتمال حتى يأتي الله بأمره من النصرة والفتح ، ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .

قيل إن هذه الآية نزلت رداً على حيي بن أخطب وأبي ياسر بن أخطب اللذين كانا أشد يهود حسداً للعرب إذ خصهم الله برسوله ﷺ . وهكذا فقد أخبر الله تعالى أن اليهود يودّون لو يرجع المسلمون كفاراً حسداً من قبل أنفسهم من بعد ما تحققوا من رسالة محمد ﷺ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل فكفروا به حسداً وبغياً لأنه كان من غيرهم

وقوله تعالى : « فاعفوا واصفحوا » أي عمن يهجون ويكيلون العداوة إنما كان هذا أول الأمر وقد نسخ ذلك قوله تعالى : ﴿فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ فنسخت هذه الآية وغيرها العفو والصفح وكذا قال ابو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسري إنها منسوخة بآية السيف ويرشد إلى ذلك قوله تعالى ﴿ حتى يأتيَ الله بأمره إنّ الله على كل شيء قدير ﴾ أي حتى أذن الله لهم بالقتال . وقوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾.

يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم ، وتعود عاقبته يوم القيامة عليهم من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة حتى يمكّن لهم الله النصر في الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد. ولذا قال تعالى: ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ يعني إنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل ويضيع لديه سواء كان خيراً أو شراً فإنه سيجازي كلاً بعمله . قال ابن جرير انه أعلمَ القومَ أنه بصير بجميع أعمالهم ليجدوا في طاعته ويحذروا معصيته .

﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ١١١ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١١٢ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَارَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ١١٣ ﴾

يبيّن تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه حيث ادّعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلاّ من كان على ملتها كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة :

أنهم قالوا : ﴿نحن أبناء الله وأحبَّاؤه﴾ فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذّبهم بذنوبهم ولو كانوا كما ادّعوا لما عذّبهم . فقد قال تعالى : ﴿تلك أمانيّهم﴾ قال أبو العالية : أمانيّ تمنّوها على الله بغير الحق. ثم قال تعالى ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ أي هاتوا بيّنتكم وحجتكم إن كنتم صادقين فيما تدعونه ثم قال تعالى: ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾

قال سعيد بن جبير : بلى من أخلص وجهه لله وهو محسن أي متبع فيه الرسول ﷺ فإن للعمل المتقبّل شرطين ، أحدهما : أن يكون خالصاً لله وحده ، والآخرَ يكون صواباً موافقاً للشريعة . فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل ولهذا قال رسول الله ﷺ:١٠٦ [من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد] رواه مسلم من حديث عائشة وقال تعالى : ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾ وأمّا إن كان العمل موافقاً للشريعة في الظاهر ولكن بدون إخلاص فهو أيضاً مردود على فاعله وهو حال المرائين والمنافقين. ولهذا قال تعالى : ﴿فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعملْ عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ وقوله : ﴿ فله أجره عند ربّه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ضمن لهم على ذلك تحصيل الأجور وآمنهم مما يخافونه ، فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه ، ولا يحزنون على ما مضى مما يتركونه .

وقوله تعالى : ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب﴾ بيّن الله تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندهم كما قال ابن اسحق عن ابن عباس قال : لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار اليهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن حرملة : ما أنتم على شيء وكفر بعيسى وبالأنجيل وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود ما أنتم على شيء وجحد نبوّة موسى وكفر بالتوراة فأنزل الله في ذلك من قولهما ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب﴾ . قال إن كلاً يتلو في كتابه تصديق من كفر به.وقوله تعالى : ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ فقد اختلف فيمن عني بقوله تعالى: ﴿الذين لا يعلمون﴾ قال عطاء: هم أمم كانت قبل اليهود وقال السدّي فهم العرب قالوا : ليس محمّد على شيء ، واختار ابن جرير : أنها عامة تصلح للجميع وليس ثم دليل قاطع يعيّن واحداً من هذه الأقوال[1] وقوله تعالى : ﴿فالله

(١) قلت : قوله تعالى « قال الذين لا يعلمون » أرجح أن المراد منه — والله أعلم — : هم العرب وذلك مفهوم من السياق فقد ذكر اليهود والنصارى وهم أهل كتاب ، ويعلمون من كتابهم أنهم يخالفون —

يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي يفصل بينهم بقضائه العادل.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ج لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١١٤ ﴾

اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله وَسَعَوا في خرابها على قولين، فمن قائل : إنهم النصارى الذين ساعدوا /بختنصّر/ بخراب بيت المقدس . ومن قائل : إنهم المشركون الذين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية وبين أن يدخل هو وأصحابه مكة حتى نحر هديه بذي طوى وهادنهم وقال لهم : ما كان أحد يصد عن هذا البيت وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده فقالوا : لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق . وفي قوله: ﴿ وسعى في خرابها ﴾ قالوا إذا قطعوا من يعمرها بذكره ويأتيها للحج والعمرة . واختار ابن جرير الأول ، واحتجّ بأن قريشاً لم تسعَ في خراب الكعبة . وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس والذي يظهر والله أعلم القول الثاني كما روي عن ابن عباس لأن النصارى إذا منعت اليهود الصلاة في بيت المقدس كان دينهم أقوم من دين اليهود ، وكانوا أقرب منهم ، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولاً إذ ذاك، لأنهم لعنوا من قبلُ على لسان داوود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . وإن المشركين أخرجوا رسول الله ﷺ وأصحابه من مكة ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام . وأما اعتماده على أن قريشاً لم تسعَ في خراب الكعبة فأي خراب أعظم مما فعلوه ..؟

أخرجوا رسول الله ﷺ وأصحابه واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم كما قال تعالى: ﴿ وما لهم ألاّ يعذبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن

= علمهم ويكفرون به . أما العرب فليسوا أهل كتاب ، فهم إذاً لا يعلمون . ولذا ذكرهم الله بقوله : « وكذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » أي قالوا : إن محمداً ليس على شيء. أما قول القائل بأن المراد هم الأمم التي سبقت اليهود فبعيد إذ لا مناسبة لذكرهم ، ولماذا نترك واقع العرب وقتئذ المماثل لواقع اليهود من حيث قولهم : أن محمداً ليس على شيء، والذي هو أقرب للمثلية بينهم وبين اليهود والنصارى الذين قال كل منهم عن الآخر : ليسوا على شيء، ثم يتمسك بما كان عليه الأمم السابقة في الوقت الذي لا ندري ماذا قالوا لأنبيائهم ومن هذه المناقشة يرجح عندي قول السدي من أن العرب هم المقصودون (بالذين لا يعلمون) والله سبحانه وتعالى أعلم ، وهو الهادي إلى الصواب .

أولياؤه إلاّ المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ (١)

وقوله تعالى : ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ﴾ .

فإذا كان من هو كذلك مطروداً منها، مصدوداً عنها، فأي خراب لها أعظم من ذلك وليس المراد بعمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط ، إنّما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعة فيها ورفعها عن الدنس والشرك . (٢)

وقوله تعالى : « أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلاّ خائفين » وهذا خبر معناه الطلب أي لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة، أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادىَ برحاب منى : ١٠٧ [ألا لا يحجّنّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له أجل فأجله إلى مدته] وهذا إذا كان تصديقاً وعملاً بقوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدّم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام . وأوصى رسولُ الله ﷺ أن لا يبقى في جزيرة العرب دينان، وأن يجلي اليهود والنصارى منها ولله الحمد والمنّة . وما ذاك إلاّ تشريف أكناف المسجد الحرام وتطهير البقعة التي بعث فيها رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً صلوات الله عليه وسلامه .

وهذا هو الخزي في الدنيا لأن الجزاء من نوع العمل فكما صدّوا المؤمنين عن المسجد الحرام صُدّوا عنه وكما أجلوهم من مكة أُجْلُوا عنها ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم على ما انتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه من نصب الأصنام حوله ودعاء غير الله عنده والطواف به عرياً وغير ذلك .

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ ١١٥

(١) قلت : في هذه الآية دليل على أن المقصود من قوله تعالى « وكذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم » هم العرب المشركون وليسوا الروم ولا الأمم السابقة لليهود، للصفة الواردة في هذه الآية أنهم يصدون عن المسجد الحرام ولا شك فإن هؤلاء هم مشركو العرب .

(٢) قلت : وهذه الصفات أيضاً تدل على أنهم مشركو العرب والله الموفق الهادي للصواب

وهذا – والله أعلم – فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومصلاّهم. وقد كان رسول الله ﷺ يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه، فلما قدم المدينة توجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد، ولهذا يقول تعالى: ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمّ وجه الله﴾ وقال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه (الناسخ والمنسوخ) : أخبرنا الحجّاج بن محمّد ثم ساق السند إلى ابن عباس قال : أول ما نسخ لنا من القرآن فيما ذكر لنا والله أعلم ، شأن القبلة قال الله تعالى : ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولّوا فثمّ وجه الله﴾ فاستقبل رسول الله ﷺ فصلّى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق ، ثم صرفه إلى بيته العتيق ، ونسخها فقال : « ومن حيث خرجت فولّ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره . »

وقال مجاهد : ﴿فأينما تولُّوا فثمّ وجه الله﴾ حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها الكعبة. وقال ابن جرير : وقال آخرون بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجّه إلى الكعبة . وقال آخرون : نزلت إذناً من الله أن يصلّي التطوع حيث توجه من شرق أو غرب في مسيره في سفره وفي حال شدة الخوف . وروى أبو كريب بالسند إلى ابن عمر أنه كان يصلي حيث توجهتْ به راحلته ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك ويتأول هذه الآية : ﴿فأينما تولوا فثمّ وجه الله﴾ ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه من طرق عن عبد الملك بن أبي سليمان به . وأصله في الصحيحين من حديث ابن عمر وعامر بن ربيعة من غير ذكر الآية .

وقال آخرون : بل نزلت في قوم عميت عليهم القبلة ، فلم يعرفوا شطرها فصلوا على أنحاء مختلفة فقد روى محمّد بن إسحق الأهوازي بالسند الى عامر بن ربيعة عن أبيه قال : كنّا مع رسول الله ﷺ في ليلة سوداء ومظلمة فنزلنا منزلاً فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجداً يصلّي فيه فلما أن أصبحنا إذا نحن قد صلينا إلى غير القبلة فقلنا يا رسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة ، فأنزل الله هذه : ﴿ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمّ وجه الله﴾ ، رواه الترمذي وابن أبي حاتم بطرق ضعيفة ورويت أيضاً من طرق أخرى عديدة بأسانيد فيها ضعف ولعلّه يشدّ بعضها بعضاً وأما إعادة الصلاة لمن يتبين خطأه ففيها خلاف (وهذه دلائل أي الآية نفسها ، والأحاديث المتقدمة، على عدم القضاء والله أعلم .)

وروى ابن جرير بالسند إلى مجاهد قال لما نزلت: ﴿ ادعوني استجب لكم ﴾ قالوا إلى أين ؟ فنزلت: ﴿فأينما تولوا فثمّ وجه الله﴾ قال ابن جرير ومعنى : ﴿أن الله واسع عليم﴾

يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود والإفضال وأما قوله : عليم فإنه عليم بأعمالهم ما يغيب عنه منها شيء ، ولا يعزب عن علمه بل هو بجميعها عليم .

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ١١٧ ﴾

إشتملت هذه الآية والتي تليها، الردّ على النصارى، وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب من جعل الملائكة بنات الله فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم إن لله ولداً .

فقال تعالى : ﴿ بل له ما في السموات والأرض ﴾ أي ليس الأمر كما افتروا وإنّما له ملك السموات والأرض ومن فيهن ، وهو المتصرف فيهن ، وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء والجميع عبيد له وملك له فكيف يكون له ولد منهم ، والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد كما قال تعالى :

﴿ بديع السموات والأرض أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم . ﴾ وقال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدّاً * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا إن كل من في السموات والأرض إلا آتِ الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عدّاً وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ .

وقال تعالى : ﴿قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد﴾ فقرر في هذه الأيات الكريمة أنه السيد العظيم الذي لا نظير له ولا شبيه له وأن جميع الأشياء غيره ، مخلوقة له ومربوبة ، فكيف يكون له منها ولد ؟ .

ولهذا روى البخاري في تفسير هذه الآية من البقرة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية عن النبي ﷺ قال ١٠٨ : [قال الله تعالى: «كذّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمه إياي فقوله : أنّ لي ولداً فسبحاني أن أتخذ صاحبة أو ولداً] . وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال ١٠٩ : [لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله. إنهم: يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم .]

وقوله ﴿ كل له قانتون ﴾ روى ابن أبي حاتم بالسند عن ابن عباس قال : قانتين: مصلين. وقال عكرمة وأبو مالك: ﴿ كل له قانتون ﴾ مُقِرُّون له بالعبودية . وقال مجاهد مطيعون . وقوله تعالى : ﴿ بديع السموات والأرض ﴾ أي: خالقها على غير مثال سابق. قال ابن جرير فمعنى الكلام : سبحان الله أن يكون له ولد وهو مالك السموات والأرض تشهد له جميعها بدلالتها عليه بالوحدانية ، وتقرُّ له بالطاعة، وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه . وهذا إعلام من الله لعباده ، أن ممن يشهد له بذلك المسيح الذي أضافوا إلى الله بنوّته، وإخبار لهم: أن الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال، هو الذي ابتدع المسيح من غير والد بقدرته .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ١١٨ ﴾

حكى القرطبي : ﴿ لولا يكلمنا الله ﴾، أي يخاطبنا بنبوتك يا محمد وهذا قول كفار العرب . ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ﴾ قالوا هم اليهود والنصارى . يؤيد هذا القول أن القائلين ذلك هم مشركو العرب قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجّر لنا من الأرض ينبوعا ... ﴾ إلى قوله ﴿ ... قل سبحان ربي هل كنت إلاّ بشراً رسولاً ﴾ . وقوله تعالى ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربّنا ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب [١] وعتوّهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به ، كما قال مَنْ قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتاب وغيرهم كما قال تعالى : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ أي أشبهت قلوب مشركي العرب قلوبَ مَنْ تقدّمهم في الكفر والعناد والعتوّ . وقوله تعالى : ﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ ، أي قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل لمن أيقن وصدق.

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ١١٩ ﴾

(١) قلت : لقد تكرر وصف مشركي العرب / بعدم العلم / مما يؤيد ما رجحناه في تعليقنا ص ٩٢ و ٩٣ و ٩٤ في قوله تعالى : «وكذلك قال الذين لا يعلمون » وكذلك هنا في الآية رقم/١١٨/

روى ابن أبي حاتم بالسند عن ابن عباس عن النبي ﷺ : ١١٠ [أنزلت عليّ : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ﴾ قال : بشيراً بالجنة ونذيراً من النار] . وقوله تعالى : ﴿ ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ قراءة أكثرهم : ﴿ ولا تُسألُ ﴾ أي لا نسألك عن كفرِ من كفرَ بك قوله تعالى : ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ وقوله تعالى: ﴿ فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ﴾ وقرأ آخرون : ﴿ ولا تَسألْ عن أصحاب الجحيم ﴾ بفتح التاء على النهي أي لا تسأل عن حالهم كما روى عبد الرزاق عن محمد بن كعب القرظي قال : قال رسول الله ﷺ : ١١١ [ليت شعري ما فعل أبواي، ليت شعري ما فعل أبواي ، ليت شعري ما فعل أبواي فنزلت : ﴿ ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ فما ذكرهما حتى توفاه الله] . أما الحديث المروي في حياة أبويه عليه الصلاة والسلام فليس في شيء من كتب السنة ولا غيرهـا.وإسناده ضعيف والله أعلم . ويحتمل أن رسول الله ﷺ كان يستغفر لأبويه قبل أن يعلم أمرهما فلما علم ذلك،تبرأ منهما وأخبر عنهما أنهما من أهل النار كما ثبت في الصحيح [1] .

﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ ٱلَّذِي جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ١٢٠ ٱلَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ ٱلْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ١٢١ ﴾

قال ابن جرير :

يعني بقوله جل ثناؤه : ﴿ ولن ترضىٰ عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ أي يا محمد ليست اليهود ولا النصارى براضية عنك أبداً حتى تتبع ما يرضيهم ويوافقهم فاطلب رضاء الله فيما بعثك الله من الحق . وقوله تعالى : ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾

(١) قلت : روى مسلم في صحيحه عن أنس : ١١٢ [أن رجلا قال يا رسول الله : أين أبي ... ؟ فقال : « في النار » فلما قفى دعاه فقال : « إن أبي وأباك في النار »] وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه : قال : ١١٣ [زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ، فقال: « إستأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يؤذن لي فاستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكر الموت »] وهناك أحاديث شتى في هذا الباب اقتصرنا منها على ما هو في صحيح مسلم ويتضح منها جميعاً أن أبوي الرسول ماتا على الشرك فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

أي قل يا محمد إنّ هدى الله الذي بعثني به هو الهدى يعني هو الدين الصحيح ﴿ ولئن أتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من وليّ ولا نصير ﴾ . فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طريق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة عياذاً بالله من ذلك.فإن الخطاب للرسول والأمر لأمته (١) .

وقوله تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ﴾ قال سعيد وقتادة :هم أصحاب رسول الله ﷺ وقال ابن مسعود : والذي نفسي بيده إن حقّ تلاوته أن يُحلّ حلالَه ويُحرّمَ حرامَه ويقرأه كما أنزله الله ولا يحرّف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأوّل منه شيئاً على غير تأويله ، وقال ابن عباس مِثلَ ذلك. ورُوي عن النبي ﷺ: ١١٤ [أنه كان إذا مرّ بآية رحمة سأل ، وإذا مر بآية عذاب تعوّذ] . وقوله تعالى ﴿ أولئك يؤمنون به ﴾ خبر عن الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته . أي مَنْ أقام كتابَه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته ، آمن بما أرسلتك به يا محمد كما قال تعالى ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل اليكم من ربكم ﴾ أي إذا أقمتموها حق الإقامة ، وآمنتم بها حق الإيمان ، وصدّقتم بما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونعته وصفته ، والأمر باتباعه ونصره وموآزرته قادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة . كما قال ﴿ الذين يتبعون الرسول النبيَّ الأميَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴾ ... ويقول تعالى ﴿ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولّوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ وفي الصحيح : ١١٥ [والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهوديّ ولا نصرانيّ ثم لا يؤمن بي إلاّ دخل النار .]

﴿ يَٰبَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ٱلَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ١٢٢ وَٱتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ١٢٣ ﴾

(١) قلت : فيه نهي كبير عن اتباع الكفار وتقليدهم في عقائدهم وعباداتهم ومعاملاتهم...وجعلهم مثلاً بالاقتداء كما هو الحال اليوم والعياذ بالله وخاصة في الحكم بغير ما أنزل الله . مع العلم بما جاء به القرآن والسنة من الأحكام . فمن يفعل ذلك فليس له من عذاب الله من ولي ولا نصير .

قد تقدم نظيرها في مختصر السورة وكررت هنا للتأكيد والحث على اتباع محمد ﷺ ولا يحسدوا بني عمّهم العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم فيكفروا بـــه [1]

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ١٢٤ ﴾

أي اذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابيّن الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها وإنما الذي عليها مستقيم . فأنت والذين معك من المؤمنين اذكر لهؤلاء ابتلاءَ إبراهيم أي اختباره بما كلفه من الأوامر والنواهي ﴿ فأتمّهنّ ﴾ أي قام بهنّ كلهنّ كما قال تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفّى ﴾ أي وفّى جميع ما شرع الله له فعمل به صلوات الله عليه وسلامه . قال تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين إن أولى الناس بابراهيم لَلّذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾ وقوله تعالى: ﴿ بكلمات ﴾ أي بشرائع وأوامر ونواه . فإن الكلمات تطلق ويراد بها الكلمات القدرية كقوله تعالى عن مريم عليها السلام ﴿وصدقت بكلمات ربّها وكتبه وكانت من القانتين﴾ وتُطلق ويراد بها الشرعية كقوله تعالى : ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ أي كلماته الشرعية وهي : إما خبر صدق ، وإما طلب عدل ، إن كان أمراً أونهياً ومن ذلك هذه الآية الكريمة ﴿ وإذا ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهنّ ﴾ أي قام بهن. قال : ﴿ إني جاعلك للناس إماماً ﴾ أي جزاء على ما فعل كما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوةً وإماماً يقتدى به .

وقد اختلف في تعيين الكلمات التي اختبر الله بها ابراهيم الخليل عليه السلام . فروى محمد بن اسحق بالسند إلى ابن عباس قال : الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهنّ : فراق قومه في الله حين أُمرَ بمفارقتهم ، ومحاجتّه نمروذاً في الله حين وقفه ملى ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلافه ، وصبره على قذفه إياه في النار ليحرّقوه في الله على هول ذلك من أمرهم ، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله حين أمره بالخروج عنهم . وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله ، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه . فلما مضى على ذلك من الله كله وأخلصه للبلاء قال الله له: ﴿ أسلم قال أسلمت لرب العالمين﴾

---

(١) قلت : راجع الآيات رقم ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ من هذه السورة .

وروى ابن أبي حاتم بالسند إلى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وإذا ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن﴾ قال الله لإبراهيم إني مبتليك بأمر فما هو... قال تجعلني للناس إماماً قال: نعم. قال ومن ذريتي قال: ﴿لا ينال عهدي الظالمين﴾ قال تجعل البيت مثابة للناس قال : نعم قال : وأمناً . قال : نعم . قال : تجعلنا مسلمَيْن لك ومن ذريتنا أمةً مسلمة قال : نعم. قال : وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله قال : نعم . قال ابن جرير ما حاصله: أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر وجائز أن يكون بعض ذلك ، ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلاّ بحديث أو إجماع . ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له .

وقوله : ﴿قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين﴾ لما جعل الله إبراهيم إماماً سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته فأجيب إلى ذلك ، وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون ، وإنه لا ينالهم عهد الله ، ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم . والدليل على أنه أجيب إلى طلبته قوله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ فكل نبي أرسله الله وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا مِن مَقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى ﴾

﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ١٢٦ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ١٢٨

قال العوفي عن ابن عباس قوله تعالى : ﴿وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس﴾ يقول لايقضون

منه وطراً يأتونه ثم يرجعون منه ثم يعودون إليه . وروى ابن جرير بالسند إلى عبدة بن أبي لبابة في قوله تعالى : ﴿ وإذجعلنا البيت مثابة للناس ﴾ قال لا ينصرف عنه منصرف وهو يرى أنه قضى منه وطراً . وما أحسن ما قال الشاعر في هذا المعنى ، أورده القرطبي :

جعـــل البيت مثـــابـــاً لهـــمُ ليس منه الدهرَ يقضونَ الوطرْ

ومضمون ما فسرت به هذه الآية : أن الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدراً ، من كونه مثابة للناس،أي جعله محلاً تشتاق إليه الأرواح وتَحِنُّ إليه ولا تقضي منه وطراً ، ولو تردّدتْ إليه كل عام استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام في قوله : ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ إلى أن قال: ﴿ربنا وتقبّل دُعائي﴾ ويصفه بأنه جعله أمناًمن دخلهُ أمِنَ ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمناً . وقال تعالى : ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي بمكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بيّنات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً﴾ وفي هذه الآية الكريمة نبّه علىمقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده فقال: ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ . وقد اختلف المفسرون في المراد بالمقامما هو... فقال ابن أبي حاتم بالسندالى ابن عباس: ﴿واتخذوا من مقام ابراهيم مصلىٰ ﴾ قال مقام إبراهيم الحرم كلّه . وعنه أيضاً قال: أما مقام ابراهيم الذي ذكر ههنا فمقام إبراهيم هذا الذي في المسجد . وقيل إن مقام إبراهيم « الحج كله » . والصحيح أنه الحجر الذي صلى خلفه رسول الله ﷺ ركعتي الطواف . فقد روى البخـــاري عن النبي ﷺ عن أنس بن مالك مالك قال : قال عمر بن الخطاب : « وافقت ربي في ثلاث أو وافقني ربي في ثلاث : قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت : ﴿ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ﴾ إلى آخر الحديث ... ورواه مسلم عن عمر قال : (وافقت ربي في ثلاث: في الحجـــاب . وفي أسارى بدر وفي مقام إبراهيم. وقال ابن جريج بالسند إلى جابر : ١١٦ [إن رسول الله ﷺ رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعاً حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلّى خلفه ركعتين ثم قرأ: ﴿واتخذوا منمقام إبراهيم مصلّى﴾]

وكل ما تقدم يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجَر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة. وهو واقف عليه كلما فرغ من جدار، نقلهُ إلى الناحية التي تليها. وهكذا حتى تم جدران الكعبة ،كما سيأتي بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت.وقد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قديماً ، ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجَرَ يمنة الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك . وإنما أخّره أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أمِرنا باتباعهم ولم ينكر

أحد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين (١)

وقوله تعالى: ﴿وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركّع السجود﴾ وعهدنا أي أمرنا وعُدّيَ بإلى لأنه بمعنى: تقدمنا وأوحينا. ﴿وطهرا بيتي للطائفين﴾ أي من الشرك بلا إله إلاّ الله. والطواف بالبيت معروف. وعن سعيد بن جبير في قوله تعالى: للطائفين يعني من أتاه من غُربة يطوف به ﴿والعاكفين﴾ المقيمين فيه. وقيل من انتابه من الأمصار فأقام عنده. وعن ابن عباس قال: إذا كان جالساً فهو من العاكفين حتى النائمين في المسجد يعتبرون من العاكفين قال ابن عمر. وثبت أنه كان ينام في مسجد الرسول ﷺ وهو عزب ﴿والركع السجود﴾ قال ابن عباس: إذا كان مصلياً فهو من الركع السجود. وقد اختلف الفقهاء أيهما أفضل؟ الصلاة عند البيت أو الطواف به ...؟ قال مالك: الطواف لأهل الأمصار أفضل، وقال الجمهور: الصلاة أفضل مطلقاً.

والمعنى إذاً: وعهدنا إلى ابراهيم أي تقدمنا بوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي ﴿للطائفين والعاكفين والركع السجود﴾ أي طهراه من الشرك والريب، وأبنياه خالصاً لله: معقلاً للطائفين والعاكفين والركّع السجود. وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة، ومن قوله تعالى: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدوّ والآصال﴾ ومن السنّة من أحاديثَ كثيرةٍ من الأمر بتطهيرها وتطييبها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: ١١٧ [إنما بنيت المساجد لما بنيت له] وقد اختلف في أول من بنى الكعبة. فقيل: الملائكة، وقيل آدم، وقيل شيث عليهما السلام وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب وهي مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجردها وأما إذا صح حديث من ذلك فعلى الرأس والعين.

قوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعلْ هذا بلداً آمناً﴾ أي اجعل هذه البقعة بلداً آمناً وناسب هذا لأنه قبل بناء الكعبة. وقال تعالى في سورة ابراهيم: ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً﴾ كأنه ــ والله أعلم ــ وقع دعاءٌ مرةٌ ثانية بعد بناء البيت

(١) قلت: إن من تتبع سبب نقل الحجر وتأخيره إلى مكانه اليوم ير أن عمر بن الخطاب رأى الحجر يتعثر به المسلمون أثناء طوافهم فأخره رضي الله عنه رحمة بهم، ولم ينكر أحد من الصحابة على ما فعله عمر وفي هذه الأيام عام ١٣٨٥ وما قبله وإلى ما بعده يكثر عدد الحجاج والحمد لله عاماً بعد عام لدرجة بلغ هذا العام ألف ألف وخمسمئة ألف حاج. حتى بلغ من أمر الزحام عنده ما أدّى إلى وفاة عدد من الحجاج وخاصة في العام الذي مضى ... فيا ليت أولي الأمر يؤخرونه أيضاً كما أخره عمر بن الخطاب بسبب التعثر فكيف بالوفاة؟

واستقرار أهله به وبعد مولد إسحاق الذي هو أصغر سناً من إسماعيل بثلاث عشرة سنة ولهذا قال آخر الدعاء: ﴿الحمد لله وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربّي لسميع الدعاء﴾

وقوله: ﴿وأرزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ قال ابن عباس كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس فأنزل الله ﴿قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير﴾ ومعناه: ومن كفر أيضاً أرزقهم كما أرزق المؤمنين أأخلق خلقاً ولا أرزقهم؟ أمتعهم قليلاً ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير أي سأرزق الكافر أيضاً وأمتعه برزقه في الدنيا قليلاً ثم أضطره بما كفر إلى عذاب النار جزاءً وفاقاً ﴿وبئس المصير﴾ أي المرجع والمآل. وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبي طلحة: ١١٨ [إلتمس لي غلاماً من غلمانكم يخدمني فخرج بي أبو طلحة يرد فني وراءه، فكنت أخدم رسول الله ﷺ كلما نزل. وقال في الحديث ثم أقبل حتى إذا بدا له أحُد قال: « هذا جبل يحبنا ونحبه » فلما أشرف على المدينة قال: اللهم إني أحرم ما بين جبليها مثل ما حرم به إبراهيم مكة اللهم بارك لهم في مدهم وصاعهم.]

وفي لفظ لهما اللهم بارك لهم في مكيالهم وبارك لهم في صاعهم وبارك لهم في مدهم] (زاد البخاري) : يعني أهل المدينة.

وعن عبدالله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه عن النبي ﷺ ١١٩ [إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها وحرّمتُ المدينة كما حرم إبراهيم مكة ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة] رواه البخاري.

أثبتنا هذه الأحاديث: لتعلقها بدليل حرمة مكة ومن أدلة ذلك: وقيل أنها محرمة منذ خلقت مع الأرض. وهذا أظهر وأقوى والله أعلم. وقد وردت أحاديث أُخر، تدل على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والارض. كما جاء في الصحيحين عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: ١٢٠ [إن هذا البلد حرّمه الله يومَ خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلاّ ساعةً من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته، إلاّ من عرّفها ولا يختلى خلاها » فقال العباس يا رسول الله إلاّ الأذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم فقال: « إلا الإذخر »] وهذا لفظ مسلم. ولهما عن أبي هريرة نحو من ذلك. أما تفضيل مكة على المدينة أو بالعكس فيأتي بعد إن شاء الله تعالى

﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾

القواعد جمع قاعدة . وهي السارية والأساس. يقول تعالى واذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل البيت ورفعهما القواعد وهما يقولان : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما.ويدلُّ على هذا قولهما بعده: ﴿ ربنا واجعلنا مسلمَيْنِ لكَ ومن ذرّيتنا أمةً مسلمةً لك ﴾ فهما في عمل صالح ويسألان الله به أن يتقبل منهما وقد كانا يرفعان ويدعوان الله سبحانه أن يتقبل عملهما وقلباهما وجلان ألاّ يتقبّل منهما كما حكى الله عن حال المؤمنين الخلّص في قوله تعالى: ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ أي خائفة أن لا يتقبل منهم .

وقد روى عن البخاري رحمه الله في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ١٢١ [أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل،أم اسماعيل إتخذت منطقاً لتعفي أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي تُرضعه حتّى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ، فوضعها هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء. ثم قفّا إبراهيم منطلقاً،فتبعته أم اسماعيل فقالت: يا إبراهيم: أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء ؟ فقالت ذلك له مراراً .. وجعل لا يلتفت إليها . فقالت : آلله أمرك بهذا؟ قال : نعم. قالت: إذاً لا يضيّعنا... ثم رجعت . فانطلق إبراهيم حتّى إذا كان عند الثنيّة ، حيث لا يرونه، إستقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات ، ورفع يديه .فقال : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرّم ... حتّى بلغ يشكرون. ﴾ وجعلتْ أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشَتْ وعطش أبنها وجعلت تنظر إليه يتلوّى أو قال يتلبّط . فانطلقت كراهة أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً ، فلم ترَ أحداً فهبطت من الصفا حتى إذا بلغتِ الوادي ، رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتّى جاوزت الوادي ثم أتت المروةفقامت عليها فنظرت هل ترى أحداًفلم ترَ أحداً ففعلت ذلك سبع مراتٍ. قال ابن عباس قال النبي ﷺ : «فلذلك سعى الناس بينهما» فلمّا أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت صه تريد نفسها ثم تسمعت. فسمعت أيضاً فقالت قدأسمعتَ إن كان عندك غواث؟ فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه ، أو قال بجناحه ، حتى ظهر الماء . فجعلت تحوّضه وتقول بيدها هكذا ... وجعلت تغرف الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف . قال ابن عباس : قال النبي ﷺ «يرحم الله أمَّ إسماعيل لو تركت زمزم » أو قال « لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً » قال فشربتْ وأرضعتْ ولدها

فقال لها الملَك : « لا تخافي الضيعة ، فإن ها هنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه . وأن الله لا يضيع أهله » وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله . فكانت كذلك حتّى مرت بهم رفقة من (جرهم) أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كذا ... فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائراً عائفاً فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء . لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء .. !

فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا . قال : وأم اسماعيل عندالماء فقالوا : أتأذنين لنا أننتزل عندك؟ قالت : نعم ، ولكن لا حقّ لكم في الماء عندنا ، قالوا : نعم . قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس » فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتّى إذا كان بها أهل أبياتٍ منهم ، وشبّ الغلام وتعلّم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم . وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته،فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت : خرج يبتغي لنا ... ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بشرٍّ، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه. قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يغيّرعتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئاً فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أننا في جهد وشدة . قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول غيّر عتبة بابك . قال : ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك فالحقي بأهلك . وطلقها وتزوج منهم بأخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاءالله ثم أتاهم بعد، فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت خرج يبتغي لنا قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم. فقالت: نحن بخير وسعة وأثنت على الله عز وجل قال ما طعامكم ؟ قالت : اللحم . قال فما شرابكم؟ قالت الماء . قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء . قال النبي ﷺ : «ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم لدعا لهم فيه » ــ قال ــ فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه .) قال فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل قال هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم ،أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته.فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنّا بخير قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم. هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبي وأنت العتبة ، أمرني أن أمسكك ، ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبري نبلاً له، تحت دوحة قريبة من زمزم. فلما رآه، قام إليه وصنع كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد . ثم قال : يا إسماعيل : «إن

الله أمرني بأمر قال : فاصنع ما أمرك ربك قال : » وتعينني » ؟ قال : « وأعينك » قال : فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً» وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ، قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر [١] فوضعه له فقام عليه ، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت ، وهما يقولان ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾]

وقد اختلف العلماء والمفسرون في قواعد البيت .. أهي قواعد بناها إبراهيم عليه السلام أم هي موجودة قبله ، وأُمِرَ أن يبني عليها ...؟ فالراجح - والله أعلم - إنها قواعد كانت مبنية قبل إبراهيم ... وإنما هُدِيَ إليها وبُوِّيء لها . قال الله تعالى : ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ﴾ فالبيت إذاً كان سابقاً موجوداً إنما بُوِّيء مكانه

قال ابن جرير : أخبرنا هناد بن السري وساق السند إلى خالد بن عرعرة قال:إن رجلاً قام إلى علي رضي الله عنه فقال : ألا تخبرني عن البيت ... أهو أول بيت وضع في الأرض فقال : لا ؛ ولكنه أول بيت وضع في البركة مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً وإن شئت أنبأتك كيف بُنِيَ : إن الله أوحى إلى إبراهيم أن ابنِ لي بيتاً في الأرض فضاق إبراهيم ذرعاً بذلك . فأرسل الله السكينة وهي ريح خجوج ، ولها رأسان فأتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت إلى مكة ، فتطوّت على موضع البيت كطيّ الحجفة ، وأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة، فبنى إبراهيم وبقي الحجر فذهب الغلام يبغي شيئاً فقال إبراهيم: «لا... أبغي حجراً كما آمرك .» قال: فانطلق الغلام يلتمس حجراً فأتاه به فوجده قد ركّب الحجر الأسود في مكانه. فقال: «يا أبتِ من أتاك بهذا الحجر؟» فقال «أتاني به من لم يتكل على بنائك ، جاء به جبريل عليه السلام من السماء » ، فأتمّاه .

* * *

ويقال إن الحجرَ كان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثغامة وكان آدم هبط به من الجنة فاسودّ من خطايا الناس . ويقال إن البيت بُني من أربعة أجبل : حراء ، وطور سيناء ، وطور زيتا ، والجودي . والله أعلم .

* * *

(١) قلت : هو الحجر الذي قام عليه ابراهيم في بناء الكعبة وهو مقام إبراهيم الذي جاء ذكره ص١٠٣

وروى ابن أبي حاتم بالسند إلى سعيد بن المسيب قال سعيد : وحدثنا علي بن أبي طالب أن إبراهيم أقبل من أرض أرمينية ومعه السكينة تدله على تبوُّيء البيت كما تتبوأ العنكبوت بيتاً قال : فكشفتْ عن أحجار لا يطيق الحجرَ إلا ثلاثون رجلاً ، فقلت يا أبا محمد: فإن الله يقول : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل . ﴾ قال كان ذلك بعدُ . (١)

« ذكر بناء قريش للكعبة »

بعد ابراهيم وقبل مبعث محمد ﷺ

قبل مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين ، أجمع أمر قريش على نقض الكعبة لتوهُّنها وبنائها من جديد ، وتعاهدوا فيما بينهم ألاّ يدخلوا في بنيانها إلاّ كسباً طيباً ولا يدخل فيها مهر بغي ، ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس . وقد كانت الكعبة مجزأة فيما بين قبائل قريش ، أي كان كل شقٍ أو ركن لقبيلة من قبائل قريش حتّى شق الحجر وظهر الكعبة .

وقد هابوا جميعاً هدمها وفرقوا منه . فقال الوليد بن المغيرة : أنا أبدؤكم في هدمها . فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : اللهم إنا لا نريد إلا الخير ثم هدم من ناحية الركن . فتربص الناس تلك الليلة وقالوا : ننظر ... فإن أصيب لم نهدم منه شيئاً ورددْناها كما كانت ، وإن لم يصبه شيء ، فقد رضي الله ما صنعنا ، فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله ، فهدم وهدم الناس معه حتّى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس ، أساسِ إبراهيم عليه السلام أفضوا إلى حجارةٍ خضرٍ كالأسنة ، آخذ بعضها بعضاً .

قال محمد بن اسحق : وحدثني بعض من يروي الحديث بأنّ رجلاً من قريش ممن

(١) قلت : من عموم نصوص القرآن ، ومن الأخبار الواردة ، ورغم أن المحدثين قالوا انه لم يثبت منها أي حديث إنما من مجموع هذه الأحاديث يميل القلب إلى الظن الراجح بأن القواعد كانت موجودة قبل ابراهيم لا سيما وان الله تعالى يقول : وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت » ويقول تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت) يتضح أن الله هداه إلى مكان البيت ، وإن القواعد من البيت أي أركانه الأربعة ، وليست هي أسسه الراسية عليها أركان البيت ، والأخبار المتقدمة تصف القواعد أن الحجر منها لا يطيق حمله إلا ثلاثون رجلا . ثم قول إبراهيم (عند بيتك المحرم) وذلك قبل أن يبني البيت بأعوام ، لدليل على أن البيت كان موجوداً ومعروف البقعة ولا يعقل أن يكون بيت بلا قواعد والأخبار تقول : إنه كان مكان البيت وقتئذ ربوة حمراء مدرة ، ولعلها بعض أنقاض لابيت المردومة سابقاً والله تعالى أعلم .

كان يهدمها أدخل عتلةً بين حجرين منها ، ليقلع بها أيضاً أحدهما . فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها فانتهوا عن ذلك الأساس .

اشترك الجميع في جمع الحجر والبناء، حتى إذا بلغوا موضع الحجر الأسود، فاختصموا فيه ، وكل قبيلة تودُّ لو تنفرد بشرف وضعه في مكانه، لتنال هذا الشرف حتى لكادوا يقتتلون ... لولا أن أبا أمية بن المغيرة المخزومي ، قال : يا معشر قريش إجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه ، أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم . ففعلوا فكان أول داخلٍ محمداً ﷺ . فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ... رضينا هذا محمد فلما أخبروه الخبر قال قال ﷺ : ١٢٢ [«هلمَّ إليَّ ثوباً» . فأُتي به . فأخذ الحجر الأسود ، فوضعه بيده ، ثم قال : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً » ففعلوا ... حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه بيده ﷺ ولم تزل الكعبة على بناء قريش ، حتى احترقت في أول إمارة عبدالله بن الزبير سنة ٦٠ وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية ، لما حاصروا ابن الزبير فحينئذٍ نقضها ابن زبير إلى الأرض وبناها على قواعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام . وأدخل فيها من الحِجْرِ خمسة أذرع ، وجعل لها باباً شرقياً وباباً غربياً ملصقَيْن بالأرض . كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ ولم تزل الكعبة كذلك حتى قتله الحجاج فردَّها إلى ما كانت بأمر عبد الملك بن مروان ،كما روى مسلم في صحيحه عن عطاء بنحوه .

وقد كانت السُنّةُ إقرار ما فعله عبدالله بن الزبير (رض) لأنه هو الذي وَدَّهُ رسولُ الله ﷺ . ولكن خفيت هذه السُّنة على عبد الملك بن مروان ، ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله ﷺ ، قال : ودَدْنا أنّا تركناه وما تولّى .

وروى مسلم فيصحيحهعن أبي قزعة : أن عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال : قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين ، يقول سمعتها تقول : قال رسول الله ﷺ ١٢٣ : [يا عائشة لولا حدثان قومك بالكفر لنقضت الكعبة حتى أزيد فيها من الحجر فإن قومك قصروا في البناء] فقال الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة : لا تقل هذا يا أمير المؤمنين ، فإني سمعت أمَّ المؤمنين تحدّث هذا ... قال لو كنت سمعتهُ قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير . هذا الحديث كالمقطوع بـه إلى عائشة لأنه قد روي عنها من طرقٍ صحيحة متعدّدة ... فدلّ هذا على صواب بما فعله ابن الزبير ، فلو ترك لكان جيداً . ونهى مالكٌ بنُ أنس (الرشيد) أو أباه (المهدي) عن هدم الكعبة لإرجاعها إلىقواعد إبراهيم، حتىلا تكونملعبةً للملوك،لا يشاء أحد أنيهدمها إلاّ هدمها .

وسوف تبقى لآخر الزمان إلى أن يخربها ذو السويقتين من الحبشة .كما ثبت ذلك في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ:١٢٤[يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة] ، وفي رواية عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: ١٢٥ [يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة ويسلبها حليتها ويجردها من كسوتها ولكأني أنظر إليه أصيلع أفيدع(١) يضرب عليها بمسحاته ومعوله]وهذا والله أعلم إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج ، لما جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رض) قال: قال رسول الله ﷺ ١٢٦ : [ليُحَجنَّ البيتَ وليُعْتمَرَنَّ بعد خروج يأجوج ومأجوج .]

وقوله تعالى : ﴿ ربنا واجعلنا مسلـمـْين لك ومن ذريتنا أمةً مسلمة لك وأرنا مناسكنـا وتُبْ عَلَـيْنَا إنّك أنْتَ التواب الرحيم ﴾

قال ابن جرير : يعنيان بذلك : واجعلنا مستسلـمـْين لأمرك ، خاضعـْين لطاعتك لا نُشرِكُ معك في الطاعة أحداً سواك ، ولا في العبادة غيرَك ﴿ ومن ذريتنا أمةً مسلمة لك ﴾ قال السدي : يعنيان العرب وقال ابن جرير : والصواب أنه يعم العرب وغيرهم ، لأن من ذرية إبراهيم بني إسرائيل . وهذا الذي قال ابن جرير لا ينفيه السدي فإن تخصيصهم بذلك لا ينفي من عداهم والسياق إنّما هو في العرب ولهذا قال بعده : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾ والمراد بذلك محمد ﷺ وقد بعث فيهم ، كما قال تعالى : ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ﴾ومع هذا لا ينفي رسالته إلى الأسود والأحمر . ويقول تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ وغير ذلك من الأدلة القاطعة ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ أي أخرجها لنا وعلـّمناها . وعن سعيد بن منصور بالسند إلى مجاهد قال – ما خلاصته – : إن جبرائيل قال لإبراهيم: إرفع القواعد فرفعها ، ثم أراه مناسك الحج جميعاً فأراد إبليس أن يُدخِلَ في الحج شيئاً ، فلم يستطع وأمره أن يرميه ثلاث مرات ، في كل مرة سبع حصيات عند الجمرات الثلاث فرماه . ثم أتى به المشعر الحرام ، حتى أتى به عرفات ، قال قد عرفت ما أريتك ؟ قال نعم .

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ١٢٩

(١) الأفدع : من كان فيه اعوجاج في الرسغين اليد أو الرجل ، وعوج المفاصل ...

وافقتْ تمامُ دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث فيهم رسولاً منهم ، قَدَرَ الله السابق في تعيين محمد صلوات الله وسلامه وعليه رسولاً في الأميين [1] إليهم وإلى سائر الثقلين كما روى الإمام أحمد عن العرباض بن سارية قال قال رسول الله ﷺ ١٢٧ : [إني عند الله لخاتم النبيين [2] وإن آدم لمجندل في طينته وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي ، ورؤيا أمي التي رأت ، وكذلك أمهات النبيين يَرَيْنَ .]

والمراد من قوله : (وبشارة عيسى بي) قوله تعالى : ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ... ﴾ وأما قوله ﷺ ... ورؤيا أمي التي رأت فيوضحه قوله في الحديث الآخر الذي رواه أحمد : ١٢٨ [ورأت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام .] أي أنها رأت مناماً ... رأته حين حملت بـه ، وقصّته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم . وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى أن الشام ستكون آخر الزمان معقل الإسلام وأهله ، بها ينزل عيسى ولهذا جاء في الصحيحين ١٢٩ : [لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك .)

وفي صحيح البخاري : ... ١٣٠ [وهم بالشام] .

وقوله تعالى : ﴿ ويعلمهم الكتاب ﴾ أي القرآن . « ﴿ والحكمة ﴾ أي السنّة .

وقوله : ﴿ ويزكيهم ﴾ يعني طاعة الله والإخلاص له قال ابن عباس . وقوله : ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أي العزيز الذي لا يعجزه شيء والحكيم في أفعاله وأقواله فيضع الأشياء في محالّها .

---

(١) قلت : أي العرب .

(٢) قلت : أي مكتوب عند الله في أم الكتاب أنه سيكون آخر النبيين بعثاً . ويستدل بعض الغلاة بهذا الحديث على أنه صلى الله عليه وسلم أول الخلق . مع أن هذا الحديث لا يدل في واقعه على ذلك البتة . بل إنه يدل على وجوده العلمي لا على وجوده الخلقي ، ويستوي في الوجود العلمي سائر المخلوقات مع النبي صلى الله عليه وسلم بدليل قوله عليه الصلاة والسلام : ١٣١ : (إن الله علم الأشياء قبل أنْ يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام) وعلم الله صفة لله غير مخلوقة ولم يسبق علم الله بعضه بعضاً. أما أول الوجود خلقاً هو القلم . وذلك كما أخبر عليه الصلاة والسلام بقوله : ١٣٢ (أول ما خلق الله القلم وقال اكتب قال رب وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة) أنظر رسالتنا :« محمد أفضل الخلق لا أوّل الخلق » مطبوعة.

﴿ وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرٰهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَاهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ ١٣٠ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ ١٣٢

يقول تبارك وتعالى رداً على الكفار فيما ابتدعوه من الشرك بالله المخالف لملّة ابراهيم الخليل إمام الحنفاء، فإنه جرد توحيد ربه تباركوتعالى فلم يدعُ معه غيره ولا أشرك به طرفة عين ، وتبرأ من كل معبود سواه . وقد خالف في ذلك سائر قومه حتى وإنه تبرأ من أبيه ...! قال تعالى: ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومهإنني براءٌ مماتعبدون. إلا الذي فطرني فإنهسيهدين ﴾

وقال تعالى : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاّ عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدوٌلله تبرأ منه إن إبراهيم لأوّاهٌ حليم . ﴾

فقوله تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلاّ من سفه نفسه ﴾ أي ظلم نفسه بسفهه، وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال ، ومخالفة طريق من اصطُفِيَ في الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنّه ، إلى أن اتخذه الله خليلاً . وهو في الآخرة من الصالحين السعداء ، فأي سفه أعظم من ترك طريقة إبراهيم ومسلكه وملته ، وإتباع طرق الضلالة والغي ... ؟ وقوله تعالى : ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ أي أمره الله تعالى بالإخلاص له والاستسلام والانقياد فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدراً . وقوله تعالى : ﴿ ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوبَ ﴾ أي وصّى بهذه الملة وهي الإسلام . وقد قرأ بعض السلف : ﴿ ويعقوبَ ﴾ بالنصب عطفاً على بنيه كأن إبراهيم وصّى بنيه وابن ابنه يعقوب بن اسحق وكان حاضراً ذلك .

والظاهر والله أعلم أن اسحق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة . لأن البشارة وقعت بهما في قوله تعالى : ﴿ فبشرناها بإسحق ومن وراء اسحق يعقوب ﴾ فلو لم يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحق كبير فائدة .

وقوله تعالى : ﴿ يا بنيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنَّ إلاّ وأنتم مسلمون ﴾ أحسنوا في حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه ، ويبعث على ما مات عليه .

وهذا لا يعارض حديث ١٣٣ : [وإنّ الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتّى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها...] الخ الحديث ..

لأنه قد جاء في بعض الروايات هذا الحديث ١٣٤ : [ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس ، ويعمل بعمل أهل النار فيما يبدو للناس] . وقد قال الله تعالى : ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسنيسره للعُسْرَى ﴾ .

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ١٣٣ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ١٣٤

يقول تعالى : محتجاً على مشركي العرب أبناء إسماعيل ، وعلى الكفار من بني إسرائيل وهو : (يعقوب بن اسحق) بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصّى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له ، فقال لهم : ﴿ ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وآله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق ﴾ وهذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمه . قال النحاس : والعرب تسمى العمّ أباً . وقد استدل بهذه الآية الكريمة من جعل الجدّ أباً وحجب به الأخوة ، كما هو قول الصديق حكاه البخاري من طريق ابن عباس وابن الزبير وهو مذهب أبي حنيفة ولتفصيل ذلك موضع آخر .

وقوله : ﴿ إلهاً واحداً ﴾ أي نوحده بالألوهية ولا نشرك به شيئاً غيره ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أي مطيعون وخاضعون . والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم ، والآيات والأحاديث في هذا كثيرة وقوله ﴿ تلك أمة قد خلت ﴾ أي مضت ﴿ لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ﴾ أي لا ينفعكم انتسابكم إلى الأنبياء كإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، إذا لم تفعلوا خيراً ، فإن لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿ ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ ولهذا جاء في الأثر : ١٣٥ [من أبطأ به عملُه لم يسرعْ به نسبُه] .

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٣٥ ﴾

روى محمد بن اسحق بسنده الى ابن عباس قال : قال عبدالله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ : ما الهدى إلا ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد تهتد . وقالت النصارى مثل ذلك فأنزل عز وجل : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ﴾ وقوله : ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ أي لا نريد ما دعوتمونا إليه من اليهودية والنصرانية ﴿ بل ﴾ نتبع ﴿ ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ أي مستقيماً وقال أبو قلابة : الحنيف الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم .

﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ١٣٦

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلا وما أنزل على الأنبياء المتقدمين عليهم الصلاة والسلام مجملاً. ونص على أعيان من الرسل وأجمل ذكر بقية الأنبياء ، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلهم ولا يكونوا كمن قال الله فيهم : ﴿ ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ .

وقال أبو العالية والربيع وقتادة : الأسباط بنو يعقوب أثنا عشر رجلاً ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسمُّوا الأسباط . والمراد بالأسباط ههنا شعوب بني إسرائيل وما أنزل، الله من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم كما قال موسى لهم : ﴿ أذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً ﴾ وروى ابن أبي حاتم بسنده إلى معقل بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ : ١٣٦ [آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليسعكم القرآن] .

﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ ٱهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٣٧ صِبْغَةَ ٱللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ ١٣٨

يقول تعالى: ﴿ فإن آمنوا ﴾ يعني الكفار من المشركين وأهل الكتاب بمثل ما آمنتم به من الإيمان بالله ورسله بلا تفريق بينهم ﴿ فقد اهتدوا ﴾ أي أصابوا الحق ﴿ وإن تولّوا ﴾ أي عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم ﴿ فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله ﴾ أي فسينصرك عليهم ويظفرك بهم ﴿ وهو السميع العليم ﴾ وقوله تعالى: ﴿ صبغة الله ﴾ أي دين الله وانتصاب ﴿ صبغةَ الله ﴾ أي إلزموا صبغة الله أي فطرة الله ﴿ ومن أحسن من الله صبغة ﴾ ﴿ و نحن له عابدون ﴾ أي مطيعون

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ١٣٩ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٤٠ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٤١ ﴾

يقول الله تعالى مرشداً نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين. ﴿ قل أتحاجوننا في الله ﴾ أي تناظروننا في توحيد الله والإخلاص له والانقياد، واتباع أوامره وترك زواجره ﴿ وهو ربنا وربكم ﴾ المتصرف فينا وفيكم المستحق الإلهية وحده ولا شريك له ﴿ ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ أي نحن براءٌ منكم ومما تعبدون وأنتم براءٌ منّا ﴿ ونحن له مخلصون ﴾ أي في العبادة والتوجه. ثم أنكر تعالى عليهم في دعواهم أن ابراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء كانوا على ملتهم اليهودية أو النصرانية فقال: ﴿ قل أنتم أعلمُ أمِ الله ﴾ يعني بل الله أعلم وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى.

وقوله تعالى: ﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾ قال الحسن البصري: كانوا يقرأون في كتاب الله الذي أتاهم أن الدين الإسلامُ. وأن محمداً رسول الله، وأن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا براءَ من اليهودية والنصرانية، فشهدوا لله بذلك وأقروا على أنفسهم لله فكتموا الشهادة شهادة الله عندهم من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ تهديد ووعيد شديد أي أن علمه محيط بعلمكم

وسيجزيكم عليه . ثم قال تعالى : ﴿ تلك أمة قد خلت ﴾ أي مضت ﴿ لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ﴾ أي لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿ ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ وليس يغني عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة لهم ولا تغتروا بمجرد النسبة اليهم حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الله واتباع رسله الذين بعثوا مبشرين ومنذرين ولا سيما بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين محمد ﷺ وعلى سائر أنبياء الله أجمعين .

(ابتداء الجزء الثاني)

۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٤٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۞ ١٤٣

المراد بالسفهاء هم مشركو العرب وأحبار اليهود والمنافقون هؤلاء جميعاً لأن الآية عامة . وقد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال بيت المقدس . فكان بمكة يصلي بين الركنين [١] فتكون الكعبة بين يديه وهو مستقبل بيت المقدس [٢] فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما ، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس . قاله ابن عباس والجمهور . ثم اختلفوا : هل كان الامربهبالقرآن أو بغيره ... ؟ على قولين : فعكرمة وأبو العالية والحسن البصري على أن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاده عليه الصلاة والسلام .

والمقصود ... أن التوجه إلى بيت المقدس بعد مَقدَمه ﷺ إلى المدينة . واستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهراً وكان يُكثِرُ الدعاءَ والابتهال أن يوجه إلى الكعبة التي هي قبلة

(١) المقصود بالركنين : هما الركن اليماني والركن الشامي

(٢) أي يقف من الجهة الجنوبية فيما يقابل اليوم« باب الوداع» ويتجه شمالا إلى بيت المقدس فتكون الكعبة بين يديه وهو في نفس الوقت مستقبل بيت المقدس .

إبراهيم عليه الصلاة والسلام فأجيب إلى ذلك ، وأُمِرَ بالتوجه إلى الكعبة . فأعلمهم عليه الصلاة والسلام بذلك . وكان أولُ صلاة صلاها إليها ... صلاةَ العصر . كما جاء في الصحيحين من حديث البراء رضي الله عنه :١٣٧[أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً ، أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر ، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه ، فمر على أهل المسجد وهم راكعون ، فقال أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت]وعند النسائي انها الظهرفي مسجد بني سلمة وفي حديث نويلة بنت مسلم : ١٣٨ [أنهم جاءهم الخبر بذلك وهم في صلاة الظهر قالت فتحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال .]

أما أهل قباء ... فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر . فأتاهم آتٍ فقال : ١٣٩ [أن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة .] (٢) وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به ، وإن تقدّم نزولُه وإبلاغُه . لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء والله أعلم . ولما وقع هذا ... حصل لبعض الناس من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب ، ارتياب وزيغ عن الهدى وتخبيط وشك(٣) وقالوا : ﴿ ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ﴾ أي ما لهؤلاء تارةً يستقبلون بيت المقدس ، وتارةً يستقبلون الكعبة؟! فأنزل الله تعالى ﴿قل لله المشرق والمغرب ﴾ أي له الامر كله ﴿ فأينما تولوا فثَمَّ وجه الله ﴾ و ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله ﴾ أي حيثما وجّهَنا سبحانه توجّهْنا إذ كمال الطاعة بامتثال أوامره حتى ولـو وجّهَنَا في كل يوم مراتٍ إلى جهاتٍ متعددة . فنحن عبيده وتحت تصرفه . ومن عنايته العظيمة بأمة محمد ﷺ أن هداهم إلى قبلة خليله إبراهيم عليه السلام ولهذا قال : ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدي مـن يشاء إلى صـراط

(١) (٢) قلت : لا شك أن عملية استقبال القبلة في الصلاة عبادة . إنما القول بأن جهة الكعبة من دون سائر الجهات ، هي قبلة المسلمين في صلاتهم ، فهذا مما لا يختلف فيه اثنان أنه عقيدة ، وقد تقدم أن أهل المسجد صدقوا من أخبرهم وهو واحد فقط بأن القبلة قد تحولت إلى الكعبة بينما هم كانوا يصلون قبل بيت المقدس ، فداروا كما هم ، قبل البيت . فتصديقهم خبر هذا الواحد في أمر كهذا هو لا شك عقيدة ، وقد ثبتت هذه العقيدة من خبر ذلك الواحد الذي شهد بالله بأنه صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم فداروا كما هم قبل البيت . ووقوع هذه الحادثة ثابت لا مرية فيه . وهذا من جملة الردود التي نرد بها على الذين يزعمون فيقولون : أن خبر الواحد أو حديث الآحاد لا تثبت به عقيدة بل يقولون ما هو أدهى من ذلك وهو : أن كل من يعتقد عقيدة ما من طريق حديث آحاد فهو آثم ... !!! ؟ نعوذ بالله من الخذلان وسوء المنقلب

(٣) كل ذلك كان فيهم من قبل ...

مستقيم﴾ وقد روى الأمام أحمد بسنده إلى عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ يعني أهل الكتاب : ١٤٠ [إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلّوا عنها ، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلّوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام : آمين] وقوله تعالى : ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ الوسط ها هنا ، الخيار كما يقال : محمد وسط في قومه أي أشرفهم نسباً ، وقريش أوسط العرب نسباً وداراً ، أي خيرها . ومن ذلك الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات وهي العصر . وهكذا فقد جعل هذه الأمة وسطاً لما خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب كما قال تعالى : ﴿ هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد [1] قال : قال رسول الله ﷺ : ١٤١ [يدعَى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيدعى قومُه فيقال لهم : هل بلغكم ؟ فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، قال فلذلك قوله : ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً ﴾ قال : الوسط العدل ، فتدعون فتشهدون لــه بالبلاغ ثم أشهد عليكم] رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه من طرقٍ عن الأعمش . ومن حديث لأحمد عن أبي سعيد الخدري : ١٤٢ [... فيُدعَى محمد وأمته ، فيقال لهم هــل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون نعم ، فيقال وما عِلْمكُم فيقولون : جاءنا نبينــا فأخبرنا أن الرسل قد بلّغوا ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً ﴾] قال : عدلاً ﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ وقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله ﴾ [2] يقول تعالى : إنما شرعنا لك يا محمد التوجه أولاً إلى بيت المقدس ، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ، ويستقبل معك حيثما توجهتَ ، ممن ينقلب على عقبيه أي مرتداً عن دينه ﴿ وإن كانت لكبيرة ﴾ أي هذه الفعلة وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة أي وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول وإن كلّ ما جاء به حق وصدق لا مرية فيه وإن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ ما شاء ولــه

---

(١) وهو الخدري (٢) وفي هذه الآية دليل على ان الذي أمر رسول الله بالتوجه إلى بيت المقدس هو الله تعالى لا اجتهاداً منه عليه الصلاة والسلام كما يرى البعض

الحكمة التامة والحجة البالغة في جميع ذلك . بخلاف الذين في قلوبهم مرض فإنه كلما حدث أمر ، أحدث لهم شكاً ، كما يحصل للذين آمنوا إيقانٌ وتصديقٌ . كما قال تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾

وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلّوا إلى القبلتين وهذا ما يدل على أن أمة محمد ﷺ كانت على كمال طاعتهم لله ولرسوله وانقيادهم لأوامر الله عز وجل رضي الله عنهم أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليُضيع إيمانكم ﴾ أي صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك أي ما كان يضيع ثوابها عند الله . وفي الصحيح عن البراء قال : مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس فقال الناس : ما حالهم في ذلك ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ أي بالقبلة الأولى وتصديقكم نبيكم واتباعه إلى القبلة الأخرى أي ليعطيكم أجرهما جميعاً : ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾

وفي الصحيح : ١٤٣ (أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها فجعلت كلما وجدت صبياً من السبي أخذته فألصقته بصدرها وهي تدور على ولدها ، فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها ، فقال رسول الله ﷺ [« أترون هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على أن لا تطرحه » قالوا : لا يا رسول الله قال « فوالله لله أرحمُ بعباده من هذه بولدها »] .

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ ١٤٤

قال علي بن طلحة عن ابن عباس : كان أول ما نسخ من القرآن القبلة (١) وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها من اليهود فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود . فاستقبلها رسول الله بضعة عشر شهراً وكان يحب قبلة إبراهيم فكان

(١) قلت : اي التوجه إلى بيت المقدس

يدعو إلى الله تعالى وينظر إلى السماء فأنزل الله ﴿ قد نرى تقلب وجهك في السماء ﴾ إلى قوله ﴿ فولّوا وجوهكم شطره . ﴾ أي قِبَلَهُ . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال ١٤٤ [البيت قبلة لأهل المسجد، والمسجد قبلة لأهل الحرم، والحرم قبلة لأهل الأرض، في مشارقها ومغاربها من أمتي .] ومن حديث نويلة بنت مسلم : ١٤٥ [لما كان الناس في مسجد بني حارثة وتحولوا إلى الكعبة بدل بيت المقدس لما أتاهم الآتي بتحويل القبلة إلى الكعبة قالت فحدثني رجل من بني حارثة أن النبي ﷺ قال : ١٤٦ « أولئك رجال يؤمنون بالغيب » (١) وقوله تعالى : ﴿ وحيثما كنتم فولّوا وجوهكم شطره ﴾ أي أمرَ تعالى باستقبال القبلة من جميع جهات الأرض شرقاً وغرباً جنوباً وشمالاً . ولا يستثنى من هذا شيء ، إلا النافلة في حال السفر فإنه يصليها حيثما توجّه قالبُه، وقلبُه نحو الكعبة . وكذا في حال المسايفة في القتال يصلي على كل حال ، وكذا من جُهِل جهة القبلة يصلي باجتهاده وإن كان مخطئاً ، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلاّ وسعها .

(مسألة) وقد استدل المالكية من قوله : ﴿ فولّوا وجوهكم شطره ﴾ أن المصلي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده لأن فيه انحناء ينافي كمال القيام . أما الجمهور قالوا بل موضع سجوده لأنه أبلغ في الخضوع وأكد في الخشوع وقد ورد به الحديث . (٢)

وقوله تعالى : ﴿وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ أي أن اليهود الذين أنكروا أستقبالكم الكعبة ، وانصرافكم عن بيت المقدس يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها بما في كتبهم من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته . ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً . ولهذا تهددهم تعالى بقوله : ﴿ وما الله بغافل عما يعملون ﴾

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّالِمِينَ ١٤٥ ﴾

---

(١) فما قول من يقول : إن من يعتقد عقيدة بحديث آحاد فهو آثم...!!!؟ مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد للذين صدقوا خبر الواحد بأنهم رجال يؤمنون بالغيب ؟ ...

(٢) ١٤٧ (وكان صلى الله عليه وسلم إذا صلى طأطأ رأسه ، ورمى ببصره إلى الأرض) (١٤٨ ولما دخل الكعبة ما خلف بصره موضع سجوده حتى خرج منها) رواه البيهقي ، والحاكم وصححه ، وله شاهد من حديث عشرة من الصحابة .

يخبر تعالى رسوله ﷺ : أنه لو قام كل دليل على صحة ما جاء به ... لما اتبعه اليهود لكفرهم وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من حقيقة نبوّته . وقوله تعالى : ﴿وما أنت بتابع قبلتهم﴾[1] أي أنه لا يتبع أهواءهم أبداً وليس اتجاهه لبيت المقدس لكونه قبلة اليهود ، إنما فعل ذلك عن أمر الله تعالى . وقوله تعالى : ﴿ولئن اتبعت أهواءهم من بعدما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين﴾ هذا تحذير شديد من مخالفة الحق بعد العلم به ، لأن الحجة أقوم على العالم من غيره ، والخطاب هنا وإن كان للرسول ، إنما المراد به أمته .

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٤٦ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ١٤٧ ﴾

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة رسالة محمد عليه الصلاة والسلام كما يعرفون أبناءهم من بين أبناء الناس إذ لا يشك أحدٌ ولا يمتري في معرفة ابنه إذا رآه من أبناء الناس كلهم . ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق ، والإتقان العلمي ﴿ليكتمون الحق﴾ أي ليكتمون الناس ما في كتبهم من صفات النبي عليه الصلاة والسلام ﴿وهم يعلمون﴾ ثم ثبّت تعالى نبيّه ﷺ والمؤمنين وأخبرهم بأن ما جاء به هو الحق لا مرية فيه ولا شك فقال ﴿ الحق من ربك فلا تكوننّ من الممترين ﴾

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٤٨ ﴾

قال العوفي عن ابن عباس : ولكل وجهة هو موليها يعني بذلك أهل الأديان يقول : لكل قبيلة قبلة يرضونها ، ووجهة الله حيث توجه المؤمنون ، وقال ابو العالية : لليهودي وجهة هو موليها ، وللنصراني وجهة هو موليها ، وهداكم أنتم أيتها الأمة إلى القبلة التي هي القبلة . وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمةً

---

(١) قلت : وفي هذه الآية دليل على أن الرسول لم يستقبل بيت المقدس تألفاً لقلوب اليهود اجتهاداً منه بل إن هذه الآية فصل في الخلاف وتؤكد أنه كان ذلك عن أمر الله تعالى « وما أنت بتابع قبلتهم »

واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً﴾ وقال ها هنا : ﴿أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير﴾ أي هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٤٩ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ١٥٠

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض . وقد اختُلِفَ في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات ... أظهرها والله أعلم .. ما وجّهه الفخر الرازي وهو : الأول : لمن هو مشاهدُ الكعبة . والثاني لمن هو في مكة غائباً عنها والثالث لمن هو في بقية البلدان . وقيل أيضا الأول : إجابة لطلبته ﷺ بقوله تعالى ﴿... فلنولينك قبلةً ترضاها﴾ والثاني انه بيان لما هو الحق الذي يحبه الله ويرتضيه . والثالث : قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول إلى قبلتهم ، وقطع حجة المشركين لما صُرف الرسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التي هي أشرف والله اعلم . وقوله : ﴿لئلا يكون للناس عليكم حجة﴾ أي أهل الكتاب لئلاً يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجُّه إلى بيت المقدس . وقوله : ﴿إلاّ الذين ظلموا منهم﴾ يعني مشركي العرب . ووجه بعضهم حجة الظلمة أن قالوا : إن هذا الرجل يزعم أنه على دين ابراهيم فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم فلِمَ يرجعُ عنه ... ؟ والجواب : إن رسول الله ﷺ مطيع لله في جميع أحواله لا يخرج عن أمر الله طرفةَ عين ، وأمته تابعة له فلما أمره بالتوجه إلى بيت المقدس فأطاع ، ثم أمره بالتوجه إلى الكعبة فأطاع ، وقوله : ﴿فلا تخشوهم واخشوني﴾ أي لا تخشوا شُبَهَ الظَّلَمَة ، وأفردوا الخشية لي . وقوله : ﴿ولأتمَّ نعمتي عليكم﴾ أي فيما شرعت لكم من استقبال القبلة . وقوله : ﴿ولعلّكم تهتدون﴾ أي إلى ما ضلّت عنه الأمم هديناكم إليه ، وخصصناكم به ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وافضلها . ولله الحمد

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ١٥١ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ ١٥٢

يذكّر تعالى عبادَه المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم يتلو عليهم آيات مبينات ويزكيهم أيْ يطهرهم من الرذائل والدنس ، ويخرجهم من الشرك إلى التوحيد ، ويعلمهم الكتاب : أي القرآن. والحكمة : أي السنّة. ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، فبعد أن كانوا في جهل الجاهلية وسفَه القول ، إنتقلوا ببركة رسالته إلى حال الأولياء ، وسجايا العلماء فصاروا علماء أبراراً صادقين ، رافلين بنعمة الله بمحمد ﷺ ؛ ولهذا ندبَ الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ، ومقابلتها بذكره وشكره . وقال : ﴿ فاذكروني أذكرْكم واشكروا لي ولا تكفرونِ ﴾ أيْ فكما مَنَنْت عليكم بمحمَّد فاذكروني ، وعن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال : يا ربِ كيف أشكرك ؟ قال له ربه : « تذكرني ولا تنساني فإذا ذكرتني فقد شكرتني ، وإذا نسيتني فقد كفرتني » . قال الحسن البصري وغيره : إن الله يذكر من ذكره ويزيد من شكره ويعذب من كفره وقال بعض السلف في قوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حق تقاته﴾ قال: هو أن يطاع فلا يُعصى ، ويذكر فلا ينسى ،ويشكر فلا يكفر.وقال الحسن البصري في قوله : ﴿ فاذكروني أذكرْكم ﴾ قال : أذكروني فيما افترضت عليكم أذكرْكم فيما أوجبتُ لكم على نفسي . وفي الحديث الصحيح : ١٤٩ [يقول الله تعالى : من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منه] وقوله : ﴿واشكروا لي ولا تكفرونِ ﴾ أمر تعالى بشكره ووعد على شكره بمزيد الخير فقال : ﴿وإذ تأذّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنّكم ولئن كفرتم إنّ عذابي لشديد﴾ وروى أحمد بسنده إلى رجاء العطاردي قال : خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف مَن خزٍّ لم نرَه عليه قبلَ ذلك ولا بعده فقال: إن رسول الله ﷺ قال ١٥٠ [من أنعم الله عليه نعمةً فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه] وقال روح مرةً ، « على عبده »]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ١٥٣ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ ١٥٤

لما فرغ تعالى من بيان الشكر ، شرع في بيان الصبر والإرشاد والاستعانة بالصبر والصلاة فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها ، أو في نقمة فيصبر عليها.وبيّن سبحانه أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب ، الصبر والصلاة.وفي الحديث : ١٥١ [إن رسول الله ﷺ كان إذا حز به أمر صلى] والصبر صبران: فصبر على ترك المحارم والمآثم وصبر على فعل الطاعات والقربات . والثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود . وأما الصبر الثالث فهو على المصائب والنوائب . كالاستغفار من المعايب . والصابرون كما قال علي بن الحسين زين العابدين : إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادي مناد : أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب ... ويشهد لهذا قوله تعالى : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ وقال سعيد بن جبير : الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه واحتسابه عند الله رجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر .

وقوله تعالى ﴿ ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ﴾ يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون ، كما جاء في صحيح مسلم: ١٥٢ [إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا ؛ يا ربنا وأي شيء نبغي ، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ثم عاد عليهم بمثل هذا ، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا ، قالوا : نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى ــ لما يرون من ثواب الشهادة ــ فيقول الرب جل جلاله : إني كتبت أنهم اليها لا يرجعون.] وفي الحديث الذي رواه أحمد بسنده عن كعب بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : ١٥٣ [نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه] ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن تشريفاً لهم وتكريماً وتعظيماً .

۞ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَنْفُسِ وَٱلثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّابِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ١٥٦ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ۞ ١٥٧

أخبرنا تعالى أنه يبتلي عباده أي يختبرهم ... فتارة بالسراء وتارة بالضراء من خوف وجوع

كما قال تعالى : ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾ فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر عليه ذلك وقال ها هنا : ﴿ولنبلونّكم بشيء من الخوف والجوع﴾ أي بقليل من ذلك ﴿ونقص من الاموال﴾ أي ذهاب بعضها ﴿والأنفس﴾ كموت الأصحاب والأقارب ﴿والثمرات﴾ أي لا تغل الحدائق والمزارع كعادتها فمن صبر أثابه، ومن قنط أحلّ به عقابه. ولهذا قال : ﴿وبشر الصابرين ﴾ هم ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون﴾ أي تسلّوا بقولهم هذا ، عما أصابهم وعلموا أنهم ملك لله يتصرف في عبيده بما يشاء ، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة ، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده ، وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة ، ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال : ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾ أي ثناء من الله عليهم ﴿ وأولئك هم المهتدون ﴾ قال عمر بن الخطاب : نعم العدلان ونعمت العلاوة ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾ فهذان العدلان ﴿ وأولئك هم المهتدون ﴾ فهذه العلاوة ، فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً .

وقد ورد في ثواب الاسترجاع وهو قوله تعالى ﴿إنّا لله وإنّا اليه راجعون﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة . فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ١٥٤ [ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : ﴿ إنا لله وإنا اليه راجعون﴾ اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها إلاّ آجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها قالت : فلما توفي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ فأخلف الله لي خيراً منه رسول الله ﷺ] وروى الإمام أحمد بسنده عن الحسين بن علي عن النبي ﷺ قال : ١٥٥ [ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها فيحدث لذلك استرجاعاً إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب]

وروى الامام أحمد عن أبي سنان [1] قال : ١٥٦ [دفنت إبناً لي فإني لفي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة يعني الخولاني فأخرجني وقال لي : ألا أبشرك ؟ قلت : بلى. قال حدثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عوزب عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ . « قال الله يا ملك الموت قبضت ولد عبدي ، قبضت قرة عينه ، وثمرة فؤاده ؟ قال : نعم قال : فما قال ؟ قال حمدك واسترجع . قال : ابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد »] .

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ ٱللهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ ٱللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ ١٥٨

(١) إسم أبي سنان : عيسى بن سنان

روى الامام أحمد بسنده عن عروة عن عائشة قال : ١٥٧ [قالت أرأيت قول الله تعالى ﴿ ان الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أنْ يطوف بهما﴾ قلت : فوالله ما على أحد جناح أن لا يتطوف بهما ، فقالت عائشة : بئسما قلت يا ابن أختي إنها لو كانت على ما أوّلتها عليه كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت أن الانصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلّون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل ، وكان من أهلّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة في الجاهلية فأنزل الله عز وجل ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما ﴾ قالت عائشة : ثم قدسنّ رسول الله ﷺ الطوف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما .] أخرجاه في الصحيحين .

وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل : ١٥٨ [وفيه أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه . ثم خرج من باب الصفا وهو يقول ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ ثم قال : «أبدأ بما بدأ الله به »] وفي رواية النسائي : ١٥٩ [إبدأوا بما بدأ الله به] روى أحمد بسنده إلى حبيبة بنت أبي تجراة قالت : ١٦٠ [رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره وهو يقول : « اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي »] وروى الإمام أحمد عن صفية بنت شيبة أن أمرأة أخبرتها أنها سمعت النبي ﷺ بين الصفا والمروة يقول : ١٦١ [كتب عليكم السعي فاسعوا] وقد استدل بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعي بين الصفا والمروة ركن في الحج كما هو مذهب الشافعي ومن وافقه ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك ، وقيل واجب وليس بركن فمن تركه عمداً أو سهواً جبره بدم ، وقيل بل مستحب واليه ذهب ابو حنيفة وغيره عن أنس وابن عمر وابن عباس قال القرطبي : واحتجوا بقوله تعالى ﴿ فمن تطوع خيراً ﴾ والقول الاول أرجح لأنه عليه السلام طاف بينهما ، وقال : ١٦٢ [لتأخذوا عني مناسككم] فكل ما فعله في حجته تلك واجب لا بد من فعله في الحج إلا ما خرج بدليل والله أعلم . وقد تقدم قوله عليه السلام (اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي) فقد بين الله تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله ، أي مما شرع الله تعالى لإبراهيم في مناسك الحج وقد تقدم من حديث ابن عباس أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وترددها بين الصفا والمروة في طلب الماء لولدها متذللة خائفة ، وجلة مضطربة ، فقيرة إلى الله عز وجل ، حتى كشف الله كربتها ، وآنس غربتها وفرج شدتها وأنبع لها زمزم التي ماؤها ١٦٣ [طعام طعم وشفاء سقم] فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته

إلى الله ، في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنوبه وقوله : ﴿ فمن تطوع خيراً ﴾ أي يطوف بينهما في حجة تطوع أو عمرة تطوع قاله الرازي . وقوله : ﴿ فإن الله شاكر عليم ﴾ أي يثيب على القليل بالكثير ، عليم بقدر الجزاء فلا يبخس أحداً ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وان تك حسنة يضاعفها ويؤتِ من لدنه أجراً عظيماً . ﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّاعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ١٦١ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ١٦٢ ﴾

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة ، والهدى النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله . قال أبو العالية : نزلت في أهل الكتاب ، كتموا صفة محمد ﷺ ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك ، فكما أن العالم يستغفر له كلُّ شيء حتى الحوت في الماء ، والطير في الهواء فهؤلاء بخلاف العلماء ، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . وعن أبي هريرة وغيره أن رسول الله ﷺ قال : ١٦٤ [من سئل عن علم فكتمه ، ألجم يوم القيامة بلجام من نار] وفي الصحيح عن أبي هريرة انه قال : لولا آيةٌ في كتاب الله ما حدثت أحداً شيئاً ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى ﴾ الآية .

ورَوَى ابنُ أبي حاتم بسنده إلى البراء بن عازب قال : ١٦٥ [كنا مع النبي ﷺ في جنازة فقال : « إن الكافر يضرب ضربة بين عينيه ، يسمعها كل دابة غير الثقلين ، فتلعنه كل دابة سمعت صوته . فذلك قول الله تعالى ﴿ أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾ يعني دواب الارض] ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه فقال ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا ﴾ أي رجعوا عما كانوا عليه وأصلحوا أعمالهم وبينوا للناس ما كانوا يكتمونه ﴿ فأولئك أتوبُ عليهم وأنا التوّاب الرحيم ﴾ ثم أخبر تعالى عمّن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأن

﴿ عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها ﴾ أي في اللعنة إلى يوم القيامة ثم المصاحبة في نار جهنم التي ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ﴾ فيها ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي لا يغير عنهم ساعة ولا يفتر بل هو متواصل دائم فنعوذ بالله من ذلك. اختلف العلماء في : هل يجوز لعن الكافر المعيّن فقد ذهب جماعة أنه لا يلعن لأنا لا ندري بما يختم الله له وقالت طائفة أخرى بل يجوز لعن الكافر المعين واختاره الفقيه ابو بكر بن العربي المالكي ولكنه احتج بحديث فيه ضعف واستدل غيره بقصة السكران الذي تكرر حدُّه فقال رجل لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به ، فقال رسول الله ﷺ : ١٦٦ [لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله] فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يلعن والله اعلم .

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ١٦٣ ﴾

يخبر تعالى عن تفرده بالإلهية ، لا شريك له ولا عديل بل هو الله الذي لا إله إلا هو سبحانه وإنه هو الرحمن الرحيم وقد تقدم تفسير هذين الإسمين في أول الفاتحة . ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بخلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما مما برأ من المخلوقات الدالة [١] على وحدانيته فقال :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤ ﴾

يقول تعالى ﴿ إنَّ في خلق السموات والأرض ﴾ تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها – وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع ، واختلاف الليل والنهار ، هذا يجيء ثم يذهب ويخلفه ويعقبه ، لا يتأخر عنه لحظة كما قال تعالى : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ وتارةً يطول هذا ويقصر هذا ، وتارة يأخذ

(١) قلت : يعني إن الدليل على انه مستحق العبادة وحده، كونه تفرد بخلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما فالذي خلق و برأ وأنعم وحده لا شريك له لزم أن يكون المعبود وحده لا شريك له.

هذا من هذا ثم يتعاوضان كما قال تعالى : ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أي يزيد من هذا في هذا ومن هذا في هذا . ﴿والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس﴾ أي في تسخيره البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس ، والانتفاع بما عند هذا الأقاليم ، ونقل هذا إلى هؤلاء ، وما عند أولئك إلى هؤلاء . ﴿وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ كما قال تعالى : ﴿وآية لهم الأرض الميتة – إلى قوله – ومما لا يعلمون﴾ ﴿وبث فيها من كل دابة﴾ على اختلافها في كل شيء ، وهو يعلم ذلك كله ويرزقه ، لا يخفي عليه شيء من ذلك ، كما قال تعالى ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ ﴿ وتصريف الرياح ﴾ أي فتارةً تأتي بالرحمة ، وأخرى بالعذاب ، وتارة مبشرة بالغيث على اختلاف جهات مصدره ﴿ والسحاب المسخر بين السماء والأرض ﴾ أي سائر بين السماء والأرض ومسخر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن ، كما يصرفه الله تعالى ﴿ لآياتٍ لقوم يعقلون ﴾ تدل على وحدانية الله ، كما قال تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب﴾ وروى الحافظ ابن مردويه عن ابن عباس : ١٦٧ [إن قريشاً سألت رسول الله ﷺ أن يجعل الله لنا الصفا ذهباً فنؤمن بك ، ونقاتل معك، قال : « أوثقوا لي لئن دعوتُ ربي فجعل لكم الصفا ذهباً لتؤمنُنَّ بي؟» فأوثقوا له فدعا ربه فأتاه جبريل فقال : إنَّ ربك قد أعطاهم الصفا ذهباً على أنهم إن لم يؤمنوا بك ، عذبهم عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين ؛ قال محمد ﷺ : «ربِّ لا ... بل دعني وقومي فلأدعهُم يوماً بيوم» فأنزل الله هذه الآية»] ورواه ابن أبي حاتم بزيادة : ١٦٨ [وكيف يسألونك الصفا وهم يرون من الآيات ما هو أعظم من الصفا ؟] وروى وكيع بن الجراح عن أبي الضحىٰ، قال: لما نزلت ﴿ وإلهكم إله واحد ﴾ الآية قال المشركون : إن كان هكذا فليأتنا بآية، فأنزل الله عز وجل : ﴿ إنَّ في خلق السموات والأرض ... ﴾

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ١٦٥ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ١٦٦ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ١٦٧ ﴾

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا ، وما لهم في الدار الآخرة من العذاب بما جعلوا لله انداداً أي أمثالاً يعبدونهم ويحبونهم كحبه ، وهو الإله الذي لا ضد له ، ولا شريك معه ، وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال قلت : ١٦٩ [يا رسول الله أي الذنب أعظم؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك] وقوله تعالى ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ ولهذا لا يشركون به شيئاً بل يعبدونه وحده ، ويتوكلون عليه ، ويلجأون دائماً إليه * ثم توعد المشركين فقال سبحانه : ﴿ ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً ﴾ وتقدير الكلام : لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعاً وأن كل الأشياء تحت قهره وسلطانه ﴿ وأن الله شديد العذاب ﴾ فلو يعلمون ما يعانونه هنالك ، وما سيحل بهم من العذاب الهائل ، على شركهم وكفرهم ، لانتهوا عمّا هم فيه من الضلال ، ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم ، وتبرىء المتبوعين من التابعين ، فقال : ﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبَعوا ﴾ تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا ، فتقول الملائكة : ﴿ تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ والجن أيضاً تتبرأ منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم ﴿ ومن أضل ممّن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ وقال تعالى ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخيّ إنيّ كفرت بما أشركتموني من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ أي عاينوا عذاب الله وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص من النار ، قال ابن عباس : تقطعت المودة . وقوله تعالى : ﴿ وقال الذين اتّبعوا لو أنّ لنا كرّة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منّا ﴾ أي لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ، ونوحد الله بالعبادة ، ولكنهم كاذبون في هذا بل لو رُدّوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون كما أخبر تعالى . ولذا قال : ﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ﴾ أي تذهب وتضمحل كما قال تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ ٱلشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَٱلْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ١٦٩

لمّا بين الله تعالى أنه لا إله إلا هو ، بيّن أنه الرازق لجميع خلقه ، فامتنّ عليهم أن أباح لهم أكل الحلال الطيب ، ونهاهم عما حرم عليهم ، كما في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : ١٧٠ [يقول الله تعالى : إن كل مالٍ منحتُه عبادي فهو لهم حلال – وفيه – وإني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمتْ عليهم ما أحللتُ لهم .] وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن ابن عباس : قال : ١٧١ [تليت هذه الآية عند النبي ﷺ : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ﴾ فقام سعدبن أبي وقاص فقال : يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني مستجاب الدعوة فقال : «يا سعد أطِبْ مطعمك ، تكن مستجابَ الدعوة والذى نفس محمد بيده ، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولىٰ به)

وقوله تعالى : ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ تنفير عنه وتحذير منه ، كما قال : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ... ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ كل معصية لله وكل نزعة وكل خطأ من خطوات الشيطان ، وكذلك النذر بالمعاصي . قال الشعبي (نذر رجل أن يذبح أبنه فأفتاه مسروق بذبح كبش قال : هذا من خطوات الشيطان .) وقال عبد بن حميد بسنده إلى ابن عباس قال : (ما كان من يمين أو نذر في غضب فهو من خطوات الشيطان ، وكفارته كفارة يمين .) وقوله تعالى : ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ أي إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة ، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ، وأغلظ من ذلك ، وهو القول على الله بلا علم ، فيدخل في هذا كل كافر وكل متبدع أيضاً

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ١٧٠ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ١٧١

يقول تعالى : وإذا قيل للمشركين : اتّبعوا ما أنزل الله على رسوله واتركوا الضلال والجهل قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا من الشرك فقال تعالى منكراً عليهم : ﴿ أولَوْ كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ أي ليس لهم فهم ولا هداية ، وعن ابن اسحق أن ابن عباس قال نزلت في اليهود ، دعاهم ﷺ فقالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا فأنزل الله هذه

الآية ، ثم ضرب الله لهم مثلاً فقال : ﴿ ومثل الذين كفروا ﴾ أي فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالدواب السارحة التي لاتفقه بل إنما تسمع صوت راعيها وقوله : ﴿ صم بكم عمي ﴾ أي صم عن سماع الحق ، بكم لا يتفوهون به ، عمي عن رؤية طريقه ، ﴿ فهم لا يعقلون ﴾ أي لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ١٧٢ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٧٣ ﴾

أمر الله عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى ، وأن يشكروه على ذلك إن كانوا عبيده ، والأكل من الحلال سبب لتقبّل الدعاء والعبادة ، كما ان الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة كما جاء في الحديث المروي عن أحمد بن حنبل عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ١٧٢ [ايها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ﴾ وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام، وغذّي بالحرام فأني يستجاب لذلك ؟] ورواه مسلم في صحيحه والترمذي من حديث فضيل بن مرزوق وقد ذكر الله سبحانه أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة وهي التي تموت حتف أنفها من غير تذكية ، وسواء كانت منخنقة أو موقوذة أو نطيحة أو عدا عليها السبع ، وقد استثنيت ميتة البحر لقوله تعالى : ﴿ أحل لكم صيد البحر وطعامه ﴾ على ما سيأتي أن شاء الله وحديث العنبر في الصحيح وفي المسند والموطأ والسنن قوله ﷺ في البحر ١٧٣ [هو الطهور ماؤه الحل ميتته] وعن ابن عمر مرفوعاً : ١٧٤ [أحل لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال] وسيأتي تقرير ذلك إن شاء الله في سورة المائدة .

«مسألة» : قيل أن لبن الميتة وبيضها المتصل بها نجس عند الشافعي وغيره ، وقيل طاهر إلا أنه ينجس بالمجاورة في رواية عن مالك وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف والمشهور عندهم

نجاستها ، ولكن أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جبن المجوس (١)

وقد روى ابن ماجه بسنده عن سلمان رضي الله عنه : ١٧٥ [سئل رسول الله ﷺ عن السمن والجبن والفراء، فقال : «الحلال ما أحل الله في كتابه ، والحرام ما حرم الله في كتابه وما سكت عنه فهو مما عفا عنه»] وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير سواء ذكيّ أم مات حتف أنفه ويدخل شحمه في لحمه تغليباً وكذا حرم عليهم ما أُهِلَّ به لغير الله ، وهو ما ذبح لغير الله وعلى غير اسمه تعالى ، من الأنداد ونحو ذلك من فعل الجاهلية : ١٧٦ [وأورد القرطبي عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين فقالت : ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه وكلوا من أشجارهم] . وقد أباح أكل ذلك عند الحاجة فقال ﴿ فمن أضطر غير باغٍ ولا عادٍ ﴾ أي في غير بغي ولا عدوان ﴿ فلا إثم عليه ﴾ في ذلك ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ وقوله ﴿ غير باغ ﴾ يعني غير مستحله وليس له من ذلك إلا القدر الذي يبلّغه الحلال وله أن يحمل منه ما يبلغه ذلك فإذا بلغه ألقاه وهو قوله ﴿ولا عاد﴾.

« مسئلة » لا خلاف في أكل طعام الغير إذا وجده المضطر من غير قطع ، أو أذى وهنا لا يحل له أكل الميتة ونحوها ، ولكن الخلاف هل يضمن ما أكل؟ الصحيح أنه لا يضمن لقوله ﷺ للرجل الذي منع جائعاً أن يحمل في ثوبه مما فرك من السنبل وضربه وأخذ ثوبه : ١٧٧ [« ما أطعمتَهُ إذ كان جائعاً ولا ساعياً ولا علمته إذ كان جاهلاً» فأمره فرد اليه ثوبه ، وأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق »] قاله ابن ماجه وسنده صحيح قوي جيد. وقوله تعالى ﴿فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم ﴾ فيما أكل من اضطرار ومما يدل على أكل هذه المحرمات للمضطر انه عزيمة لا رخصة هو ما رواه وكيع بسنده عن مسروق قال « من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات دخل النار وقال ابو الحسن الطبري : هذا هو الصحيح عندنا ، كالإفطار للمريض ونحو ذلك ، والله اعلم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ

(١) قلت : أي أن جبن المجوس المعمول بالأنفحة المستخرجة من معدة الخراف ذبحاً من قبل المجوس كان يأكله الصحابة مع العلم أن ذبيحة المجوسي لا تؤكل وحكمها حكم الميتة إنما مع ذلك اكل الصحابة جبنها ، ومن هنا يستدل على أن الأنفحة مستثناة وهي من العفو بدلالة الحديث الوارد أعلاه من رواية ابن ماجه وكذلك البيض واللبن و السمن والجبن و الفراء مما سكت عنه فهو عفو والله تعال أعلم

ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ١٧٦

يقول تعالى : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ﴾ يعني اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ في كتبهم التي بأيديهم الشاهدة له بالرسالة والنبوة ، وذلك لئلاً تذهب رياستهم وما يأخذونه من العرب من الهدايا على تعظيمهم آباءهم فخشوا ـ لعنهم الله ـ إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم ، فكتموا الحق ، بالنزر اليسير من عرض الدنيا فخسروا الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فإن الله أظهر صدق رسوله ﷺ بما وهبه تعالى من المعجزات فصدقه الناس وصاروا عوناً له على قتال اليهود الذين باؤوا بغضب على غضب ، وذمهم الله في هذه الآية : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ﴾ أي إنَّ ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق ناراً تأجج في بطونهم يوم القيامة . وقوله : ﴿ ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾ لغضبه تعالى عليهم ، لكتمانهم بعد علم ، فلا ينظر إليهم ولا يثني عليهم بل يعذبهم عذاباً أليما ، ثم قال عنهم ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به واتباعه وتصديقه فاعتاضوا عن ذلك بالضلالة وذلك تكذيبه والكفر به ، وكتمان صفاته في كتبهم ﴿ والعذابَ بالمغفرة ﴾ أي اشتروا العذاب العظيم بدل المغفرة ﴿ فما أصبرهم على النار ﴾ ! أي فما أدومهم لعمل المعاصي التي تُفضي بهم إلى النار فالعجب العجب من صبرهم على النار !! وهم يعلمون أنهم صائرون إليها بمعاصيهم ﴿ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ﴾ أي إنما استحقوا ذلك باتخاذ آيات الله هزواً فلا هم أظهروا ما في كتبهم من الحق ، ولا هم آمنوا بالرسول بل كذّبوه وجحدوا صفته ، وهو الذي يدعوهم إلى الحق يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر فاستحقوا العذاب والنكال ولهذا قال : ﴿ ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاقٍ بعيد ﴾

نصف الحزب

۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى

ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّائِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَٱلصَّابِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَاءِ وَٱلضَّرَّاءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على قواعد عميمة ، وعقيدة مستقيمة ، كما روى ابن أبي حاتم بسنده إلى أبي ذر ١٧٨ [أنه سأل رسول الله ﷺ : ما الإيمان ؟ فتلا عليه ﴿ ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم ﴾ إلى آخر الآية ؛ قال : ثم سأله أيضاً فتلاها عليه ، ثم سأله فقال : إذا عملت حسنة أحبها قلبك وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك»] وهذا منقطع فإن مجاهداً لم يدرك أبا ذر فإنه مات قديماً .

ومعنى الآية : لما أمر الله سبحانه المؤمنين بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حوّلهم إلى الكعبة ، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب ، وبعض المسلمين ، فأنزل الله بيان حكمته في ذلك ، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل ، وامتثال أوامره والتوجه حيثما وجّه ، واتباع ما شرع ، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل ، وليس في التوجه إلى جهة المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه ، ولهذا قال : ﴿ ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبَل المشرق والمغرب ولكن البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ الآية ؛ قال الثوري في قوله تعالى : ﴿ ولكن البرَّ من آمن بالله ﴾ الآية قال : هذه أنواع البر كلها . وصدق رحمه الله فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عُرى الإسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله ، وهو الإيمان بالله وأنه لا إله إلا هو وصدق بوجود الملائكة ، الذين هم سفرة بين الله ورسله . ﴿ والكتاب ﴾ « اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء وخاتمها أشرفها وهو القرآن الذي انتهى إليه خيرا الدنيا والآخرة ، ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله . وآمن بجميع أنبياء الله من أوّلهم إلى خاتمهم محمد ﷺ وعليهم أجمعين . وقوله تعالى : ﴿ وآتى المال على حبّه ﴾ أي أخرجه وهو محب له ، راغب فيه ، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً : ١٧٩ [(أفضل الصدقة أن تَصدّق وأنت صحيح شحيح ، تأمل الغني وتخشى الفقر)] وقال تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً . ﴾ وقال تعالى ﴿ لن تنالوا البر حتّى تنفقوا مما تحبون ﴾ وقوله ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ وهذا نمط آخر أرفع ، وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه ، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبّون له . وقوله

تعالى : ﴿ ذوي القربى ﴾ وهم أولى من أعطي من الصدقة كما ثبت في الحديث ١٨٠ [الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذوي الرحم ثنتان : صدقة وصلة ، فهم أولى الناس بك وببرك وإعطائك] ﴿ واليتامى ﴾ هم الذين مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ ولا قدرة لهم على التكسب . كما روى عبد الرزاق بسنده عن عليٍ عن رسول الله ﷺ قال : ١٨١ (لا يُتْمَ بعد حُلُم) وقوله : ﴿ والمساكين ﴾ يفسره ما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ١٨٢ [ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يُفطن له فيتصدق عليه] وقوله ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقته فيعطي ما يوصله إلى بلده ويدخل في ذلك الضيف . ﴿ والسائلين ﴾ وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات كما روى أحمد بسنده عن عبد الرحمن حسين بن علي قال قال رسول الله ﷺ : ١٨٣ [للسائل حق وإن جاء على فرس] ﴿وفي الرقاب﴾ وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتاباتهم . وسيأتي الكلام في ذلك ببحث الصدقات من سورة براءة إن شاء الله ﴿ وأقام الصلاة ﴾ أي وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها وسجودها ، وطمأنينتها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي . وقوله : ﴿ وآتي الزكاة ﴾ المراد زكاة المال فيكون إعطاء الجهات والأصناف المذكورة آنفاً إنما هو التطوع والبر والصلة ، ولهذا جاء في حديث فاطمة بنت قيس : ١٨٤ [في المال حق سوى الزكاة] والله أعلم .

وقوله : ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ وعكس هذه الصفة : النفاق كما صح في الحديث : ١٨٥ [آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان] وقوله : ﴿ والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ﴾ أي حال الفقر وهو البأساء ، وفي حال المرض والأسقام وهو الضراء ﴿ وحين البأس ﴾ أي في حال القتال ولقاء الأعداء وإنما نصب ﴿ الصابرين ﴾ على المدح والحث على الصبر في الشدة . وقوله : ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ أي هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم لأنهم حققوا الأيمان القلبي بالأقوال والأفعال ، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿ وأولئك هم المتقون ﴾ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات.

۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ

فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٨ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٧٩

يقول تعالى كتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون، حرّكم بحرّكم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا كما فعل مَن قبلكم وغيّروا حكم الله فيهم، فقد كانت بنو النضير إذا غزت قريظة، وقَتَلَ النضريُّ القرظيَّ لا يقتل به، بل يفادي بمئة وسقٍ من التمر وإذا قتل القرظيُّ النضريَّ قتل، وإن فادوه فدي بمئتي وسقٍ من التمر ضعف دية القرظيّ فأمر الله بالعدل بالقصاص، فلا تحرف أحكام الله كفراً وبغياً، فقال تعالى ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ﴾ وروى أبو مالك أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿ النفس بالنفس ﴾ فجعل الأحرار في القصاص سواءً فيما بينهم من العمد رجالهم ونساؤهم في النفس وفيما دون النفس، وجعل العبيد مستوين فيما بينهم من العمد في النفس وما دون النفس رجالهم ونساؤهم.

مسألة: ذهب أبو حنيفة إلى أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة وإليه ذهب الثوري وابن أبي ليلى وداود وكذلك مروي عن علي وابن مسعود بن المسيب وغيرهم مستندين إلى عموم حديث الحسن عن سمرة: ١٨٦ [من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه ومن خصاه خصيناه] [1] وخالفهم الجمهور فقالوا لا يقتل الحر بالعبد، لأن العبد سلعةٌ لو قتل خطأً لم يجب فيه دية وإنما تجب قيمته. وذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بكافر، لما ثبت في البخاري عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: ١٨٧ [لا يقتل مسلم بكافر] ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا. وذهب أبو حنيفة إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة.

مسألة —: قال الحسن وعطاء: لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية وخالفهم الجمهور لآية المائدة، ولقوله ﷺ ١٨٨ [المسلمون تتكافأ دماؤهم]

مسألة —: ومذهب الأئمة الاربعة والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد، قال عمر في

---

(١) قلت: لعل هذا الحكم خاص فيما يتعلق بالسيد وعبده حتى يقلع من الأذهان أن العبد يفعل به سيده ما يشاء لمجرد كونه عبده، ولكن لو قتل حرٌّ ما عبداً لغيره، فلا يقتل حرٌّ بعبد لقوله تعالى: «الحر بالحر والعبد بالعبد» وعلى هذا فيكون الحديث مخصصاً فقط فيما بين السيد وعبده في أمور لا يستحق فيها العبد القتل ... أما إذا كان العبد مقترفاً ما يستحق عليه القتل شرعاً فله حكم آخر ويستوي فيه مع سائر المؤمنين من باب أولى. هذا ما أفهمه فان كنت أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي وأتوب إلى الله سبحانه والله أعلم.

غلام قتله سبعة فقتلهم ، وقال : (لو تمالأ عليه أهلُ صنعاء لقتلتُهم) . ولا يعرف له في زمانه مخالف من الصحابة ، وذلك كالإجماع .

وقوله تعالى : ﴿ فمن عُفي له من أخيه شيءٌ فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان﴾ يعني أخذ الدية بعد استحقاق الدم وذلك العفو ﴿ فاتباع بمعروف ﴾ فعلى الطالب اتباع المعروف إذا قبل الدية ، ﴿وأداء إليه بإحسان﴾ يعني من القاتل من غير ضرر ولا مدافعة .

مسألة ــ : قال مالك ، وأبو حنيفة وأصحابه ، والشافعي وأحمد في أحد قوليه ليس لولي الدم أن يعفو على الدية إلا برضا القاتل ؛ وقال الباقون : له ذلك وإن لم يرض .

مسألة ــ : وذهب طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عفو . وخالفهم الباقون .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ﴾ مما كان محتوماً على من قبلكم من القتل أو العفو . وعن ابن عباس قال : كتب على بني إسرائيل القصاص في القتلى،ولم يكن فيهم العفو.فقال الله لهذه الامة ﴿ كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عُفي له من أخيه شيء . ﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد ، ذلك تخفيف مما كتب على بني إسرائيل من كان قبلكم فاتباع بالمعروف أو أداء إليه بإحسان .وقال قتادة : رحم الله هذه الامة وأطعمهم الدية،ولم تحل لأحد قبلهم . وقوله ﴿فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم﴾ فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها ، فله عذاب من الله أليم موجع شديد وإنه هو الذي يقتل بعد أخذ الدية . كما روى سعيد بن أبي عروبة بسنده عن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : ١٨٩(ضعيف) [لا أعافي رجلاً قتل بعد أخذ الدية]يعني لا أقبل منه الدية بل أقتله . وقوله : ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ وهو قتل القاتل حكمة عظيمة وهي بقاء المهج وصونها ، لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل ، إنكف عن صنيعه ، فكان في ذلك حياة للنفوس ﴿يا أولى الألباب لعلكم تتقون﴾ أي يا أولي العقول لعلكم تنزجرون عن محارم الله . والتقوى اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً ٱلوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقاً عَلَى الْمُتَّقِينَ١٨٠ فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ١٨١ فَمَنْ خَافَ مِن مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ١٨٢

قبل أن تنزل آية المواريث كانت الوصية للوالدين والأقربين وكان ذلك واجباً على أصح القولين،إنما نسخته آية الفرائض التي جعلت المواريث فريضة من الله لأهليها حتماً من غير وصية ولا تحمل منة الموصي . وفي الحديث الوارد في السنن وغيرها عن عمرو بن خارجة قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول : ١٩٠ [ان الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث] وروى أحمد عن ابن عباس أنه قرأ سورة البقرة حتى أتى هذه الآية ﴿ إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين ﴾ قال نسخت هذه الآية وقيل أنها منسوخة فيمن يرث ، ثابتة فيمن لا يرث (قلت) ولكن على قول هؤلاء لا يسمى هذا نسخاً في اصطلاحنا المتأخر لأن آية المواريث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية لأن الأقربين أعم ممن يرث ومن لا يرث ، فرفع حكم من يرث بما عين له ، وبقي الآخر على ما دلت عليه الآية الاولى ، وهذا إنما يتأتى على قول بعضهم : إن الوصاية في ابتداء الإسلام إنما كانت ندباً حتى نسخت ، فأما من يقول أنها كانت واجبة وهو الظاهر من سياق الآية ، فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث كما قال أكثر المفسرين ، والمعتبرين من الفقهاء ، فإن وجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارثين منسوخ بالأجماع بل منهي عنه للحديث المتقدم (ان الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث) فآية الميراث حكم مستقل ووجوب من عند الله لأهل الفروض والعصبات، يرفع بها حكم هذه بالكلية. بقي الأقارب الذين لا ميراث لهم يستحب له أن يوصي لهم من الثلث استئناساً بآية الوصية وشمولها ، ولما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ : ١٩١ [ما حق امرىء مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده] قال ابن عمر : ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندي وصيتي .

وقوله تعالى : ﴿ إن ترك خيراً ﴾ أي مالاً قاله ابن عباس وغيره . ثم منهم من قال : الوصية مشروعة سواء قل المال أو كثر كالوراثة . ومنهم من قال : إنما يوصي إذا ترك مالاً جليلاً . ثم أختلفوا في مقداره فروى ابن أبي حاتم عن هشام بن عروة عن أبيه قال قيل لعلي رضي الله عنه أن رجلاً من قريش قد مات وترك ثلاثمأة دينار أو اربعمأة ولم يوص ؟ قال : ليس بشيء إنما قال الله : « إن ترك خيراً»وعنه رضي الله عنه انه دخل على رجل من قومه يعوده فقال له أوص فقال له علي : إنما قال الله : ﴿ ان ترك خيراً الوصية ﴾ إنما تركت شيئاً يسيراً فاتركه لولدك وقال قتادة : كان يقال : ألفاً فما فوقها وقيل ستين وقيل ثمانين .

وقوله : ﴿ بالمعروف ﴾ أي بالرفق والإحسان كما قال الحسن : نعم الوصية حق على كل مسلم أن يوصي اذا حضره الموت بالمعروف غير المنكر . والمراد بالمعروف أن يوصي لأقربيه

وصيةً لا تجحف بورثته من غير إسراف ولا تقتير ، كما ثبت في الصحيحين ان سعداً قال :
١٩٢ [يا رسول الله إن لي مالاً ولا يرثني إلاَّ ابنة لي أفأوصي بثلثي مالي قال : لا قال : فبالشطر؟ قال لا قال : فالثلث ؟ قال : الثلث والثلث كثير ، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالةً يتكففون الناس] وقوله: ﴿ فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمة على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم ﴾ أي فمن بدل الوصية وحرفها فغيّر حكمها، وزاد فيها أو نقص ، ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى ﴿ فإنما إثمه على الذين يبدّلونه ﴾ قال ابن عباس وغيره : قد وقع أجر الميت على الله، وتعلق الأثم بالذين بدّلوا ذلك ﴿ إن الله سميع عليم ﴾ أي قد أطلع على ما أوصى به الميت وهو عليم بذلك وبما بدّله الموصى إليهم . وقوله تعالى : ﴿ فمن خاف من موص جنفاً أو إثماً ﴾ قال ابن عباس وغيره : الجنف الخطأ ، وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها بأن زادوا وارثاً بواسطة أو وسيلة كما إذا أوصى ببيعة الشيء الفلاني محاباةً أو أوصى لابن ابنته ليزيدها أو نحو ذلك من الوسائل إما مخطئاً أو متعمداً فهو آثم في ذلك فللوصي والحالة هذه ، أن يصلح القضية ، ويعدل في الوصية على الوجه الشرعي ، ويعدل عن الذي أوصى به الميت إلى ما هو أقرب شيء من مقصود الموصى والطريق الشرعي . وهذا الإصلاح ليس من التبديل في شيء وروى ابن مردويه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال :
١٩٣ [الجنف في الوصية من الكبائر] وفي رفعه نظر ...

﴿ يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ١٨٤

يقول الله تعالى آمراً هذه الأمة بالصيام . وهو الإمساك عن الطعام والشراب والجماع ، بنية خالصة لله عز وجل لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الإخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة . وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم فلهم فيهم أسوة وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك ،كما قال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمةً واحدة ولكن ليبلوكم فيما أتاكم فاستبقوا

الخيرات ﴾ الآية ... ولهذا قال ههنا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . ﴾ لأن الصوم فيه تزكية للبدن ، وتضييق لمسالك الشيطان وهذا ثبت في الصحيحين : ١٩٤ [يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء] .

كان الصيام في ابتداء الإسلام ثلاثة أيام من كل شهر ، ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان وعن معاذ وابن مسعود وغيرهما : إن هذا الصيام لم يزل مشروعاً من زمان نوح إلى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان كتب عليهم إذا صلى أحدهم العتمة ونام ، حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها . ثم بيّن حكم الصيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام فقال : ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر . ﴾ أي المريض والمسافر لا يصومان بل يُفطران ويقضيان بعدّة ذلك أياماً أخر ، وأما الصحيح المقيم إن شاء صام وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً . والصيام أفضل من الإطعام قاله ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من السلف وذلك لقوله تعالى : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوّع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون . ﴾ ثم أنزل الله تعالى الآية الأخرى : ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن – إلى قوله – فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح ورخص فيه للمريض والمسافر وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام وروى البخاري عن سلمة بن الأكوع أنه قال لما نزلت ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ كان من أراد أن يفطر يفتدي ، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها ، وروي أيضاً عن ابن عمر أنها منسوخة ، وروى البخاري عن ابن عباس أنها ليست منسوخة ، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً . وحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه بقوله : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ وأما الشيخ الفاني الهرم،ففيه قولان.والصحيح منهما الإفطار،ويجب عليه فدية عن كل يوم. وفي صحيح البخاري: فقد أطعم أنس بعد ما كبر عاماً أو عامين عن كل يوم مسكيناً خبزاً ولحماً وأفطر رواه البخاري معلقاً وقد أسنده الحافظ أبو يعلي الموصلي في مسنده . ويلتحق بهذا المعنى الحامل والمرضع ، إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما .

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ١٨٥

يمدح الله تعالى شهرَ الصيام من بين سائر الشهور ، بأن أختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم وقد ورد في الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء. روى الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله عن واثلة بن الأسقع : أن رسول الله ﷺ قال : ١٩٥ (أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان[1] . وأما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل ، فنزل كل منها على النبي الذي أنزل عليه ، جملة واحدة واما القرآن فنزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه ، كما قال تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ وقال : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ ثم نزل بعد مفرّقاً بحسب الوقائع على رسول الله ﷺ وفي رواية عكرمة عن ابن عباس قال : نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر ، إلى هذه السماء الدنيا جملةً واحدةً وكان الله يحدث لنبيه ما يشاء ولا يجيء المشركون بمثَل يخاصمون به إلاّ جاءهم الله بجوابه وذلك قوله : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملةً واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً . ولا يأتونك بمثَلٍ إلاّ جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ وقوله تعالى: ﴿ هُدًى للناس وبيّناتٍ من الهدى والفرقان﴾ وهذا مدح للقرآن الذي أنزله الله هدىً لقلوب العباد ممّن آمن به وصدّقه واتّبعه .

﴿ وبيّناتٍ ﴾ أي ودلائل على صحة ما جاء به من الهدى والرشاد مفرّقاً بين الحق والباطل

---

(١) قال الله تعالى : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » والرسول صلى الله عليه وسلم قال التمسوها في العشر الأخير من رمضان) وفي حديث آخر قال (التمسوها في الآحاد) ، وفي حديث آخر (في السابع والعشرين من رمضان)
فأما قوله في هذه الرواية اعلاه : وانزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان هو مخالف لنص القرآن : « إنا انزلناه في ليلة القدر » مما يدل على ضعف هذا الحديث لمخالفة نصه لنص القرآن ، لأن ليلة القدر كانت في ليلة السابع والعشرين من رمضان والله تعالى أعلم وهو الموفق للصواب .

والحلال والحرام . وقوله تعالى : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه﴾ هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر ، إي كان مقيماً في البلد حين دخل شهر رمضان وهو صحيح في بدنه أن يصوم لا محالة ، ونسخت الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحاً مقيماً أن يفطر ويفدي بإطعام مسكين عن كل يوم كما قدم بيانه ، ولما ختم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض والمسافر في الإفطار بشرط القضاء فقال : ﴿ ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ أي ومن كان به مرض يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه أو كان على سفر فله أن يفطر وعليه عدة ما أفطره . ولهذا قال : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ أي إنما رخص بالفطر في حال المرض والسفر مع تحتمه في حق المقيم الصحيح تيسيراً عليكم ورحمةً بكم .

وها هنا مسائل : الأولى : زعم بعضهم أنه لا يباح الإفطار إلاّ لمن استهل الشهر مسافراً لا لمن كان مقيماً أول الشهر ثم سافر اثناءه لقوله ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ ولكن هذا مردود ، إذ لا دليل في الآية على زعمهم لانه ثبت في الصحيحين ١٩٦ ان [رسول الله ﷺ لما بلغ الكديد لما خرج لغزوة الفتح في رمضان أفطر وأمر الناس بالفطر]

الثانية – : وقال آخرون : بوجوب الإفطار في السفر لقوله : ﴿فعدة من أيام أخر﴾ وهذا خلاف ما ثبت من فعله ﷺ من حديث أبى الدرداء قال : ١٩٧ [خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة الحر ، وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبدالله بن رواحة] .

الثالثة – : وقال آخرون : الصيام أفضل ، وقال جماعة : بل الإفطار أفضل أخذاً بالرخصة لقوله ﷺ : ١٨٨ [عليكم برخصة الله التي رخص لكم]

وقيل : إن شق الصيام فالإفطار أفضل لحديث جابر : ١٩٩ [إن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قد ظلل عليه فقال : ما هذا ؟ قالوا صائم فقال ليس من البر الصيام في السفر] أخرجاه

والصحيح قول الجمهور ان الأمر في ذلك على التخيير وليس بحتم لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان قال : ٢٠٠ [فمنا الصائم ، ومنا المفطر فلم يعبِ الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم .]

فأما إن رغب عن السنّة ، ورأى أن الفطر مكروه إليه ،فهذا يتعين عليه الإفطار ويحرم عليه الصيام لما جاء في مسند أحمد وغير عن ابن عمر وجابر : ٢٠١ [من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة]

ولا يجب التتابع في قضاء صيام المعذور ... فإن شاء فرّق وإن شاء تابع ، وهذا قول

جمهور السلف والخلف تؤيده الدلائل ، لأن التتابع إنما وجب في شهر رمضان لضرورة أدائه فيه ، فأما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام عدة ما أفطر ولهذا قال تعالى : ﴿ فعدةٌ من أيام أخر ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ وروى الإمام أحمد عن عامر بن عروة ... جعل الناس يسألونه ﷺ : علينا حرج في كذا ؟ فقال رسول الله ﷺ ٢٠٢ [إن دين الله في يسر] ثلاثاً وروى أحمد أيضاً بسنده عن أنس بن مالك يقول : إن رسول الله ﷺ قال : ٢٠٣ [يسّروا ولا تعسّروا وسكّنوا ولا تنفروا] أخرجاه في الصحيحين وقوله تعالى ﴿ ولتكملوا العدة ﴾ أي إنما أرخص لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليسر ، وإنما أمركم بالقضاء ، لتكملوا عدة شهركم . وقوله : ﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم ﴾ أي ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم كما قال : ﴿ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا ﴾

قال ابن عباس : ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير في عيد الفطر وأوجبه داود الظاهري لظاهر الأمر وفي مقابلته مذهب أبي حنيفة رحمه الله أنه لا يشرع التكبير في عيد الفطر والباقون على استحبابه وقوله ﴿ولعلكم تشكرون ﴾ أي إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين لذلك .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ ١٨٦

وفي ذكره تعالى : هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللةً بين أحكام الصيام إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة ، بل وعند كل فطر ، كما رواه الامام أبو داود الطيالسي في مسنده عن عبدالله بن عمرو قال : سمعت رسول الله (ص يقول : ٢٠٤ [للصائم عند افطاره دعوة مستجابة]

قال ابن ابي حاتم بسنده عن معاوية بن حيدة القشيري ٢٠٥ [ان إعرابياً قال : يا رسول الله ﷺ ، أقريب ربنا فنناجيه ... أم بعيد فنناديه ؛ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله : ﴿ واذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان]الآية... إذا أمرتهم أن يدعوني فدعوني استجبت. روى الإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري قال ؛ ٢٠٦ [كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ، فجعلنا لا نصعد شرفاً ولا نعلو شرفاً ولا نهبط وادياً إلاّ رفعنا

اصواتنا بالتكبير ، قال : فدنا منا فقال : «يا أيها الناس : إربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً ، إنما تدعون سميعاً بصيراً ، إن الذين تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته [١] يا عبدالله بن قيس ، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلاّ بالله] أخرجاه في الصحيحين وبقية الجماعة . وروى مالك عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : ٢٠٧ [يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول دعوت فلم يستجب لي] أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك به وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : ٢٠٨ [لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل . » قالوا وكيف يستعجل ؟ قال : « يقول قد دعوت ربي فلم يستجب لي »] رواه الامام أحمد

(١) قلت : لقد وقع الخاصة والعامه في زمننا الحاضر – إلا من رحم ربك – في أمر خطير عظيم وهو دعاء غير الله تعالى من الأنبياء والأولياء والصالحين في أمور لا يقدرون عليها فيما لو كانوا على قيد الحياة،فكيف وقد اختارهم الله إليه، وقضى عليهم بالموت؟ هذه الأمور التي لايقدر على إجابتها إلا الله وحده لا شريك له. فترى العامة وكثيراً من الخاصة يعكفون على اصحاب القبور ، يطوفون حولها سبعة أشواط وينادون أصحابها لقضاء حوائجهم ، كالمغفرة والهداية ودفع الضر ، وكشف الكربات ، وجلب الرزق، وهبة الأولاد ذكوراً أو اناثاً ، ويقولون يا فلان أنا دخيلك ، وفي جوارك .. .. أدركني أغثني ... العارف لا يُعرّف !!! أنت أعلم بحالي.وأمثال ذلك من الشرك الأكبر .. !!! وإذا دفعتك عقيدتك الطيبة لأن تنصحهم وتفهمهم أن مثل هذه الأمور من العبادات ...ولا يمكن أن تصرف إلا لمستحقها وهو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، قامت قيامتهم. وإن مما يدمي القلوب، ويفري المهج حزناً ولوعة على ما آلت إليه حال المسلمين،هو أن يهب بعض الذين هم محسوبون على الأمة من العلماء ، هبة عظيمة ويقولوا لك:أتركهم يا أخي .. نواياهم طيبة ، إنهم لا يقصدون طلب الدعاء من أصحاب القبور ، ولكن لجهلهم وعدم معرفتهم لا يعبرون عن مرادهم ، إلا بدعائهم إنما يريدون التوسل بهم إلى الله . وإذا قلت له : حسناً تفضل يا صاحب الفضيلة وعلمهم وعدل من ألفاظهم حتى لا يقعوا في الشرك الأكبر .. وهذا الذي قلته لي قله لهم، فيقول لك : لا لايا أخي اتركهم على نواياهم فنواياهم طيبة !!! ولا يتقدم ولا خطوة واحدة لنصحهم واذا نصحتهم انت قامت قيامته ونعتك بشتى النعوت التي أقل ما يقال فيها انها تنابذ بالألقاب. ولكن إياك ياأخي المسلم أن يصدّنّك عن إذاعة الحق أمثال هؤلاء ... فاصدع بالحق والله ناصرك . « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز » وإنك لترى أيضاً في حلقات الرقص التي يسمونها كذباً وزوراً وبهتاناً « حلق الذكر » من المنكرات التي أسلفنا ما تنصدع له القلوب من دعوة غير الله تعالى ، وفي شكل مزري . ولو أبصره أعداء الإسلام لشمتوا بالإسلام وأهله ولجعلونا أضحوكة ، من ارتفاع بالأصوات إلى القفز ، والرقص ، والتمايل ، والضرب على الدف والصنج والطنبور ، والأغاني من المرّدان والتكسر والتمايل، والدمدمة والهمهمة بما لا معنى له ويسمون ذلك ذكر الله!! وحاشا أن يكون ذكر الله متدنياً إلى مثل هذا الدرك الأسفل هذا عداعن الشركيات في الفاظهم كقولهم مثلا : / يا شيخي يا رفاعي * ادركني بالفرج * وإذا لم تدركني * فالى من ألتجي / ؟ وأمثال ذلك والرفاعي بريء مما يشركون. فقوله تعالى : واذا سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداعي اذا دعاني » وقوله صلى الله عليه وسلم : (اربعوا على انفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائباً) لأكبر وأبلغ رد على أولئك الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً هداهم الله أو عاملهم بما يستحقون .

وروى ابن مردويه عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، حدثني جابر بن عبدالله ٢٠٩ [ان النبي ﷺ قرأ : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان ﴾ الآية ، فقال رسول الله ﷺ « اللهم امرتَ بالدعاء وتوكلتَ بالإجابة لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، أشهد أنك فرد أحد صمد لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، وأشهد أن وعدك حق ، ولقاءك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة آتية لا ريب فيها ، وأنت تبعث من في القبور] روى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس عن النبي ﷺ قال : ٢١٠ [يقول الله تعالى يا ابن آدم واحدة لك ، وواحدة لي ، وواحدة فيما بيني وبينك ، فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً ، وأما التي لك فما عملت من شيء أو من عمل وفيتكَهُ ، وأما الذي بيني وبينك ، فمنك الدعاء وعليّ الإجابة] وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللةً بين أحكام الصيام إرشاد إلى الاجتهاد في الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل فطر . كما رواه الإمام أبو داود الطيالسي بسنده عن عبدالله بن عمرو قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٢١١ [للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة] فكان عبدالله بن عمرو إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا . وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرةقال:قال رسول الله ﷺ : ٢١٢ [ثلاثة لا تردُّ دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتفتح لها أبواب السماء ويقول بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين]

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔانَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ١٨٧

هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين ، ورفع لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام ، فإنه

كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك ، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة ، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة ؛ والرفث هنا هو الجماع قاله جمع منهم : ابن عباس وبعض التابعين. وقوله : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ قال ابن عباس وغيره : هن سكن لكم وأنتم سكن لهن . وحاصله أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسه ويضاجعه فناسب أن يرخص لهم في المجامعة في ليل رمضان لئلا يشقّ ذلك عليهم ويحرجوا ؛ قال الشاعر :

إذا ما الضجيج ثنى جيدها تداعت فكانت عليه لباسا

وكان السبب في نزول هذه الآية كما تقدم : ٢١٣ [إن الرجل من الصحابة – وذلك قبل افتراض رمضان – إذا كان صائماً فنام قبل أن يفطر لم يأكل إلى مثلها ، وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً وكان يومه ذلك يعمل في أرضه ، فلما حضر الإفطار أتى أمرأته فقال : هل عندكِ طعام ؟ قالت : لا ، ولكن أنطلقُ فأطلب لك ، فغلبته عينه فنام ، وجاءت امرأته ، فلما رأته نائماً قالت : خيبة لكَ أنمت؟ فلما انتصف النهار غشي عليه فذُكِرَ ذلك للنبي ﷺ فنزلت : ﴿ أحل لكم ليلةَ الصيام الرفثُ إلى نسائكم ﴾ – إلى قوله – ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ﴾ ففرحوا فرحاً شديداً .] وقوله تعالى : ﴿ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن ... ﴾ وأسباب نزول هذا حال قيس بن صرمة المذكور آنفاً ٢١٤ [ثم إن هناك رجالاً من المسلمين كانوا يختانون أنفسهم أي يجامعون نساءهم في شهر رمضان بعد العشاء وبعدما ينامون وكان منهم عمر بن الخطاب وكان ذلك العمل ممنوعاً كما تقدم إذ كان المسلمون قبل ذلك إذا صلوا العشاء حرّم عليهم النساء والطعام إلى مثلها في القابلة ، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ فأنزل الله تعالى : ﴿ علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم ... ﴾] يعني تجامعوهن وتأكلون وتشربون بعد العشاء ﴿ فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهن ﴾ يعني جامعوهن ﴿ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ يعني الولد ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾ فكان ذلك عفواً من الله ورحمة ، فأباح الطعام والشراب والنكاح في جميع الليل رحمة ورخصة ورفقاً . وقوله : ﴿ وابتغوا ما كتب الله لكم ﴾ أي ابتغوا الرخصة التي كتب لكم ولكن تفسيرها بالولد أصح . قوله : ﴿ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر . ﴾ أي إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل ، وليرتفعَ الالتباس ، قال : ﴿ من الفجر ﴾

وروى البخاري بسنده عن عدي بن حاتم قال : ٢١٥ [قلت يا رسول الله : ما الخيط

الأبيض من الخيط الأسود أهما الخيطان ؟ قال : إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين ثم قال : لا بل هو سواد الليل وبياض النهار]

وفي إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور لأنه من باب الرخصة والأخذ بها محبوب ، وحثّتِ السنّةُ على السحور ، ففي الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ٢١٦ [تسحروا فإن في السحور بركة] وقد ورد أحاديث كثيرة : ٢١٧ [إن رسول الله ﷺ سماه : الغداء المبارك] وقد ورد في الصحيحين من حديث القاسم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : ٢١٨ [لا يمنعنكم أذانُ بلال عن سحوركم ، فإنه ينادي بليل فكلوا واشربوا حتّى تسمعوا أذانَ ابنِ أمّ مكتوم فإنه لا يؤذن حتى يطلعَ الفجرُ]

(مسألة) ومِنْ جعلِهِ تعالى الفجر غايةً لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام يستدل على أنه من أصبح جنباً فليغتسل وليتم صومه ولا حرج عليه ،وهذا مذهب الأئمة الأربعة وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً، لما رواه البخاري ومسلم،من حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما أنهما قالتا : ٢١٩ [كان رسول الله ﷺ يصبح جنباً من جماع غير احتلام ثم يغتسل ويصوم] وفي حديث أم سلمة عندهما : ٢٢٠ [ثم لا يفطر ولا يقضي] .

﴿ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ يقتضي الإفطار عند غروب الشمس حكماً شرعياً، كما جاء في الصحيحين عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٢٢١ [إذا أقبل الليل من ها هنا ، وأدبر النهار من ها هنا فقد أفطر الصائم] وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٢٢ [لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر] أخرجاه ثم ورد في الأحاديث الصحاح النهي عن الوصال . وهو : أن يَصِلَ يوماً بيوم آخر ، ولا يأكل بينهما شيئاً . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٢٣ (لا تواصلوا قالوا:يا رسول الله إنك تواصل.قال : فاني لست مثلكم ، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني قال فلم ينتهوا عن الوصال. فواصل بهم النبي ﷺ يومين وليلتين ثم رأوا الهلال ، فقال : [« لو تأخر الهلال لزدتكم »] كالمنكّلِ لهم ؛ وأخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري به . فقد ثبت النهي عنه أنه من خصائصه عليه الصلاة والسلام وأنه كان يقوّى على ذلك ويُعان . والأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنوياً لا حسياً وإلا فلا يكون مواصلاً مع الحسي . ولكن لا بأس من الوصال إلى السحر : لبعض حديث رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ ٢٢٤ [لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر ...] أخرجاه في الصحيحين. وقوله تعالى : ﴿ ولا

تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد ﴾ فقد كان المعتكفون في المساجد يخرجون منها ويجامعون إن شاءوا، حتى نزلت هذه الآية فمنعوا من ذلك ليلاً أو نهاراً حتى يقضوا اعتكافهم . أي لا تقربوهن ما دمتم عاكفين في المسجد . ولذا فإن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً في المسجد ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بدّ له منها أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من قضاء الغائط أو الأكل وليس له أن يقبل امرأته ولا أن يضمها إليه ولا يشتغل بشيء سوى اعتكافه .

فقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت ٢٢٥ [كان رسول الله ﷺ يدني إلي رأسه فأرجّله وأنا حائض ، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان . قالت عائشة : ولقد كان المريض يكون في البيت فما أسأل عنه إلا وأنا مارة .]

وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر رمضان كما ثبت في السنّة عن رسول الله ﷺ ٢٢٦ [انه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله عز وجل ثم اعتكف أزواجه من بعده] أخرجاه وقوله تعالى : ﴿ تلك حدود الله ﴾ أي هذا الذي بيناه وفرضناه وحددناه من الصيام وأحكامه ، وما أبحنا فيه وما حرمنا ، وذكرنا غاياته ، ورخصته وعزائمه ، حدود الله ، أي شرعها الله وبيّنها بنفسه . فلا تقربوها أي لا تجاوزوها وتتعدّوها ﴿ كذلك يبين الله آياته للناس ﴾ أي : كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿ للناس لعلهم يتقون ﴾ أي يعرفون كيف يهتدون وكيف يطيعون • كما قال تعالى : ﴿ هو الذي ينزّل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم . ﴾

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٨ ﴾

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بينة ، فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام ، وهو يعرف أن الحق عليه ، وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام ، وقال بعض السلف : لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم . وقد ورد في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال : ٢٢٧ [ألا إنما أنا بشر ، وإنما يأتيني الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هي قطعة من نار

فليحملها أو ليذرها] فدلت الآية والحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر ، فلا يحل في نفس الأمر حراماً وهو حرام، ولا يحرم حلالاً وهو حلال وإنما هو ملزم في الظاهر ، فإن طابق في نفس الأمر فذاك وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره ولهذا قال تعالى ﴿ ولا تأكلوا أموالكم ... وأنتم تعلمون ﴾ أي تعلمون بطلان ماتروجونه في كلامكم

۞ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ ١٨٩

٢٢٨ [سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة قالوا : يا رسول الله لم خُلقت الأهلّة ؟ فأنزل الله يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس ﴾] يقول [جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدة نسائهم ومحل دينهم .] وروى عبد الرزاق بسنده عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ٢٢٩ [جعل الله الأهلةَ مواقيتَ للناس ، فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن غم عليكم فعدوا ثلاثين يوماً] ورواه الحاكم من حديث ابن أبي رواد به وقال : كان ثقةً عابداً مجتهداً شريف النسب فهو صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقوله : ﴿ وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها ﴾ روى البخاري عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوا البيت من ظهره ، فأنزل الله : ﴿ وليس البر ... الآية ﴾ وقال عطاء بن رباح : كان أهل يثرب إذا رجعوا من عيدهم ، دخلوا منازلهم من ظهورها ، ويرون أن ذلك أدنى إلى البر ، قال الله تعالى : ﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ﴾ وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ غداً إذا وقفتم بين يديه فيجازيكم على التمام والكمال .

۞ وَقَٰتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ

ٱلْكَافِرِينَ ١٩١ فَإِنِ ٱنْتَهَوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ١٩٢ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّالِمِينَ ١٩٣

قال أبو العالية في قوله تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾ قال هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله ، ويكف عمن كفَّ عنه حتى نزلت سورة ﴿براءة﴾ وقوله تعالى : ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ﴾ أي لتكون همتكم منبعثةً على قتالهم كما همتهم منبعثةٌ على قتالكم وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصاً .

وقوله : ﴿ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ أي قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا في ذلك ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي : من المُثْلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم ، والرهبان وأصحاب الصوامع ، وتحريق الأشجار ، وقتل الحيوان لغير مصلحة ، كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز وغيرهما ولهذا جاء في صحيح مسلم عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول : ٢٣٠ [أغزوا في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، أغزوا ولا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع] ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال ، نبه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله أبلغ وأشد وأعظم وأطمّ من القتل ، ولهذا قال : ﴿والفتنة أشد من القتل ﴾ يعني الشرك أكبر من القتل وأشد منه ، وقوله تعالى : ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام﴾ كما جاء في الصحيحين : ٢٣١ [إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، ولم يحل إلا ساعةً من نهار وإنها ساعتي هذه ، حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شجره ولا يختلى خلاه ، فإن أحد ترخّص بقتال رسول الله ﷺ ، فقولوا : إن الله أذِن لرسوله ولم يأذن لكم] وذلك يوم فتح مكة فانه فتحها عنوةً .

وقوله تعالى : ﴿ حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فأقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ﴾ يقول تعالى ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدأوكم بالقتال فيه فلكم حينئذٍ قتالهم وقتلهم دفعاً للصائل وقوله تعالى : ﴿ فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ﴾ أي فأن انتهوا عن قتالكم في الحرم وأنابوا إلى الإسلام والتوبة ، فإن الله يغفر ذنوبهم ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله فانه تعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه إليه ثم أمر الله بقتال الكفار ﴿ حتى لا

تكون فتنة ﴾ أي شرك قاله ابن عباس وغيره ﴿ ويكون الدين لله ﴾ أي يكون دين الله هو الظاهر العالي، على سائر الأديان. وفي الصحيحين ٢٣٢ [أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله .]

وقوله تعالى : ﴿ فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ يقول تعالى فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين فكفوا عنهم ، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وهذا معنى قول من قال : أن لا يقاتَل إلا من قاتَل . أو يكون تقريره فإن انتهوا فقد تخلصوا من الظلم وهو الشرك ، فلا عدوان عليهم بعد ذلك والمراد بالعدوان ها هنا : المعاقبة والمقاتلة كقوله تعالى : ﴿وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ ولهذا قال عكرمة : الظالم من أبى أن يقول : لا إله إلا الله .

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ١٩٤

قال عكرمة : عن ابن عباس وغيره : لما سار رسول الله ﷺ معتمراً في سنة ست من الهجرة وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت، وصدوه بمن معه من المسلمين في ذي القعدة وهو شهر حرام، حتى قاضاهم على الدخول من قابل ، فدخلها في السنة الآتية هو ومن كان من المسلمين وأقصه الله منهم ، فنزلت في ذلك هذه الآية : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾ وروى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبدالله قال : ٢٣٣ [لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام ، إلا أن يُغزى وتغزوا فإذا حضره أقام حتى ينسلخ] هذا إسناد صحيح . ولهذا لما بلغ النبي ﷺ وهو مخيم في الحديبية أن عثمان قتل — وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين — بايع أصحابه وكانوا ألفاً وأربعماية تحت الشجرة ، على قتال المشركين ، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل ، كف عن ذلك وجنح إلى المسالمة والمصالحة فكان ما كان ... وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين وتحصن فلهم بالطائف عدل اليها فحاصرها، ودخل ذو القعدة وهو محاصر لها بالمنجنيق ، واستمر عليها إلى كمال الأربعين يوماً كما ثبت في الصحيحين عن أنس ولما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تفتح ، ثم كر راجعاً إلى مكة واعتمر من / الجعرانه / حيث قسم غنائم / حنين / وكانت عمرته هذه في ذي القعدة أيضاً ، عام ثمان صلوات الله وسلامه عليه . وقوله تعالى : ﴿ فمن اعتدى

عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ أمر بالعدل حتى في المشركين كما قال : ﴿«وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾وروي عن ابن عباس أن قوله: ﴿ فمن اعتدى عليكم...»﴾ الآية أنها نزلت بمكة حيث لا شوكة ولا جهاد ، ثم نسخ بآية القتال بالمدينة ، ونقل ابن جرير عن مجاهد: بل الآية مدنية بعد عمرة القضيّة.وقوله تعالى﴿ واتقوا الله واعلموا ان الله مع المتقين ﴾أمر لهم بطاعة الله وتقواه ، وإخبار بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥ ﴾

روى البخاري عن حذيفة ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ نزلت في النفقة . وروي عن ابن عباس وجمع من التابعين نحوه وقال الليث بن سعد عن أسلم أبي عمران قال : حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه ، ومعنا أبو أيوب الأنصاري ، فقال ناس : ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : نحن أعلم بهذه الآية ، إنما نزلت فينا ؛ صحبنا رسول الله ﷺ ، وشهدنا معه المشاهد ونصرناه ، فلما فشا الإسلام وظهر ، اجتمعنا معشر الأنصار نجياً فقلنا : قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله ، وكنا قد آثرنا على الأهلين والأموال والأولاد ، وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما فنزل فينا : ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد. رواه أبو داود والترمذي والنسائي وقال أبو بكر بن عياش بسنده إلى البراء بن عازب قال له رجل : إن حملتُ على العدو وحدي فقتلوني أكنتُ القيتُ بيدي إلى التهلكة ؟ قال : لا ، قال الله لرسوله : ﴿فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك﴾ وإنما هذه في النفقة . رواه ابن مردويه وأخرجه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ورواه الترمذي وقيس بن الربيع عن إسحق عن البراء فذكره. وقال بعد قوله: ﴿ ... لا تكلف إلاّ نفسك ﴾ ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقي بيده إلى التهلكة ولا يتوب . وعن النعمان بن بشير أنها في الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يغفر له فيلقى بيده إلى التهلكة ، أي يستكثر من الذنوب فيهلك، ومضمون الآية الأمر بالانفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات ، وخاصةً صرف الأموال في قتال الأعداء ، وبذلها فيما يَقوىَ به المسلمون على عدوهم ، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده ، ثم عطف بالأمر بالإحسان وهو أعلى مقامات الطاعة فقال : ﴿وأحسنوا ان الله يحب المحسنين ﴾.

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ﴾

لما ذكر تعالى أحكام الصيام ، وعطف بذكر الجهاد ، شرع في بيان المناسك ، فأمر بإتمام الحج والعمرة وظاهر السياق إكمال أفعالها بعد الشروع فيهما ولذا قال بعده : ﴿ فإن أحصرتم ﴾ أي صُدِدْتم عن الوصول إلى البيت ، ومنعتم من إتمامها . ولهذا اتفق العلماء ، على أن الشروع في الحج والعمره ملزم ، سواء قيل بوجوب العمرة أو باستحبابها كما هما قولان للعلماء ، وقد ذكرناهما بدلائلهما في كتابنا الأحكام وعن علي أنه قال في هذه الآية : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ قال : أن تحرم من دويرة أهلك ، وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وطاووس ، قال سفيان : إتمامهما أن تحرم من أهلك لا تريد إلا الحج والعمرة وتهلُّ من الميقات ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة ، حتى إذا كنت قريباً من مكة قلتَ لو حججتُ أو اعتمرتُ . وذلك يجزىء ولكن التمام أن تخرج له ولا تخرج لغيره ، قال مكحول : إتمامهما إنشاؤهما جميعاً من الميقات [1] وقال عبد الرزاق بسنده إلى الزهري قال : بلغنا أن عمر قال فى قول الله : ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾ من تمامهما أن تفرد كل واحد منهما من الآخر وأن تعتمر فى غير أشهر الحج [2] وهذا القول فيه نظر لأنه قد ثبت أن عمرات رسول الله ﷺ كلها فى أشهر الحج في ذى القعدة ، فإن عمرة الحديبية في ذي القعدة سنة ست ، وعمرة القضاء في ذى القعدة سنة سبع ، وعمرة الجعرّانة في ذى القعدة سنة

---

(١) على قول من قال أن القران أفضل

(٢) على قول من قال أن الإفراد أفضل

ثمانوعمرته التي مع حجته، أحرمَ بهامعاً[١] في ذي القعدة سنة عشر، وما اعتمر في غير ذلك بعد هجرته، ولكن قال لأم هاني : ٢٣٤ [عمرة في رمضان تعدل حجةً معي] وما ذاك إلا لأنها قد عزمت على الحج معه عليه السلام فاعتاقت عن ذلك بسبب الطهر . وثبت أن رسول الله ﷺ جمع في إحرامه بحج وعمرة [٢] وقال في الصحيح ايضاً : ٢٣٥ [دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة .]

ورد في الصحيحين عن يعلىَ بن أمية في قصة الرجل الذي سأل النبي ﷺ وهو بالجعرانة فقال : ٢٣٦ [كيف ترى في رجل أحرم بالعمرة وعليه جبة وخلوق ؟ فسكت رسول الله ﷺ ثم جاءه الوحي ثم رفع رأسه فقال أين السائل ؟ فقال : ها أناذا . فقال : « أما الجبة فانزعها ، وأما الطيب الذي بك فأغسله ، ثم ما كنت صانعاً في حجك فأصنعه في عمرتك »]

وقوله : ﴿ فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي ﴾ ذكروا ان هذه الآية نزلت في سنة ست ، أي عام الحديبية حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت وأنزل الله في ذلك سورة الفتح بكمالها ، وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدي ؛ وكان سبعين بدنة . وأن يحلقوا رؤوسهم وأن يتحللوا ، فلم يفعلوا ، إنتظاراً للنسخ ، حتى خرج فحلق رأسه ففعل الناس ، وكان منهم من قصر رأسه ولم يحلقه فلذلك قال ﷺ ٢٣٧ [رحم الله المحلقين قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ فقال في الثالثة « والمقصرين »] وقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك كل سبعة بدنة وكانوا الفاً وأربعمأة وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم وقيل بل كانوا على طرف الحرم .

وقد اختلف العلماء : هل يختص الحصر بالعدو ... فلا يتحلل إلا من حصره عدو لا مرض ولا غيره على قولين: فعن ابن عباس قال لا حصر إلاّ حصر العدو فأمّا من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شيء إنما قال تعالى: ﴿ فإذا أمنتم ﴾ فليس الأمن حصراً ، وأيد هذا القول جمع فيهم ابن عمر وبعض التابعين . والقول الثاني إن الحصر أعم من أن يكون بعدو أو مرض أو ضلال عن الطريق أو نحو ذلك . روى الإمام أحمد بسنده إلى الحجاج

---

(١) ثبت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ٢٣٨ (لو استقبلت من امري ما استدبرت لما سقت الهدي ولجعلتها عمرة) فتبين من هذا الحديث أن التمتع هو الأفضل ان لم نقل ما يقوله الموجبون فنحن إلى قولهم أميل

(٢) هذا لا يدل على أفضلية القران فانه صلى الله عليه وسلم بقي على إحرامه ولم يحل لأنه ساق الهدي من الحل ولولا ذلك لأحل مع الذين أمرهم أن يحلو ويفسخوا حجهم إلى عمرة وثبت في الصحيح انه قال لأصحابه (دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة) وعلى هذا فالأفضلية للتمتع .

ابن عمر الأنصاري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٢٣٩ [من كسر أو وجع أو عرج فقد حل وعليه حَجة أخرى] قال فذكرت ذلك لابن عباس وأبي هريرة فقالا صدق . وروي عن ابن مسعود وابن الزبير وعلقمة وسعيد بن المسيب وغيرهم قالوا الإحصار من عدو أو مرض أو كسر .

وثبت في الصحيحين عن عائشة : ٢٤٠ [أن رسول الله ﷺ دخل على ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب فقالت يا رسول الله اني أريد الحج وأنا شاكية ، فقال « حجي واشترطي أن محلي حيث حبستني »] فمن العلماء من أيد الاشتراط وقد علق الشافعي قوله بصحة هذا المذهب على صحة الحديث قال البيهقي وغيره من الحفاظ : وقد صح ولله الحمد .

وقوله : ﴿ فما استيسر من الهدي ﴾ كان عليٌّ يقول : شاة . وقال ابن عباس نحوه وكذا قال جمع من التابعين وهو مذهب الأئمة الأربعة وهناك من لا يرى الهدي إلاّ من الإبل والبقر (قلت) والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قصة الحديبية ، فانه لم ينقل عن أحد منهم انه ذبح في تحلله ذلك شاةً وإنما ذبحوا الإبل والبقر كل سبعة في بقرة كما جاء في الصحيحين عن جابر بن عبدالله قال ٢٤١ [أمرنا رسول الله ﷺ ان نشترك في الإبل والبقر كل سبعه منا في بقرة] وعن ابن عباس قال : بقدر يسارته ان كان موسراً فمن الإبل وإلاّ فمن البقر وإلاّ فمن الغنم ، وقد ثبت في الصحيحين عن عائشه أم المؤمنين رضي الله عنها قالت : ٢٤٢ [أهدى النبيُّ ﷺ مرةً غنماً]

وقوله تعالى : ﴿ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله﴾ معطوف على قوله تعالى : ﴿وأتموا الحج والعمرة لله » لأنه لا يجوز الذبح إلاّ في الحرم في حالة الأمن. أمّا ما وقع في الحديبية فكان ذبحهم خارج الحرم يعزى ذلك للإحصار الذي أحصرتهم قريش ، عن الدخول إلى الحرم فقوله ﴿حتى يبلغَ الهديُ مَحِلَّه ﴾ يعني يفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارناً أو من فعل أحدهما إن كان مفرداً أو متمتّعاً ، كما ثبت في الصحيحين عن حفصة أنها قالت : ٢٤٣ [يا رسول الله ما شأن الناس حلوا من العمرة ولم تحل أنت من عمرتك؟ فقال : « اني لبدت رأسي وقلدت هديي فلا أحل حتى أنحر »] وقوله تعالى : ﴿ فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك ﴾ روى البخاري بسنده إلى عبدالله بن معقل قال : ٢٤٤ [قعدت إلى كعب بن عجرة في هذا المسجد – يعني مسجد الكوفة – فسألته عن فدية من صيام فقال : حملت إلى النبي ﷺ ، والقمل يتناثر على وجهي ، فقال : ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا أما تجد شاةً ؟ قلت : لا قال : صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين ، لكل مسكين نصف صاع من طعام ، واحلق رأسك .

فنزلت فيَّ خاصة وهي لكم عامة] ورواه أحمد عن كعب بن عجرة قال : ٢٤٥ [أتى عليَّ النبي ﷺ وأنا أوقد تحت قدرٍ والقمل يتناثر على وجهي أو قال حاجبي ؛ فقال : يؤذيك هوام رأسك ؟ قلت : نعم . قال : فاحلقه وصُمْ ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو انسك نسيكةً] [١].

(قلت) وهو مذهب الأئمة الأربعة وعامة العلماء أن يخير في هذا المقام : إن شاء صام وان شاء تصدق بفرق وهو ثلاثة آصع لكل مسكين نصف صاع وهو مدّان ، وإن شاء ذبح شاةً وتصدّق بها على الفقراء ، أيّ ذلك فعل ، أجزأه . ولما كان لفظ القران في بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل ﴿ ففدية من صيام أو صدقة أو نسك . ﴾ أمر النبي ﷺ كعب بن عجرة بذلك وأرشده إلى الأفضل فالأفضل فقال أنسك شاة ، أو أطعم ستة مساكين ، أو صم ثلاثة أيام . فكلٌ حسن في مقامه ولله الحمد والمنة .

قال هشام : أخبرنا ليث عن طاوس انه كان يقول: ما كان من دم فبمكة، وما كان من طعام وصيام فحيث شاء . وقوله تعالى : ﴿ فإذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي . ﴾ أي إذا تمكنتم من أداء المناسك ، فمن كان منكم متمتعاً بالعمره إلى الحج ، وهو يشمل من أحرم بهما ، أو أحرم بالعمرة أولاً فلما فرغ منها أحرم بالحج ، أما قوله : ﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدي﴾ أي فليذبح ما قدر عليه من الهدي ، وأقله شاة ، وله أن يذبح البقر ، لأن رسول الله ﷺ ذبح عن نسائه البقر . وقال الأوزاعي (عن أبي هريرة : ٢٤٦ [أن رسول الله ﷺ ذبح البقر عن نسائه وكن متمتعات] . وفي الصحيحين عن عمران بن حصين قال : ٢٤٧ [نزلت آية المتعة في كتاب الله وفعلناها مع رسول الله ﷺ ، ثم لم ينزل قرآن يحرمها ولم ينه عنها ، حتى مات ؛ وقال رجل برأيه ما شاء] روى البخاري يقال إنه عمر ، وهذا الذي رواه البخاري قد جاء مصرحاً به أن عمر كان ينهى الناس عن التمتع ويقول : إنْ نأخذ بكتاب الله فإن الله يأمر بالتمام يعني قوله تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ وفي نفس الأمر لم يكن عمر رضي الله عنه ينهى عنها محرّماً [٢] لها ، إنما كان ينهى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجّين

---

(١) قلت : يعني فدية حلق الرأس قبل بلوغ الهدي محله لمن به أذى في رأسه وليس له علاقة بالهدي .

(٢) قلت : سبحان من حصر العصمة بأنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام . فأمر صلى الله عليه وسلم الصحابة جميعاً ان يفسخوا حجهم إلى عمرة ولما تلكأوا غضب ودخل على عائشة غاضباً فقالت أغضب الله من أغضبك وقد سأله أحد الصحابة قال هل دخلت العمرة في الحج لهذا العام ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : ٢٤٢ (بل إلى أبد الأبد إلى أبد الأبد) وشبك بين اصابعه وقال عليه الصلاة والسلام: ٢٤٣ (لواستقبلت من أمري ما استدبرت ا!=

ومعتمرين . كما قد صرح به رضي الله عنه. وقوله تعالى : ﴿ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ﴾ أي فمن لم يجد هدياً فصيام ثلاثة أيام في الحج أي في أيام المناسك . قال العلماء : والأولى أن يصومها قبل يوم عرفة في العشر ، أما صيامها في أيام التشريق فيه قولان للعلماء : أنه يجوز لقول عائشة وابن عمر في صحيح البخاري : ٢٤٨ [لم يُرَخَّصْ في أيام التشريق أن يُصَمْنَ إلا لمن لا يجد الهدي .] وعن علي أنه كان يقول : من فاته صيام ثلاثة أيام في الحج ، صامهن أيام التشريق وقال ذلك أيضاً عكرمة والحسن وعروة بن الزبير وإنما قالوا ذلك لعموم قوله ﴿ فصيام ثلاثة أيام في الحج ﴾ وهذا قول الشافعي في القديم والجديد من مذهبه أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق لما رواه مسلم عن قتيبة الهذلي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٤٩ [أيام التشريق أيام أكل وشرب ، وذكرُ الله عز وجل] وقوله تعالى : ﴿ وسبعة إذا رجعتم ﴾ أي رجعتم إلى الوطن والأهل لقوله : ﷺ [1] في بعض حديث للبخاري عن ابن عمر ٢٥٠ [... فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله] أخرجاه. وقوله تعالى : ﴿ تلك عشرة كاملة ﴾ تأكيد لقوله : ثلاثة وسبعة أي كاملة والأمر بإكمالها وإتمامها .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام ﴾ أجمع أهل التأويل أن أهل الحرم معنيون به ، وأنه لا متعة لهم. وقال قتادة : ذكر لنا أن ابن عباس كان يقول : يا أهل مكة ، لا متعة لكم ، أحلّت لأهل الآفاق وحرمت عليكم ، إنما يقطع أحدكم

= سقت الهدي ولجعلتها عمرة) كل هذا يدل على ان التمتع بالعمرة باق إلى الأبد ، ولكن ... رحم الله عمر وغفر له ورضي عنه وأرضاه على أن قول عمر رضي الله عنه بمنعه التمتع بالعمرة قد حرفه الرافضة إلى أبعد حد ... وهم يعلمون أنهم لكاذبون ... وذلك أنهم يقولون أن المتعة كانت على زمن الرسول وخلافة أبي بكر وما حرمها إلا عمر مستغلين التشابه اللفظي بين التمتع بالعمرة إلى الحج وبين ما يرمون إليه من حل المتعة أي الزواج الموقت الذي حرمه الرسول صلى الله عليه وسلم مرة في خيبر ثم أحله في فتح مكة ثم حرمه في مكة نفسها وفي نفس الوقت وأعني في أثناء وجوده في مكة فقال : ٢٥١ : (أيها الناس إني كنت قد أذنت لكم في الاستمتاع بالنساء وان الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة) رواه مسلم عن سبرة الجهني ج ٤ ص ١٣٢ وفي صحيح مسلم عن سبرة الجهني قال : ٢٥٢ (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً بين الركن والباب) وهو يقول بنحوه . وفي مسلم ج ٤ ص ١٣٣ عن سبرة الجهني قال : ٢٥٣ (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمتعة عام الفتح حين دخلنا مكة ثم لم نخرج منها حتى نهانا عنها .) فتأمل يا أخي المسلم ما يحرفه الرافضة من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يستغلون من تشابه الألفاظ وهم يعلمون انهم لكاذبون هداهم الله سواء السبيل .

(١) هذا الحديث عام ويخصصه الحديثان أعلاه أو الخبران : (لم يرخص ...) و (من فاته صيام ...)

وادياً ، أو قال يجعل بينه وبين الحرم وادياً ثم يهل بعمرة ، وعن طاووس قال : المتعة للناس لا لأهل مكة من لم يكن اهله من الحرم .

وقوله تعالى: ﴿ واتقوا الله ﴾ أي فيما أمركم ونهاكم ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ أي لمن خالف أمره وارتكب ما عنه زجره .

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٧ ﴾

إختلف أهل العربية في قوله تعالى : ﴿ الحج أشهر معلومات ﴾ قال بعضهم : تقديره الحج أشهر معلومات فعلى هذا التقدير يكون الإحرام بالحج فيها أكمل من الإحرام فيما عداها وإن كان ذاك صحيحاً ، والقول بصحة الإحرام بالحج في جميع السنة ، مذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وغيرهم ... واحتج لهم بقوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ وبأنه أحد النسكين ، فصح الإحرام به في جميع السنة كالعمرة . وذهب الشافعي رحمه الله إلى انه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره ، فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به وهذا القول مروي عن ابن عباس وجابر وبه يقول عطاء وطاووس ومجاهد رحمهم الله والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ الحج أشهر معلومات ﴾ فلا يصح قبلها كميقات الصلاة ، وروى الشافعي رحمه الله عن ابن عباس أنه قال : لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلاّ في أشهر الحج من أجل قوله تعالى: ﴿الحج أشهر معلومات﴾ ورواه ابن مردويه في تفسيره عن ابن عباس : ٢٥٤ [من السنّة أن لا يحرم بالحج إلاّ في اشهر الحج]. وروى ابن خزيمة في صحيحه عن ابن عباس قال: ٢٥٥ [لا يُحرم بالحج إلاّ في أشهر الحج فإن من سنّة الحج أن يحرم بالحج في أشهر الحج .] وهذا اسناد صحيح. وقول الصحابي : من السنّة كذا في حكم المرفوع عند الأكثرين ، ولا سيما قول ابن عباس تفسيراً للقرآن وهو ترجمانه . وقد ورد فيه حديث مرفوع رواه ابن مردويه بسنده عن جابر عن النبيّ ﷺ أنه قال: ٢٥٦ [لا ينبغي لأحد أن يُحرم بالحج إلاّ في أشهر الحج] وإسناده لا بأس به . ولكن رواه الشافعي من طرق إلى جابر بن عبدالله سئل ٢٥٧ [أيهل بالحج قبل أشهر الحج فقال : لا] وهذا الموقوف أصحّ وأثبت من المرفوع ؛ ويبقى حينئذ

مذهب صحابي يتقوّى بقول ابن عباس [من السنّة أن لا يُحرم بالحج إلا في أشهره] والله أعلَم .

وقوله تعالى ﴿ أشهر معلومات﴾ روى البخاري : عن ابن عمر : ٢٥٨ [هي شوال وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة] وهذا الذي علقه البخاري بصيغة الجزم رواه ابن جرير موصولاً إلى ابن عمر بنحوه وإسناده صحيح وقد رواه الحاكم ايضاً وقال على شرط الشيخين . (قلت) وهو مروي عن جمع من الصحابة والتابعين وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة وأحمد وغيرهم ، وقال ابن جرير : (وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب ، كما تقول العرب : رأيته العام ورأيته اليوم وإنما وقع ذلك في بعض العام واليوم ...

كقوله تعالى : ﴿ فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ﴾ وإنما تعجلٌ في يومٍ ونصف يوم) وقوله تعالى : ﴿ فمن فرض فيهن الحج ﴾ قال ابن جرير أجمعوا على أن المراد من الفرض ها هنا الايجاب والإلزام . أي أوجب باحرامه حجاً وقال عطاء : الفرض : الإحرام وكذا قال غيره وعن ابن عباس أنه قال : فلا ينبغي أن يلبي بالحج ثم يقيم بأرض ﴿فلا رفث ولا فسوق﴾ قال عطاء : الرفث : الجماع وما دونه من قول الفحش . ﴿ولا فسوق﴾ أي إتيان المعاصي في الحرم والسباب وثبت في الصحيح : ٢٥٩ [سباب المسلم فسوق وقتاله كفر] والفسوق جميع المعاصي وفي الصحيحين عن أبي هريرة : قال : قال رسول الله ﷺ : ٢٦٠ [من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه]

وقوله تعالى ﴿ ولا جدال في الحج﴾ أي قطع التنازع في مناسك الحج وإبّانها ... وقد بينها الله أتم بيان ، ووضحها أكمل إيضاح ، وقد كان يقع جدل بين قريش وبقية العرب فقريش كانت تقف عند المشعر الحرام بمزدلفة ، وبقية العرب كانت تقف بعرفة فكانوا يتجادلون وكل يدعي أن حجه وموقفه موقف وحج ابراهيم وقد قطع الله التنازع في ذلك وبين المناسك جميعاً وحرم الجدال فيها وفي وقتها . وقيل أيضاً أن الجدال ها هنا المخاصمة والمراء والسبّاب والخصومات والغضب . إلا أن تستغضب مملوكاً فتغضبه من غير أن تضربه (قلت) ولو ضربه لكان جائزاً سائغاً : والدليل أن أبا بكرٍ ضرب غلامه لأنه أضل بعيره الذي عليه الزاد والماء فكان رسول الله ﷺ ينظر إلى فعل أبي بكرٍ ويبتسم ويقول : ٢٦١ [انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع] كهيئة الإنكار اللطيف . إن الأوْلى ترك ذلك والله أعلم .

فمن رواية أحمد مختصراً . وقال أحمد عن جابر : ٢٦٢ [من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ما تقدم من ذنبه] . وقوله تعالى : ﴿ وماتفعلوا من خير يعلمه الله ﴾ لمّا نهاهم عن إتيان القبيح قولاً أو فعلاً حثّهم على فعل الجميل وأخبرهم أنه عالم به وسيجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ فقد أخرج البخاري بسنده عن ابن عباس قال : كان أهل اليمن يحجون ولا يتزوّدون ويقولون نحن المتوكلون ، فأنزل الله تعالى ﴿ وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ فنهوا عن ذلك وأمروا أن يتزوّدوا ... كالدقيق والسويق والكعك . وعن مجاهد : أن ابن عمر كان يشترط على من صحبه الجودة وقوله تعالى : ﴿ فإن خير الزاد التقوى ﴾ لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا ، أرشدهم إلى زاد الآخرة ، وهو استصحاب التقوى إليها كما قال سبحانه ﴿وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ﴾وهو الخشوع والطاعة والتقوى يعني زاد الآخرة

وقال مقاتل بن حيان لما نزلت هذه الآية ﴿ وتزوّدوا ﴾ قام رجل من فقراء المسلمين فقال : يا رسول الله ما نجد ما نتزوّده فقال رسول الله ﷺ : ٢٦٣ [تزوّد ما تكف به وجهك عن الناس وخير ما تزودتم التقوى »] رواه ابن حاتم . وقوله تعالى : ﴿ واتقون يا أولي الألباب ﴾ يقول : واتقوا عذابي ونكالي . وعذابي لمن خالفني ، ولم يأتمر بأمري ، يا ذوي العقول ، والأفهام .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ﴾

قال البخاريّ عن ابن عباس: كانت عكاظ، ومجنة، وذو المجاز، أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتجرّوا في الموسم ، فنزلت ﴿ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم﴾ في مواسم الحج. وروى أحمد عن أبي أمامة التيمي قال : قلت لابن عمر : إنا نكري فهل لنا من حج، قال : أليس تطوفون بالبيت ، وتأتون المعروف ، وترمون الجمار ، وتحلقون رؤوسكم قال: قلنا: بلى، فقال ابن عمر : ٢٦٤ [جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فسأله عن الذي سألتنى فلم يجبه حتى نزل عليه جبرائيل بهذه الآية ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربّكم ﴾] . روى ابن جرير بسنده عن أبي صالح مولى عمر ، قال : قلت : يا أمير المؤمنين ، كنتم تتّجرون في الحج ؟ قال : وهل كانت معايشهم إلاّ في الحج . ؟

وقوله تعالى : ﴿ فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ﴾ عرفة موضع الوقوف في الحج ، وهي عمدة أفعال الحج ولهذا روى الإمام أحمد وأهل السنن باسناد صحيح عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٢٦٥ [الحج عرفات ــ ثلاثا ــ فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك . وأيام منى ثلاثة ، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه] ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر ، لأن النبي ﷺ وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس وقال : ٢٦٦ [لتأخذوا عني مناسككم] وقال في هذا الحديث ٢٦٧ [فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك] وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي رحمهم الله ، وذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة مستندين في ذلك إلى حديث حارثة بن لام الطائي قال : ٢٦٨ [أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة فقلت : يا رسول الله إني جئت من جبل طيء ، أكللتُ راحلتي ، وأتعبت نفسي والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه ، فهل لي من حج ؟ فقال رسول الله ﷺ من شهد صلاتنا هذه فوقف معنا حتى ندفع ، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه وقضى تفثه]

وتسمى عرفات : المشعر الحرام ، والمشعر الأقصى، وإِلالٌ على وزن هِلال ، ويقال للجبل في وسطها : جبل الرحمة .

روى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس قال : ٢٦٩ [كان أهل الجاهليه يقفون بعرفة ، حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال كأنها العمائم على رؤوس الرجال دفعوا ، فأخّر رسول الله ﷺ الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس] ورواه ابن مردويه من حديث زمعة بن صالح وزاد : ٢٧٠ [ثم وقف بالمزدلفة وصلى الفجر بغلس ، حتى إذا أسفر كل شيء ، وكان في الوقت الآخر ، دفع] وهذا أحسن الإسناد .

قال أبو إسحق السبيعي عن عمر بن ميمون سألت عبدالله بن عمرو عن المشعر الحرام، فسكت حتى إذا هبطت أيدي رواحلنا بالمزدلفة قال : أين السائل عن المشعر الحرام ؟ هذا المشعر الحرام .

وفي حديث جابر بن عبدالله الطويل الذي في صحيح مسلم ، قال فيه : ٢٧١ [فلم يزل واقفاً ــ يعني بعرفة ــ حتى غربت الشمس وبدت الصفرة قليلا حتى غاب القرص ، وأردف أسامة خلفه ، ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام حتى أن رأسها

ليصيب مورك رحله ، ويقول بيده اليمنى : أيها الناس: السكينة السكينة . كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة ، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد واقامتين ، ولم يسبّح بينهما شيئاً ، ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حتى تبين له الصبح بأذانٍ واقامةٍ ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة ، فدعا الله وكبره وهلله ووحده فلم يزل واقفاً حتى اسفر جداً ، فدفع قبل ان تطلع الشمس]
وعن ابن عمر : (المشعر الحرام المزدلفة كلها) .

(قلت) والمشاعر هي المعالم الظاهرة ، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام ، لأنها داخل الحرم . وقوله تعالى : ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج على ما كان عليه من الهداية إبراهيم الخليل عليه السلام ؛ ولهذا قال ﴿ وإن كنتم من قبله لمن الضالين ﴾ قيل من قبل هذا الهدى وقبل القرآن وقبل الرسول ، والكل متقارب ومتلازم وصحيح .

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) ﴾

﴿ ثم ﴾ – ها هنا – لعطف خبر على خبر وترتيبه عليه ، كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام . وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات كما كان الجمهور يصنعون ، يقفون بها إلاّ قريشاً فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحِل ، ويقولون : نحن أهل الله في بلدته وقطّانُ بيته .

روى البخاري بسنده عن عائشة ، قالت : ٢٧٢ [كان قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمّون /الحُمْس/ وسائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ، ثم يقف بها ثم يفيض منها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ من حيث أفاض الناس﴾] وكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وغيرهم ... واختاره ابن جرير وحكى عليه الإجماع .

وروى الإمام أحمد بسنده إلى محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: ٢٧٣ [أضللت بعيرا لي بعرفة فذهبت أطلبه ، فإذا النبي ﷺ واقف] قلت: ٢٧٤ [إن هذا من الحمس ما

شأنه ها هنا ؟] أخرجاه في الصحيحين ثم رواه البخاري عن ابن عباس : ما يقتضي أن المراد بالإفاضة ههنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار وعن مزاحم قال : والمراد بالناس إبراهيم عليه السلام . قال ابن جرير : ولولا إجماع الحجة على خلافه لكان هو الأرجح .

وقوله تعالى : ﴿ واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات ، ولهذا ثبت في صحيح مسلم : ٢٧٥ [أن رسول الله ﷺ ، كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثاً .] وفي الصحيحين : ٢٧٦ [انه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثاً وثلاثين] وروى البخاري عن شداد بن أوس ، قال : قال رسول الله ﷺ ٢٧٧ [سيد الإستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربي ، لا إله إلا أنت ، خلقتني وانا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت . أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي ، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة ، ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة] وفي الصحيحين عن عبدالله بن عمر أن أبا بكر قال : ٢٧٨ [يا رسول الله علمني دعاءً أدعو به في صلاتي فقال : قل: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فأغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم] والأحاديث في الاستغفار كثيرة .

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ • (٢٠٠) وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ • (٢٠١) أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ • (٢٠٢) ﴾

يأمر تعالى بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها؛ وقوله تعالى: ﴿كذكركم آباءكم﴾ روى عن ابن عباس : كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم : كان أبي يطعم ويحمل الحمالات ويحمل الديات، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله على محمد ﷺ : ﴿ فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾ فعن أنس وجمع غفير من التابعين نحوه. وحكاه ابن جرير عن جماعة والله أعلم . و﴿ أو ﴾ ههنا لتحقيق

المماثلة في الخبر كقوله تعالى: ﴿ فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ وقوله ﴿ يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾ فليست ههنا للشك قطعاً، وإنما هي لتحقيق المخبر عنه كذلك أو أزيد منه؛ ثم إنه تعالى أرشد إلى دعائه بعد كثرة ذكره فإنه مظنّة الإجابة. وذم من لا يسأله إلاّ في أمر دنياه وهو معرض عن أخراه فقال: ﴿ ومنَ الناس من يقول ربنا أتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق ﴾ أي من نصيب ولا حظ، مثل أن يقول: اللهم اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً فأنزل الله فيهم: ﴿ فمن الناس ... ﴾ الآية وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون: ﴿ ربنا أتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار ﴾ فأنزل الله: ﴿ أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ﴾ ولهذا مدح من يسأله الدنيا والأخرى فقال: ﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا وصرفت كلّ شر، فإن الحسنة تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية ودار، وزوجة، ورزق، وعلم نافع وعمل صالح، ومركب هين، وثناء جميل، فكل ذلك مندرج في الحسنة في الدنيا؛ واما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر، وتيسير الحساب وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام. وقال القاسم أبو عبد الرحمن: من أعطي قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وجسداً صابراً فقد أوتي في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووُقي عذاب النار ولهذا وردت السنة بالترغيب بهذا الدعاء.

روى الإمام أحمد عن أنس: ٢٧٩ [إن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد صار مثل الفرخ فقال له رسول الله ﷺ: هل تدعو الله بشيء أو تسأله إياه؟ قال: نعم. كنت أقول اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله لا تطيقه أو لا تستطيعه، فهلاَّ قلت: ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ قال فدعا الله فشفاه] انفرد به مسلم.

روى الإمام الشافعي بسنده عن عبدالله بن السائب: ٢٨٠ [أنه سمع النبي ﷺ يقول فيما بين الركنين – ركن بني جمح والركن الأسود: ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار ﴾] روى ابن مردويه بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: ٢٨١ [ما مررت على الركن إلا رأيت عليه ملكاً يقول: آمين فإذا مررتم عليه فقولوا: ﴿ ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾]

حزب ٤

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * (٢٠٣) ﴾

قال ابن عباس: الأيام المعدودات أيام التشريق، والأيام المعلومات أيام العشر. وقال عكرمة ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ يعني التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات الله أكبر الله أكبر وقال الإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: ٢٨٢ [يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق، عيدنا أهلَ الإسلام، وهي أيام أكل وشرب] روى ابن جرير: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ بعث عبدالله بن حذافة يطوف في منى: ٢٨٣ [لا تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل.]

وفي رواية للزهري: ٢٨٤ [إلاّ من كان عليه صوم من هدي] وهذه زيادة حسنة ولكن مرسلة وعن عائشة قالت: ٢٨٥ [نهى رسول الله ﷺ عن صوم أيام التشريق وهي أيام أكل وشرب وذكر الله] وعن ابن عباس: الأيام المعدودات أيام التشريق أربعة أيام: يوم النحر، وثلاثة بعده وعليها دل ظاهر الآية الكريمة حيث قال تعالى: ﴿فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه﴾ فدل على ثلاثة بعد النحر، ويتعلق بقوله ﴿واذكروا الله في أيام معدودات﴾ ذكر الله على الأضاحي. ويتعلق به الذكر المؤقت خلف الصلوات والمطلق في سائر الأحوال. وأشهر الأقوال للعلماء: ما عليه العمل أنه من صلاة الصبح يومَ عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق وهو آخر النفر الآخر. ويتعلق بذلك التكبير وذكر الله عند رمي الجمرات كل يوم من أيام التشريق. وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره: ٢٨٦ [إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار، لإقامة ذكر الله عز وجل.] ولما ذكر الله تعالى النفر الأول والثاني وهو تفرق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم في المشاعر والمواقف، قال: ﴿واتقوا الله واعلموا أنكم اليه تحشرون﴾ كما قال: ﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون﴾.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۞ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۞ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۞ (٢٠٦) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِٱلْعِبَادِ ۞ (٢٠٧) ﴾

وعن ابن عباس أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلّموا في خبيب وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم ، فأنزل الله في ذم المنافقين ومدح خبيب وأصحابه : ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ وقيل بل ذلك عامٌ في المنافقين كلهم ، وفي المؤمنين كلهم وهذا قول قتادة ومجاهد والربيع بن أنس وغير واحد ، وهو الصحيح. وقال ابن جرير بسنده إلى نوف وهو البكالي ـ وكان ممن يقرأ الكتب ، قال : إني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل : (قوم يحتالون على الدنيا بالدين ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، يلبسون للناس مسوك الضأن ؛ وقلوبهم قلوب الذئاب ، يقول تعالى : فعليَّ يجترئون وبي يغترّون ، حلفت بنفسي لأبعثنَّ عليهم فتنةً تترك الحليم فيها حيران . قال القرظي : تدبرتّها في القرآن فإذا هم المنافقون فوجدتّها ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه ﴾ الآية ... قال سعيد بن هلال : وقد عرفت فيمن نزلت هذه الآية فقال محمد بن كعب : إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامةً فيما بعد . وهذا الذي قاله القرظي حسن صحيح . وأما قوله : ﴿ ويُشهد الله على ما في قلبه ﴾ فقرأه ابن محيصن بفتح الياء وضم الجلالة « يَشْهَد » ومعناها : أن هذا وإن أظهر لكم الحيل لكن الله يعلم ما في قلبه من القبيح كقوله تعالى : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله والله يَشهَد إن المنافقين لكاذبون ﴾ وقرأه الجمهور بضم الياء ونصب الجلالة ﴿ ويُشْهِدُ ﴾ ومعناه أنه يظهر للناس الإسلام ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق كقوله تعالى : ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ﴾ الآية ... وقيل : معناه أنه يقسم بالله ويُشهده على أن ما في قلبه موافق للسانه . وهذا صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ وهو ألدُّ الخصام ﴾ الألد في اللغة الأعوج ﴿ وتنذر به قوماً لدّاً ﴾

أي عوجاً ، وهكذا في حال خصومته يكذب ويزورّ عن الحق ولا يستقيم معه بل يفتري ويفجر كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ انه قال : ٢٨٧ [آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر] روى البخاري عن عائشة ترفعة : ٢٨٨ [إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم] . وقوله تعالى :

﴿ وإذا تولىّ سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾ أي هو أعوج المقال سيء الفعال . والسعي – ها هنا – هو القصد كما قال إخباراً عن فرعون : ﴿ ثم أدبر يسعى ... ﴾ وقال : ﴿ ... فاسعوا إلى ذكر الله﴾ أي اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة ، فإن السعي الحسي إلى الصلاة منهي عنه بالسنّة النبوية : ٢٨٩ [إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وعليكم السكينة والوقار] فهذا المنافق ليس له همة إلاّ الفساد في الأرض وإهلاك الحرث: وهو محل نماء الزروع والثمار. والنسل: وهو نتاج الحيوانات، اللذّيْن لا قوام للناس إلا بهما . وقال مجاهد: إذا سعى في الأرض إفساداً ، منع الله القطر فهلك الحرث والنسل . ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ أي لا يحب من هذه صفته ولا من يصدر منه ذلك .

وقوله ﴿ وإذا قيل له إتق الله أخذته العزّة بالأثم ﴾ أي إذا وعظ هذا الفاجر وقيل له : أنزعْ عن قولك وفعلك وارجع إلى الحق ؛ امتنعَ وأبىَ وأخذته الحمية والغضب بالأثم كقوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر ... ﴾ الآية ... ولهذا قال في هذه الآية ﴿ فحسبه جهنم و لبئس المهاد ﴾ أي كافية عقوبةً في ذلك.

وقوله ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة ، ذكر صفات المؤمنين الحميدة . قال ابن عباس وجمع من التابعين : نزلت في صهيب بن سنان الرومي ، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله ، وإن أحب ان يتجرد منه ويهاجر فعل ، فتخلص منهم وأعطاهم ماله فأنزل الله فيه هذه الآية ، فتلقّاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له : ربح البيع ، فقال : وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم . وما ذاك ؟ فأخبروه ان الله أنزل فيه هذه الآية ... روى ابن مردويه عن عثمان النهدي عن صهيب، قال : ٢٩٠ [لما أردت الهجرة من مكة إلى النّبي ﷺ قالت لي قريش : يا صهيب ، قدمت إلينا ولا مال لك وتخرج أنت ومالك؟ والله لا يكون هذا أبداً ... فقلت لهم : أرأيتم إن دفعت إليكم مالي ، تخلّون عني ؟ قالوا نعم . فدفعت إليهم مالي ، فخلوا عني ، فخرجت حتى قدمت المدينة ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال « ربح صهيب ، ربح صهيب ، مرتين»] أما الأكثرون فحملوا ذلك على

أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله كما قال تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ... ﴾ الآية .

ولما حمل هشام بن عامر بين الصفين أنكر عليه بعض الناس ، فردّ عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما وتلوا هذه الآية : ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد ﴾ .

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (٢٠٩) ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين به ، المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه ، والعمل بجميع أوامره ، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك .

وعن ابن عباس وجماعة من التابعين في قوله تعالى : ﴿ أدخلوا في السلم كافة ﴾ أي أدخلوا في الإسلام وأطيعوا أوامره جميعا ما استطعتم إلى ذلك سبيلاً : ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي أجتنبوا ما يأمركم به الشيطان ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ و ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ ولهذا قال ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ قال مطرف : أغشُّ عباد الله لعبيد الله الشيطان وقوله تعالى : ﴿ فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات ﴾ أي عدلتم عن الحق بعد ما قامت عليكم الحجج ﴿ فاعلموا ان الله عزيز ﴾ أي في انتقامه لا يفوته هارب ولا يغلبه غالب ، ﴿ حكيم ﴾ في أحكامه ونقضه وإبرامه .

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ . (٢١٠) ﴾

يهدد الله الكافرين : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة ﴾ يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين ، فيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير . وإن شراً فشر ، ولهذا قال تعالى : ﴿وقضي الأمر والى الله ترجع الأمور﴾ كما قال

تعالى : ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً . وجاء ربك والملك صفاً صفاً . وجيء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الإنسان وأنىّ له الذكرى ﴾ وقد ذكر ابن جرير –ها هنا– حديث الصور بطوله من أوله عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ ، وهو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم ، وفيه : ٢٩١ [... إن الناس إذا اهتموا لموقفهم في العرصات تشفّعوا إلى ربهم بالأنبياء واحداً واحداً من آدم فمن بعده ، فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ فإذا جاءوا اليه قال : أنا لها أنا لها ... فيذهب فيسجد لله تحت العرش ، ويشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء بين العباد ، فيشفّعه الله ويأتي في ظلل من الغمام بعد ما تنشق السماء الدنيا ، وينزل من فيها من الملائكة ، ثم الثانية ثم الثالثة ، إلى السابعة ، وينزل حملة العرش والكروبيون ، قال : وينزل الجبار عز وجل في ظلل من الغمام والملائكة ، ولهم زجل من تسبيحهم يقولون : سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان ذي العزة والجبروت ، سبحان الحي الذي لا يموت ، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت ، سبّوح قدّوس رب الملائكة والروح ، سبوح قدوس سبحان ربنا الأعلى ، سبحان ذي السلطان والعظمة ، سبحانه سبحانه أبداً أبداً .] .

﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾

يخبر تعالى عن بني إسرائيل : كم شاهدوا مع موسى من آية بيّنة أي حجة قاطعة بصدقه فيما جاءهم به كيده وعصاه وفلقه البحر ، وضربه الحجر ، وما كان من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر ، ومن إنزال المن والسلوى ، وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار ، وصدق من جرت هذه الخوارق على يديه ، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها وبدّلوا نعمة الله كفراً ، أي استبدلوا بها ، الكفرَ والإعراض عنها ﴿ ومن يبدّل نعمة الله من بعدما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾ كما قال تعالى إخباراً عن كفار قريش : ﴿ ألم ترَ إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها ،

واطمأنوا إليها وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التي أمروا بها مما يرضي الله عنهم وسخروا من الذين آمنوا ، الذين أعرضوا عنها ، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم وبذلوه ابتغاء وجه الله فلهذا فازوا يوم معادهم ، فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومنشرهم ومسراهم ومأواهم فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين ، وخلد أولئك في الدركات في أسفل سافلين ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ أي يرزق من يشاء من خلقه ويعطيه عطاءً لا تعداد له في الدنيا والآخرة . وقال النبي ﷺ : ٢٩٢ [أنفق بلالاً ولا تخش من ذي العرش إقلالا] وقال تعالى : ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ وفي الصحيح : ٢٩٣ [إن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم فيقول أحدهما اللهم اعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر اللهم اعط ممسكاً تلفاً] وفي الصحيح ٢٩٤ [يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، وما لبست فأبليت ، وما تصدقت فأمضيت وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس]

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا لِمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣) ﴾

روى جرير عن ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا ... فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . وقيل أقوال أخرى والصحيح قول ابن عباس وهو أصح سنداً ومعنى؛ لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام ، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغياً بينهم ﴾ أي من بعد ما قامت الحجج عليهم ، وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض : ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ روى عبد الرزاق

عن أبي هريرة في قوله ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾ الآية.. قال قال النبي ﷺ : ٢٩٥ [نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، نحن أول الناس دخولاً الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع فغداً لليهود وبعد غد للنصارى] وقال الربيع بن أنس في تفسير هذه الآية : فهدى الله الذين آمنوا ... أي كان الذين آمنوا من هذه الأمة على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف ، أقاموا على الأخلاص لله عز وجل وحده ، وعبادته لا شريك له ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة فأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة ... إن رسلهم قد بلغوهم وإنهم قد كذبوا الرسل . وكان أبو العالية يقول في هذه الآية : المخرج من الشبهات والضلالات والفتن . وقوله : ﴿بإذنه﴾ أي بعلمه بهم وبما هداهم له قاله ابن جرير ﴿والله يهدي من يشاء﴾ أي من خلقه ﴿إلى صراط مستقيم﴾ أي وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة . وفي الصحيحين عن عائشة : أن رسول ﷺ ، كان إذا قام من الليل يصلي يقول ٢٩٦ [اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، إهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مستقيم] .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾

يقول تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ﴾ قبل أن تبتلوا وتختبروا كما فُعِلَ بالذين من قبلكم.ولهذا قال : ﴿ ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسَّتهم البأساء والضراء ﴾ وهي الأمراض والنوائب . قال ابن مسعود وابن عباس وجمع من التابعين ﴿ البأساء ﴾ الفقرِ و ﴿ الضراء ﴾ السقم و ﴿ زلزلوا ﴾ أي خُوِّفوا من الأعداء ، وامتحنوا امتحاناً عظيماً ؛ كما جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الأرت قال : ٢٩٧ [قلنا : يا رسول الله ، ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو الله لنا ؟ فقال : إنَّ من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه، ثم قال : والله لَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى

يسيرَ الراكب من صنعاء إلى حضر موت ، لا يخاف إلاّ الله ، والذئب على غنمه ، ولكنكم قوم تستعجلون] وقوله تعالى : ﴿ مثل الذين خلوا من قبلكم ﴾ أي سنتهم ، كما قال تعالى : ﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿وزلزلوا حتّى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله﴾ أي يستفتحون على أعدائهم ويدعون بقرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة ، قال الله تعالى : ﴿ ألا إن نصر الله قريب ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسرا ﴾ وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلها . وفي الحديث : ٢٩٨ [عجب ربك من قنوط عباده وقرب غيثه ، فينظر إليهم قنطين ، فيظل يضحك يعلم أن فرجهم قريب ...] الحديث

﴿ يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَامَى وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ۝ (٢١٥) ﴾

يسألونك كيف ينفقون فبيّن لهم تعالى ذلك.أي إصرفوها في هذه الوجوه كما جاء في الحديث : ٢٩٩ [... أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك] وتلا ميمون هذه الآية ثم قال : هذه مواضع النفقة، ما ذكر فيها طبلاً ولا مزماراً ولا تصاوير الخشب ولا كسوة الحيطان . ثم قال تعالى : ﴿وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم﴾ أي مهما صدر منكم من فعل معروف فالله يعلمه وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة .

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ (٢١٦) ﴾

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام وقال الزهري : الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد ، فالقاعد عليه إذا استُعين أن يُعين ، وإذا استُنفِر أن ينفر وإن لم يُحتَج إليه قعد . (قلت) ولهذا ثبت في الصحيح : ٣٠٠ [من مات ولم يغزُ ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات ميتة جاهلية] وقال عليه السلام

يوم الفتح ٣٠١ [لا هجرة بعد الفتح ولكن جهادٌ ونية وإذا استُنفِرتم فانفرُوا .] وقوله : ﴿ وهو كره لكم ﴾ أي شديد عليكم ثم قال تعالى : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ أي لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذراريهم . ﴿ وعسى ان تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾ ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم ثم قال تعالى : ﴿ والله يعلم وانتم لا تعلمون ﴾ أي هو أعلم بعواقب الأمور منكم ، وأخبر بما فيه صلاحكم في الدارين فاستجيبوا له وانقادوا لأمره لعلكم ترشدون .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ ٱللهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ (٢١٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ ٱللهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ ٱللهِ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ (٢١٨) ﴾

روى ابن ابي حاتم بسنده عن جندب بن عبدالله ٣٠٢ [ان رسول الله بعث رهطاً وبعث عليهم أبا عبيدة ابن الجراح ، فلما ذهب ينطلق بكى صبابةً إلى رسول الله ﷺ فحبسه ، فبعث عليهم مكانه عبدالله بن جحش وكتب له كتاباً (وأمره ان لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذاوكذا وقال لا تكرهنَّ أحداً على السير معك من أصحابك ...]

وفي رواية ابن مسعود ٣٠٣ [أنهم كانوا سبعة نفر عليهم عبدالله بن جحش الأسدي ، وفيهم عمار بن ياسر وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وسعد بن أبي وقاص ، وعتبة بن غزوان السلمي حليف لبني نوفل ، وسهيل بن بيضاء ، وعامر بن فهيرة ، وواقد بن عبد الله اليربوعي حليف لعمر بن الخطاب وإن رسول الله ﷺ كتب لأبن جحش كتاباً وأمره ان لا يقرأه حتى ينزل ببطن نخلة فلما نزل بطن نخلة فتح الكتاب ، فإذا فيه : أن سِرْ حتى

تنزلَ بطنَ نخلة ، فقال لأصحابه : من كان منكم يريد الموت فليمضِ وليُوصِ فإنني موص وماض لأمر رسول الله ﷺ ،

روى عبد الملك بن هشام راوي السيرة عن محمد بن اسحق ... ٣٠٤ [فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه فإذا فيه « إذا نظرت في كتابي في هذا .. فامض حتّى تنزل نخلة بين مكة والطائف ترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم] فلما نظر عبد الله بن جحش الكتاب قال : سمعاً وطاعةً ثم قال لأصحابه قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضِ إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتّى آتيه منهم بخبر وقد نهاني أن استكره أحداً منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ؛ فأما أنا ، فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ . فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد . فسلك على الحجاز حتّى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له نجران أضل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يتعقبانه ، فتخلفا عليه في طلبه . ومضى عبدالله بن جحش وبقية أصحابه حتّى نزل نخلة . فمرّت به عير لقريش تحمل زيتاً وأُدُماً وتجارة من تجارة قريش ، فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن عبدالله بن المغيرة ، وأخوه نوفل بن عبدالله المخزوميان ، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة فلما رآهم القوم هابوهم ، وقد نزلوا قريباً منهم ... وتشاور القوم فيهم وذلك في آخر يومٍ من رجب [1] فقال القوم : والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم ، فليمتنعُنَّ منكم ، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام ، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا قتل من قدروا عليه منهم ، وأخذ ما معهم . فرمى واقد بن عبدالله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستأسر عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان ، وأفلت القوم نوفل بن عبدالله فأعجزهم ، وأقبل عبدالله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتّى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة . قال ابن اسحق : ... فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال : « ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام » فوقف العير ، والأسيرين وأبي أن يأخذ من ذلك شيئاً ، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ ، أسقط في أيدي القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال ... فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسوله : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة

---

(١) وفي رواية جندب بن عبدالله ، : لم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادي ...

أكبر من القتل﴾ أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدّوكم عن سبيل الله مع الكفر به وعن المسجد الحرام وإخراجكم منه وأنتم أهله ﴿أكبر عند الله﴾ من قتل من قتلتم منهم ﴿والفتنة أكبر من القتل﴾ أي قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردّوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل ﴿ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ أي ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه، غير تائبين ولا نازعين. قال ابن اسحق : فلما نزل القرآن بهذا الأمر وفرّج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشدة ، قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين ، وبعثت اليه قريش في فداء عثمان بن عبدالله والحكم ابن كيسان ، فقال رسول الله ﷺ : لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا يعني سعد بن أبي وقاص ، وعتبة بن غزوان فإنا نخشاكم عليهما ، فان تقتلوهما نقتل صاحبكم فقدم سعد وعتبة ففداهما رسول الله ﷺ منهم ؛ فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن اسلامه ، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً ؛ وأما عثمان بن عبدالله فلحق بمكة فمات بها كافراً قال ابن اسحق : فلما تجلّى عن عبدالله بن جحش وأصحابه ما كان حين نزل القرآن طمعوا في الأجر فقالوا : يا رسول الله ، أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾] وقال عبدالله بن جحش في تلك الغزوة أبياتاً يردّ فيها على قريش لما قالت : قد أحل محمد وأصحابه الشهر الحرام فسفكوا فيه الدم وأخذوا المال وأسروا الرجال :

تعدّون قتلاً في الحرام عظيمةً	وأعظم منه لو يرى الرشدَ راشدُ
صدودكمُ عما يقول محمد	وكفرٌ به والله راءٍ وشاهدُ
وإخراجكم من مسجد الله أهلَه	لئلا يُرى لله في البيت ساجدُ
فإنا وإن عيرتمونا بقتله ...	وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسدُ
سقينا من ابن الحضرمي رماحنا	بنخلة لما أوقد الحربَ واقدُ
دماً وابن عبدالله عثمان بيننا	ينازعه غلٌّ من القيد عاندُ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ • (٢١٩) فِي ٱلدُّنْيَا

وَٱلْآخِرَةِ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * (٢٢٠)

قوله : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ أما الخمر ، فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) : إنه كلّ ما خامر العقلَ . كما سيأتي بيانُه في سورة المائدة وكذا الميْسِر وهو القمار . وقوله : ﴿ قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ﴾ أما إثمهما فهو في الدين وأما المنافع فدنيوية كبيعها والانتفاع بثمنها ، وما كان ينتفعه بعضهم في الميسر فينفقه على نفسه وعياله ولكن هذه المصالح لا توازي مضرته ومفسدته الراجحة لتعلّقها بالعقل والدين ولهذا قال تعالى : ﴿ وإثمهما أكبرُ من نفعهما ﴾ ولهذا كانت هذه الآية ممهِّدة لتحريم الخمر على البتات ، ولم تكن مصرِّحةً بل معرِّضة ، ولهذا قال عمر بن الخطاب (رض) لما قرئت عليه : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً ، حتى نزل التصريح بتحريمها في سورة المائدة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنّما يريد الشيطان أن يوقعَ بينكم العداوةَ والبغضاءَ في الخمر والميْسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ وسيأتي الكلام في ذلك في سورة المائدة إن شاء الله تعالى وبه التتمة ٣٠٥ : [وكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى : أن لا يقربنَّ الصلاة سكران] .

وقوله : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفوَ ﴾ قال ابن أبي حاتم عن يحيى أنه بلغه أن مُعاذ بن جبل وثعلبة ، أتيا رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول الله إنَّ لنا أرقاء وأهلين فما ننفق من أموالنا ؟ فأنزل الله : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون ﴾

وقوله : ﴿ قل العفوَ ﴾ أي ما يفضل عن أهلك قاله ابنُ عباس وابنُ عمر وجماعةٌ من التابعين وقال عبد بنُحميد في تفسيره عن الحسن في الآية : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفوَ ﴾

قال : ذلك ألاّ يجهد مالك ثم تقعد تسأل الناس ، ويدل على ذلك ما رواه ابن جرير عن أبي هريرة قال ٣٠٦ : [قال رجل : يا رسول الله ، عندي دينار قال : أنفقه على نفسك قال : عندي آخر قال : أنفقه على أهلك قال عندي آخر قال أنفقه على ولدك قال :

عندي آخر قال : فأنت أبصر .] ورواه مسلم في صحيحه . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة (رض) قال : قال رسول الله ﷺ ٣٠٧ : [خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول] .

وقوله : ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة ﴾ أي كما فصّل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها كذلك يبيّن لكم سائرَ الآيات في أحكامه ووعده ووعيده ، لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة . قال ابن عباس يعني في زوال الدنيا وفنائها ، وإقبال الآخرة وبقائها وفي رواية عن قتادة : فآثروا الآخرة على الأولى .

وقوله : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم ﴾ الآية .

قال ابن جرير عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾ و ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ إنطلقَ من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم وهكذا رواه أبو داود والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم من طرق عن عطاء بن السائب به وكذا رواه السدّي عن ابن عباس وابن مسعود بمثله . وروى وكيع بن الجراح بسنده عن عائشة (رض) : إني لأكره أن يكون مال اليتيم عندي على حدة حتى أخلط طعامه بطعامي وشرابه بشرابي فقوله : ﴿ قل إصلاح لهم خير ﴾ أي على حدة ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ أي وإن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم فلا بأس عليكم . وقوله : ﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ أي يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح . وقوله : ﴿ ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم ﴾ أي ولو شاء لضيّق عليكم ، ولكنه وسَّع عليكم وخفّف عنكم بمخالطتهم . وسيأتي في سورة النساء تفصيلُ معاملة اليتيم إن شاء الله وبه الثقة .

﴿ وَلَا تَنكِحُوا ٱلْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوا إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ • (٢٢١) ﴾

هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين ، أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان وقد خص الله من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله : ﴿ والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ﴾ قال ابن عباس استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب . قال عمر بن الخطاب : المسلم يتزوج النصرانية ولا يتزوج النصراني المسلمة ، وعن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ ٣٠٨ [نتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نساءنا] إن هذا الخبر وإن كان في إسناده ما فيه فالقول به لإجماع الجميع من الأمة عليه . وقوله : ﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم﴾ قال السدي ٣٠٩ : [نزلت في عبدالله بن رواحة كانت له أمة سوداء فغضب عليها فلطمها ، ثم فزع فأتى رسول الله ﷺ فأخبره خبرهما فقال له: «ما هي؟» قال تصوم وتصلي وتحسن الوضوء وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . فقال : « يا أبا عبدالله هذه مؤمنة » فقال والذي بعثك بالحق لأعتقنّها ولأتزوجنّها ، ففعل ، فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا: نكح أمته وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبةً في أحسابهم فأنزل الله هذه الآية] . وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال : ٣١٠ [تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك] . .

ولمسلم عن جابر مثله . وله عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : ٣١١ [الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة .].

وقوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ﴾ أي لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات ، كما قال تعالى : ﴿ لا هنّ حل لهم ولا هم يحلّون لهن ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ﴾ أي ولرجل مؤمن ولو كان عبداً حبشياً خير من مشرك وإن كان رئيساً سرياً ﴿أولئك يدعون إلى النار ﴾ أي معاشرتهم ومخالطتهم ، تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة وعاقبة ذلك وخيمة ﴿والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه﴾ أي بشرعه وما أمر به وما نهى عنه ﴿ ويبين الله آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾ .

۞ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ

أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ * (٢٢٢) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ * (٢٢٣)

روى الإمام أحمد عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها في البيوت (١) فسأل أصحاب النبي ﷺ ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ويسألونك عن المحيض ...﴾ حتى فرغ من الآية فقال رسول الله ﷺ ٣١٢ [« اصنعوا كل شيء إلا النكاح » فبلغ ذلك اليهود فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئا إلا خالفنا فيه ، فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر ، فقالا : يا رسول الله : ان اليهود قالت : كذا وكذا ، أفلا نجامعهن فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا ان قد وجد عليهما ، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ ، فأرسل في آثارهما فسقاهما فعرفا أنه لم يجد عليهما] رواه مسلم .

وروى أبو داود بسنده عن عكرمة عن بعض أزواج النبي ﷺ : ٣١٣ [كان إذا أراد من الحائض شيئاً ألقى على فرجها ثوباً]فقوله : ﴿ فاعتزلوا النساء في المحيض ﴾ يعني الفرج لقوله : [إصنعوا كل شيء إلا النكاح] ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم إلى أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج . (قلت) : ويحل مضاجعتها ومؤاكلتها بلا خلاف . قالت عائشة : ٣١٤ [كان يأمرني رسول الله ﷺ فأغسل رأسه وأنا حائض ، وكان يتكىء في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن .] وفي الصحيح عنها قالت : ٣١٥ [كنت اتعرّق العِرْقَ (٢) وأنا حائض فأعطيه النبي ﷺ ، فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه ، واشرب الشراب فأناوله فيضع فمه في الموضع الذي كنت اشرب منه] ومن يطأ في الحيض فقد أثم ويستغفر الله ويتوب اليه . وهل يلزمه مع ذلك كفارة أم لا...؟ فيه قولان : أحدهما : نعم لما رواه احمد عن ابن عباس عن النبي ﷺ : ٣١٦ [في الذي يأتي أمرأته وهي حائض يتصدق بدينار أو نصف دينار] . وفي لفظ الترمذي : ٣١٧ [إذا كان دماً أحمر فدينار ، وان كان دماً أصفر فنصف دينار] والقول الثاني : وهو الصحيح الجديد من مذهب الشافعي وقول الجمهور أنه لا شيء في ذلك بل يستغفر الله عز وجل لأنه

(١) المراد بالمجامعة – هنا – الاجتماع بهن ، لا الوقاع–

(٢) عرق اللحم ، وتعرقه واعرقه : تناوله بفمه من العظم

لم يصح عندهم رفع الحديث وهناك من يرى – فيما يتعلق بالحائض – انما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الأزار كما ثبت في الصحيحين عن ميمونة بنت الحارث الهلالية قالت : ٣١٨ [كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فأتزرت وهي حائض] وهذا لفظ البخاري ولهما عن عائشة نحوه فقوله تعالى : ﴿ولا تقربوهن حتى يطهرن﴾ تفسير لقوله : ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ ونهي عن قربهن بالجماع ما دام الحيض موجوداً ومفهومه : حلّه إذا انقطع . وقال الإمام أحمد فيما أملاه في الطاعة : وقوله : ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهّرن فأتوهن من حيث ...﴾ الآية الطهر يدل على أن يقربها ، فلما قالت ميمونة وعائشة : ٣١٩ [كانت إحدانا إذا حاضت اتزرت ودخلت مع رسول الله ﷺ في شعاره] دل ذلك على أنه إنما أراد الجماع .

وقوله : ﴿فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾ فيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال . وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تتيمم إن تعذر ذلك بشروطه إلا أبو حنيفة رحمه الله يقول إنها تحل فيما إذا انقطع دمُها لأكثر الحيض وهو عشرة أيام عنده ولا تفتقر إلى غسل والله أعلم .

قال ابن عباس : ﴿حتى يطهرن﴾ أي من الدم ﴿فإذا تطهّرن﴾ أي بالماء وكذا قاله جماعة من التابعين .

وقوله : ﴿من حيث أمركم الله﴾ قال ابن عباس يعني الفرج ولا تعدوه الى غيره فمن فعل شيئاً من ذلك فقد اعتدى . وفيه دلالة على تحريم الوطء في الدبر كما سيأتي تقريره إن شاء الله تعالى . وقوله : ﴿إن الله يحب التوّابين﴾ أي من الذنب وإن تكرر غشيانه ﴿ويحب المتطهرين﴾ أي المتنزهين عن الأقذار والأذى وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض في غير المأتي .

وقوله ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ الحرث موضع الولد ﴿فأتوا حرثكم أنّى شئتم﴾ أي كيف شئتم مقبلة ومدبرة في صمّامٍ واحد كما ثبتت بذلك الأحاديث . وروى البخاري عن جابر قال : ٣٢٠ [كانت اليهود تقول : اذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول ، فنزلت : ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم﴾] ورواه مسلم وأبو داود . روى ابن أبي حاتم عن جابر : ٣٢١ [إن اليهود قالوا للمسلمين : من أتى أمرأة وهي مدبرة جاء الولد أحول فانزل الله : ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾] قال ابن جريج في

الحديث : فقال رسول الله ﷺ : ٣٢٢ [مقبلة ومدبرة إذا كان ذلك في الفرج] . وهناك أحاديث كثيرة تبيح كيفية المباشرة على أن تكون من صمام واحد وهو الفرج . وقد ورد النهي عن إتيان النساء في أدبارهن .

وروي عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده ان النبي ﷺ قال : ٣٢٣ [الذي يأتي امرأة في دبرها هي اللوطية الصغرى .] وروى الإمام أحمد بسنده عن علي بن طلق قال : ٣٢٤ [نهى رسول الله ﷺ أن تؤتى النساء في أدبارهن ، فإن الله لا يستحي من الحق .] وروي أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ٣٢٥ [ان الذي يأتي أمرأته في دبرها لا ينظر الله اليه .] وروى أيضاً عن أبي هريرة عن النبي ﷺ انه قال : ٣٢٦ [ملعون من أتى أمرأته في دبرها .] وكل ما أتى من الإخبار في إباحة ذلك فهي أخبار غير صحيحة وقد استقصاها شيخنا الحافظ أبو عبدالله الذهبي في جزء جمعه في ذلك وكلها ضعيفة واهية وقد روي عن ابن عمر ومالك والشافعي والطحاوى أنه حلال ولكن كل ذلك لا يصح عنهم رضي الله عنهم قال النصر الصباغ : كان الربيع يحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد كذب ـ يعني : ابن عبد الحكم ـ على الشافعي في ذلك فإن الشافعي نص على تحريمه في ستة كتب من كتبه والله أعلم . وكذلك فإن ابن عمر رضي الله عنه أنه يحرمه : قال الدارمي في مسنده عن سعيد بن يسار أبي الحباب قال : قلت لأبن عمر : ما تقول في الجواري أيحمّض لهن قال : وما التحميض ؟ فذكر الدبر فقال : وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين ؟ وهذا إسناد صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك فكل ما ورد عنه مما يحتمل ويحتمل فهو مردود إلى هذا المحكم . وروى معمر بن عيسى عن مالك أن ذلك حرام . وقال أبو بكر بن زياد النيسابوري بسنده إلى اسرائيل بن روح سألت مالك بن أنس ما تقول في إتيان النساء في أدبارهن ؟ قال : ما أنتم إلا قوم عرب ، هل يكون الحرث إلا موضع الزرع ، لا تعدوا الفرج قلت يا أبا عبدالله ، انهم يقولون أنك تقول ذلك . قال يكذبون عليّ يكذبون عليّ . فهذا هو الثابت عنه وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة . وقول التابعين وغيرهم من السلف ، أنهم أنكروا ذلك أشد الإنكار ومنهم من يُطلقُ على فعله الكفر .

وقوله : ﴿ وقدّموا لأنفسكم ﴾ أي من فعل الطاعات مع أمتثال ما أنهاكم عنه من ترك المحرمات ، ولهذا قال : ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ أي فيحاسبكم على أعمالكم جميعها ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ أي المطيعين لله فيما أمرهم ، التاركين ماعنه زجرهم وقال ابن جرير عن ابن عباس ﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾ قال : تقول باسم الله التسمية عند

الجماع وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٢٧ [لو أن أحدكم إذا أراد ان يأتي أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه إن يقدّر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً]

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا ٱللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَـٰنِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ● (٢٢٤) لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ● (٢٢٥) ﴾

يقول تعالى : لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعةً لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتم على تركها كقوله تعالى : ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ فالاستمرار على اليمين آثمُ لصاحبها من الخروج منها بالتكفير ؛ وقال رسول الله ﷺ : ٣٢٨ [والله لأن يلج أحدكم بيمينه في أهله آثم له عندالله من ان يعطي كفارته التي افترض الله عليه] وهكذا رواه مسلم وأحمد .

وقال ابن عباس في معنى هذه الآية : لا تجعلن عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير وكذا قال جماعة من التابعين . ويؤيد ما قاله هؤلاء ما جاء في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٢٩ [إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلاّ أتيت الذي هو خير وتحللتها] وروى مسلم عن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ قال : ٣٣٠ [من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير] وقد وردت أحاديث أخرى ليس فيها كفارة والصحيح عنه ﷺ فيه ٣٣١ [فليكفر عن يمينه] وقوله : ﴿ لا يؤآخذكم الله باللغو في أيمانكم ﴾ أي لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية وهي التي لا يقصدها الحالف بل تجري على لسانه عادةً من غير تعقيد ولا تأكيد كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ قال : ٣٣٢ [من حلف باللات والعزى فليقل: لا إله الا الله] فهذا قاله لقوم حديثي عهد بجاهلية ، قد أسلموا وألسنتهم قد ألِفَت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد فأمرو أن يتلفظوا بكلمة التوحيد حتى تكون هذه بهذه (١) روى أبو داود في باب اللغو في اليمين عن عائشة :

(١) قلت : وقوله : ... فليقل لا اله الا الله دليل على أن الحلف بغير الله شرك ولو كان الأمر دون الشرك لما أمره بأن يقول : لا إله الا الله إذ فيه معنى تجديد الإيمان ونفي العبادة عما سوى الله .

إن رسول الله ﷺ قال : ٣٣٣ [اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته : كلا والله ، وبلى والله] روى ابن جرير عن الحسن بن أبي الحسن قال: ٣٣٤ [مر رسول الله ﷺ بقوم ينتضلون ، يعني يرمون ، ومع رسول الله ﷺ رجل من أصحابه ، فقام رجل من القوم فقال : أصبت والله ، وأخطأت والله ، فقال الذي مع النبي ﷺ : حنث الرجل يا رسول الله ؛ قال كلا أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة .] وهذا مرسل حسن عن الحسن .

روى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : هو قوله : لا والله ، بلى والله وهو يرى أنه صادق ولا يكون كذلك وقال ابن عباس لغو اليمين أن تحرم ما أحل الله لك فذلك ما ليس عليك فيه كفارة .

روى أبو داود «باب اليمين في الغضب» عن سعيد بن المسيب : أن أخوين من الإنصار كان بينهما ميراث فسأل أحدهما صاحبه القسمة ، فقال : إن عدت تسألني عن القسمة فكل مالي في رتاج الكعبة فقال له عمر : إن الكعبة غنية عن مالك ، كفر عن يمينك وكلم أخاك ؛ سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٣٣٥ [لا يمين عليك ولا نذر في معصية الرب عز وجل ولا في قطيعة الرحم ، ولا فيما لا تملك] .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن يؤآخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ قال ابن عباس وغيره : هو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب . قال مجاهد وغيره : وهي كقوله تعالى : ﴿ ولكن يؤآخذكم بما عقدتم الأيمان ﴾ الآية . ﴿ والله غفور حليم ﴾ أي غفور لعباده حليم عليهم .

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٢٦) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٢٧) ﴾

الإيلاء : الحلف . فإذا حلف الرجل ان لا يجامع زوجته مدةً ، فلا يخلو اما أن يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها ، فإن كانت أقل ، فله ان ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته ، وعليها أن تصبر وليس لها مطالبته بالفيئة – أي بالعودة إلى الجماع – في هذه المدة ؛ وهذا كما ثبت في الصحيحين عن عائشة ان رسول الله ﷺ ، آلى من نسائه شهراً فنزل لتسعٍ وعشرين وقال ؛ ٣٣٦ [الشهر تسع وعشرون] فأمّا إن زادت المدة على

أربعة أشهر ، فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر إما أن يفيء أي يجامع ، وإما أن يطلق فيجبره الحاكم على هذا ، وهذا لئلاً يضرّ بها . ولهذا قال تعالى : ﴿ للذين يؤلون من نسائهم ﴾ أي يحلفون على ترك الجماع من نسائهم ، فيه دلالة على أنّ الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء ﴿ تربص أربعة أشهر ﴾ أي ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف ثم يوقف ويطالَب بالفيئة أو الطلاق ؛ ولهذا قال ﴿ فإن فاءوا ﴾ أي رجعوا إلى ما كانوا عليه ، وهو كناية عن الجماع قاله ابن عباس وجمع من التابعين. ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين [١] والذي عليه الجمهور أن عليه التكفير لعموم وجوب التكفير على كل حالف . كما تقدم في الأحاديث الصحاح والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وإن عزموا الطلاق ﴾ فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر ؛ كقول الجمهور من المتأخرين ، وقيل يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر تطليقة واحدة ، وقيل تطليقة رجعية وقيل بائنة وكل من قال : إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر أوجب عليها العدة إلاّ ما روى عن ابن عباس وأبي الشعثاء : إنها إن كانت حاضت ثلاث حيضات فلا عدة عليها . والذي عليه الجمهور من المتأخرين أن يوقف المولي فيطالب أما بهذا أي بالرجوع إلى جماعها، أو بالطلاق ولا يقع بمجرد مضي الأربعة أشهر طلاق . وروى مالك عن ابن عمر قال : إذا آلى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر حتى يوقف فإما أن يطلق وإما أن يفيء ، أخرجه البخاري . وهذا ما عليه أيضاً عمر وابن عمر وعائشة وعثمان وزيد بن ثابت وبضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ وكثير من التابعين والفقهاء وكل هؤلاء قالوا إن لم يفيءألزم بالطلاق وإلاّ طلّق عليه الحاكم والطلقة رجعية، لها رجعتها في العدة .

وقد ذكر الفقهاء وغيرهم في مناسبة تأجيل المُولي بأربعة أشهر الأثر الذي رواه مالك بن أنس في الموطأعن عبدالله بن دينار قال : خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول :

تطاول هذا الليل واسودّ جانبُه ... وأرّقني أن لا خليل أُلاعبُه
فوالله لولا الله أني أراقبه ... لحُرّك من هذا السرير جوانبه

(١) قلت : فيه إلفات نظر لطيف من الباري عز وجل إلى أن الإيلاء فيه ذنب ، وهو أن المولي حرم زوجته من حقها في الجماع تلك المدة ، وذلك بدليل قوله : «فان الله غفور رحيم» ولولا الذنب ما كانت المغفرة. وان هذا الذنب هو التقصير بحق الزوجة بسبب اليمين كما فيه إلفات نظر إلى أن ترك الإيلاء أولى .

فسأل عمرا بنته حفصة رضي الله عنها : كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها فقالت ستة أشهر أو اربعة أشهر فقال عمر : لا أحبس أحداً من الجيوش أكثر من ذلك .

ورويت هذه الأبيات عن السائب بن جبير مولى ابن عباس أطولَ من الأولى :

تطاول هذا الليل وازورّ جانبُه ... وأرّقني أن لا ضجيعَ ألاعبُه
ألاعبُه طوراً ، وطوراً كأنما ... بدا قمراً في ظلمة الليل حاجبه
يُسرُّ به من كان يلهو بقربه ... لطيفُ الحشا لا يحتويه أقاربه
فواللهِ لولا الله لا شيء غيره ... لنُقّضَ من هذا السرير جوانبه
ولكنني أخشى رقيباً موكَّلاً ... بأنفاسنا لا يفتر الدهرَ كاتبه
مخافة ربيّ والحياءُ يَصُدُّني ... وإكرامُ بعلي أن تُنالَ مراكبُه[1]

وقد روي هذا من طرق عديدة وهو من المشهورات .

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨) ﴾

هذا أمر من الله تعالى للمطلقات ، المدخول بهن ، من ذوات الأقراء بأن يتربصْن بأنفسهن ثلاثة قروء ، أي بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء ثم تتزوج إن شاءت . وقد اختُلِفَ في الأَمَة فمن قال : إذا طُلِّقت تعتد بقُرأَيْن لأنها على النصف من الحُرَّة ، والقرءُ لا يتبعَّضُ فكمل لها قُرآنِ لحديث : ٣٣٧ [طلاقُ الأَمَةِ تطليقتان وعدّتها حيضتان] ولكن لم يثبت هذا الحديث فقد قال الدارقطني أنه من كلام القاسم بن محمد ثم فيه مظاهر بن أسلم المخزومي المدني ضعيف بالكلية ومروي أيضاً من قول ابن عمر غير مرفوع ، وقالوا : لم يعرف بين الصحابة خلاف ، وهو مذهب الأئمة الأربعة . وقال بعض السلف : بل عدتها كعدة الحرة لعموم الآية ولأن هذا الأمر

(١) وفي نسخة (مراتبه)

جبِلّي ، فكان الحرائر والإماء في هذا سواء حكى هذا القول الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن محمد بن سيرين وبعض أهل الظاهر وضعفه . (١)

وقد اختلف بين السلف والخلف والأئمة في المراد بالأقراء ما هو ... ؟ على قولين : « أحدهما » أنها الأطهار . وعن عائشة : ... إنما الأقراء الأطهار ، وعن ابن عمر انه كان يقول : اذا طلق الرجل امرأته فدخلت في الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرىء منها . وقال مالك : وهو الأمر عندنا وروي مثله عن ابن عباس وزيد بن ثابت وجماعة من التابعين وبقية الفقهاء السبعة وهو مذهب مالك والشافعي ، وداود وأبي ثور ورواية عن أحمد واستدلوا عليه بقوله تعالى : ﴿ فطلقوهن لعدّتهن ﴾ أي الأطهار . ولما كان الطهر الذي يطلّق فيه محتَسَباً ، دلّ على أنه أحد الأقراء الثلاثة المأمور بها ، ولهذا قال هؤلاء : إن المعتدّة تنقضي عدّتها وتبين من زوجها بالطعن في الحيضة الثالثة . (والقول الثاني) أن المراد بالأقراء ، الحيض ، فلا تنقضي العدة حتّى تطهر من الحيضة الثالثة . زاد الآخرون وتغتسل منها . فالقول ان الأقراء الحيض مروي عن أكابر الصحابة وفيهم الخلفاء الأربعة وكبار التابعين وهو مذهب أبي حنيفة وأصح الروايتين عن أحمد بن حنبل ، وهو مذهب الثوري والأوزاعي وابن أبي ليلى وغيرهم ويؤيد هذا ما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي من طريق المنذر بن المغيرة عن عروة بن الزبير عن فاطمة بنت أبي حبيش ، أن رسول الله ﷺ قال لها : ٣٣٨ [دعي صلاتك أيام أقرائك] فهذا لو صحّ لكان صريحاً في أن القرء هو الحيض ولكن المنذر قال فيه أبو حاتم : مجهول ليس بمشهور وذكره ابن حبان في الثقات قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القرء يراد به الحيض ، ويراد به الطهر ، وإنما اختلفوا في المراد من الآية ما هو على قولين .

وقوله تعالى ﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ﴾ أي من حبَل أو حيض وقوله تعالى : ﴿ إن كنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر ﴾ تهديد لهن على مخالفة الحق ، ودل على أن هذا يرجع إليهن لأنه أمر لا يُعلَم إلا من جهتهن ، ويتعذر إقامة البيّنة غالباً على ذلك ، فرُد الأمر إليهن وتُوعِّدن فيه لئلا يُخبرن بغير الحق .

وقوله تعالى : ﴿ وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً ﴾ أي وزوجها

---

(١) قلت : اذا ثبت حديث : (طلاق الأمة تطليقتان ، وعدّتها حيضتان) سمعنا وأطعنا ... وإلا فالقول بأن الحرة والأمة في هذا الأمر سواء هو مطابق لعموم الآية ، وهوموافق للجبلة والفطرة .

الذي طلقها أحق بردّها ما دامت في عدتّها ، إذا كان مراده بردّها الإصلاحَ والخير ، وهذا في الرجعيات ؛ فأما المطلقات البوائن ، فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلّقةٌ بائن ، وإنما كان ذلك في الطلاق الثلاث ، فأما حال نزول هذه الآية فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مئة مرة ، فلما قصروا في الآية التي بعدها على ثلاث تطليقات ، صار للناس مطلّقةٌ بائن وغير بائن . وقوله تعالى : ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ﴾ أي ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن فليؤدّ كلٌ ما وجب عليه للآخر بالمعروف .

وثبت في صحيح مسلم عن جابر ، أن رسول الله ﷺ قال في خطبته في حَجّة الوداع : ٣٣٩ [... فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف]

وقوله تعالى : ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ أي في الفضيلة في الخلْق والمنزلة وطاعة الأمر والانفاق والقيام بالمصالح والفضل في الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ أي عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره حكيم في أمره وشرعه وقدره .

﴿ ٱلطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّالِمُونَ ۝ (٢٢٩) فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ ٱللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ (٢٣٠) ﴾

هذه الآية الكريمة رافعةٌ لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من أن الرجل كان أحق

برجعة امرأته وإن طلقها مئة مرة ما دامت في العدة ، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهن الله إلى ثلاث طلقات ، وأباح الرجعة في المرة والثنتين ، وأبانها بالكلية بالثالثة . فقال تعالى : ﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ قال أبو داود في (باب نسخ المراجعة بعد الطلقات الثلاث) عن ابن عباس ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ﴾ الآية وذلك أن الرجل كان إذا طلّق أمرأته فهو أحق برجعتها وإن طلقها ثلاثاً ، فنسخ ذلك فقال : ﴿ الطلاق مرتان ﴾ الآية .

وهكذا فقد وُقّتَ الطلاق ثلاثاً لا رجعة فيه بعد الثالثة حتى تنكح زوجاً غيره . ﴿ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ أي إذا طلقها واحدة أو اثنتين فهو مخير ما دامت عدتها باقية بين أن تردها اليك ناوياً الإصلاح بها والإحسان إليها ، وبين ان تتركها حتى تنقضي عدتها فتبين منك وتطلق سراحها محسناً إليها ، لا تظلمها من حقها شيئاً ولا تضار بها . روى ابن أبي حاتم عن اسماعيل بن سميع ، قال سمعت أبا رزين يقول : ٣٤٠ [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، أرأيت قول الله ، عز وجل ﴿ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ أين الثالثة ؟ قال : التسريح بإحسان] وفي رواية عبد بن حميد في تفسيره : ٣٤١ [... التسريح بإحسان الثالثة]

وقوله تعالى : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً ﴾ أي لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيقوا عليهن ، ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه كما قال تعالى : ﴿ ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبيّنة ﴾ فأمر إنْ وهبته المرأةُ شيئاً عن طيب نفسها فقد قال تعالى : ﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ وأما إذا تشاقق الزوجان ، ولم تقم المرأة بحقوق الرجل ، وأبغضته ، ولم تقدر على معاشرته ، فلها أن تفتدي منه بما أعطاها ولا حرج عليها في بذلها له ، ولا حرج عليه في قبول ذلك منها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ الآية ... فأما إذا لم يكن لها عذر ، وسألت الافتداء منه ، فقد روى ابن جرير عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال : ٣٤٢ [أيما امرأة سألت زوجها طلاقها في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة] وفي رواية أحمد عن أبي قلابه وذكر أبا أسماء وذكر ثوبان بنحوه . ورواه ابن جرير بزيادة : ٣٤٣ ﴿ المختلعات هن المنافقات ﴾ وقال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف : أنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب

المرأة فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله .﴾ قالوا فلم يشرع الخلع إلا في هذه الحالة فلا يجوز في غيرها إلا بدليل ، والأصل عدمه ، وممن ذهب إلى هذا ابن عباس وجماعة من التابعين والجمهور حتى قال مالك والأوزاعي : لو أخذ منها شيئاً وهو مضار لها ، وجب ردُّه إليها وكان الطلاق رجعياً ، قال مالك : وهو الأمر الذي أدركت الناس عليه .

وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجوز الخلع في حال الشقاق ، وعند الاتفاق بطريق الأولى والأحرى ، وهذا قول جميع أصحابه قاطبةً .

روى البخاري عن ابن عباس : ٣٤٤ [إن أمرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ما أعيب عليه في خلق ولادين ولكن أكره الكفر في الإسلام فقال رسول الله ﷺ : «أتردين إليه حديقته ؟» قالت : نعم . قال رسول الله ﷺ : «إقبل الحديقة وطلقها تطليقة »

وروى ابن جرير عن ابن عباس قال بعد أن سأله عكرمة : هل كان للخلع أصل ؟ قال : ٣٤٥ [إن أول خلع كان في الإسلام في أخت عبدالله بن أبي ، إنها أتت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله لا يجمع رأسي ورأسه شيء أبدا إني رفعت جانب الخباء فرأيته قد أقبل في عدة ، فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة ،وأقبحهم وجهاً ؛ فقال زوجها : يا رسول الله إني قد أعطيتها أفضل مالي حديقة لي فإن ردت عليَّ حديقتي ، قال : ما تقولين ؟ قالت : نعم وان شاء زدتُه قال : ففرق بينهما .]

وفي رواية الإمام أبي عبدالله بن بطة بسنده عن ابن عباس : ٣٤٦ [أن جميلة بنت سلول أتت النبي ﷺ . فقالت والله ما أعتب على ثابت بن قيس في دين ولا خلق ولكني اكره الكفر في الإسلام لا أطيقه بغضاً فقال لها النبي ﷺ:تردّين عليه حديقته؟ قالت :نعم فأمره النبي ﷺ «ان يأخذ ما ساق ولا يزداد»]

• • •

ذهب الجمهور إلى جواز مفاداة الزوج زوجته بأكثر مما أعطاها ذلك لعموم قوله تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ ولقول عمر بن الخطاب لزوج الزوجة الناشزة اخلعها ولو من قرطها . وفي رواية : خذ ولو عقاصها ، وقال البخاري : واجاز عثمان الخلع دون عقاص رأسها . ومعنى هذا أنه يجوز أن يأخذ منها كل ما بيدها من قليل وكثير

ولا يترك لها سوى عقاص شعرها وبه يقول ابن عمر وابن عباس وجمع من التابعين وهذا مذهب مالك والليث والشافعي وأبي ثور واختاره ابن جرير .

وقال أصحاب أبي حنيفة : إن كان الإضرار من قبلها جاز أن يأخذ منها ما أعطاها ولا يجوز الزيادة عليه ، فإن ازداد جاز في القضاء ، وإن كان الإضرار من جهته لم يجز أن يأخذ منها شيئاً فإن أخذ جاز بالقضاء . وقال أحمد وابو عبيد واسحق بن راهويه : لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاها وهذا قول سعيد بن المسيب وغيره من كبار التابعين . وقال معمر والحكم : كان علي يقول : لا يأخذ من المختلعة فوق ما أعطاها . وقال الأوزاعي : القضاة لا يجيزون ان يأخذ منها أكثر مما ساق اليها . (قلت) : ويستدل لهذا القول بما تقدم من رواية قتادة عن عكرمة عن ابن عباس في قصة ثابت بن قيس ، فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ منها الحديقة ولا يزداد . وبما روى عبد بن حميد حيث قال بسنده إلى عطاء : أن النبي ﷺ كره أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها ، يعني المختلعة ، وحملوا معنى الآية على معنى ﴿فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ أي من الذي أعطاه لتقدم قوله : ﴿ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألاّ يقيما حدود الله فإن خفتم ألاّ يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾ أي من ذلك ، وهكذا كان يقرأها الربيع بن أنس : ﴿فلا جناح عليهما فيما أفتدت به ﴾ رواه ابن جرير ، ولهذا قال بعده : ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ .

فصل : ذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أن الخلع ليس بطلاقٍ وانما هو فسخ فقد قال الشافعي بسنده إلى ابن عباس في رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه بعدُ ، يتزوجها إن شاء لأن الله تعالى يقول ﴿الطلاق مرتان — قرأ إلى — ان يتراجعا﴾ وروى الشافعي عن عكرمة قال : كل شيء أجازه المال فليس بطلاق . وهو رواية عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان وابن عمر وهو قول طاوس وابن عمر واحمد بن حنبل واسحق ابن راهوية وابو ثور وداود الظاهري وهو مذهب الشافعي القديم وهو ظاهر الآية .

وقال آخرون في الخلع أنه طلاق بائن إلاّ أن ينوي أكثر من ذلك فبحسب نيته واليه ذهب مالك وابو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي وأبو عثمان البتّي والشافعي في الجديد غير أن الحنفية عندهم أنه متى نوىً المخالع بخلعه تطليقةً أو اثنتين أو أطلق ، فهو واحدة بائنة ، وإن نوى ثلاثاً فثلاث . وللشافعي قول آخر في الخلع ، وهو أنه متى لم يكن

بلفظ الطلاق وعُرّي عن البيّنة ، فليس هو بشيء بالكلية . (١)

مسألة : إختلف في عدة المختلعة هل هي كالمطلقة بثلاثة قروء إن كانت ممن تحيض أم أن عدتها حيضة واحدة فقد أيد القول الأول : عمر وعلي وابن عمر وجمع من التابعين ومأخذهم في هذا : أن الخلع طلاق فتعتد كسائر المطلقات ، وأيد آخرون القول الثاني وظل ابن عمر يفتي بقوله الأول حتى سمع عثمان بن عفان يفتي بالقول الثاني فأفتى به هو أيضاً وقال : عثمان خيرنا وأعلمنا وحدث عبدة عن عبيدالله عن نافع عن ابن عمر قال : (عدة المختلعة حيضة) وحدث ابن عباس قال : عدتها حيضة وبه يقول عكرمة وأبان بن عثمان وكل من تقدم ذكره ممن يقول أن الخلع فسخ يلزمه القول بهذا واحتجوا بما رواه أبو داود و الترمذي حيث قال كل منهما عن ابن عباس : ٣٤٧ [ان امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها على عهد النبي ﷺ فأمرها النبي ﷺ أن تعتد بحيضة] ثم قال الترمذي حسن غريب وروى الترمذي عن الربيع بنت معوذ بن عفراء ٣٤٨ [أنها اختلعت على عهد رسول الله ﷺ فأمرها النبي ﷺ أن تعتد بحيضة] قال الترمذي : الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحيضة .

وروى ابن ماجة عن الربيّع بنت معوذ بن عفراء قالت لعبادة بن الوليد بن عبادة بن

---

(١) قلت : سئلت من أحد الإخوان ... (هل الخلع طلاق أم فسخ ؟)
فأجبت : الحمد لله والصلاة والسلام على مصطفاه أما بعد :
فان الجمهور على أن الخلع طلاق بائن لحديث : (... خذ الحديقة ، وطلقها تطليقة) وليس بفسخ .
وذهب بعض أهل العلم ، منهم : ابن عباس وعثمان بن عفان وابن عمر من الصحابة وأحمد بن حنبل و داود الظاهري وإسحق بن راهويه وطاوس والشافعي في القديم من الأئمة والفقهاء إلى أنه فسخ. لأن الله تعالى قال : الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان – إلى ان قال – فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره » ٢/٢٣٠/فلو كان الافتداء طلاقاً ، لكان الطلاق الذي لا تحل فيه إلا بعد الزواج ، هو الطلاق الرابع ... !!! ؟ ولم يشرع الله طلاقاً رابعاً ... !
قال ابن القيم : والذي يدل على أنه ليس بطلاق أنه سبحانه وتعالى رتب الطلاق بعد الدخول الذي لم يستوف عدده ثلاثة أحكام ، كلها منتفية عن الخلع :
١ – : إن الزوج أحق بالرجعة فيه
٢ – : انه محسوب من الثلاث فلا تحل بعد استيفاء العدد إلا بعد دخول زوج وإصابته .
٣ – : ان العدة فيه ثلاثة قروء
وقد ثبت بالنص والإجماع أنه لا رجعة في الخلع ، وثبت في السنة وأقوال الصحابة أن العدة فيه حيضة واحدة ، وثبت بالنص جوازه بعد طلقتين ووقوع ثالثة بعدها وهذا ظاهر جداً في كونه ليس بطلاق .
ويقول ابن القيم : يعد الخلع فسخاً بأي لفظ حتى بلفظ الطلاق
فاذا أمعنت النظر فيما تقدم يتبين لك جلياً ان الخلع ليس طلاقاً بل هو فسخ والحمد لله رب العالمين .

الصامت لما سألها قائلاً : حدثيني حديثكِ ، قالت : اختلعت من زوجي ثم جئت عثمان فسألت عثمان : ماذا عليَّ من العدة ؟ قال : ٣٤٩ [لا عدة عليكِ إلا أن يكون حديثَ عهد بكِ ، فتمكثين عنده حتى تحيضي حيضةً ؛ قالت: وإنما اتَّبعُ في ذلك قضاءَ رسول الله ﷺ في مريم المغالية وكانت تحت ثابت بن قيس فاختلعت منه] [1]

مسألة : وليس للمخالع أن يراجع المختلعة في العدة بغير رضاها عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء،لأنها قد ملكت نفسها بما بذلت له من العطاء . قال سفيان الثوري : إن كان الخلع بغير لفظ الطلاقَ فهو فرقة ولا سبيل له عليها ، وإن كان يسمى طلاقاً فهو أملك لرجعتها ما دامت في العدة .وبه يقول داود بن علي الظاهري [2] واتفق الجميع على أن للمختلع أن يتزوجها في العدة .

مسألة : واختلف في : هل له أن يوقع عليها طلاقاً آخر في العدة ، فيه ثلاثة أقوال والأصح منها : ليس له ذلك لأنها قد ملكت نفسها وبانت منه .

وقوله تعالى : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعدَّ حدود الله فأولئك هم الظالمون . ﴾ أي هذه الشرائع التي شرعها لكم هي حدوده فلا تتجاوزوها . كما ثبت في الحديث الصحيح ٣٥٠ [إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها ، وفرض فرائض فلا تضيعوها ، وحرم محارم فلا تنتهكوها،وسكت عن أشياء رحمةً بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها]

وقوله تعالى : ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾ أي أنه إذا طلق الرجل امرأته طلقةً ثالثة بعدما أرسل عليها الطلاق مرتين ، فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره ، أي حتى يطأها زوج آخر في نكاحٍ صحيح ، فلو وطئها واطىء في غير نكاح ولو في ملك اليمين ، لم تحل للأول ، لأنه ليس بزوج ؛ وهكذا لو تزوجت ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول ؛ واشتهر بين الفقهاء عن سعيد بن المسيب رحمه الله انه

---

(١) قلت : ان الدليل واضح مع الذين يقولون : عدة المختلعة حيضة واحدة ، وهذا ما يؤيد من قال أن الخلع ليس بطلاق ، ولو كان طلاقاً لكانت عدتها ثلاثة قروء .

حتى ولو كان الخلع بلفظ الطلاق. لأن النية والواقع، انه خلع وليس طلاقاً ولا عبرة للفظ مع وضوح النية

(٢) قلت : وقول سفيان الثوري هو الأصح والله أعلم يعني إذا أراد الرجعة لأن الخلع فرقة ولا سبيل له عليها إلا برضاها. أي بعقد جديد لأنه لا رجعة في الخلع ، وكأنه في الشطر الثاني من قوله يرد على من يقول أن الخلع طلاق من قولهم نفسه الوارد في أول هذه المسألة وهو : لا تُراجع المختلعة إلا برضاها في العدة . وكأن سفيان يقول : إن كنتم تعتقدون ان الخلع طلاق ، فالمطلق أملك للرجعة ما دامت في العدة .

يقول : يحصل المقصود من تحليلها للأول بمجرد العقد على الثاني ، وفي صحته عنه نظر . لأن سعيد بن المسيب يروى خلافه ، فقد روى أبو جعفر بن جرير رحمه الله بسنده عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن النبي ﷺ : ٣٥١ [في الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها البتة ، فيتزوجها زوج آخر فيطلقها قبل ان يدخل بها ، أترجع إلى الأول؟ قال : «لا حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها»] وروى الإمام أحمد بسنده إلى سالم بن عبد الله بن عمر عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ : ٣٥٢ [في الرجل تكون له المرأة فيطلقها ثم يتزوجها رجل فيطلقها قبل أن يدخل بها فترجع إلى زوجها الأول؟فقال رسول الله ﷺ : « حتى تذوق العسيلة »] فبعيدٌ أن يخالف سعيد بن المسيب ما رواه بغير مستند والله أعلم .

روى ابن جرير عن عائشة ٣٥٣ : [أن رجلاً طلق أمرأته ثلاثاً ، فتزوجت زوجاً فطلقها قبل أن يمسها ، فسئل رسول الله ﷺ أتحل للأول ؟ فقال : « لا حتى يذوق من عسيلتها كما ذاق الأول »] أخرجه البخاري ومسلم والنسائي من طرق عن عبيدالله بن عمر العمري.

والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغباً في المرأة ، قاصداً لدوام عشرتها ، كما هو المشروع من التزويج،وليس المراد بالعسيلة المني ... لما رواه الإمام أحمد والنسائي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : ٣٥٤ [ألا إن العسيلة الجماع] فأما إذا كان الثاني قصده أن يُحِلَّها للأول ، فهذا هو المحلِّلُ الذي وردت الأحاديث بذمه ولعنه . ومتى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عندجمهور الأئمة .

﴿ الأحاديث في المحلِّلِ والمحلَّلِ لهُ ﴾

١ ـ : عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً : ٣٥٥ [لعن الله الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة والمحلِّل والمحلَّل له وآكل الربا ومؤكله]

٢ ـ : عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ٣٥٦ [«لعن رسول الله ﷺ آكل الربا ومؤكله وشاهديه وكاتبه ، والواشمة والمستوشمة للحسن ، ومانعَ الصدقة ، والمحلِّل والمحلَّل له » وكان ينهى عن النوح .] رواه الإمام أحمد

٣ – : عن جابر رضي الله عنه : ٣٥٧ [ان رسول الله ﷺ : لعن الله المحلِّل والمحلَّل له] ضعيف رواه الترمذي

٤ – : عن عقبة بن عامر : قال رسول الله ﷺ : ٣٥٨ [الا أخبركم بالتيس المستعار ؟ قالوا بلى يا رسول الله قال : هو المحلِّل . لعن الله المحلِّل والمحلَّل له .] تفرد به ابن ماجه .

٥ – : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ٣٥٩ [لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له] ابن ماجه

٦ – : وروى أبو بكر بن أبي شيبة بسنده عن عمر بن الخطاب انه قال : لا أوتيَ بمحلّل ولا محلل له إلاّ رجمتهما . وعن عثمان بن عفان رفع إليه رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها ففرق بينهما وكذا روى عن علي وابن عباس وغير واحد من الصحابة رضي الله عنهم .

وقوله تعالى : ﴿ فإن طلقها ﴾ أي الزوج الثاني بعد الدخول بها ﴿ فلا جناح عليهما أن يتراجعا ﴾ أي المرأة والزوج الأول ﴿ إن ظنا أن يقيما حدود الله ﴾ أي يتعاشرا بالمعروف قال مجاهد : إن ظنا أن نكاحهما على غير دلسة ﴿ وتلك حدود الله ﴾ أي شرائعه وأحكامه ﴿ يبيّنها ﴾ أي يوضحها ﴿ لقوم يعقلون ﴾

وقد أختلف الأئمة رحمهم الله في أن المرأة إذا تزوجت ثانيةً بعد طلقة أو طلقتين وانقضاء عدتها من زوجها الأول ، ثم طلقها الثاني ، وانقضت عدتها وتزوجها الأول ، هل تعود إليه بما بقي من الثلاث كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد ، أو يكون الزوج الثاني قد هدم ما قبله من الطلاق ، فإذا عادت إلى الأول تعود بمجموعها أي الثلاث كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله . وحجتهم : أن الزوج الثاني إذا هدم الثلاث ، فلأن يهدم ما دونها من باب أولى . والله أعلم .

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ ٱللَّهِ هُزُواً وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * (٢٣١) ﴾

أمر الله الرجال بالإحسان إذا طلق أحدهم امرأته طلاقاً له عليها فيه رجعة ، إذا انقضت عدتها ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها ، فإما أن يمسكها أي يرتجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف ، وهو أن يُشهد على رجعتها ، وينوي عشرتها بالمعروف ؛ أو يسرحها أي يتركها حتى تنقضي عدتها ويخرجها من منزله بالتي هي أحسن ؛ قال الله تعالى : ﴿ ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ﴾ قال ابن عباس وجماعة من التابعين : إذا قارب انقضاء عده المرأة راجعها زوجها ضراراً لئلا تذهب إلى غيره ثم يطلقها فتعتد وهكذا ... لتطول عليها عدتها . فنهاهم الله عن ذلك وتوعدهم عليه فقال : ﴿ ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ﴾ أي بمخالفته أمر الله تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تتخذوا آيات الله هزواً ﴾ وعن عبادة بن الصامت في قوله تعالى : ﴿ ولا تتخذوا آيات الله هزواً ﴾ قال كان الرجل على عهد النبي ﷺ يقول للرجل : زوجتك ابنتي ثم يقول كنت لاعباً ، ويقول قد اعتقت ويقول : كنت لاعباً فأنزل الله ﴿ ولاتتخذوا آيات الله هزواً ﴾ فقال رسول الله ﷺ : ٣٦٠ [ثلاث من قالهن لاعباً أو غير لاعب فهن جائزات عليه : الطلاق والعتاق والنكاح .]

وقوله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم ﴾ في إرسال رسوله بالهدى إليكم ﴿ وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة ﴾ أي السنّة ﴿ يعظكم به ﴾ أي يأمركم وينهاكم ﴿ واتقوا الله ﴾ أي فيما تأتون وفيما تذرون ﴿ واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية وسيجازيكم على ذلك .

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * (٢٣٢) ﴾

قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلقة أو طلقتين ، فتنقضي عدتها ، ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها ، وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك فنهى الله أن يمنعوها وكذا قال جماعة من التابعين . وفيها

دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها وانه لا بد من ولي . كما في الأثر ٣٦١ [لانكاح إلا بولي مرشد وشاهدي عدل .] وفي هذه المسألة نزاع بين العلماء وقد قررنا ذلك في كتاب الأحكام ، ولله الحمد والمنة .

وفي الحديث الذي رواه الترمذي وصححه واللفظ له عن معقل بن يسار ٣٦٢ [إنه زوّج أخته رجلاً من المسلمين على عهد رسول الله ﷺ فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت عدتها ، فهويها وهويته ، ثم خطبها مع الخُطّاب ، فقال له : يالكع بن لكع أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها ، والله لا ترجع إليك أبداً آخر مـا عليك ، فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فانزل الله : ﴿ وإذا اطلقتم النساء فبلغن أجلهن ... إلى قوله﴿وأنتم لا تعلمون﴾ فلما سمعها معقل قال : سمع لربي وطاعة ثم دعاه فقال : أزوجك وأكرمك – زاد بن مردويه – وكفّرت عن يميني]

وقوله تعالى : ﴿ ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ أي عليكم أن لا تمنعوا الولايا أن يتزوجن أزواجهن اذا تراضوا بينهم بالمعروف إن كنتم تؤمنون بالله وبشرعه وتخافون عذاب اليوم الآخر ﴿ ذلكم أزكى لكم وأطهر ﴾ أي اتباعكم شرع الله في رد المموليات إلى أزواجهن وترك الحمية في ذلك أزكى لكم وأطهر لقلوبكم ﴿ والله يعلم ﴾ أي الخيرة فيما تأتون وما تذرون ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ ذلك .



﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * (٢٣٣) ﴾

يرشد الله تعالى الوالدات أن يرضعن اولادهن كمال الرضاعة ، وهي سنتان فـلا

اعتبار بالرضاعة بعد ذلك ، ولهذا قال ﴿ لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يُحرّم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما، لم يحرم . روى الترمذي : (باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلاّ في الصغر دون الحولين) عن أم سلمة قالت : قال رسول الله ﷺ : ٣٦٣ [لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام] هذا حديث حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم : أن الرضاعة لا تحرّم إلا ما كان دون الحولين ، وما كان بعد الحولين الكاملين، فإنه لا يحرّم شيئاً. (قلت) : تفرد الترمذي برواية هذا الحديث ورجاله على شرط الصحيحين. ومعنى قوله : إلا ما كان في الثدي، أي في محال الرضاعة قبل الحولين ، كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن البراء بن عازب قال : لما مات إبراهيم بنُ النبي ﷺ قال : ٣٦٤ [إن ابني مات في الثدي ، إن له مرضعاً في الجنة] وهكذا اخرجه البخاري من حديث شعبه . يعني أن ابنه إبراهيم عليه السلام مات وله سنة وعشرة أشهر فقال : (إن له مرضعاً) ، يعني تكمل رضاعته . وروى الدار قطني عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٦٥ [لا يحرّم من الرضاع الا ما كان في الحولين] (قلت) ورواه مالك في الموطأ عن ابن عباس مرفوعاً ورواه الدراوردي عن ابن عباس وزاد ٣٦٦ [وما كان بعد الحولين فليس بشيء] وهذا أصح . وروى أبو داود الطيالسي عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٦٧ [لارضاع بعد فصال ولا يتم بعد احتلام] وتمام الدلالة من هذا الحديث في قوله تعالى ﴿ وفصاله في عامين أن اشكر لي ﴾ وقال : ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ والقول بأن الرضاعة لا تحرّم بعد الحولين يروى عن علي وابن عباس وابن مسعود وجابر وابي هريرة وابن عمر وأم سلمة وسعيد بن المسيب وعطاء والجمهور ؛ وهو مذهب الشافعي وأحمد واسحق والثوري وأبي يوسف ومحمد ومالك في رواية . قال مالك ولو فطم الصبي دون الحولين ، فأرضعته امرأة بعد فصاله ، لم يحرّم لأنه قد صار بمنزلة الطعام . وهو رواية عن الأوزاعي . وقد روي عن عمر وعلي أنهما قالا : (لا رضاع بعد فصال) فيحتمل أنهما ارادا الحولين ، كقول الجمهور : سواء فطم أو لم يفطم ، ويحتمل أنهما أرادا الفعل كقول مالك والله أعلم .

وأما قول عائشة رضي الله عنها برضاع الكبير، وأنه يؤثر في التحريم، وتحتج بحديث سالم مولى أبي حذيفة حيث ٣٦٨ [أمر النبي ﷺ امرأة أبي حذيفة أن ترضعه وكان كبيراً فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة .] وأبى ذلك سائر ازواج النبي ﷺ، ورأين ذلك من الخصائص. وهو قول الجمهور. وحجة الجمهور وهم الأئمة الأربعة ، والفقهاء السبعة ،

والأكابر من الصحابة وسائر أزواج رسول الله ﷺ سوى عائشة ، ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : ٣٦٩ [انظرن مَنْ إخوانكن فإنما الرضاعة من المجاعة] وسيأتي الكلام على مسائل الرضاع وفيما يتعلق برضاع الكبير [1] ، عند قوله تعالى ﴿ وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ أي وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف ، أي بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار بحسب قدرته ويساره ، وتوسطه وإقتاره ، كما قال تعالى : ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدّر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا ﴾ قال الضحاك : إذا طلق زوجته وله منها ولد فأرضعت له ولده ، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف .

وقوله تعالى : ﴿ لا تضارَّ والدة بولدها ﴾ أي بدفعه عنها لتضر أباه بتربيته ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللباء الذي لا يعيش بدونه غالباً ، ثم لها دفعه عنها إذا شاءت على أن لا تكون مضارةً لأبيه . كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرار بها ، ولهذا قال : ﴿ ولا مولود له بولده ﴾ أي بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضراراً بها . قاله جماعة من التابعين وغيرهم .

وقوله تعالى : ﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ أي:عليه مثل ما على والد الطفل من الأنفاق على والدة الطفل،والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها ، وهو قول الجمهور . وقد استدل بذلك من ذهب من الحنفية والحنبلية إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض ؛ وهو مروي عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف ، ويرجِّح ذلك بحديث سمرة مرفوعاً : ٣٧٠ [من ملك ذا رحم محرم ، عتق عليه] وقد ذكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد إما في بدنه أو في عقله وعن علقمة : أنه رأى امرأة ترضع بعد الحولين فقال : لا ترضعيه .

وقوله تعالى : ﴿ فإن أرادا فصالاً عن تراضٍ منهما وتشاور فلا جناح عليهما ﴾ أي اذا أجمعا على فطامه قبل الحولين،ورأيا في ذلك مصلحةً له فلا جناح عليهما في ذلك ، ولا ينبغي انفراد أحدهما بذلك دون الآخر أو يستبد من غير مشاورة الآخر . وهذا فيه احتياط للطفل،وإلزام للنظر في أمره،وهو من رحمة الله بعباده حيث نبه الوالدين وأرشدهما إلى ما يصلحهما ويصلحه .كما قال في سورة الطلاق : ﴿ فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾

(١) سورة النساء،الآية رقم /٢٣/ .

وقوله تعالى : ﴿ وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ﴾ إذا اتفقا على استلام الوالد ولده لعذر، فلا جناح عليهما في بذله إذا سلمها أجرتها الماضية بالتي هي أحسن ، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف. ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في جميع أحوالكم ﴿ واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾ أي فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأقوالكم .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * (٢٣٤) ﴾

هذا أمر من الله تعالى للنساء اللاتي يُتَوفى عنهن أزواجهن أن يعتددن أربعةَ أشهر وعشرَ ليال ، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع . ومستنده في غير المدخول بها عموم الآية الكريمة والحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي : ٣٧١ [إن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ولم يفرض لها ، فترددوا إليه مراراً في ذلك ؛ فقال أقول فيها برأيي ، فان يك صواباً فمن الله ، وان يك خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئآن منه : لها الصداق كاملاً ، وفي لفظ : لها صداق مثلها لا وكس ولا شطط وعليها العدة . ولها الميراث ؛ فقام معقل بن يسار الأشجعي فقال : سمعت رسول الله ﷺ ، قضى به في بروع بنت واشق ففرح عبدالله بذلك فرحاً شديداً .] وفي رواية : ٣٧٢ (فقام رجال من اشجع فقالوا : نشهد أن رسول الله ﷺ ، قضى به في بروع بنت واشق) ولا يخرج من ذلك الا المتوفي عنها زوجها وهي حامل فإن عدتها بوضع الحمل ولو لم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ ولما ثبت في السنَّة في حديث سبيعة الأسلمية المخرَّج في الصحيحين من غير وجه : ٣٧٣ [أنها توفي عنها زوجها سعد بن خولة وهي حامل ، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته ـ وفي رواية ـ فوضعت حملها بعده بليال ، فلما تعلَّت من نِفاسها ، تجمَّلت للخُطَّاب ، فدخل عليها أبو السنابل ابن بعكك فقال لها : مالي أراكِ متجمِّلة ، لعلك ترجين النكاح ؟ والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك اربعةُ أشهر وعشرٌ . قالت سبيعة : فلما قال لي ذلك ، جمعت عليَّ ثيابي حين

أمسيت فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتاني بأني قد حللت حين وضعت حملي وأمرني بالتزويج إن بدا لي .]

واستثنيتْ من ذلك الزوجة إذا كانت أمةً فان عدتها على النصف من عدة الحرة : شهران وخمس ليال على قول الجمهور ، لأنها لما كانت على النصف من الحرة في الحد فكذلك فلتكن على النصف منها في العدة (١) ومن العلماء كمحمد بن سيرين وبعض الظاهرية من يسوي بين الزوجات الحرائر والإماء في هذا المقام لعموم الآية . ولأن العدة من باب الأمور الجبليَّة التي تستوي فيها الخليقة .

وذكر سعيد بن المسيب وغيره أن الحكمة في جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً لاحتمال اشتمال الرحم على حمل ، فإذا انتظر به هذه المدة ظهر أن كان موجوداً ، كما جاء في حديث ابن مسعود في الصحيحين وغيرهما : ٣٧٤ [إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح] فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر والعشر أيام بعدها لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه ، ولذا ذهب الإمام أحمد إلى أن عدة أم الولد عدة الحرة ههنا لأنها صارت فراشاً كالحرائر (*) وروى الإمام أحمد عن عمر بن العاص أنه قال : ٣٧٥ [لا تلبِّسوا علينا سنَّة نبينا ، عدة أم الولد اذا توفي عنها سيدها أربعة أشهر وعشر] ورواه أبو داود ، وابن ماجه .

وقوله تعالى : ﴿ فاذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير ﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفَّى عنها زوجها مدة عدّتها ، ولما ثبت في الصحيحين من غير وجه عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أمَّيْ

(*) قلت : حال الحرة كالأمة لا يختلفان فيما يتعلق بالعدة أبداً إن كانت الأمة زوجة عبد أو كانت أم ولد فعدتهما كالحرة سواء بسواء لأن خلقهما واحد فهل العبودية تغير الخلق ... ؟

(١) قلت : لا يلزم اذا كان الحد يتام نصفاً على الأمة ان تكون العدة كذلك نصفاً... لأن حال الحرة غير حال الأمة، ولكن ليس رحم الحرة غير رحم الأمة، وان الملك لما يؤمر بنفخ الروح في جنين الحرة تكون مدة وجوده عند الحرة والأمة سواء. وان مراحل نموه من نطفة إلى علقة إلى مضغة ايضاً، واحدة عند الحرة والأمة. ومراد الشارع تحديد نسبة الولد لمن ... ؟ فمادام مراحل نموه لا تختلف في الخليقة البشرية فلا لزوم لتفريق عدة الحرة عن عدة الأمة واذا كان الله تعالى لم يفرق في ذلك بل أطلق وكذلك رسوله صلى الله عليه وسلم لم يخبرنا بان عدة الأمة. على النصف من عدة الحرة فالى أي مستند استند المفرقون بين العدتين؟ أما قياس العدة على الحد فهذا قياس مع الفارق كما لا يخفى ...

المؤمنين أن رسول الله ﷺ، قال: ٣٧٦ [لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلاّ على زوج أربعة اشهر [1] وعشراً] وفي الصحيحين أيضاً عن أم سلمة: ٣٧٧ [أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن ابنتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها؟ فقال: لا. كل ذلك يقول – لا – مرتين أو ثلاثا، ثم قال: « إنما هي أربعة أشهر وعشر وقد كانت إحداكن في الجاهلية تمكث سنة. »]

والغرض من الإحداد ترك الزينة من الطيب ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلي وغير ذلك. وهو واجب في عدة الوفاة قولاً واحداً، ولا يجب في عدة الرجعية قولاً واحداً. وفي وجوبه على عدة البائن قولان، ويجب على جميع الزوجات الإحداد وسواء في ذلك الصغيرة والآيسة والحرة والأمة والمسلمة والكافرة لعموم الآية. واستثنى الثوري وأبو حنيفة الكافرةَ لكفرها، والصغيرة لعدم التكليف.

وقوله تعالى: ﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ أي انقضت عدتهن ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ أي على أوليائها ﴿ فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف ﴾ أي تتزين وتتصنع، وتتعرض للتزويج، فذلك المعروف. قاله ابن عباس.

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ * (٢٣٥) ﴾

يقول تعالى ﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ﴾ في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح وعن ابن عباس: التعريض: ان يقول: إني أريد التزويج واني أحب امرأة ومن امرها ... – يعرض لها بالقول بالمعروف –. ولا ينتصب لها ما دامت في عدتها وهكذا حكم المطلقة المبتوتة، يجوز التعريض لها. كما قال النبي ﷺ لفاطمة

---

(١) قلت: وليس للحداد لباس معين، فتلبس ثيابها العادية متجنبة الزينة في كل شيء. أما اعتقاد لزوم لبس السواد دون غيره للحادّة فحرام.

بنت قيس حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات فأمرها ان تعتد في بيت ابن أم كلثوم ، وقال لها ٣٧٨ : [فإذا حللت فآذنيني ، فلما حلّت ، خطب عليها أسامة بن زيد مولاه فزوجها إياه] فأما المطلقة (١) فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها والله أعلم .

وقوله ــ ﴿ أو أكننتم في أنفسكم ﴾ أي أضمرتم في أنفسكم من خطبتهن ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ ولهذا قال ﴿ علم الله أنكم ستذكرونهن ﴾ في أنفسكم فرفع الحرج عنكم في ذلك ، ثم قال : ﴿ ولكن لا تواعدوهن سراً ﴾ قال ابن عباس : أي لا تقل لها : إني عاشق وعاهديني أن لا تتزوجي غيري.ونحو هذا في عدتّها فنهى الله عن ذلك . وقوله تعالى : ﴿ إلاّ أن تقولوا قولاً معروفاً ﴾ يعني من إباحة التعريض أو يقول لوليّها : لا تسبقني بها، يعني : لا تزوجها حتى تعلمني. رواه ابن أبي حاتم .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ﴾ يعني ولا تعقدوا العقدة بالنكاح حتى تنقضي العدة . وقد أجمع العلماء على أنه لايصح العقد في مدة العدة . واختلفوا فيمن تزوج امرأة في عدتّها، فدخل بها فانه يفرّق بينهما . وهل تحرم عليه أبداً؟ على قولين : الجمهور على أنها لا تحرم عليه بل له أن يخطبها إذا انقضت عدتّها .

وذهب الإمام مالك إلى أنها تحرم عليه مؤبداً بناءً على قول لعمر بن الخطاب ... ولكن ثبت أن هناك انقطاعاً فيما بين من نقل القول وبين عمر . ثم روى الثوري أن عمر رجع عن ذلك وجعل لها مهرها وجعلها يجتمعان .

وقوله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ توعدهم على ما يقع في ضمائرهم بشأن النساء وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر ثم لم يؤيسهم من رحمته فقال : ﴿ واعلموا أنّ الله غفور حليم ﴾ .

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ * (٢٣٦) ﴾

(١) قلت : يعني طلاقاً رجعياً فزوجها أحق برجعتها

أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها ، وقبل الدخول بها . قال ابن عباس وغيره : المس النكاح ، بل ويجوز أن يطلقها ويحق لها المهر إن كانت قد تزوجت بلا مهر ولهذا أمر الله تعالى بإمتاعها وهو تعويضها عمّا فاتها ، بشيء تُعطاه من زوجها بحسب حاله ، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره . قال ابن عباس أعلا متعة الطلاق الخادم ،ودون ذلك شيء من المال ، ودون ذلك الكسوة .

وقد اختلف العلماء : هل تجب المتعة لكل مطلقة ، أو انما تجب المتعة لغير المدخول بها التي لم يفرض لها مهر . على أقوال : فمن العلماء من استحبها لكل مطلقة ، ومن قال: للمطلقة قبل الدخول بها وإن كان لها مهر معلوم والقول الثالث وهو الراجح والله أعلم : ان المتعة انما تجب للمطلقة اذا لم يُدخَلْ بها ولم يفرضْ لها مهر،فإن دخل بها وجب لها مهر مثلها إذا لم يكن لها مهر ، وإن كان قد فُرض لها مهر،وطلقها قبل الدخول وجب عليه نصف المهر المسمى ، فإن دخل بها استقر الجميع ، وكان ذلك عوضاً لها عن المتعة ؛ وإنما المصابة التي لم يفرض لها ولم يدخل بها . فهذه التي دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها﴿ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴾

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ . وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسَوُا ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧) ﴾

وهذه الآية الكريمة مما يدُل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى ، حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض إذا طلق الزوج قبل الدخول،فإنه لو كان ثم واجب آخر من متعة لَبيَّنها لا سيما وقد قرنها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية ، والله أعلم . ومما هو مجمع عليه أنه متى كان قد سَمّى لها صداقاً ثم فارقها قبل دخوله بها فإنه يجب لها نصف ما سَمّى من الصداق . إلا أنه عند الثلاثة يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج وإن لم يدخل بها. وبه حَكَم الخلفاء الراشدون لكن قال الشافعي بسنده عن ابن عباس انه قال في الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسها ثم يطلقها : ليس لها إلا نصف الصداق لأن الله يقول : ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن

فريضة فنصف ما فرضتم ﴾ قال الشافعي : بهذا أقول وهو ظاهر الكتاب.

وقوله : ﴿ إلا أن يعفون ﴾ أي النساء ، عما وجب لها على زوجها ، فلا يجب لها عليه شيء وقوله : ﴿ أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح ﴾ روى ابن أبي حاتم : ذكر عن ابن لهيعة حدثني عمر بن شعيب ، عن ابيه عن جده ، عن النبي ﷺ قال ٣٧٩ : [ولي عقدة النكاح الزوج] وقال ابن أبي حاتم : عن عيسى بن عاصم ، قال : سمعت شريحاً يقول : سألني علي بن أبي طالب عن الذي بيده عقدة النكاح فقلت له:هو ولي الأمر فقال·علي:لا ، بل هو الزوج.وبهذا يقول ابن عباس وجبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وجمع من التابعين.وقيل أن ولي عقدة النكاح أبوها أو أخوها أو من لا تنكح إلا بإذنه،ورجّح بعض من قال هذا القول،إلى أنه الزوج.وقوله تعالى : ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ أي أقربهما للتقوى من الرجال والنساء الذي يعفو . قال مجاهد وغيره : الفضل – ها هنا – أن تعفو المرأة عن شطرها أو إتمام الرجل الصداق لها ، ولهذا قال : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ أي الإحسان فلا تهملوه واستعملوه بينكم . روى أبو بكر بن مردويه بسنده عن علي بن أبي طالب ، ان رسول الله ﷺ قال : ٣٨٠ [ليأتين على الناس زمان عضوض ، يعض المؤمن على ما في يديه وينسى الفضل]وقد قال الله تعالى : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ « شرار يبايعون كل مضطر » وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع المضطر وعن بيع الغرر ، فإن كان عندك خير فعُدْ به على أخيك ولا تزده هلاكاً إلى هلاكه فإن المسلم أخو المسلم لا يحزنه ولا يحرمه .] وقوله تعالى : ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أموركم واحوالكم وسيجزي كل عامل بعمله .

حَافِظُوا عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ۝ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۝ (٢٣٩)

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها وحفظ حدودها وأدائها في أوقاتها كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : ٣٨١ [سألت رسول الله ﷺ ، أي العمل أفضل ؟ قال : الصلاة في وقتها قلت ثم أي ؟ قال : الجهاد في سبيل الله قلت ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » قال حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني .]

وخص تعالى من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى ، وقد اختلف السلف والخلف فيها أيُّ الصلاة هي ؟ وقيل ، وقيل ... إنما المدار ومعترك النزاع في الصبح والعصر . وقد ثبتت السنة بأنها العصر فتعين المصير إليها . والدليل على ذلك : روى الإمام أحمد بسنده عن علي قال : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ٣٨٢ [شغلونا عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً . ثم صلاها بين العشاء ين المغرب والعشاء] وكذا رواه مسلم من حديث أبي معاوية محمد بن حازم الضرير • ورواه مسلم أيضاً من طريق شعبة ، عن علي بن أبي طالب • وأخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وغير واحد من أصحاب المساند والسنن والصحاح،من طرق يطول ذكرها عن عبيدة السلماني عن علي به .

روى الإمام أحمد عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال : ٣٨٣ [﴿حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى﴾ وسماها لنا أنها هي صلاة العصر] وقال ابن جرير بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٣٨٤ [الصلاة الوسطى صلاة العصر]

وقوله تعالى : ﴿وقوموا لله قانتين﴾ أي خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه ، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام في الصلاة لمنافاته إياها . ولهذا امتنع رسول الله ﷺ من الرد على ابن مسعود حين سلم عليه وهو في الصلاة ، اعتذر اليه بذلك وقال : ٣٨٥ [إن في الصلاة لشغلاً] . وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال لمعاوية بن الحكم السلمي حين تكلم في الصلاة ٣٨٦ [إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس انما هي التسبيح والتكبير وذكرُ الله] وروى الإمام أحمد بن حنبل عن زيد بن أرقم ، قال : ٣٨٧ [كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي ﷺ في الحاجة في الصلاة حتى نزلت هذه الآية ﴿وقوموا لله قانتين﴾ فأمرنا بالسكوت] رواه الجماعة سوى ابن ماجه .

روى الحافظ أبو يعلى بسنده عن ابن مسعود ، قال : ٣٨٨ [كنا يسلم بعضنا على بعض في الصلاة ، فمررت برسول الله ﷺ فسلمت عليه فلم يرد علي ، فوقع في نفسي أنه نزل في شيء فلما قضى النبي ﷺ صلاته قال « وعليك السلام أيها المسلّم ورحمة الله، ان الله عز وجل يحدث من أمره ما يشاء، فاذا كنتم في الصلاة فاقنتوا[٢] ولا تكلموا »][٣]

---

(١) وهكذا ثبت بالأدلة الصحيحة من السنة المطهرة أن صلاة العصر هي الصلاة الوسطى فلا عبرة للاقوال الضعيفة التي يرويها المخالفون لأن العبرة فيما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم .

(٢) قلت : اقنتوا : أي اخشعوا وتذللوا واستكينوا بين يديه كما جاء آنفاً في التفسير

(٣) ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا سُلّم عليه في الصلاة كان يرد إشارةً.فقد رُوي عن ابن عمر قال : ٣٨٩ (قلت لبلال : كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله يرد عليهم — حين كانوا يسلمون عليه وهو =

وقوله تعالى : ﴿ فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ لما أمر تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها وشدد الأمر بتأكيدها ، ذكر الحال الذي يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل،وهي حال القتال والتحام الحرب فقال : ﴿ فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً ﴾ أي فصلوا على أي حال كان،رجالاً أو ركباناً ، يعني مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ، كما قال مالك عن نافع : ٣٩٠ [ان ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها ، ثم قال : فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً على أقدامهم أو ركباناً مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها ، قال نافع : لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن رسول الله ﷺ] ورواه البخاري وهذا لفظ مسلم : ٣٩١ [وفي حديث عبدالله بن أنيس الجهني لما بعثه النبي ﷺ إلى خالد بن سفيان ليقتله ، وكان نحو عرفة أو عرفات فلما واجهه حانت صلاة العصر ، قال : فخشيت أن تفوتني فجعلت أصلي وأنا أومىء إيماء] الحديث بطوله،رواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد وهذا من رخص الله تعالى التي رخص لعباده ووضعه الأصار والأغلال عنهم . وعن ابن عباس قال في هذه الآية : يصلي الراكب على دابته والرجل على رجليه.وقد ذهب الإمام أحمد فيما نص عليه : إلى أن الصلاة في الخوف تفعل في بعض الأحيان ركعة إذا تلاحم الجيشان.وعن ابن عباس قال : ٣٩٢ [فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً ، وفي السفر ركعتين ، وفي الخوف ركعة] وسئل الحكم وحماد وقتادة عن صلاة المسايفة فقالوا : ركعة .

وقوله تعالى : ﴿ فإذا أمنتم فاذكروا الله ﴾ أي أقيموا صلاتكم كما أمركم فأتموا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها ﴿ كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ أي مثل ما أنعم عليكم وهداكم للإيمان وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة فقابلوه بالشكر والذكر .

= في الصلاة قال يشير بيده.) رواه الخمسة. ورواه البيهقي عن نافع قال سمعت ابن عمر يقول : ٣٩٣ (خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى مسجد قباء يصلي فيه ، قال : فجاءته الأنصار فسلموا عليه وهو يصلي قال : فقلت لبلال : ...) الحديث . وكذلك هو عند أبي داود – ٣٩٤ (وفيه يقول هكذا – وبسط كفه وبسط جعفر بن عون كفه . وجعل بطنه أسفل ، وجعل ظهره إلى فوق .)

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * (٢٤٠) وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ * (٢٤١) كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * (٢٤٢) ﴾

* قال الأكثرون : هذه الآية منسوخة بالتي قبلها ، وهي : قوله تعالى : ﴿ يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ فقد روى البخاري عن ابن الزبير قال : قلت : لعثمان بن عفان ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً ... ﴾ نسختها الآية الأُخرى ، فلم تكتبها ـ أو تدعها ـ قال : « يا ابن أخي : لا أغيّر شيئاً منه من مكانه » ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان : إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة أشهر ، فما الحكمة في إبقاء رسمها مع زوال حكمها ، وبقاء رسمها بعد التي نسختها يوهم بقاء حكمها ؟ فأجابه أمير المؤمنين : بأن هذا أمر توقيفي وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها فأثبتها حيث وجدتها .

* وروي من طريق على بن أبي طلحة عن ابن عباس ، قال : كان الرجل إذا مات وترك امرأته إعتدت سنة في بيته يُنفق عليها من ماله ، ثم أنزل الله بعدُ : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ﴾ فهذه عدة المتوفى عنها زوجها ، إلا أن تكون حاملاً ، فعدتها أن تضع ما في بطنها ، وقال : ﴿ ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم ﴾ فبيّن ميراث المرأة وترك الوصية والنفقة .

وقد استدل جماعة من هذه الآية على وجوب مكوثها سنة معتدة . وقال آخرون منهم مجاهد وعطاء : إن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة ، وإنما دلت على أن ذلك كان من باب الوصاة بالزوجات ان يُمكّنَّ من السكنى ، في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولاً كاملاً إن اخترن ذلك ، ولهذا قال : ﴿ وصية لأزواجهم ﴾ أي يوصيكم الله بهن وصية ولا يُمنعن من ذلك لقوله : ﴿ غير إخراج ﴾ فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر

أو بوضع الحمل ، واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل ، فانهن لا يمنعن من ذلك لقوله تعالى : ﴿ فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من معروف ﴾ . وهذا القول له اتجاه ، وفي اللفظ مساعدة له وقد اختاره جماعة ، منهم الإمام أبو العباس بن تيمية ، ورده آخرون منهم الشيخ أبو عمر بن عبد البر وقول عطاءو من تابعه ، على أن ذلك منسوخ بآية الميراث ، إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فمسلّم . وإن أرادوا إن سكنى الأربعة أشهر وعشر ، لا تجب في تركة الميت ، فهذا محل خلاف بين الأئمة . وقد استدلوا على وجوب السكنى في منزل الزوج ، بما رواه مالك في موطئه : ٣٩٥ [إن الفريعة بنت مالك بن سنان وهي أخت أبي سعيد الخدري رضي الله عنهما جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة ، فإن زوجها خرج في طلب أعبد لـه أبقـوا حتى إذا كان بطرف القدوم لحقهم فقتلوه قالت : فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي في بني خدرة ، فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة . قالت : فقـال رسول الله ﷺ : «نعم» قالت : فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة ناداني رسول الله ﷺ أو أمر بي فنوديت له فقال : «كيف قلتِ» ؟ فردّدت عليه القصة التي ذكرت له من شأن زوجي ؛ فقال : «أمكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» فقالت : فاعتَددْتُ فيه أربعة أشهر وعشرا ، قالت : فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلي فسألني عن ذلك فأخبرته فاتّبعه وقضى به .] وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث مالك به ورواه النسائي أيضاً وابن ماجة عن سعد بن اسحق به وقال الترمذي حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ﴾ وفي هذه استدل العلماء الموجبون المتعة لكل مطلّقة ومن قال إنها مخصصة بالآية ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴾ [1] . وقوله تعالى ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته ﴾ أي في إحلاله وتحريمه وفروضه وحدوده فيما أمركم به ونهاكم عنه ، بينه ووضحه وفسره ، ولم يتركه مجملاً في وقت احتياجكم إليه ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي تفهمونه وتتدبرونه .

---

(١) راجع تفسير هذه الآية وهي برقم ٢٣٦ البقرة

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * (٢٤٣) وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * (٢٤٤) مَنْ ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * (٢٤٥) ﴾

عن ابن عباس قال : كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون . قالوا نأتي أرضاً ليس بها موت ، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم ﴿ موتوا ﴾ فماتوا ، فمر عليهم نبي من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم فذلك قوله عز وجل ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ﴾ الآية وكان في إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة ولهذا قال : ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾ أي فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة والدلالات الدامغة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ أي لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم . وفي هذه القصة عبرة ودليل : على أنه لا يغني حذر من قدر وأنه لا ملجأ منه إلا إليه . فإن هؤلاء خرجوا فراراً من الوباء ، طلباً لطول الحياة فعوملوا بنقيض قصدهم ، وجاءهم الموت سريعاً في آن واحد .

ومن هذا القبيل ، الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد عن عبدالله بن عباس :
٣٩٦ [ان عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ ، لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام ، فذكر الحديث ، فجاءه عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً لبعض حاجته فقال : إن عندي من هذا علماً ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه ، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » فحمد الله عمر ثم انصرف] وأخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري به .

وقوله تعالى : ﴿ وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم ﴾ أي كما أن الحذر

لا يغني من القدر ، كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه ، لا يقرب أجلاً ولا يبعده ، بل الأجل المحتوم والرزق المقسوم مقدر مقنن لا يزاد فيه ولا ينقص منه ، كما قال تعالى : ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ وقال تعالى : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾

وقوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له اضعافاً كثيرة ﴾ يحث تعالى عباده على الإنفاق في سبيل الله وقد روى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية ... قال أبو الدحداح الأنصاري : ٣٩٧ [يا رسول الله وان الله عز وجل ليريد منا القرض ؟ قال : « نعم يا أبا الدحداح » قال : أرني يدك يا رسول الله قال فناوله يده ؛ قال : فإني قد أقرضت ربي عز وجل حائطي ؛ قال : وحائط له فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها . قال : فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح قالت: لبيك ، قال : أخرجي ، قد أقرضته ربي عز وجل] وقوله تعالى : ﴿ قرضاً حسناً ﴾ روى عن عمر وغيره من السلف : هو النفقة في سبيل الله . وقوله تعالى : ﴿ فيضاعفه له اضعافاً كثيرة ﴾ كما قال تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ﴾ الآية ... وسيأتي الكلام عليها . ومن بعض حديث رواه ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة قال : والذي نفسي بيده لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٣٩٨ [ان الله يضاعف الحسنة ألفي ألف حسنة] وقوله تعالى : ﴿ والله يقبض ويبسط ﴾ أي أنفقوا ولا تبالوا فالله هو الرزاق يضيق على من يشاء ويوسع على آخرين له الحكمة البالغة ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي يوم القيامة .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا ؟ قَالُوا وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝ (٢٤٦) ﴾

كان بنو إسرائيل على طريق الاستقامة مدة من الزمان ، ثم أحدثوا الأحداث ، وعبد

بعضهم الأصنام ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويقيمهم على التوراة ، إلى أن فعلوا ما فعلوا ، فسلّط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأسروا خلقاً كثيراً ، وأخذوا منهم بلاداً كثيرة ، وكانوا لا يقاتلهم أحد إلا غلبوه وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذي كان في قديم الزمان • وكان ذلك موروثاً لخلفهم، عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام. فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعضُ الملوك في بعض الحروب، وأخذ التوراة من أيديهم ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل ، وانقطعت النبوة من أسباطهم ، ولم يبق من سبط لا وي الذي يكون فيه الأنبياء إلاّ امرأة حامل من بعلها وقد قتل • فأخذوها فحبسوها في بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم ، ولم تزل المرأة تدعو الله عز وجل أن يرزقها غلاماً ، فسمع الله لها ووهبها غلاماً ، فسمته شمويل أي سمع الله دعائي ومنهم من يقول : شمعون وهو بمعناه ، فأنبته الله نباتاً حسناً، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله اليه ، وأمره بالدعوة اليه وتوحيده ، فدعا بني اسرائيل ، فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم. فقال لهم النبي : فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً ألا تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه ، ﴿ قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾ أي وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد . قال الله تعالى : ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولّوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ﴾ أي ما وفوا بما وعدوا، بل نكل عن الجهاد أكثرهم، والله عليم بهم .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ وَٰاسِعٌ عَلِيمٌ * (٢٤٧) ﴾

بعث الله طالوت ملكاً على بني اسرائيل ، وكان من أجنادهم. ولم يكن من سبط يهوذا فقالوا: ﴿ أنىّ يكون له الملك علينا ونحن أحقُّ بالملك منه ولم يؤتَ سعةَ من المال ﴾ أي ليس هو من سبط المُلك وهو فقير لا مال له يقوم بالملك • وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت ، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف• فأجابهم النبيّ قائلاً : ﴿ إن الله أصطفاه

عليكم ﴾ والله أعلم به منكم، ولست أنا الذي عينته، بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك.
﴿وزاده بسطة في العلم والجسم﴾ أي وهو مع هذا أعلم منكم وأشد قوة وصبراً في الحرب ومعرفة ومن ههنا ينبغي أن يكون الملِكُ ذا علم، وشكل حسن، وقوة، شديدة في بدنه ونفسه. ثم قال : ﴿ والله يؤتي ملكه من يشاء ﴾ بحكمته ورأفته ولهذا قال : ﴿ والله واسع عليم ﴾ أي واسع الفضل ، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ ۝ (٢٤٨) ﴾

يقول لهم نبيهم إن علامة بركة مُلْك طالوت عليكم ، أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم ﴿ فيه سكينة من ربكم ﴾ معناه : فيه وقار وجلالة.وقال عطاء : مـا تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه . وقوله تعالى : ﴿ وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون ﴾ قال ابن عباس : عصاه ورضاض الألواح وزاد عكرمة : والتوراة ، وزاد أبو صالح : والمن وقوله تعالى : ﴿ تحمله الملائكة ﴾ قال ابن عباس : جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض ، حتى وضعته بين يدي طالوت، والناس ينظرون فآمنوا. بنبوّة شمعون وأطاعوا طالوت .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلَٰقُوا ٱللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ (٢٤٩) ﴾

يخبر تعالى عن طالوت ملك بني اسرائيل حين خرج في جنوده وكان جيشه ثمانين الفاً والله أعلم أنه قال : ﴿ إن الله مبتليكم ﴾ أي مختبركم بنهر ؛ قال ابن عباس وهو نهر الشريعة بين الأردن وفلسطين ﴿ فمن شرب منه فليس مني ﴾ أي فلا يصحبني ﴿ ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده ﴾ أي فلا بأس عليه . قال الله تعالى : ﴿ فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾ قال ابن عباس : من اغترف منه بيده روي ، ومن شرب منه لم يروَ فشرب ستةٌ وسبعون الفاً وتبقّى معه أربعة آلاف.وروي عن البراء بن عازب قال : ٣٩٩ [كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمأة وبضعة عشر على عدّة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر ، وما جاوزه معه إلا مؤمن] [1] رواه البخاري ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ فشجّعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق وليس النصر بالكثرة العَددية والعُددية ولهذا قالوا : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرةً بإذن الله ، والله مع الصابرين ﴾

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ (٢٥٢) ﴾

لما واجه أصحابُ طالوت المؤمنون القليلون ، أصحابَ جالوت الكثيرين الكافرين ، ﴿ قالوا ربّنا أفرغ علينا صبراً ﴾ أي أنزل علينا صبراً من عندك ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ أي في لقاء الأعداء وجنبنا الفرار والعجز ،﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾

قال الله تعالى : ﴿ فهزموهم بإذن الله ﴾ أي غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم.﴿ وقتل داودُ جالوت ﴾ فآل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة ، ولهذا

(١) يعني أن عدد جنود طالوت ثلاثمئة وبضعة عشر مثل عدد أهل بدر

قال تعالى : ﴿وآتاه الله الملك﴾ الذي كان بيد طالوت ﴿والحكمة﴾ أي النبوة بعد شمويل ﴿وعلمه مما يشاء﴾ أي من العلم الذي اختصه به ﷺ . ثم قال تعالى : ﴿ ولولا دفع الله الناسَ بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ أي لولا الله يدفع عن قوم بآخرين ،كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت ، وشجاعة داود عليه السلام لهلكوا .

وقوله : ﴿ ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ أي ذو منٍّ عليهم ورحمة ، يدفع عنهم ببعضهم بعضاً . وله الحكم والحكمة والحجة على خلقه،في جميع أفعاله وأقواله .

ثم قال تعالى :﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾ أي هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق ، أي بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني إسرائيل ، وإنك يا محمد ﴿لمن المرسلين﴾ وهذا توكيد وتوطئة للقسم .

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝ (٢٥٣) ﴾

يخبر تعالى أنه فضّل بعض الرسل على بعض ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد فضّلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا ﴾ وقال ههنا:﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ﴾ يعني موسى ومحمداً ﷺ ، وكذلك آدم كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه ﴿ ورفع بعضهم درجات ﴾ كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي ﷺ ، الأنبياءَ في السموات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل . والجمع بين هذه الآية والحديث الثابت في الصحيحين،عن أبي هريرة وهو قوله ﷺ:[لا تفضلوني على الأنبياء ...] يستلزم الاطلاع على الأسباب الموجبة لوروده ، لذا فإن سبب ورود هذا الحديث : كان من أجل سباب قد وقع بين مسلم ويهودي فقال اليهودي في قسم يقسمه : لا والذي اصطفى موسى على العالمين فلطم المسلم اليهوديَّ ،

فقال: أي خبيث؟ وعلى محمد ﷺ؟ فاشتكى اليهودي لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: ٤٠٠[لا تفضلوني على الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش فلا أدري، أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور فلا تفضلوني على الأنبياء.] فالجواب من وجوه: (أحدها): أنه ﷺ ما كان يعلم التفضيل ... وفي هذا نظر (الثاني): ان هذا قاله من باب التواضع (الثالث): ان هذا نهيٌ عن التفضيل في حال التشاجر. (الرابع): التفضيل لمجرد العصبية [1] (الخامس) ليس مقام التفضيل إليكم وإنما هولله وعليكم التسليم والإيمان وقوله تعالى: ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ أي الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء به بني إسرائيل من أنه عبدالله ورسوله إليهم ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ أي بجبريل عليه السلام ثم قال الله تعالى: ﴿ولو شاء الله ما أقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولوشاء الله ما اقتتلوا﴾ أي كل ذلك عن قضاء الله وقدره، ولهذا قالوا ﴿ولكن الله يفعل ما يريد﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ • (٢٥٤) ﴾

يأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم في سبيله ليدّخروا الثواب عنده ﴿من قبل أن يأتي يوم﴾ أي يوم القيامة ﴿لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة﴾ أي لا يشتري نفسه ولو دفع ملء الأرض ذهباً ولا تنفعه الصحبة ولا القرابة، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين.[2]

وقوله: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ أي ولا ظالم أظلم ممن لقي الله كافراً.

---

(١) أرجح: ان التفضيل الممنوع هو المبني على عصبية مجردة حاصلة بمجرد كون النبي المفضل هو من قوم ذلك الشخص أو أن هذا الشخص من أتباع ذلك النبي ... أما التفضيل إذا كان مبنياً على النصوص الشرعية الثابتة من القرآن والسنة، كقوله تعالى: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» وقوله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ... وكحديث الشفاعة العظمى ... فهذا التفضيل إنما هو من قبيل الواقع لا عن عصبية فحسب.

(٢) إذا لم يكونوا مؤمنين

﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ • (٢٥٥) ﴾

هذه آية الكرسي ، ولها شأن عظيم ، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله . روى الإمام أحمد بن حنبل عن أبيّ بن كعب ٤٠١ [أن النبي ﷺ سأله : أي آية في كتاب الله أعظم ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، فردّدها مراراً ، ثم قال : آية الكرسي ، قال : ليهنك العلم أبا المنذر.والذي نفسي بيده ، إن لها لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش] وقد رواه مسلم وليس عنده زيادة : والذي نفسي بيده ..

حديث آخر : روى الإمام أحمد عن أبي ذر جندب بن جنادة – في بعض حديث له – [... قلت يا رسول : ٤٠٢ أي ما أنزل عليك أعظم ؟ قال : آية الكرسي : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾] ورواه النسائي .

وقد ذكر البخاري في صحيحه عن أبي هريرة قال : ٤٠٣ [وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته وقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعني فإني محتاج وعليّ عيال ولي حاجة شديدة. قال : فخلّيت عنه فأصبحت.فقال النبي ﷺ : « يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟ » قال : قلت : يا رسول الله ، شكا حاجة شديدة وعيالاً ، فرحمته وخلّيت سبيله ؛ قال : « أما إنه قد كذبك وسيعود » فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ : أنه سيعود ؛ فرصدته ، فجاء يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعني فإني محتاج وعليّ عيال ، لا أعود . فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ « يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟ » قلت : يا رسول الله ، شكا حاجةً وعيالاً ، فرحمته وخليت سبيله . قال : « أما إنه قد كذبك وسيعود » فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ، وهذا آخر ثلاث مرات إنك

تزعم أنك لا تعود ثم تعود فقال : دعني أعلّمْك كلماتٍ ينفعْك الله بها ؛ قلت : وما هي ؟ قال إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي : ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ حتى تختم الآية ؛ فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فخليتُ سبيلَه ؛ فأصبحت ، فقال لي رسول الله ﷺ : « ما فعل أسيرك البارحة ؟ » قلت : يا رسول الله ، زعم أنه يعلمني كلماتٍ ينفعني الله بها ، فخليت سبيله . قال : « ما هي ؟ » قال لي : إذا أويت إلى فراشك ، فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية « الله لا إله الا هو الحي القيوم » وقال لي : لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، وكانوا أحرص شيء على الخير ؛ فقال النبي ﷺ : « أما إنه صدقك وهو كذوب » ، تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟ قلت: لا قال : ذاك شيطان]
وعن أبي أمامة مرفوعاً : ٤٠٤ [إسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث : البقرة،وآل عمران،وطه]

﴿ وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة ﴾

فقوله تعالى: ﴿ الله لا إله إلا هو ﴾ إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق ﴿ الحي القيوم ﴾ أي الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً ، القيم لغيره ، ولا قوام للموجودات بدون أمره . وقوله تعالى : ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ لا تأخذه أي لا تغلبه سنة وهي النعاس ولهذا قال : ﴿ولا نوم﴾ لأنه أقوى من السنة . وفي الصحيح عن أبي موسى، قال:قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال : ٤٠٥ [ان الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل ، وعمل الليل قبل عمل النهار ، حجابه النور أو النار ، لو كشفه لأحرقتْ سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه .]

وقوله تعالى : ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه . كقوله تعالى : ﴿ إنْ كل من في السموات والأرض إلاّ آت الرحمن عبداً ... ﴾

وقوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل ، أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة ، كما في حديث الشفاعة : ٤٠٦ [آتى تحت العرش فأخر ساجداً فيدعني ما شاء أن يدعني ، ثم يقال إرفع رأسك وقل تسمع ، واشفع

تشفعْ ــ قال ــ فيحدُّ لي حداً فأدخلهم الجنة .] وقوله تعالى: ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات، ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، كقوله إخباراً عن الملائكة : ﴿ وما نتنزَّل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً ﴾

وقوله تعالى : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ أي لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله عز وجل وأطلعه عليه [1] وقوله تعالى : ﴿ وسع كرسيه السموات والأرض ﴾ روى الضحاك عن ابن عباس : لو أن السموات السبع والأرضين السبع ، بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ، ماكن في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة وقال أبو ذر سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٤٠٧ [ما الكرسي في العرش الا كحلقة من حديد القيت بين ظهراني فلاة من الأرض] روى أبو بكر بن مردويه بسنده عن أبي ذر الغفاري أنه سأل النبي ﷺ عن الكرسي . فقال رسول الله ﷺ : ٤٠٨ [والذي نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي ، إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، وان فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة .]

وقوله تعالى : ﴿ ولا يؤودُه حفظهما ﴾ أي لا يثقله ولا يكترثه حفظ السموات والأرض ، ومن فيهما ، ومن بينهما ، بل ذلك سهل عليه ، يسير لديه ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء والأشياء كلها حقيرة بين يديه متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه ، محتاجة فقيرة وهو الغني الحميد ، الفعال لما يريد ، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو القاهر لكل شيء ، الحسيب على كل شيء ، الرقيب العلي العظيم ، لا إله الا هو، ولا إلَه غيره، ولا رب سواه . فقوله تعالى ﴿وهو العلي العظيم﴾ كقوله تعالى : ﴿ الكبير المتعال ﴾ . وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصحاح، الأجود فيها والأصح طريقة السلف الصالح، أَمَرُّوها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه [2] .

---

(١) وهذا خاص بالأنبياء والرسل مصداقه قوله تعالى : عالم الغيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ...

(٢) أي لا تؤولوها بآراء الناس . بل آمنوا بها مع تنزيه الله تعالى عن الشبه بشيء من خلقه .

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ (٢٥٦) ﴾

يقول تعالى : ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ أي لا تُكرِهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام ، فإنه بيّن واضح ، جلي دلائله وبراهينه ، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه ، بل من هداه الله للإسلام ، وشرح صدره ، ونوّر بصيرته ، دخل فيه على بيّنة ، ومن أعمى الله قلبه ، وختم على سمعه وبصره [1] فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً .

وقد ذكر أن أسباب نزول هذه الآية : أن الأنصار كانت المرأة منهم تجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوّده ، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا لا ندع أبناءنا ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ لا إكراه في الدين ... ﴾ رواه ابن جرير عن ابن عباس ورواه أبو داود والنسائي عن بندار به ، وأبو حاتم وابن حبان من حديث شعبة به ، وهكذا ذكر مجاهد وغيره أنها نزلت في ذلك . وقال محمد بن اسحق عن ابن عباس أنها نزلت في رجل من بني سالم بن عوف يقال له الحصيني . تنصّر ابناه وكان هو رجلاً مسلماً فقال للنبي ﷺ : [ألا أستكرههما فقد أبيا إلا النصرانية فأنزل الله فيه ذلك وهذه الآية منسوخة بآية القتال : ﴿ ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾

---

(١) قلت : أي إن عليكم أن تعرضوا الإسلام في عقيدته السمحة الهادية المهدية على الناس . وعلى الناس أن يتدبروها ويطلعوا على أدلتها وحججها وبراهينها التي هي في مستوى مفاهيمهم ولا شك . لأن الله تعالى جعل الإسلام من السهولة والسماحة لدرجة : أن الناس في مقدورهم بما وهبهم الله من عقل وفهم أن يتدبروه على اختلاف درجاتهم في ذلك ... اللهم إلا أن يكون مجنوناً أو ما يشبه فلا يكون مكلفاً . وما سوى ذلك من الإنس والجن فمكلفون أن يفهموا ويتدبروا كما أراد الله وأمر فان اتخذوه ديناً يسره الله لهم وأعانهم على ذلك . ومن ركب رأسه ، وتعصب لباطله رغم فهم الأدلة ، وأعرض عن الاسلام فان الله تعالى جزاء طغيانه : يعمى قلبه ، ويختم على سمعه وبصره جزاء وفاقاً وذلك كقوله تعالى : «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى» .

وعلى هذا فإنه يجب أن يُدعَى جميع الأمم إلى الدخول في الإسلام، فإن أبى أحد منهم الدخول فيه ، أو لم يبذل الجزية ، قوتل حتى يقتل،وهذا معنى الإكراه . وفي الصحيح : ٤٠٩ [عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل] أي الأسارى يُقدَمُ بهم بلادَ الإسلام في الوثاق والأغلال ثم بعد ذلك يسلمون ، وتصلح أعمالهم وسرائرهم فيكونون من أهل الجنة . وقوله تعالى : ﴿ فمن يكفر بالطاغوت [1] ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم . ﴾ أي من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة غير الله ، ووحّد الله فعبده وحده وشهد أن لا إله الا الله . والطاغوت الشيطان فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والأستنصار بها .

وقوله تعالى : ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ أي فقد استمسك من الدين بأقوى سبب وشبه ذلك بالعروة الوثقى التي لا تنفصم لأنها في نفسها محكمة مبرمة قوية وربطها قوي شديد والعروة الوثقى هي الإيمان والإسلام .ولا تنافي بين من قال هذا ومن قال:هي لا اله الا الله أو هي القرآن ، أو هي الحب في الله والبغض في الله،وكل ذلك صحيح . وقال معاذ بن جبل في قوله ﴿ لا انفصام لها ﴾ دون دخول الجنة . روى الإمام أحمد عن محمد بن قيس بن عبادة قال : ٤١٠ [كنت في المسجد ، فجاء رجل في وجهه اثر من خشوع ،فصلى ركعتين أوجز فيهما فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله ، فدخلت معه فحدثته ، فلما استأنس ، قلت له : ان القوم لما دخلت المسجد ، قالوا : كذا وكذا قال : سبحان الله ما ينبغي لأحد ان يقول ما لا يعلم ، وسأحدثك لمَ ... إني رأيت كأني في روضة خضراء – قال ابن عون [2] ، فذكر من خضرتها وسعتها – وفي وسطها عمود حديد أسفله في الأرض واعلاه في السماء ، في أعلى عروة ، فقيل لي إصعد عليه ، فقلت : لا أستطيع ، فجاءني منصف – قال ابن عون : هو الوصيف – فرفع ثيابي من خلفي فقال : اصعد ، فصعدت حتى أخذت بالعروة ، فقال : استمسك بالعروة ، فاستيقظت وإنها لفي يدي ؛ فأتيت رسول الله ﷺ فقصصتها عليه ، فقال : « أما الروضة ، فروضة الإسلام ، واما العمود فعمود الإسلام ، واما

---

(١) قلت : قدم هنا الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله وفي ذلك إشارة لطيفة إلى وجوب تطهير القلوب أولاً ونزع ما فيها من الإيمان بالطاغوت حتى إذا فرغت وطهرت ملئت بالايمان بالله وتشربت بذلك ، عندها لا يمكن إلا أن يكون الله حافظاً لها فلا يستطيع أحد أن ينتزع هذا الإيمان الراسخ منها فتستمسك بالعرة الوثقى

(٢) احد رواة الحديث الوارد في السند .

العروة فهي العروة الوثقى ، انت على الإسلام حتى تموت] أخرجاه في الصحيحين وهو (عبدالله بن سلام) رضي الله عنه وأرضاه .

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ ٱلطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * (٢٥٧) ﴾

يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام ، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي السهل ، وأن الكافرين إنما وليُّهم الشيطان يُزيّن لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك ﴿ أولئك اصحاب النار هم فيهم خالدون ﴾ ولهذا وحّد تعالى لفظ النور ، وجمع الظلمات ، لأن الحق واحد ، والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة كما قال : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون . ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَاجَّ إِبْرَٰهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ * (٢٥٨) ﴾

هذا الذي حاجّ ابراهيم في ربه هو ملك بابل نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح . ومعنى قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ﴾ أي في وجود ربه ، وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره ، وما حمله على هذا ... إلا تجبُّرُه ، وطول مدته في الملك.ولذا قال تعالى : ﴿ ان آتاه الله الملك ﴾ وكان طلب من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذي يدعو إليه فقال إبراهيم : ﴿ ربي الذي يحي ويميت ﴾ أي هو محدث الإشياء من العدم ، ويعدمها بعد وجودها ، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ، ضرورة ،

لأنها لم تحدث من نفسها فلا بد لها من موجد أوجدها ، وهو الرب الذي أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له قال النمرود :﴿ أنا أحيي وأميت﴾ وذلك أني أوتي بالرجلين قد استحقا القتل فآمر فيقتل أحدهما، وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل. هذا ما قاله قتادة وغيره—والظاهر والله أعلم ـ أنه ما أراد هذا لأنه ليس جواباً لما قال ابراهيم ، وإنما أراد النمرود أن يدّعي الربوبية عناداً ومكابرةً ، ويوهم أنه الفاعل لذلك ، وأنه هو الذي يحيي ويميت . ولهذا قال له إبراهيم : ﴿ فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب ﴾ أي إذا كنت أنت تحيي وتميت ، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته ، (وهذه الشمس جزء صغير من هذه المخلوقات) ، وهي تبدو كل يوم من المشرق ، فإن كنت إلهاً كما تدعي فأت بها من المغرب ؟ فلمّا علم عجزه وانقطاعه عن المكابرة بُهت أي أخرس ... وقامت عليه الحجة ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي لا يلهمهم حجةً ولا برهاناً . بل حجتهم داحضة ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد . وقول المنطقيين : إن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى دليل أوضح منه ... وليس كما قالوه ... بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني ولدحض ما ادعاه النمرود في الأول والثاني ولله الحمد والمنة .[1]

أما النمرود ، فقد ظل معانداً رغم خرسه عن الجواب ، ولم يؤمن بالله تعالى الذي هو يحيي ويميت لذا فقد أرسل الله عليه وعلى قومه بأباً من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس ، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم ، وتركتهم عظاماً بالية ودخلت واحدةٌ منها في منخري الملك، عذّبه الله بها فكان يضرب برأسه بالمرازب مدةً من الزمن حتى أهلكه الله بها .[2]

---

(١) قلت : رحم الله ابن كثير فقد أوتي في هذا المعنى الذي فسر به هذه الآية بياناً شافياً للمقامين، جزاه الله خيراً وحباه من فضله رحمة ومغفرة ، وغرفاً في جنات النعيم

(٢) قلت : هذا الذي ادعى أنه يحيى ويميت لم يستطع أن يميت بعوضه صغيرة دخلت منخريه وسببت له ألماً لم يعالجه إلا بالمرازب وقيل بالنعال حتى هلك...وفي هذا عبرة للمعتبرين. أجل عجز عن أن يميت بعوضة آذته وأودت بحياته والإماتة مستطاعة ، فهذا المستطاع عجز عنه، فكيف اذا كلف أن يحيى بعوضة ماتت، أو جناح بعوضة ... فسبحانك ربي ما أعظمك .

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ • (٢٥٩) ﴾

تقدم قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذي حاجّ ابراهيم في ربه ﴾ وهو في قوة قوله : هل رأيت مثل الذي حاج ابراهيم في ربه ، ولهذا عطف عليه بقوله تعالى : ﴿ أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ﴾ اختلفوا في هذا المار من هو ... ؟ أهو عزير أم الخضر أو هو أرميا بن حلقيا ، أو حزقيل بن بوار ، أم هو رجلٌ مّا من بني اسرائيل ، ولعله العزير أما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس ، مرّ عليها بعد تخريب (بختنصّر) لها وقتل أهلها ﴿ وهي خاوية ﴾ أي ليس فيها أحد .

وقوله تعالى : ﴿ على عروشها ﴾ أي ساقطة سقوفها وجدرانها على الأرض ، فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة ، وقال: ﴿ أنّى يحيي هذه الله بعد موتها ﴾ وذلك لما رأى شدة خرابها ، واستبعاد عودتها لعمرانها . قال الله تعالى : ﴿ فأماته الله مئة عام ثم بعثه ﴾ فبعد مضي سبعين سنة على موته ، عمرت البلدة وتكامل ساكنوها وتراجع بنو إسرائيل إليها . فلما بعثه الله عز وجل بعد مئة عام من موته ، كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه ، لينظر بهما إلى صنع الله فيه : كيف يحي بدنه فلمّا استقل سوياً ﴿ قال ﴾ الله له ، أي بواسطة الملك ﴿ كم لبثتَ قال لبثتُ يوماً أو بعض يوم ﴾ لأنه لما مات كان ذلك أول النهار ولما بعثه بعد مائة عام كان ذلك في آخر النهار ، فلما رأى الشمس باقيةً ، ظن أنها شمس ذلك اليوم! فقال: ﴿أو بعض يوم، قال بل لبثتَ مائة عام. فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه ﴾ فقد كان معه عنب وتين وعصير فوجده لم يتغير ﴿ وانظر إلى حمارك ﴾ كيف يحييه الله عز وجل ، وأنت تنظر ﴿ ولنجعلك آية للناس ﴾ أي دليلاً على المعاد ﴿ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ﴾ أي نرفعها ، فيركب بعضها على بعض ، وقريء ﴿ ننشرها ﴾

أي نحييها ﴿ ثم نكسوها لحماً ﴾ فبعد تفرقها يميناً ويساراً بعث الله ريحاً فجمعتْها من كل موضع حوله ، ثم ركّب كل عظم موضعَهُ ، حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم فيها ، ثم كساها الله لحماً وعصباً وعروقاً وجلداً ، وبعث الله ملكاً فنفخ في منخريْ الحمار ، فنهق. كله بإذن الله عز وجل ، وذلك كله بمرأى من العزير فلمَّا تبين له هذا كله.﴿ قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ أي أنا عالم بهذا ، وقد رأيته عياناً ، فأنا أعلم أهل زماني بذلك .

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ • (٢٦٠) ﴾

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام ، أسباباً منها أنه لمّا قال النمرود : ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة ، فقال : ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى . قال ألم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾.فأما الحديث الذي رواه البخاري عند هذه الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٤١١ [نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال: ﴿رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال أوَ لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾] وكذا رواه مسلم، فليس المراد ههنا بالشك الذي قد يفهمه من لا علم عنده بلا خلاف. وقد أجيب عن هذا الحديث بأجوبة أحدها : ... [١]

---

(١) هنا بياض ... ولم يذكر المفسر الحافظ ابن كثير الأجوبة ... ولتمام الفائدة نذكر ما ذكره البغوي في تفسيره حكاية عن محمد بن اسحق بن خزيمة عن أبي ابراهيم اسماعيل بن يحيى المزني أنه قال: على هذا الحديث : لم يشك النبي صلى الله عليه وسلم ولا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في أن الله قادر على أن يحيى الموتى وإنما شكا في أنه هل يجيبهما إلى ما سألا ؟ ... ففيه الإعلام أن المسألة من ابراهيم عليه السلام لم تعرض من جهة الشك ، ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان فان العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال .

وقوله تعالى : ﴿ قال فخذ أربعةً من الطير فصرهنّ إليك ﴾ أي أوثقهن واذبحهن وقطعهن . فلمّا أوثقهن ذبحهن ، ثم جعل على كلّ جبل منهن جزءاً بعد أن قطعهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن. قال ابن عباس: وأخذ رؤوسهن بيده ثم أمره الله عزوجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش ، والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم ، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض حتى قام كل طائر على حدته ، وأتينه يمشين سعياً ، ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها ، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام فإذا قدّم له غير رأسه أباه ، فإذا قدم إليه رأسه تركّب مع بقية جسده بحول الله وقوته . ولهذا قال : ﴿ واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ أي عزيز لا يغلبه شيء ولا يمتنع من شيء وما شاء كان بلا ممانع ، لأنه القاهر لكل شيء ، حكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره . قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن أيوب في قوله تعالى : ﴿ ولكن ليطمئن قلبي ﴾ قال : قال ابن عباس : ما في القرآن آية أرجى عندي منها . وقال ابن أبي حاتم عن ابن المنكدر أنه قال : إلتقى عبدالله بن عباس ، وعبدالله بن عمرو بن العاص ، فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص : أي آية في القرآن أرجى عندك فقال ابن عمرو بن العاص : قول الله عز وجل : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا ... ﴾ الآية فقال ابن عباس : لكن أنا أقول قول الله عز وجل : ﴿ وإذْ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أوَ لم تؤمن قال بلى ﴾ فرضي من إبراهيم قوله ﴿ بلى ﴾ قال: فهذا لما يعترض في النفوس ، ويوسوس به الشيطان. وهكذا رواه الحاكم وصححه .

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * (٢٦١) ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته ، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمأة ضعف ، فقال : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ﴾ يعني في طاعة الله من الإنفاق في الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك . وعن ابن عباس : الجهاد والحج يضعّف الدرهمُ فيهما إلى سبعمائة ضعف ولهذا

قال : ﴿ كمثل حبةٍ أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ﴾ وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمأة ، فإن فيه اشارةً إلى أن الأعمال الصالحة ينمّيها الله عز وجل لأصحابها ، كما ينمّي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة ، وقد وردت السنَّة بتضعيف الحسنة إلى سبعماءة ضعف .

روى أحمد عن ابن مسعود أن رجلاً تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ : ٤١٢ [لتأتيَنّ يومَ القيامة بسبعماءة ناقةٍ مخطومة] ورواه مسلم والنسائي .

وقوله تعالى : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ أي بحسب اخلاصه في عمله ، وقد تقدم حديث أبي عثمان النهدي عن أبي هريرة في تضعيف الحسنة إلى ألفي ألف حسنة عند قوله : ﴿ من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له اضعافاً كثيرة ﴾ [1] ﴿ والله واسع عليم ﴾ أي فضله واسع كثير، أكثر من خلقه ، عليم بمن يستحق ومن لا يستحق سبحانه وبحمده .

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * (٢٦٢) قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * (٢٦٣) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ * (٢٦٤) ﴾

ربع الحزب

يمدح تبارك وتعالى الذين ينفقون في سبيله ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منّاً على ما أعطوه ، فلا يمنّون به على أحد ، ولا يمنّون به لا بقول ولا بفعل . وقوله تعالى : ﴿ ولا أذى ﴾ أي لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهاً يحبطون به ما سلف من الإحسان ، ثم وعدهم الله تعالى الجزاء الجزيل على ذلك ، فقال تعالى : ﴿ لهم

(١) راجع الحديث رقم /٣٩٨/

أجرهم عند ربهم ﴾ أي ثوابهم على الله لا على أحد سواه . ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة . ﴿ ولاهم يحزنون ﴾ على ما خلفوا وراءهم من الحياة الدنيا وبهجتها . ثم قال تعالى : ﴿ قول معروف ﴾ أي من كلمة طيبة ودعاء لمسلم ﴿ومغفرة﴾ أي عفو وغفر عن ظلم ﴿خير من صدقة يتبعها أذى﴾ والله ﴿غني﴾ عن خلقه ﴿حليم﴾ أي يحلم ويغفر ويصفح . وقد وردت أحاديث في النهي عن المنّ في الصدقة ، ففي صحيح مسلم عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : ٤١٣ [ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : المنّان بما أعطى، والمسبل إزاره ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب] .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى ، فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى ؛ ثم قال تعالى : ﴿ كالذي ينفق ماله رئاء الناس ﴾ أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كما تبطل صدقة من راءى بها الناس ، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله ، وإنما قصده مدح الناس له ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية ، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته . ولهذا قال تعالى : ﴿ ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائي بإنفاقه : ﴿ فمثله كمثل صفوان ﴾ وهو الصخر الأملس ، ﴿ عليه تراب فأصابه وابل ﴾ وهو المطر الشديد ﴿ فتركه صلداً ﴾ أي أملس يابساً لم يبق عليه شيء من ذلك التراب ، وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب.ولهذا قال تعالى : ﴿ لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ .

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * (٢٦٥) ﴾

وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضاة الله عنهم في ذلك ، ﴿ وتثبيتاً من أنفسهم ﴾ أي متحققون يقيناً أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء ، ونظير هذا في معنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح المتفق عليه : ٤١٤ (من صام رمضان إيماناً واحتساباً) أي مؤمناً بشرعيته ومحتسباً ثوابه عند الله .

وقوله تعالى : ﴿ كمثل جنّة بربوة ﴾ أي كمثل بستان في مرتفع من الأرض،تجري فيه الأنهار.وقوله تعالى : ﴿أصابها وابل﴾ وهو المطر الشديد، كما تقدم ، ﴿فآتت أكلها﴾ أي ثمرتها ﴿ ضعفين ﴾ أي بالنسبة لغيرها من الجنان ﴿فإن لم يصبها وابل فطلٌ﴾ أي اللّين من المطر لا تمحل أبداً لأنهاإن لم يصبها وابل فطل ، وأياً ما كان ، فهو كفايتها ، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً بل يتقبله الله ويكثره ، كل بحسب عمله ، ولهذا قال : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ أي لا يخفي عليه من أعمال عباده شيء .

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * (٢٦٦) ﴾

قال البخاري عند تفسير هذه الآية عن عبيد بن عمير، قال:قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب رسول الله ﷺ : فيمن ترون هذه الآية نزلت ؟ ﴿ أيوّد أحدكم ان تكون له جنة من نخيل وأعناب ﴾ قالوا : الله أعلم ، فغضب عمر فقال : قولوا : نعلم أولا نعلم فقال ابن عباس رضي الله عنهما : في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : ضربت مثلاً بعمل ، قال عمر : أي عمل ؟ قال ابن عباس : لرجل غني يعمل بطاعة الله ، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي ، حتّى أغرق أعماله .

وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية ، وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولاً ... ثم انعكس سيره فأبطل بعمله الثاني ما أسلفه من الصلاح ، واحتاج إلى شيء من الأول في أضيق الأحوال فلم يحصل منه شيء ، وخانه أحوج ما كان إليه ، ولهذا قال تعالى ﴿ وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار ﴾ وهو الريح الشديد ﴿ فيه نار فاحترقت ﴾ أي أحرق ثمارها ، وأباد أشجارها ، فأي حال يكون حاله ؟ وكذلك حال الكافر يكون يوم القيامة إذا رُدَّ إلى الله عز وجل ، ليس له خير فيستعتب كما ليس لهذا قوة فيغرس بستانه . ولا يجده قدم لنفسه خيراً يعود عليه ، كما لم يغنِ عن هذا ولده .

وحرم أجره عند أفقر ما كان إليه ، كما حرم هذا جنته عند ما كان أفقر ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته . ولهذا قال تعالى : ﴿ كذلك يبيّن الله لكم الآياتِ لعلكم تتفكرون ﴾ أي تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني ، وتنزلونها على المراد منها .كما قال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربِ بها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾

يَـا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُم بِـآخِذِيهِ إِلا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيـــدٌ * (٢٦٧) ٱلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * (٢٦٨) يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَـــا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو ٱلْأَلْبَابِ * (٢٦٩)

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإنفاق والمراد به الصدقة ههنا ، قال ابن عباس : مـــن طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها ، وقال أيضاً : أمرهم بالأنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه ، ونهاهم عن التصدّق برذالة المال ودنيئه وهو خبيثه ، فإن الله طيب لا يقبل إلاّ طيباً ، ولهذا قال : ﴿ ولا تيمّموا الخبيث ﴾ أي تقصدوا الخبيـــث ﴿منه تنفقون ولستم بآخذيه ﴾ أي لو أعطيتموه ما أخذتموه ، إلاّ أن تتغاضوا فيه فالله أغنى عنه منكم فلا تجعلوا لله ما تكرهون . نزلت في جماعة من الأنصار كانوا يتصدقـــون برديء التمر ...

وقوله تعالى : ﴿ إلاّ أن تُغمضوا فيه ﴾ يقول : لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحقٍ دون حقكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتّى تنقصوه ؛ فكيف ترضون لربكم مـــا لا ترضون لأنفسكم؟ وحقي عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه !؟.رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ورواه ابن جرير وزاد فيه وهو قوله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتّى تنفقوا مما تحبون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله غني حميد ﴾ أي وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها

فهو غني عنها ، وما ذاك إلا ليساوي الغني الفقير • كقوله تعالى : ﴿ لن ينال الله لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم . ﴾ وهو غني عن جميع خلقه ، وجميع خلقه فقراء إليه وهو واسع الفضل ، لا ينفد ما لديه ؛ فمن تصدق بصدقة من كسب طيب ، فليعلم أن الله غنّي واسع العطاء ، كريم جواد وسيجزيه بها ويضاعفها له أضعافاً كثيرة ، فالذي يقرضه غير عديم ولا ظلوم ، وهو الحميد أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

وقوله تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً والله واسعٌ عليم . ﴾ روى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٤١٥ [إن للشيطان لمّةً بابن آدم ، وللملَك لمّة ، فأمّا لمّةُ الشيطان ، فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق . وأمّا لمّة الملَكِ فإيعاد بالخير وتصديق بالحق .فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله ؛ ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان » – ثم قرأ – : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ﴾] الآية ... رواه الترمذي والنسائي وأخرجه ابن حبان في صحيحه .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ﴾ أي يخوفكم الفقر لتُمسِكوا ما بأيديكم فلا تُنفِقوه في مرضاة الله . ﴿ ويأمركم بالفحشاء ﴾ وإضافةً إلى ذلك يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ، ومخالفة الخلاّق . قال تعالى : ﴿ والله يعدكم مغفرةً منه ﴾ أي في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء ﴿ وفضلاً ﴾ أي في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر.﴿ والله واسع عليم ﴾

وقوله تعالى : ﴿ يؤتي الحكمة من يشاء ﴾ يعني المعرفةَ بالقرآن ، ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله قاله ابن عباس .

وقد روى ابن مردويه عن ابن مسعود مرفوعاً : ٤١٦ [رأس الحكمة مخافة الله] وقال مجاهد : الحكمة الإصابة بالقول ، وقال ليث بن سليم : العلم والفقه والقرآن ، وقال أبو العالية : الحكمة خشية الله ، وقيل الفهم ، وقيل السنة ، وقيل العقل وقال مالك هو الفقه في الدين وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله وقال السدي: الحكمة النبوة.

والصحيح : ما قاله الجمهور : لا تختص بالنبوة بل هي أعم منها ، وأعلاها النبوة ، والرسالة أخص ؛ ولكن لأتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع كما جاء في بعض الأحاديث :

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ : ٤١٧ [لا حسد إلاَّ في اثنتين : رجل أتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل أتاه الله حكمةً فهو يقضي بها ويعلمها] وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه من طرق متعددة عن اسماعيل بن أبي خالد . وقوله تعالى : ﴿ وما يذكَّر إلاَّ أولو الألباب ﴾ أي وما ينتفع بالموعظة والتذكار إلا من له لب وعقل ، يعني به الخطاب ومعنى الكلام .

﴿ وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ • (٢٧٠) إِنْ تُبْدُوا ٱلصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ • (٢٧١) ﴾

يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات ، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده • وتوعّد من لا يعمل بطاعته بل خالف أمره ، وكذب خبره ، وعبد معه غيره • فقال : ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ أي يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته .

وقوله تعالى : ﴿ إن تبدو الصدقات فنعماً هي ﴾ أي إن أظهرتموها فنعم شيء هي . وقوله تعالى : ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ فيه دلالة على إن إسرار الصدقة خير من إظهارها ، لأنها أبعد عن الرياء إلا اذا كان القصد اقتداء الناس به فذلك أفضل.والأفضل في الأصل الإسرار.ولما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة من حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : ٤١٨ [... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلمُ شماله ما تنفق يمينه]

وقال رسول الله ﷺ : ٤١٩ [الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة ، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة .] وان الآية عامة في أن إخفاء الصدقة أفضل سواء كانت مفروضة أو مندوبة ولكن روى ابن جرير عن ابن عباس في تفسيره هذه الآية قال : جعل الله صدقه السر في التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفاً ، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً .

وقوله تعالى : ﴿ ويكفّر عنكم من سيئاتكم ﴾ أي بدل الصدقات ولا سيما إذا كانت سراً،يحصل لكم الخير في رفع الدرجات،ويكفّر عنكم السيئآت . وقوله تعالى : ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أي لا يخفى عليه من ذلك شيء وسيجزيكم عليه .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * (٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْئَلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * (٢٧٣) ٱلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * (٢٧٤) ﴾

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس عن النبي ﷺ : ٤٢٠ [أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية : ﴿ ليس عليك هداهم ﴾ فأمر بالصدقة على كل من سألك من كل دين]﴿ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ﴾ كقوله : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ ونظائرها في القرآن كثيرة .

وقوله تعالى : ﴿ وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ﴾ قال عطاء الخراساني : يعني إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله ، وهذا معنى حسن ، وحاصله : أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله تعالى فقد وقع أجره على الله سبحانه ، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب البرّ أو الفاجر أو مستحق أو غيره ، وهو مثاب على قصده ، ومستند هذا تمام الآية :﴿ وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾

والحديث المخرج في الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٢١ [قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية فأصبح الناس يتحدثون

تصدق على زانية ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية ، لأتصدقن الليلة بصدقة فوضعها في يد غني ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على غني ، قال : اللهم لك الحمد على غني ، لأتصدقن الليلة بصدقة ، فخرج فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية وعلى غني وعلى سارق ، فأُتي فقيل له : أما صدقتك فقد قبلت ، وأما الزانية فلعلها أن تستعفف بها عن زنا،ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله ، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقته.] وقوله تعالى : ﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله ﴾ يعني المهاجرين الذين قد انقطعوا إلى الله ورسوله وسكنوا المدينة ، وليس لهم سبب يردّون به على أنفسهم ما يغنيهم و ﴿ لا يستطيعون ضرباً في الأرض ﴾ يعني سفراً للتسبّب في طلب المعاش،والضرب في الأرض هو السفر.قال الله تعالى : ﴿ وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ أي الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم وفي هذا المعنى الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة قال: ٤٢٢ [قال رسول الله ﷺ : ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان ،واللقمة واللقمتان ، والأكلة والأكلتان،ولكن المسكين الذي لا يجد غنىً يغنيه ولا يفطن له فيتصدّق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً] وقد رواه أحمد وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه قال : ٤٢٣ [سرحتني أمي إلى رسول الله ﷺ أسأله ، فأتيته فقعدت ، قال فاستقبلني فقال : «من استغنى أغناه الله، ومن استعف أعفّه الله ، ومن استكفَ كفاه الله ، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف . قال فقلت (في نفسي) ناقتي الياقوتة خير من أوقية ، فرجعت فلم أسأله]

وقوله تعالى : ﴿ وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾ أي لا يخفى عليه شيء منه وسيجزي عليه أوفر الجزاء يوم القيامة . وقوله تعالى : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات ، حتى النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضاً روى الإمام أحمد عن أبي [٢] مسعود رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ أنه قال : ٤٢٤ [إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة] أخرجاه من حديث شعبة به وقوله تعالى : ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ﴾ أي يوم القيامة على ما فعلوا من الإنفاق في الطاعات.﴿ ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ تقدم تفسيره .

(١) (٢) هو أبو مسعود البدري والله أعلم واسمه عقبة بن عمرو

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ • (٢٧٥) ﴾

لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات ، المخرجين للزكوات ، المتفضلين بالبر والصدقات لذوي الحاجات والقرابات،في جميع الأحوال والأوقات ، شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات • فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها ، إلى بعثهم ونشورهم • فقال تعالى : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾ أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة الا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له وقال ابن عباس : آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يخنق.رواه ابن أبي حاتم ، وروي عن جمع من التابعين نحو ذلك . وروى ابن جرير عن ابن عباس ، قال : (يقال يوم القيامة لآكل الربا : خذ سلاحك للحرب [1] ، وقرأ : ﴿ الذين يأكلون الربا ... ﴾ الآية وذلك حين يقوم من قبره . وقد روى البخاري عن سمرة بن جندب في حديث المنام الطويل : ٤٢٥ [فأتينا على نهر ، حسبت انه كان يقول : أحمر مثل الدم ، واذا في النهر سابح يسبح ، واذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة ، وإذا ذلك السابح يسبح ، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع الحجارة عنده ، فيفغر له فاه فيلقمه حجراً] وذكر في تفسيره انه آكل الربا .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا . وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ أي إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه . وقوله تعالى : ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ يحتمل أن يكون من تمام الكلام رداً عليهم ، أي على ما قالوه من الاعتراض ، مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكماً ، وهو العليم الحكيم الذي لا

---

(١) قلت : وفي ذلك إشارة إلى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا مابقي من الربا إن كنتم مؤمنين، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ... » الآية وأي سلاح يستطيع أن يحمل وقتئذ : ... ؟ الجواب لا سلاح .. ولا حجة . فكيف حاله أمام حرب الله له إذ ذاك ؟ اللهم أجرنا من عذابك •

معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها وما ينفع عباده ، فيبيحه لهم ، وما يضرهم فينهاهم عنه ، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل . ولهذا قال : ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ﴾ أي من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه ، فله ما سلف من المعاملة ؛ لقوله : ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ وكما قال النبي ﷺ يوم فتح مكة ٤٢٦ [وكل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدميَّ هاتين ، وأول ربا أضع ربا العباس.] ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية بل عفا عما سلف ، كما قال تعالى : ﴿ فله ما سلف وأمره إلى الله ﴾ . أيما كانأ كل من الرباقبل التحريم. روى ابن أبي حاتم عن العالية بنت أبقع : ٤٢٧ [ان عائشة زوج النبي ﷺ قالت لها أم بحنة أم ولد زيد ابن أرقم : يا أم المؤمنين : أتعرفين زيد بن ارقم ؟ قالت : نعم قالت : فإني بعته عبداً إلى العطاء بثمانمائة ، فاحتاج إلى ثمنه ، فاشتريته قبل محل الأجل بستمأة فقالت : بئس ما اشتريت وبئس ما اشتريت ؛ أبلغي زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ قد بطل إن لم يتب ، قالت : فقلت أرأيت إن تركت المئتين واخذت الستمأة ؟ قالت : نعم ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ﴾] وهذا الأثر مشهور . وهو دليل لمن حرم مسألة العينة ، مع ما جاء فيها من الأحاديث ...

ثم قال تعالى : ﴿ ومن عاد ﴾ إلى الربا ففعله بعد بلوغه نهي الله عنه، فقد استوجب العقوبة وقامت عليه الحجة.ولهذا قال تعالى : ﴿ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ وقد قال أبو داود عن جابر،قال: لما نزلت ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم ... ﴾ الآية قال رسول الله ﷺ : ٤٢٨ [من لم يذر المخابرة فليؤذن بحرب من الله ورسوله] ورواه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه

وإنما حرمت المخابرة : وهي المزارعة ببعض ما يخرج من الأرض ، والمزابنة : وهي اشتراء الرطب في رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض . والمحاقلة : وهي اشتراء الحب في سنبله في الحقل بالحب على وجه الأرض . إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها حسماً لمادة الربا لأنه لا يُعلم التساوي بين الشيئين قبل الجفاف . ولذا فقد ضيق الفقهاء المسالك المفضية إلى الربا والوسائل الموصلة إليه وحرموها . لأن ما أفضى إلى الحرام حرام ، كما أن ما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب .

وباب الربا من أشكل الأبواب على كثير من أهل العلم فالأصل اتقاء الشبهات . وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٤٢٩ [ان

الحلال بيّن والحرام بيّن وبين ذلك أمور مشتبهات ، فمن أتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه،ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه.] وفي السنن عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٤٣٠ [دع ما يريبك إلى ما لا يريبك] وفي الحديث الآخر ٤٣١ [الإثم ما حاك في القلب وترددت فيه النفس وكرهتَ أن يطّلع عليه الناس]

وعن ابن عباس قال : آخر ما نزل على رسول الله ﷺ ، آية الربا رواه البخاري وروى أحمد عن عمر قال : من آخر ما نزل آية الربا وإن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها لنا فدعوا الربا والريبة .

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ٤٣٢ [« يأتي على الناس زمان يأكلون فيه الربا» قال : قيل له : الناس كلهم؟ قال«من لم يأكله منهم ناله من غباره»] ورواه أبو داود والنسائي وابن ماجة . ومن هذا القبيل تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات ، الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عائشة ، قالت : ٤٣٣ [لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فقرأهن ، فحرم التجارة في الخمر] وقد أخرجه الجماعة ، سوى الترمذي من طرق عن الأعمش به وهكذا لفظ رواية البخاري . وعن علي وابن مسعود قوله ﷺ : ٤٣٤ [لعن الله آكل الربا ومؤكله وشاهديه وكاتبه] .

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَاتِ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * (٢٧٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * (٢٧٧) ﴾

يخبر تعالى أنه يمحق الربا ، أي يذهبه إما بالكلية من يد صاحبه ، أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به ، بل يعدمه به في الدنيا ، ويعاقبه عليه يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ﴾ روى أحمد عن ابن مسعود عن النبي ﷺ ، قال : ٤٣٥ [إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل] وهذا من باب

المعاملة ، بنقيض المقصود.وقوله تعالى : ﴿ ويربي الصدقات ﴾ قرىء بضم الياء والتخفيف ، من ربا الشيء يربو وأرباه يربيه ، أي كثّره ونمّاه . وقرىء يربّي بالضم والتشديد من التربية.. روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٣٦ [من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه ، حتى يكون مثل الجبل] وقوله تعالى : ﴿ والله لا يحب كل كفّار أثيم ﴾ أي لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل ، ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة ، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله من الحلال له فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل ، بأنواع المكاسب الخبيثة ، فهو جحود لما عليه من النعمة ، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل .

ثم قال تعالى مادحاً للمؤمنين بربهم ، المطيعين أمره ، المؤدين شكره ، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، مخبراً عما أعدّ لهم من الكرامة ، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون فقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ • (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ • (٢٧٩) وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ • (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ • (٢٨١) ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بتقواه ، ناهياً لهم عما يقربهم إلى سخطه ، ويبعدهم عن رضاه . فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أي خافوه وراقبوه فيما تفعلون ﴿ وذروا ما بقي من الربا ﴾ أي أتركوا مالكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال ، بعد هذا الأنذار ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي بما شرع الله لكم من تحليل البيع وتحريم الربا وغير ذلك . ٤٣٧ [وقد ذكر زيد بن أسلم وغيره أن هذا السياق نزل في بني عمر بن عمير من ثقيف ،

وبني المغيرة من بني مخزوم، كان بينهم ربا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، طلبت ثقيف أن تأخذه منهم ، فتشاوروا وقالت بني المغيرة لا نؤدي الربا في الإسلام بكسب الإسلام ، فكتب في ذلك عتاب ابن أسيد ، نائب مكة إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية ؛ فكتب بها رسول الله ﷺ إليه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ فقالوا : نتوب إلى الله ونذر ما بقي من الربا فتركوه كلهم] ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، لمن استمر على تعاطي الربا بعد الأنذار ، قال ابن جريج قال ابن عباس : فأذنوا بحرب أي استيقنوا بحرب من الله ورسوله . وقال ابن أبي حاتم عن الحسن وابن سيرين قالا : والله إن هؤلاء الصيارفة لأكلة الربا وأنهم قد أذنو بحرب من الله ورسوله ولو كان على الناس إمام عادل لاستتابهم فإن تابوا وإلا قتلوا . وقال قتادة : أوعدهم الله بالقتل كما يسمعون ، وجعلهم بهرجاً اين ما أ توا ، فإياكم ومخالطة هذه البيوع من الربا فان الله قد أوسع الحلال وأطابه ، فـــلا يلجأنكم إلى معصيته فاقة .

ثم قال تعالى : ﴿ وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلِمون ﴾ بأخذ الزيادة ﴿ ولا تُظلَمون ﴾ أي بوضع رؤوس الأموال أيضاً بل لكم ما بذلتم من غير زيادة عليه ولا نقص منه . وقوله : ﴿ وان كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تَصَدَّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاءً ، لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين : إما أن تقضي وإما أن تُربي . ثم يندب الله إلى الوضع عنه ، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل ؛ فقال : ﴿ وأن تَصَدَّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أي وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين ؛ وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبي ﷺ بذلك :

روى الطبراني عن أبي أمامه أسعد بن زرارة قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٣٨ [من سرَّهُ أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله ، فلييسر على معسر أو ليضع عنه]

روى الإمام أحمد عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال : ٤٣٩ [سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة» قال ثم سمعته يقول : «من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة .» قلت: سمعتك يا رسول الله تقول: من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة ثم سمعتك تقول من انظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة. قال: له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين فإذا حل الدين فأنظرَهُ فله بكل يوم مثلاه صدقة.]

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ٤٤٠ [كان تاجر

يداين الناس ، فإذا رأى معسراً قال لفتيانه : تجاوزوا عنه لعل الله يتجاوز عنا فتجاوز الله عنه]

ثم قال تعالى يعظ عباده ، ويذكرهم زوال الدنيا ، وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى ، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا ، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر ، ويحذرهم عقوبته فقال تعالى : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال ثم مات يوم الأثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول ؛ رواه ابن أبي حاتم . وقد رواه ابن مردويه عن ابن عباس قال : آخر آية نزلت : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ قال ابن جريج : يقولون : إن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليال وبدء يوم السبت ومات يوم الأثنين رواه ابن جرير.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * (٢٨٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ هـذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ، ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها ، وأضبط للشاهد فيها ؛ وقد نبّه على هذا في آخر الآية حيث قال عز وجل ﴿ ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ﴾ وقال سفيان الثوري عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ قال : أنزلت في السَّلَم إلى أجل معلوم . وقال أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحلّه وأذن فيه ، ثم قرأ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى ﴾ رواه البخاري وثبت في الصحيحين عن ابن عباس قال : قدم النبي ﷺ المدينة وهـم يسلفون في الثمار السنة والسنتين والثلاث ؛ فقال رسول الله ﷺ : ٤٤١ [من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم .] وقوله : ﴿ فاكتبوه ﴾ أمرٌ منه تعالى بالكتابة للتوثقة والحفظ . والأمر هنا أمر أرشاد لا أمر إيجاب. وقال أبو سعيد والشعبي والربيع بن أنس وغيرهم : كان ذلك واجباً ، ثم نسخ بقوله تعالى﴿فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤدِ الذي أئتمن أمانته ﴾ [1] روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ انه ذكر : ٤٤٢ [إن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار ، فقال: إئتني بشهداء أشهدهم. قال: كفى بالله شهيداً قال: إئتني بكفيل؛ قال: كفى بالله كفيلاً. قال: صدقت. فدفعها إليه إلى أجل مسمى. فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركباً ، فأخذ خشبة فنقرها ، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها ، ثم زجّج موضعها ، ثم أتى بها البحر ثم قال : اللهـم إنك قد علمتَ أني استسلفت فلاناً ألف دينار ، فسألني كفيلاً ، فقلت : كفى بـالله كفيلاً ، فرضي بذلك ، وسألني شهيداً فقلت : كفى بالله شهيداً ، فرضي بذلك ؛ وإني قد جهدت أن أجد مركباً أبعث بها إليه بالذي أعطاني فلم أجد مركباً، وإني استَوْدَعتُكها فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه . ثم انصرف ، وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلـده ، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعلَّ مركباً يجيئه بما له ، فإذا بالخشبة التي فيها المال ، فأخذها لأهله حطباً ، فلما كسرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الرجل الذي كان تسلّف منه فأتاه بألف دينار وقال : والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت

(١) نسخ الوجوب في الكتابة ، لا الكتابة نفسها ؛ والكتابة أفضل .

مركباً قبل الذي أتيت فيه . قال : هل كنت بعثت إليّ بشيء ؟ قال ألم أخبرك أني لم أجد مركباً قبل هذا الذي جئت فيه ؟ قال : فإن الله قد أدّى عنك الذي بعثت به في الخشبة . فانصرف بألفك راشداً .] وهذا إسناد صحيح وقد رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم .

وقوله تعالى : ﴿ فليكتب بينكم كاتب بالعدل ﴾ أي بالقسط والحق ولا يَجُرْ في كتابته على أحد ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان . وقوله تعالى : ﴿ ولا يأبَ كاتب أن يكتب كما علّمه الله فليكتبْ ﴾ أي ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس ولا ضرورة عليه في ذلك ، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم ، فليتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب ، كما جاء في الحديث : ٤٤٣ [إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرق] وقوله تعالى : ﴿ وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ﴾ أي وليملل المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين، وليتق الله في ذلك. ﴿ ولا يبخس منه شيئاً ﴾ أي لا يكتم منه شيئاً. ﴿ فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً ﴾ محجوراً عليه بتبذير ونحوه. ﴿ أو ضعيفاً ﴾ أي صغيراً ، أو مجنوناً. ﴿ أو لا يستطيع أن يمل هو ﴾ إما لعيّ أو جهل بموضع الصواب. ﴿ فليملل وليه بالعدل ﴾ وقوله تعالى : ﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم ﴾ أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة. ﴿ فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ﴾ وهذا إنما يكون في الأموال وما يقصد به المال ، وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة ، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ انه قال : ٤٤٤ [« يا معشر النساء تصدّقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار » فقالت المرأة منهن جزلةً : وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار قال : « تكثرن اللعن ، وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذي لب منكن » قالت : يا رسول الله : ما نقصان العقل والدين ؟ قال أما نقصان عقلها ، فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل ، فهذا نقصان العقل ؛ وتمكث الليالي لا تصلي وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين »]

وقوله تعالى : ﴿ ممن ترضون من الشهداء ﴾ فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود وقد استدل من رد المستور بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد عدلاً مرضياً . وقوله تعالى: ﴿ أن تضلَّ إحداهما ﴾ يعني المرأتين إذا نسيت الشهادة ﴿ فتذكر إحداهما الأخرى ﴾ أي يحصل لها ذكر بما وقع به من الإشهاد .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يأبَ الشهداء إذا ما دُعوا ﴾ قيل معناه : إذا دُعوا للتحمّل [1]

(١) قلت : التحمل هو : دعوتك لتشهد واقعة حال .

فعليهم الإجابة ومن ها هنا استفيد أن تحمّل الشهادة فرض كفاية ، وقيل وهو مذهب الجمهور والمراد بقوله تعالى : ﴿ ولا يأبَ الشهداء إذا ما دُعوا ﴾ للأداء [١] قال مجاهد وغيره : إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار ، وإذا شهدتَ فدعيت فأجب.وقد روي عن ابن عباس أنها تعم الحالين : التحمُّل ، والأداء . وقوله تعالى : ﴿ ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ﴾ أي ولا تسأموا أي لا تملّوا أن تكتبوا الحق على أي حال من القِلة والكثرة إلى أجله . وقوله تعالى : ﴿ ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألاّ ترتابوا ﴾ أي هذا الذي أمرناكم به أعدل وأقوم للشهادة أي أثبت للشاهد إذا رأى خطه تذكر به الشهادة لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه وأقرب إلى عدم الريبة ويرجع عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه فيفصل بينكم بلا ريبة .

وقوله: ﴿ إلاّ أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألاّ تكتبوها﴾ أي إذا كان البيع حاضراً يداً بيد فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور من تركها .

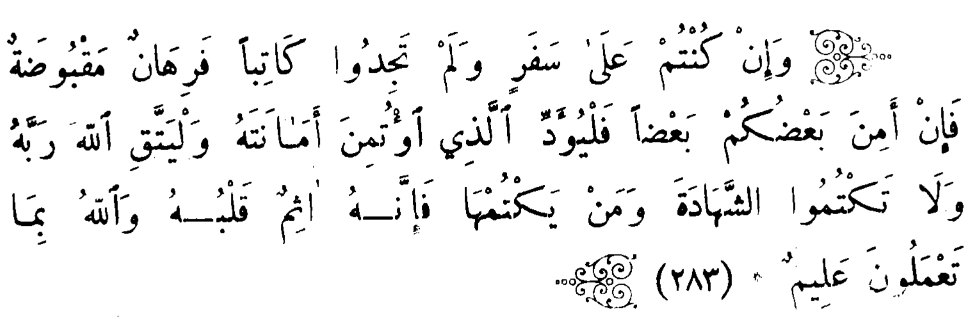
فأما الإشهاد على البيع، فقد قال تعالى : ﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ يعني أشهدوا على حقكم إذا كان فيه أجل،أو لم يكن فيه أجل . وهذا الأمر محمول عند الجمهور،على الإرشاد والندب ، لا على الوجوب. والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصاري وقد رواه الإمام أحمد عن عمارة بن خزيمة أن عمه حدّثه وهو من أصحاب النبي ﷺ ٤٤٥ [إن النبي ﷺ إبتاع فرساً من أعرابي ، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه ثمن فرسه ، فأسرع النبي ﷺ وأبطأ الأعرابي ، فطفق رجال يعترّضون الأعرابي فيساومونه بالفرس ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتاعه النبي ﷺ فنادى الأعرابيُّ النبيَّ ﷺ فقال : إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتعه وإلاّ بعته ؛ فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي ، قال:أوليس قد ابتعته منك ؟ قال الأعرابي : لا والله ما بعتك ؛ فقال النبي ﷺ : بل قد ابتعته منك ، فطفق الناس يلوذون بالنبي ﷺ والأعرابي ، وهما يتراجعان ، فطفق الأعرابي يقول : هلم شهيداً يشهد أني بايعتك ، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي ويلك إن النبي ﷺ لم يكن يقول إلا حقاً حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي يقول : هلم شهيداً يشهد أني بايعتك ؛ قال خزيمة : أنا أشهد أنك قد بايعتَه فأقبل النبي ﷺ على خزيمة فقال : بم تشهد ؟ فقال : بتصديقك يا رسول الله فجعل رسول الله ﷺ شهادةَ خزيمة بشهادة رجلين .] وهكذا رواه أبو داود والنسائي .

---

(١) والأداء : تأديتك الشهادة بما رأيت من تلك الواقعة التي دعيت لحضورها .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يضارّ كاتب ولا شهيد ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : قال (يأتي الرجل فيدعوهما إلى الكتاب والشهادة ، فيقولان : إنّا على حاجة : فيقول إنكما قد أمرتما أن تجيبا ، فليس له أن يضارّهما. وروى عن عكرمة ومجاهد وطاوس وغيرهم نحوه. وقوله تعالى : ﴿ وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ﴾ أي إن خالفتم ما أُمرتم به أو فعلتم ما نهيتم عنه فإنه فسق، كائن بكم لا تحيدون عنه ولا تنفكون . وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره . ﴿ ويعلمكم الله ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ أي عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها فلا يخفى عليه شيء من الأشياء بل علمه محيط بجميع الكائنات .





يقول تعالى ﴿ وإن كنتم على سفر ﴾ أي مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى ﴿ ولم تجدوا كاتباً ﴾ يكتب لكم ؛ قال ابن عباس : أو وجدوه ولم يجدوا قرطاساً أو دواةً أو قلماً فرهان مقبوضة في يد صاحب الحق واستدل جماعة من السلف بهذه الآية على أنه لا يكون الرهن مشروعاً إلا في السفر . وقد ثبت في الصحيحين عن أنس ٤٤٦ [ان رسول الله ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير رهنها قوتاً لأهله] وفي رواية (من يهود المدينة .) [١]

(١) قلت : فيه دليل على أن الرهن يجوز في الحضر * وهناك أمر خطير في تحويل مفهوم الرهن الشرعي إلى احتيال على الشرع ، لاستحلال الربا ويسمونه رهناً . وصورته : أن ترهن دارك أو أرضك أوغير ذلك عند زيد على مبلغ معلوم بشكل تصبح العين المرهونة في حوزة المسترهن يستعملها سكنا أو إسكاناً ، أو فلاحة بلا أي عوض مدة الرهن مع بقاء المبلغ في ذمة الراهن لاينتقص منه شيء ، فعوضاً عن أخذ الربا نقداً أخذه أجرة وسكناً ... وهذا هو الربا الصريح ... ولا عبرة لتغيير اسمه من ربا إلى «رهن» أو «بيع بالوفا» كما افتى بحله متأخرة الأحناف وسموه تلك الأسماء «إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ... » على أن الرهن المشروع أن ترهن الدار أو الارض أو غير ذلك دون ان يستثمر المسترهن المرهون وإن فعل المسترهن ، فللراهن =

وقوله تعالى : ﴿ فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤدِّ الذي أؤتُمن أمانته ﴾ روى ابن أبي حاتم بسند جيد عن أبي سعيد الخدري أنه قال : (هذه نَسَخَتْ مـا قبلها)(١) **إذا ائتمن بعضكم بعضاً** فلا بأس أن لا تكتبوا أو لا تشهدوا ، وقوله تعالى : ﴿ وليتقِ الله ربَّه ﴾ يعني المؤتمن كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن الحسن وسمرة أن رسول الله ﷺ قال : ٤٤٧ [على اليد ما أخذت حتى تؤدِّيَهُ]

وقوله تعالى : ﴿ ولا تكتموا الشهادة ﴾ أي لا تخفوها. ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبهُ ﴾ يعني فاجر قلبه .كقوله تعالى : ﴿ ولا نكتمْ شهادة الله إنّا إذاً لمن الآثمين ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداءَ لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكنْ غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وان تلْووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ وهكذا قال ها هنا : ﴿ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم ﴾

﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ • (٢٨٤) ﴾

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن ، وأنه المطّلع على ما فيهن ، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر وإن دقّت وخفيت. وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : ٤٤٨ [لما نزلت على رسول الله ﷺ : ﴿ لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ إشتدّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوْا رسول الله ﷺ ثم جثوْا على الركب وقالوا يا رسول الله : كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها . فقال رسول الله ﷺ : أتريدون أن تقولوا كما

= أجر المثل؛ يقتطع من أساس المبلغ حتى يستوفى لأن الرهن الشرعي ما هو إلا ضمانة للدين حتى إذا لم يدفع المدين يصار إلى بيع المرهون .هذا اذا كان الراهن قادراً على الدفع وإلاّ «فنظرة إلى ميسرة» وهذا هو الرهن الشرعي... أو فالربا

(١) قلت : أي قوله تعالى : « ... فاكتبوه » أي نسخ وجوب الكتابة اما الكتابة فبقيت للندب لا للوجوب

قال أهل الكتابَيْن من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا ﴿ سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير ﴾ فلما أقرَّ بها القوم ونطقت بها ألسنتهم ، أنزل الله في أثرها ﴿ آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما أكتسبت ربنا لا تؤآخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾] إلى آخره ورواه مسلم مفرداً به ولفظه ٤٤٩ [فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما أكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ قال : نعم ، ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ قال : نعم ، ﴿ ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقةَ لنا به ﴾ قال : نعم ، ﴿ واعفُ عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ قال : نعم .] وفي رواية ابن عباس [قد فعلت]

روى البخاري عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أحسبه ابن عمر ٤٥٠ [﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه ﴾ قال : نسختها الآية التي بعدها] وهكذا ثبت . روي عن علي وابن مسعود وكعب الأحبار والشعبي والنخعي ومحمد بن كعب القرظي وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة أنها منسوخة بالتي بعدها .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٥١ [قال الله : إذا هَمَّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فاكتبوها سيئة ؛ وإذا هم بحسنةٍ فلم يفعلها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشراً .]

ولفظ مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : ٤٥٢ [قال الله : إذا هَمَّ عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة ، فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمأة ضعف واذا هم بسيئةٍ فلم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبتها سيئة واحدة]

وروى مسلم عن عبدالله ، قال : ٤٥٣ [سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة[1] ، قال تلك صريح الإيمان]

---

(١) يعني كراهية الوسوسة

﴿ آمَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلٰئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ • (٢٨٥) لَا يُكَلِّفُ ٱللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ • (٢٨٦) ﴾

﴿ ذكر الاحاديث الواردة في فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا الله بهما ﴾

***

روى البخاري عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٥٤ [من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلته كفتاه] . وهو في الصحيحين .

• قال الإمام أحمد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ ٤٥٥ : [أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش]

• روى أبو عيسى الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال :٤٥٦ [إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام ، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ، ولا يقرأ بهن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان] ثم قال : هذا حديث غريب وهكذا رواه الحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط مسلم ، ولم يخرجاه

روى ابن مردويه عن معقل بن يسار قال قال رسول الله ﷺ : ٤٥٧ [أعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش ، والمفصل نافلة]

***

وقوله تعالى: ﴿آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه﴾ إخبار عن النبي ﷺ بذلك أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت عليه هذه الآية ٤٥٨ [ويحق له أن يؤمن] رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ولم يخرّجاه

وقوله تعالى: ﴿والمؤمنون﴾ عطف على الرسول.ثم أخبر عن الجميع فقال: ﴿كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله﴾ فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد فرد صمد لا إله غيره ولا رب سواه، ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء لا يفرقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون باَرّون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نُسِخ الجميع بشرع محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تقوم الساعة على شريعته ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين.وقوله تعالى: ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا﴾ أي سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه وقمنا به وامتثلنا العمل بمقتضاه • ﴿غفرانك ربنا﴾ سؤال للمغفرة والرحمة واللطف. روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: في قول الله تعالى: ﴿آمن الرسول – إلى قوله – غفرانك ربنا﴾ قال قد غفرت لكم ﴿وإليك المصير﴾ أي المرجع والمآب يوم الحساب. روى ابن جرير عن جابر قال: ٤٥٩ [لما نزلت على رسول الله ﷺ: «آمن الرسول – إلى قوله – ﴿وإليك المصير﴾ قال جبريل: إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك فسل تعطه فسأل: ﴿لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها﴾] إلى آخر الآية.

وقوله تعالى: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ أي لا يكلّف أحداً فوق طاقته، وهذا من لطفه وإحسانه تعالى وهذه الآية هي الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة في قوله تعالى: ﴿وإن تبدوا ما في انفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ أي هو وإن حاسب وسأل، لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعَه، وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿لها ما كسبت﴾ أي من خير.﴿وعليها ما أكتسبت﴾ أي من شر.وذلك ما هو ضمن التكليف. ثم قال تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ أي إن تركنا فرضاً نسياناً أو فعلنا حراماً،كذلك أو أخطأنا أيّ الصواب في العمل جهلاً منا بوجهه الشرعي [1] وروى ابن ماجه عن ابن عباس: قال قال: رسول

(١) قلت: ما عدا توحيد الله سبحانه ومعرفته في توحيد الذات والصفات والأسماء والأفعال فهذه لا يعذر صاحبها بالجهل بها إذ أن عليها مدار الإيمان أو الكفر

الله ﷺ : ٤٦٠ [إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه] ورواه ابن حبان والأوزاعي والطبراني .

روى ابن أبي حاتم عن أم الدرداء عن النبي ﷺ قال : ٤٦١ [إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث : عن الخطأ والنسيان والاستكراه] (١) قال أبو بكر فذكرت ذلك للحسن فقال أجل أما تقرأ بذلك قرآناً : ﴿ربنا لا تؤآخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾

وقوله تعالى : ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة ، وإن أطقناها كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم ، وبعثت نبيك محمداً نبي الرحمة بوضعها .

وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ ، قال : ٤٦٢ [«قال الله نعم] وعن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : ٤٦٣ [قال الله قد فعلت]

وجاء في الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٤٦٤ [بُعثتُ بالحنيفية السمحة] وقوله تعالى : ﴿ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به ﴾ أي من التكليف والمصائب والبلاء.لا تبتلينا بما لا قِبَلَ لنا به.وقوله تعالى : ﴿ واغفر لنا ﴾ أي فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا . ﴿ واغفر لنا ﴾ أي فيما بيننا وبين عبادك فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة ﴿ وارحمنا ﴾ أي فيما يستقبل، فلا توقعنا في ذنب آخر. ولهذا قالوا : إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء : أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه ، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم ، وأن يحفظه فلا يوقعه في نظيره . وقد تقدم في الحديث أن الله قال: نعم. وفي الحديث الآخر قال الله : قد فعلت . وقوله تعالى : ﴿ أنت مولانا ﴾ أي أنت وليّنا وناصرنا ، وعليك توكلنا وأنت المستعان وعليك التكلان ، ولا حول ولا قوة إلاّ بك . ﴿ فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ أي الذين جحدوا دينك ، وأنكروا وحدانيتك ، ورسالة نبيك ، وعبدوا غيرك ، فانصرنا عليهم ، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة.قال الله : نعم . وفي الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس . قال الله قد فعلت .

قال ابن جرير عن معاذ بن جبل أنه إذا فرغ من هذه السورة ﴿ فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ قال : آمين ورواه وكيع عنه . انه كان إذا ختم البقرة قال : آمين

تم اختصار تفسير سورة البقرة وله الحمد

(١) في سنده : شهر فان كان ابنَ حوشب فضعيف .



نزلت بعد سورة الأنفال

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ الٓمٓ ۞ (١) اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۞ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ۞ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ۞ (٤) ﴾

قد ذكرنا الحديث الوارد أن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين : ﴿ الله لا إلٓه إلا هو الحي القيوم ﴾ و ﴿ الٓم . الله لا إلٓه إلا هو الحي القيوم ﴾ عند تفسير آية الكرسي وقد تقدم الكلام على قوله : ﴿ الٓم ﴾ في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته ؛ وتقدم الكلام على قوله : ﴿ الله لا إلٓه إلا هو الحي القيوم ﴾ في تفسير آية الكرسي .

وقوله تعالى : ﴿ نزَّل عليك الكتاب بالحق ﴾ يعني نزل عليك القرآن يا محمد بالحق أي لا شك فيه ولا ريب وقوله تعالى : ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي من الكتب المنزلة قبله ، فهي تصدقه بما أخبرت به ، وبشّرت في قديم الزمان من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ ، وأنزال القرآن العظيم عليه . وقوله تعالى : ﴿ وأنزل التوراة ﴾ أي على موسى بن عمران ﴿ والإنجيل ﴾ أي على عيسى بن مريم عليهما السلام ﴿ من قبل ﴾ هذا القرآن ﴿ هدى للناس ﴾ أي في زمانهما ﴿ وأنزل الفرقان ﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال بما يذكره الله من الحجج والدلائل والبراهين ويوضحه وينبّه عليه من ذلك . وقال قتادة والربيع بن أنس

الفرقان ــ ها هنا ــ القرآن وقوله تعالى : ﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ أي جحدوا بها وردّوها بالباطل ﴿لهم عذاب شديد﴾ أي يوم القيامة ، ﴿والله عزيز﴾ أي منيع الجناب عظيم السلطان ﴿ذو انتقام﴾ ممن كذب بآياته وخالف رسله .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ • (٥) هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ • (٦)﴾

يخبر تعالى أنه عالم الغيب والشهادة ، لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض ، وهو الذي يخلقكم في الأرحام كما يشاء ، ذكراً أو انثى حسناً أو قبيحاً وشقياً أو سعيداً ﴿لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ أي هو الخالق فهو إذاً المستحق للآلهية وحده لا شريك له، له العزة التي لا ترام، والحكمة والأحكام. وهذه الآية فيها تصريح بأن عيسى بن مريم عبد مخلوق كما خلق سائر البشر ، لأن الله صوّره في الرحم وخلقه كما يشاء ، فكيف يكون إلهاً كما زعمته النصارى ... !!! ؟ وقد تقلّب في الأحشاء وتنقّل من حال إلى حال .

﴿هُوَ ٱلَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ • (٧) رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْوَهَّابُ • (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ • (٩)﴾

يخبر تعالى ان في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب، أي واضحات لا التباس فيها على أحد . ومنه آيات أُخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير أو بعض من الناس . فالأصل في ذلك، ردُّ المتشابه إلى المحكم فمن فعل ذلك اهتدى، ومن عكس انعكس . ولهذا قال : ﴿ هن أم الكتاب ﴾ أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه ﴿ وأخر متشابهات ﴾ أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم ، أو شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد .

وقد اختلفوا في المحكم والمتشابه فقال ابن عباس : المحكمات : ناسخه وحلاله وحرامه وحدوده وأحكامه، وما يؤمر به ويعمل به وعنه أيضاً: المحكمات قوله تعالى: ﴿ قل تعالوا أتلُ ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً ﴾ وقوله تعالى ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلاّ إياه ﴾ والآيات بعدها [١] وقال يحي بن يعمر : الفرائض والأمر والنهي والحلال والحرام .

والمتشابهات قال أبو فاختة ، فواتح السور . وقيل في المتشابهات : المنسوخة والمقدم والمؤخر والأمثال والأقسام وما يؤمن به ولا يعمل به رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وقال محمد بن اسحق : المحكمات هن حجة الرب وعصمة العباد ورفع الخصوم الباطل ليس لهن تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه . والمتشابهات في الصدق ليس لهن تصريف ولا تحريف ولا تأويل ، إبتلى الله فيهن العباد ، كما ابتلاهم في الحلال والحرام ، ألاّ يصرفن إلى الباطل ، ولا يحرَّفن عن الحق .

ولهذا قال : ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ ﴾ أي خروج عن الحق إلى الباطل ﴿ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم تحريفه إلى مقاصدهم الفاسدة ، لاحتمال صرف اللفظ ، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه،لأنه دامغ لهم وحجة عليهم . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ ابتغاء الفتنة ﴾ أي الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن ، وهو حجة عليهم لا لهم ، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وتركوا الاحتجاج بقوله : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ وغير ذلك من الآيات

---

(١) يعني الآيات رقم (٢٣) و ٢٤ – ٣٩ .

المحكمات الصريحة بأنه خلقٌ من مخلوقات الله وعبدٌ ورسولٌ من رسل الله .

وقوله تعالى : ﴿ وابتغاء تأويله ﴾ أي تحريفه على ما يريدون . مثل أن يعلموا ما يكون وما عواقب الأشياء وروى البخاري ومسلم وأبو دواد عن العقبي ... عن عائشة رضى الله عنها قالت : ٤٦٥ [قال رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب ـ إلى قوله ـ وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ قالت : قال رسول الله ﷺ: « فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم »] لفظ البخاري وكذا رواه الترمذي.

روى الامام أحمد ... عن أبي أمامة يحدث عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ٤٦٦ [﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ قال « هم الخوارج »] وهذا الحديث أقل أقسامه أن يكون موقوفاً من كلام الصحابي ، ومعناه صحيح فإن أول بدعة وقعت في الإسلام فتنة الخوارج.وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسّم النبي ﷺ غنائم حنين فكأنهم رأوا في عقولهم الفاسدة أنه لم يعدل في القسمة ، ففاجأوه بهذه المقالة ... فقال قائلهم وهو ذو الخويصرة : أعدل فإنك لم تعدل ؛ فقال رسول الله ﷺ : ٤٦٧ [لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل ، أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني ! فلما قفا الرجل استأذن عمر بن الخطاب وفي رواية خالد بن الوليد في قتله ؛ فقال دعه .. فانه يخرج من ضئضيء هذا ، أي من جنسه،قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة،فأينما لقيتموهم فاقتلوهم،فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم] ثم كان ظهورهم أيام علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، وقتلهم بالنهروان ثم تشعبت منهم شعوب ، وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة، ثم انبعثت القدرية، ثم المعتزلة، ثم الجهمية وغير ذلك من البدع،التي أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ في قوله : ٤٦٨ (وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة.قالوا وما هم يا رسول الله ؟ قال من كان على ما أنا عليه وأصحابي) أخرجه الحاكم بهذه الزيادة في مستدركه .

وقوله تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ اختلف القراء في الوقف ههنا ، فقيل على الجلالة ؛ كما تقدم عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : التفسير على أربعة أنحاء : (فتفسير لا يعذر أحد في جهله به ، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها ، وتفسير يعلمه

الراسخون في العلم ، وتفسير لا يعلمه إلا الله) روى ابن مردويه بسنده إلى ابن العاص ، عن رسول الله ﷺ قال : ٤٦٩ [ان القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه فآمنوا به .] روى عبد الرزاق عن ابن طاووس عن أبيه قال : كان ابن عباس يقرأ وما يعلم تأويله إلا الله . ويقول الراسخون آمنا به . وكذا رواه ابن جرير عن عمر بن عبد العزيز ومالك بن أنس أنهم يؤمنون به ولا يعلمون تأويله. وعن ابن جرير إن في قراءة عبدالله بن مسعود : أن تأويله عند الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به . وكذا عن أبي بن كعب ، واختار ابن جرير هذا القول .

روى محمد بن اسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير : وما يعلم تأويله الذي أراد ما أراد إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به ثم ردوا تأويل المتشابهات على ما عرفوا من تأويل المحكمات التي لا تأويل لأحد فيها إلاّ تأويل واحد. فاتسق بقولهم الكتاب وصدق بعضه بعضاً فنفذت الحجة، وظهر به العذر وزاح به الباطل ، ودفع به الكفر . وفي الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لأبن عباس فقال : ٤٧٠ [اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل .]

وقوله تعالى إخباراً عنهم أنهم يقولون : ﴿ آمنّا به ﴾ أي المتشابه ﴿ كل من عند ربنا ﴾ أي الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق ، وكل واحد منهما يصدق الآخر ويشهد له لأن الجميع من عند الله وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد ، كقوله : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾ أي إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها، أولو العقول السليمة والفهوم المستقيمة . روى الإمام أحمد عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال : ٤٧١ [سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارءُون. فقال : « إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما أنزل كتاب الله ليصدق بعضه بعضاً ، فلا تكذبوا بعضه ببعض فما علمتم منه فقولوا به ، وما جهلتم فكِلوه إلى عالمه]

ثم قال تعالى عن الراسخين في العلم انهم دعوا ربهم قائلين : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾ أي لا تُملها عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه ، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ، ﴿ وهب لنا من لدنك رحمةً ﴾ تثبت بها قلوبنا ، وتجمع بها شملنا ، وتزيدنا بها إيقاناً وإيماناً ﴿ إنك أنت الوهاب ﴾ . روى ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها قالت : ٤٧٢ [كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يدعو : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قلت : يا رسول الله ما أكثر

ما تدعو بهذا الدعاء ؛ فقال : ليس من قلب إلاّ وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن إذا شاء أن يقيمه أقامه وإذا شاء أن يزيغَه أزاغه ، أما تسمعي قوله : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمةً انك أنت الوهاب ﴾] غريب من هذا الوجه ولكن أصله ثابت في الصحيحين وغيرهما من طرق كثيرة بدون زيادة ذكر هذه الآية الكريمة .

وقوله تعالى : ﴿ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ﴾ أي يقولون في دعائهم : إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم ، وتفصل بينهم وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه ، وتجزي كلاً بعمله وما كان عليه في الدنيا من خير وشر .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً وَأُولٰئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ • (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ • (١١) ﴾

﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي بآيات الله وكذبوا رسله وخالفوا كتابه ﴿ لن تغنيَ عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وَقود النار ﴾ أي حطبها الذي تسجر بـه كقوله تعالى : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ وروى ابن مردويه بسنده عن أم الفضل : ٤٧٣ [ان رسول الله ﷺ قام ليلة بمكة ، فقال : هل بلغت يقولهـا ثلاثا ؛ فقام عمر بن الخطاب وكان أواها ، فقال : اللهم نعم ، وحرصت وجهدت ، ونصحت ، فاصبر فقال النبي ﷺ « ليظهرن الإيمان حتى يُرَدَّ الكفرُ إلى مواطنه ، وليخوضنّ رجال البحار بالاسلام ، وليأتين على الناس زمان يقرأون القرآن ، فيقرأونه ويعلمونه ، فيقولون : قد قرأنا وقد علمنا ، فمن هذا الذي هو خير منا ؟ فما في أولئك من خير قالوا:يا رسول الله فمن أولئك ؟ قال أولئك منكم ، أولئك هم وقود النار] .

وقوله تعالى : ﴿ كدأب آل فرعون ﴾ أي كصنيع آل فرعون ، والمعنى أن الكافرين لا تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم بل يهلكون ويعذبون كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسل فيما جاء وابه من آيات الله وحججه ﴿ والله شديد العقاب ﴾ أي شديد الأخذ ، أليم العذاب ، لا يمتنع منه أحد وهو الفعال لما يريد الذي غلب كل شيء ، لا إله غيره ولا رب سواه .

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ● (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ● (١٣) ﴾

ذكر محمد بن اسحق : أن رسول الله ﷺ ٤٧٤ [لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة جمع اليهود وقال « يا معشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب به قريشاً] فقالوا ، يا محمد لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنّا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا . فأنزل الله قوله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ــ إلى قوله ــ لعبرة لأولي الأبصار ﴾] أي قل يا محمد للكافرين ستغلبون في الدنيا ، وتحشرون يوم القيامة إلى جهنم وبئس المهاد . ولهذا قال تعالى : ﴿ قد كان لكم آية ﴾ أي عبرة ﴿ في فئتين ﴾ أي طائفتين ﴿ التقتا ﴾ للقتال ﴿ فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة ﴾ أي يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثليْهم ، وذلك قوله تعالى:﴿ يرونهم مثليهم رأي العين ﴾ أي جعل ذلك سبباً لنصرة المسلمين عليهم.هذا ما حكاه ابن جرير عن بعض العلماء .

كما روى محمد بن اسحق عن عروة بن الزبير ٤٧٥ [أن رسول الله ﷺ لما سأل العبد الأسود لبني الحجاج عن عدة قريش قال كثير قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قال : يوماً تسعاً ويوماً عشراً قال النبي ﷺ : القوم ما بين تسعمأة إلى ألف]

والظاهر أن الله تعالى قلّل المشركين في أعين المسلمين ، وقلل المسلمين في أعين المشركين وذلك لما حصل التصاف ليقدم كل منهما على الآخر ، ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ﴾ ولما التحم الجيشان بقي المسلمون يرون المشركين قليلين . قال أبو إسحق ، عن عبدالله بن مسعود لقد قُلِّلوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي : تراهم سبعين ؟ قال : أراهم مئة قال فأسرنا رجلاً منهم ، فقلنا كم كنتم ؟ قال ألفاً ، أما المشركون فرأوا المسلمين مثليهم ليحصل الرعب والخوف والجزع والهلع في قلوبهم وذلك قوله تعالى : ﴿ يرونهم مثليهم رأى العين ﴾ أي رأوهم ألفين بأعينهم تأييداً من الله للمسلمين ولهذا قال الله تعالى : ﴿ والله يؤيد بنصره من يشاء إن في

ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ أي يعز المؤمنين ويذل الكافرين وفي ذلك عبرة لمن له بصيرة وفهم، ليهتدي به إلى حكم الله وأفعاله وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ • (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ • (١٥) ﴾

حزب ٦

يخبر تعالى عما زيّن للناس في هذه الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد. كما ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: ٤٧٦ [ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء] فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب مرغوب فيه، مندوب إليه قال رسول الله ﷺ: ٤٧٧ [الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة، إن نظر إليها سرته، وان أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله] وقال عليه الصلاة والسلام: ٤٧٨ [تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة]. وكذلك المال تارة يكون للفخر والتكبر فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام ووجوه البر والطاعات، فهذا ممدوح محمود شرعاً. وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار وحاصلها: المال الجزيل. روى ابن أبي حاتم عن أنس عن رسول الله ﷺ في قوله: ٤٧٩ [القنطار يعني ألف دينار].

« وحب الخيل على ثلاثة أقسام » تارة يكون في سبيل الله للغزو عليها فمن نوى ذلك فيثاب وتارة تربط فخراً ونواءً لأهل الإسلام فهذه على صاحبها وزر، وتارة للتعفف واقتناء نسلها ولم ينس حق الله في رقابها فهذه لصاحبها ستر، كما سيأتي الحديث بذلك إن شاء الله عند قوله تعالى: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ الآية.

وأما المسومة : الراعية ، وقيل الغرة والتحجيل ، وقيل غير ذلك . روى الإمام أحمد عن سويد بن هبيرة عن النبي ﷺ : ٤٨٠ (خير مال امرىء له مهرة مأمورة أو سكة مأبورة) المأمورة . الكثيرة النسل ، والسكة النخل المصطف ، والمأبورة الملقحة. وقوله تعالى : ﴿ والأنعام ﴾ يعني الإبل والبقر والغنم ﴿ والحرث ﴾ يعني الأرض المتخذة للغراسة والزراعة . ثم قال تعالى ﴿ ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ أي إنما هذا زهرة الحياة الدنيا ، وزينتها الفانية الزائلة ﴿ والله عنده حسن المآب ﴾ أي حسن المرجع والثواب . روى ابن جرير عن عمر بن الخطاب لما نزلت ﴿ زين للناس حب الشهوات ﴾ قال قلت : الآن يا رب حين زينتها لنا ؛ فنزلت ﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ﴾ أي قل يا محمد للناس أؤخبركم بخير مما زين للناس في هذي الحياة الدنيا من نعيمها الذي هو زائل لا محالة ... ثم اخبر عن ذلك فقال ﴿ للذين اتّقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبد الآباد ﴿ وأزواج مطهرة ﴾ أي من الدنس والحيض والنفاس ﴿ ورضوان من الله ﴾ أي يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبدا كقوله تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ أي أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم . ثم قال تعالى : ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ أي يعطي كلاً بحسب ما يستحقه من العطاء .

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۞ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ۞ (١٧) ﴾

يصف تبارك وتعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل فقال تعالى : ﴿ الذين يقولون ربنا إننا آمنّا ﴾ أي بك وبكتابك وبرسولك ، ﴿ فاغفر لنا ذنوبنا ﴾ أي بإيماننا بك وبما شرعته لنا [1] فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك ﴿ وقنا عذاب

(١) قلت : أي نتوسل إليك بإيماننا بك وبكتابك وبرسولك. وهذا توسل مشروع، لأنه توسل بالأعمال الصالحة وهو أعلى الأعمال ، كيف لا وهو إيمان بالله وكتابه ورسوله ، وهناك توسل ممنوع ما علمنا إياه الله ولا بلغنا، رسوله صلى الله عليه وسلم وهو : التوسل بذوات المخلوقين الذي ما هو إلا الزلفى الممنوعة التي كان يفعلها المشركون منذ الجاهلية الأولى ، فلم يتقبلها الله بل منعها ...وعلمنا خيراً منها .

النار ﴾ ﴿ الصابرين ﴾ على فعل الطاعات وترك المحرمات ﴿ والصادقين ﴾ فيما أخبروا به من الإيمان ﴿ والقانتين ﴾ الخاضعين الطائعين ﴿ والمنفقين ﴾ من أموالهم في جميع ما أمروا به من صلة الأرحام ومواساة ذوي الحاجات ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار وثبت في الصحيحين والمسانيد والسنن عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ ، قال : ٤٨١ [ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟] ... وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل ، ثم يقول : يا نافع هل جاء السحر ؟ فإذا قال : نعم أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح . رواه ابن أبي حاتم . وقال ابن جرير عن حاطب قال : سمعت رجلاً في السحر في ناحية المسجد وهو يقول : يا رب ، أمرتني فأطعتك ، وهذا السحر فاغفر لي . فنظرت فإذا هو ابن مسعود رضي الله عنه . وروى ابن مردويه عن أنس بن مالك قال : ٤٨٢ [كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر في آخر السحر سبعين مرة] .

شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ (١٨) إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝ (١٩) فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ ٱهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝ (٢٠)

شهد تعالى وكفى بالله شهيداً ، وهو أصدق الشاهدين وأعدلهم ، وأصدق القائلين ﴿ أنه لا إله إلا هو ﴾ أي المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق كما قال تعالى : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك ﴾ الآية ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته ، فقال : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم ﴾ وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام ﴿ قائماً بالقسط ﴾ وهو كذلك في جميع الأحوال ﴿ لا إله إلا هو ﴾

تأكيد لما سبق ﴿ العزيز الحكيم ﴾ العزيز الذي لا يرام جنابة الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره. روى ابن أبي حاتم بسنده إلى الزبير : ٤٨٣ [قال سمعت رسول الله ﷺ حين قرأ هذه الآية ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة ﴾. قال وأنا أشهد أي رب] روى أبو القاسم الطبراني في المعجم الكبير بسنده عن غالب القطان : ٤٨٤ [قال أتيت الكوفة في تجارة فنزلت قريباً من الأعمش فلما كانت ليلة أردت أن أنحدر قام فتهجد من الليل فمر بهذه الآية ﴿ شهد الله ﴾ إلى قوله ﴿ ان الدين عند الله الإسلام ﴾ ثم قال الأعمش ، وأنا أشهد بما شهد الله به واستودع الله هذه الشهادة وهي لي عند الله وديعة ﴿ إن الدين عند الله الاسلام ﴾ قالها مراراً ؛ قلت : لقد سمع فيها شيئاً فغدوت إليه فودعته ثم قلت : يا أبا محمد ، إني سمعتك تردد هذه الآية قال : أو ما بلغك ما فيها ؟ قلت : أنا عندك منذ شهر لم تحدثني . قال : والله لا أحدثك بها إلى سنة ، فأقمت سنة فكنت على بابه ، فلما مضت السنة قلت : يا أبا محمد ، قد مضت السنة . قال حدثني أبو وائل عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عز وجل : عبدي عهد إلي وأنا أحق من وفى بالعهد ، أدخلوا عبدي الجنة»] وقوله تعالى :

﴿ إن الدين عند الله الاسلام ﴾ إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الاسلام وهو أتباع الرسل فيما بعثهم به الله حتى ختمهم بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه الا من جهة محمد ﷺ ، فمن لقى الله بعد بعثه محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبَّلٍ . كما قال تعالى : ﴿ ومن يبتغِ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾ أي بغى بعضهم على بعض ، فاختلفوا في الحق لتحاسدهم وتباغضهم فحمل ذلك على مخالفة بعضهم في جميع الأقوال والأفعال وإن كانت حقاً ، ثم قال تعالى : ﴿ ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب ﴾ في مجازاته ومحاسبته على تكذيبه وعقابه على ذلك .

ثم قال تعالى ﴿ فإن حاجُّوكَ ﴾ أي جادلوك في التوحيد ﴿ فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعنِ ﴾ أي فقل : أخلصت عبادتي لله وحده لا شريك له ﴿ ومن اتبعنِ ﴾ أي على ديني . ثم قال تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ أن يدعو أهل الكتاب والمشركين إلى الاسلام فقال تعالى : ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾ أي والله عليه حسابهم وإليه مآبهم وهو الذي

يُضل ويَهدي من يشاء وله الحجة البالغة ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية أو الضلالة ، هذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على بعثته ﷺ العامة لجميع الخلق ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً ﴾ وفي الصحيحين وغيرهما مما ثبت توافره بالوقائع المتعددة أنه ﷺ بعث كتبه يدعو إلى الله ملوك الآفاق وطوائف من بني آدم من عربهم وعجمهم كتابيهم وأميهم امتثالاً لأمر الله له بذلك

وقد روى عبد الرزاق بسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : ٤٨٥ [والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة : يهودي ولا نصراني ، ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار] رواه مسلم . وقال ﷺ : ٤٨٦ [بعثت إلى الأحمر والأسود وقال : ٤٨٧ [كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة] .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ • (٢١) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ • (٢٢) ﴾

هذا ذم من الله تعالى لأهل الكتاب بما ارتكبوه من المآثم في تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً التي بلّغتهم إياها الرسل استكباراً أوعناداً ، واستنكافاً عن اتباع الحق وفوق ذلك قتلوا النبيين بغير ما سبب إلاّ لدعوتهم إياهم إلى الحق ﴿ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس ﴾ وهذا هو غاية الكبر كما قال النبي ﷺ : ٤٨٨ [الكبر بطر الحق وغمط الناس] روى ابن أبي حاتم عن أبي عبيدة الجراح رضي الله عنه قال : ٤٨٩ [قلت يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة ؟ قال : « رجل قتل نبياً ، أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر » ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغيرحق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ : « يا أبا عبيدة قتلت بنو اسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة فقام مائة وسبعون رجلاً من بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف

ونهوهم عن المنكر . فقتلوهم جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم. فهم الذين ذكر الله عز وجل »] . ولذلك قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا والعذاب المهين في الآخرة ﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ ٱلْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ ٱللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ * (٢٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلا أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * (٢٥) ﴾

يقول تعالى منكراً على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بالتوراة والأنجيل فإذا دُعُوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من اتّباع محمّد ﷺ أعرضوا : وهذا غايةٌ في ذمهم لمخالفتهم وعنادهم ثم قال تعالى : ﴿ ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ﴾ أي إنهم افتروا على الله بأنهم إنّما يعذبون في النار سبعة أيام فقط وقد تقدّم تفسير ذلك في سورة البقرة [١] ثم قال تعالى : ﴿ وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ثبتهم على باطلهم ما خدعوا به أنفسهم بأن النار لا تمسهم إلا أياما معدودات وهذا محض اختلاق منهم . فتوعّدهم الله بقوله جل وعلا: ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ﴾ أي كيف يكون حالهم يوم القيامة أمامَ الله وهم الذين كذّبوا رسله وأنبياءه وقتلوهم ، وقتلوا مصلحيهم فهو سائلهم عن ذلك ومجازيهم به ذلك اليوم الذي لا شك في وقوعه ﴿ ووفيت كل نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ .

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * (٢٦) تُولِجُ ٱللَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱللَّيْلِ

---

(١) قلت : راجع قوله تعالى : «وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة» من سورة البقرة رقم الآية/٨٠

وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۞ (٢٧)

يقول تبارك وتعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد معظماً لربك وشاكراً له ومفوضاً إليه ومتوكلاً عليه ﴿ اللهم مالكالملك ﴾ أي أنت المتصرف في خلقك، الفعال لما تريد، لك الملك كله. ﴿ تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ﴾ أي أنت المعطي والمانع ، ما شئت كان ، وما لم تشأ لم يكن . وفي هذه الآية : تنبيه وإرشاد إلى شكره سبحانه على نعمته على هذه الأمة بتحويله النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكي خاتم الأنبياء على الاطلاق ورسوله إلى الإنس والجن والذي خصته خصائص لم يُعطها نبي قبله، ولا رسول من نشر أمته في الآفاق، واظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع صلوات الله عليه وسلامه . وهكذا يعطي النبوة لمن يريد كما قال تعالى : ﴿ الله يعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وقوله تعالى : ﴿ تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ﴾ أي تأخذ من طول هذا فتزيده في قِصَرِ هذا فيعتدلان ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان ثم يعتدلان ، وهكذا في فصول السنة الأربعة . وقوله تعالى : ﴿ وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ﴾ أي تخرج الزرع من الحب ، والحب من الزرع ، والنخلة من النواة والنواة من النخلة ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والدجاجة من البيضة ، والبيضة من الدجاجة وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء . ﴿ وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ أي تعطي من شئت وتقتّر على من شئت لحكمتك البالغة وطبق إرادتك ومشيئتك . روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ قال : ٤٩٠ [اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في هذه الآية من آل عمران ﴿ قل اللهم مالك الملك ــ إلى قوله ــ انك على كل شيء قدير ﴾] .

۞ لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَيَةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۞ (٢٨)

نهى تبارك وتعالى المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء يسرون إليهم بالمودة من

دون المؤمنين ، ثم توعّد على ذلك ، فقال تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ﴾ أي فقد برىء من الله كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إلاّ أن تتقوا منهم تقاة ﴾ أي إلاّ من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم فله أن يتّقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته ، كما قال البخاري عن أبي الدرداء : إنه قال : إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم. وروى الثوري : عن ابن عباس : ليس التقية بالعمل إنما التقية باللسان ويؤيد هذا ، ما قاله تعالى ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلاّ من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ روى البخاري : قال الحسن : التقية إلى يوم القيامة ؛ ثم قال تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ أي يحذركم نقمته في مخالفته وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه ، وعادى أولياءه . ثم قال تعالى : ﴿ وإلى الله المصير ﴾ أي إليه المرجع والمنقاب ليجازي كل عامل بعمله ، روى ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران ، قال : قام فينا معاذ فقال : يا بني أود إني رسول رسول الله إليكم تعلمون أن المعاد إلى الله إلى الجنة أو إلى النار .

﴿ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَـا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمٰوٰتِ وَمَـا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ • (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُ وَٱللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ • (٣٠) ﴾

يخبر تعالى : عباده أنه يعلم سرائرهم وظواهرهم . ولا تخفى عليه منهم خافية ، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والأزمان ، في السموات والأرض لا يغيب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك فيهما . ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ أي قدرته نافذة في جميع ذلك . وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته لئلا يرتكبوا ما يبغضه منهم . فهو عالم بما يفعلون ، وقادر على معاجلتهم بالعقوبة ، وإن أمهلهم فإنما يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . ولهذا قال بعد هذا : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ يعني يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير أو شر ، فإن خيراً سرّه ، أو شراً ساءه

وودلو أنه تبرأ منه وأن يكون بينهما أمد بعيد ثم قال تعالى مؤكداً ومتوعداً ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ أي يخوفكم عقابه ، ثم قال مُرجِّياً لعباده لئلا يقنطوا من رحمته ﴿ والله رؤوف بالعباد ﴾ أي رحيم بخلقه يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ويتبعوا رسوله الكريم ﷺ .

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ • (٣١) قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَافِرِينَ • (٣٢) ﴾

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع للمحمدي في كافة أقواله وأفعاله ؛ كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : ٤٩١ (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) ولهذا قال : ﴿ ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ أي يحصل لكم وفوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم . وهو أعظم من الأول كما قال بعض الحكماء : ليس الشأن أن تُحِبَّ ، إنما الشأن أن تُحَبَّ . ثم قال تعالى : ﴿ ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ أي باتباعكم الرسول ﷺ يحصل لكم هذا من بركة سفارته ، ثم قال تعالى آمراً لكل أحد من خاصٍ وعامٍ : ﴿ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا ﴾ أي تخالفوا عن أمره : ﴿ فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر ، والله لا يحب من اتصف بذلك ، وان ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم رسل الله ورسوله للجن والإنس الذي لو كان الأنبياء والرسل بل وأولو العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلا أتباعه والدخول في طاعته ، واتباع شريعته ، كما سيأتي تقريرهُ عند قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ﴾ الآية ... إن شاء الله تعالى .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَنُوحاً وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ • (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ • (٣٤) ﴾

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض فاصطفى آدم عليه السلام خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه الجنة ، ثم أهبطه منها لما له في ذلك من الحكمة ، واصطفى نوحاً عليه السلام أول رسول بعثه إلى أهل الأرض، لما عبد الناس الأوثان وأشركوا بالله. واصطفى آل ابراهيم ومنهم سيدُ البشر خاتمُ الأنبياء محمد ﷺ . وآل عمران والمراد والد مريم بنت عمران أم عيسى بن مريم عليه السلام . وعيسى من ذرية أبراهيم كما سيأتي :

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ • (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ • (٣٦) ﴾

أمرأة عمران هذه هي أم مريم عليها السلام وقد دعت الله تعالى أن يهبها ولداً فاستجاب دعاءها ، فواقعها زوجها فحملت منه . فلما تحققت الحمل ، نذرت أن يكون مفرّغاً للعبادة لخدمة بيت المقدس ، فقالت : يا رب ﴿ إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبّل مني إنك أنت السميع العليم ﴾ أي السميع لدعائي العليم بنيّتي ﴿ فلما وضعتها قالت ربِّ إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى ﴾ أي في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الأقصى ﴿ وإنّي سمّيتها مريم ﴾ فيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق لأنه شرع من قبلنا ، وقد حكي مقرراً ، وبذلك أثبتت السنّة عن رسول الله ﷺ حيث قال : ٤٩٢ [ولد لي الليلة ولد سميته باسم أبي إبراهيم] أخرجاه وكذلك ثبت فيهما : ٤٩٣ [أن أنس بن مالك ذهب بأخيه حين ولدته أمه إلى رسول الله ﷺ فحنكه وسمّاه عبدَ الله] فأما حديث الحسن عن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال : ٤٩٤ [كل غلام مرتهن بعقيقته ، يذبح عنه يوم السابع ويسمى ويحلق رأسه] فقد رواه أحمد ، وأهل السنن ،

وصححه الترمذي ، وروي : يدعى ، وهو أثبت واحفظ والله أعلم ، وقوله إخباراً عن أم مريم أنها قالت ﴿ وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ أي عوذتها وذريتها أي وهو ولدها عيسى عليه السلام فاستجاب الله لها ذلك كما روى عبد الرزاق عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٤٩٥ [ما من مولود يولد الا مسه الشيطان حين يولد ، فيستهل صارخاً من مسه إياه إلا مريم وابنها) ثم يقول أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : ﴿ وإنّي أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾] أخرجاه .

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ • (٣٧) ﴾

يخبر ربنا تعالى أنه تقبّلها نذيرةً ، وأنه أنبتها نباتاً حسناً بأن قرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين فلهذا قال : ﴿ وكفّلها زكريا ﴾ أي جعله كافلاً لها ، وإنما قدر الله كون زكريا كفلها لسعادتها ، لتقتبس منه علماً جماً نافعاً وعملاً صالحاً ، لكونه كان زوج أختها كما ورد في الصحيح : ٤٩٦ « [... فإذا بيحيي وعيسى وهما ابنا الخالة] وأخبر عن سيادتها وجلادتها في محل عبادتها فقال تعالى : ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ﴾ قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم يعني وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف ، وقيل علماً أو صحفاً فيها علم رواه ابن أبي حاتم والأول أصح وفيه دلالة على كرامات الأولياء ، وفي السنّة لهذا نظائر كثيرة ... فاذا رأى زكريا هذا عندها ﴿ قال يا مريم أنّى لك هذا ﴾ أي يقول من أين لكِ هذا ؟ ﴿ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ • (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَٰئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي

ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِنَ ٱلصَّالِحِينَ • (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ • (٤٠) قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَارِ • (٤١)

لما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، تاقت نفسه للولد وإن كان شيخاً كبيراً قد وهن عظمه، واشتعل رأسه. وكانت امرأته كبيرةً وعاقراً فسأل ربه بنداء خفي وقال : ﴿ رب هب لي من لدنك ﴾ أي من عندك ﴿ ذريةً طيبة ﴾ أي ولداً صالحاً ﴿ إنك سميع الدعاء ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ﴾ أي خاطبته وأسمعته وهو قائم يصلي في محراب عبادته [1] أي محل ومجلس صلاته . ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة : ﴿ إن الله يبشرك بيحيى ﴾ أي بولد من صلبك اسمه يحي ﴿ مصدقاً بكلمة من الله ﴾ أي بعيسى بن مريم إذ هو أول من صدّق به وعلى سنته ومنهاجه .

وقوله تعالى : ﴿ وسيّداً ﴾ أي سيداً في العلم والحلم والعبادة والخلق . وقوله تعالى : ﴿ وحصوراً ﴾ قيل أنه لا يأتي النساء ، أو لا ينزل الماء ، أو ذكرُه مثل هدبة الثوب أو مثل القذاة ... !!!

وقد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء : (إعلم ان ثناء الله على يحي أنه كان ﴿ حصوراً ﴾ ليس كما قاله بعضهم ... بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ، ونقاد العلماء وقالوا : هذه نقيصة وعيب ، ولا يليق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب كأنه حصور عنها .

إن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها إما بمجاهدة كعيسى عليه الصلاة والسلام ، أو بكفاية من الله عز وجل ليحي عليه الصلاة والسلام ، ثم هي في حق من قدر عليها ، وقام بالواجب فيها ، ولم تشغله عن ربه

---

(١) المحراب هو المسجد كله. وليس هو الفجوة الموجودة في جدار القبلة، فهذه بدعة محدثة... ما كانت في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا في زمن صحابته ، والوليد بن عبد الملك قيل إنه هو الذي أحدثها وأحدث بدعة إدخال قبر الرسول في المسجد بالمدينة رغم نهيه فالله حسيبه

درجةً عليا . وهي درجة نبينا ﷺ الذي لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه، بل زاده ذلك عبادة ، بتحصينهن وقيامه عليهن ، وإكسابه لهن وهدايته إياهن، بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو ، وان كانت من حظوظ دنيا غيره . فقال : ٤٩٧ (حبب إليّ من دنياكم ...) هذا لفظه والمقصود أنه مدح ليحيي بأنه حصور ليس أنه لا يأتي النساء ، بل معناه كما قاله هو وغيره : انه معصوم من الفواحش والقاذورات ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلاءهن بل قد يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال ﴿ هب لي من لدنك ذريةً طيبة ﴾ كأنه قال : ولداً له ذرية ونسل وعقب والله سبحانه وتعالى أعلم .

• • • •

وقوله تعالى ﴿ ونبياً من الصالحين ﴾ هذه بشارة ثانية بنبوة يحيي عليه السلام بعد البشارة بولادته وهي أعلى من الأولى كقوله لأم موسى ﴿ إنّا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ فلما تحقق زكريا عليه السلام هذه البشارة ، عجب من وجود الولد بعد الكبر ﴿ قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال ﴾ أي الملك — ﴿ كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ أي هكذا أمر الله عظيم لا يعجزه شيء ﴿ قال رب اجعل لي آية ﴾ أي علامة استدل بها على وجود الولد مني ﴿ قال آيتك ألاّ تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً ﴾ أي إشارة لا تستطيع النطق مع أنك سوي صحيح ثم أمر بكثرة الذكر والتكبير والتسبيح في هذه الحال ، فقال تعالى ﴿ واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار ﴾ وسيأتي طرف آخر في بسط هذا المقام في أول سورة مريم ان شاء الله تعالى .

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَالَمِينَ ۝ (٤٢) يَا مَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ ۝ (٤٣) ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝ (٤٤)

يخبر تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم بنت عمران عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك إن الله اصطفاها لكثرة عبادتها وطهارتها من الأكدار والوساوس ، واصطفاها ثانية

مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين ، وقد روى مسلم بسنده عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سمعت وسول الله ﷺ يقول : ٤٩٨ [خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد] اخرجاه في الصحيحين .

روى الترمذي بسنده عن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال : ٤٩٩ [حسبك من نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون] تفرد به الترمذي وصححه .

روى ابن جرير بسنده عن أبي موسى الأشعري ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٠٠ (كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلاّ مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون) وقد أخرجه الجماعة إلاّ أبا داود من طرق عن شعبة به .

ولفظ البخاري : ٥٠١ (ويكمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا اسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام) وقد أخبر تعالى عن الملائكة أنهم أمروا مريم بكثرة العبادة والخشوع والركوع والسجود والدأب في العمل لما يريد الله من الأمر الذي قدره الله وقضاه ، مما فيه محنة لها ، ورفعة في الدارين بما أظهر الله فيها من قدرته العظمى حيث خلق منها ولداً من غير أب فقال تعالى : ﴿ يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ أما القنوت فهو الطاعة في خشوع قال مجاهد : كانت مريم عليها السلام تقوم حتى تتورم كعباها ، والقنوت هو طول الركوع في الصلاة ، ﴿ وإسجدي واركعي من الراكعين ﴾ أي كوني منهم ثم قال تعالى لرسوله بعدما أطلعه على جليّة الأمر ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ أي نقصه عليك ﴿ وما كنت لديهم ﴾ أي ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضر ، وشاهد لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم أيّهم يكفلها ، وذلك لرغبتهم في الأجر .

قال ابن جرير عن عكرمة قال : ثم خرجت أم مريم بمريم تحملها في خرقها إلى بني الكاهن بن هارون أخي موسى عليهما السلام قال : وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجبة من الكعبة ، فقالت لهم : دونكم هذه النذيرة ، فاني حررتها ، وهي أنثى ، ولا يدخل الكنيسة حائض وأنا لا أردها إلى بيتي ، فقالوا : هذه ابنة إمامنا ـ وكان عمران يؤمهم في الصلاة ـ وصاحب قربانا ؛ فقال زكريا : إدفعوها لي فإن خالتها تحتي ، فقالوا : لا تطيب أنفسنا ، هي ابنة إمامنا ، فذلك حين اقترعوا بأقلامهم التي يكتبون

بها التوراة فقرعهم زكريا فكفلها ، وكان مع ذلك – أي زكريا – كبيرهم وسيدهم وعالمهم وإمامهم ونبيهم ، صلوات الله على نبينا وعليه وعلى سائر النبيين .

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ • (٤٥) وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ • (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ • (٤٧) ﴾

هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام بأن سيوجد منها ولد عظيم له شأن كبير .
قال الله تعالى : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمةٍ منه ﴾ أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله ، أي يقول له : كن فيكون ، وهذا تفسيرُ قوله تعالى : ﴿ مصدّقاً بكلمةٍ من الله ﴾ كما ذكره الجمهور على ما سبق بيانه ﴿ اسمه المسيح عيسى ابن مريم ﴾ نسبة إلى أمه حيث لا أب له . ﴿ وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقرّبين ﴾ أي له وجاهةٌ ومكانة عند الله في الدنيا بما يوحيه إليه من الشريعة ، وينزل عليه من الكتاب وغير ذلك مما منحه الله به ؛ وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولي العزم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. وقوله تعالى : ﴿ ويكلّم الناس في المهد وكهلاً ﴾ أي يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حال صغره ، معجزة وآيةً وفي حال كهولته حين يوحي الله إليه ﴿ ومن الصالحين ﴾ أي في قوله وعمله ، له علم صحيح وعمل صالح .

روى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : ٥٠٢ (لم يتكلم في المهد إلاّ ثلاث : عيسى ، وصبي كان في زمن جريج ، وصبي آخر)(١) فلما

(١) قلت : لعله الرضيع الذي قال لأمه : (اصبري يا أماه فإنك على الحق) من حديث قصة الأخدود لما أن تقاعست أن تقع في النار التي أضرمها ذو نواس اليهودي باليمن ، ليرجع النصارى المؤمنين عن دينهم الحق ، الى اليهودية.

سمعت بشارة الملائكة لها بذلك عن الله عز وجل قالت: ﴿ ربي أنّى يكونُ لي ولد ولم يمسسني بشر ﴾ كيف يوجد هذا الولد مني وأنا لست بذات زوج ولا من عزمي أن أتزوج فقال لها الملك ﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء ﴾ أي هكذا أمرُ الله عظيم لا يعجزه شيء وصرّح ههنا بقوله تعالى: ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ ولم يقل: يفعل، كما في قصة زكريا بل نص ههنا بقوله ﴿ يخلق ما يشاء ﴾ لئلاً تبقى لمبطل شبهة. وأكّد ذلك بقوله تعالى: ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ أي فلا يتأخر شيئاً بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة كقوله تعالى: ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ أي إنما نأمر مرة واحدة لا مثنوية فيها فيكون ذلك الشيء سريعاً كلمح البصر.

﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنجِيلَ • (٤٨) وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِىءُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ • (٤٩) وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ • (٥٠) إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ • (٥١) ﴾

يخبر تعالى عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى عليه السلام: إن الله يعلّمه الكتاب والحكمة والظاهر أن المراد بالكتاب ههنا: الكتابة. والحكمة تقدم تفسيرها في سورة البقرة [١] ﴿ والتوراة ﴾ الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام ﴿ والإنجيل ﴾

(١) ورد لفظ الحكمة في سورة البقرة في عدة مواضع، وخلاصة المعنى أن الحكمة هي: معرفة الحقيقة في كل شيء، ووضع الأشياء في محلها مع مراعاة الصحة في الحكم. فتحري الحقائق العلمية والفقه في الدين لمعرفة مراد الله من أحكامه هي الحكمة البالغة «ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً» فهي أمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله.

الكتاب الذي أنزل على عيسى عليه السلام وقد كان عيسى يحفظ هذا وهذا . **وقوله تعالى** ﴿ ورسولاً إلى بني اسرائيل ﴾ **قائلاً** لهم : ﴿ أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ﴾ فكان يصوّر من الطين شكل طير ، ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله عز وجل ﴿ وأبرىء الأكمه ﴾ الذي يولد أعمى وهو أبلغ في المعجزة وأقوى في التحدي ﴿ والأبرص ﴾ معروف ﴿ وأحيي الموتى بإذن الله ﴾ قال كثير من العلماء بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه . فزمان موسى عليه السلام غلب عليه السحر فلقفت عصاةموسى ثعابينهم التي ما هي إلاّ الحبال والعصيّ . وفي زمان عيسى عليه السلام غلب الطب فجاءهم بما لا قبل لهم به وهو إحياء الموتى وشفاء الأكمه والأبرص وكذلك محمد ﷺ بعث في زمان الفصحاء والبلغاء فأتاهم بكتاب من الله عز وجل ، فلو اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . وقوله تعالى : ﴿ وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم ﴾ الآن وغداً ﴿ إن في ذلك لآية لكم ﴾ على صدقي فيما جئتكم به ﴿ إن كنتم مؤمنين ، ومصدقا لما بين يديّ من التوراة ﴾ أي مقرراً لها ومثبتاً ﴿ ولأحلّ لكم بعض الذي حرّم عليكم ﴾ فيه دلالة على أن عيسى عليه السلام نسخ بعض شريعة التوراة وهو الصحيح من القولين ثم قال تعالى : ﴿ وجئتكم بآية من ربكم ﴾ أي بحجّة دالة على صدقي فيما أقول لكم ﴿ فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربي وربكم فاعبدوه ﴾ أي أنا وأنتم سواء في العبودية له والخشوع والاستكانة إليه ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾

نصف الحزب

﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ • (٥٢) رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّاهِدِينَ • (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ • (٥٤) ﴾

يقول تعالى ﴿ فلمّا أحسّ عيسى ﴾ أي استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار

على الضلال ﴿ قال من أنصاري إلى الله ﴾ أي من أنصاري في الدعوة إلى الله ﴿ قال الحواريّون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ الحواريون جمع حواري وهو الناصر كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب ، فانتدب الزبير ثم ندبهم فانتدب الزبير رضي الله عنه ، فقال النبي ﷺ : ٥٠٣ [لكل نبي حواري وحواريّ الزبير] وقال ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ قال : مع أمة محمد ﷺ وهذا إسناد جيد .

ثم قال تعالى عن ملإٍ من بني إسرائيل ، فيما هَمّوا به من الفتك بعيسى عليه السلام وإرادته بالسوء والصلب حين تمالؤا عليه ، ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان ، وكان كافراً : أن هنا رجلاً يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك ويفسد الرعايا. وأنه ولد زنية حتى استثاروا غضب الملك. فبعث في طلبه فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به ، نجاه الله تعالى من بينهم ورفعه إليه وألقى شبهه على أحدهم فاعتقدوه عيسى فأخذوه وأهانوه وصلبوه ووضعوا على رأسه الشوك . وكان هذا من مكر الله بهم فإنه نجّى عبده ورسوله ورفعه وتركهم في ضلالهم يعمهون . ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * (٥٥) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ * (٥٦) وَأَمَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ * (٥٧) ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَاتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ * (٥٨) ﴾

اختلف المفسرون في قوله تعالى : ﴿ إني متوفّيك ورافعك إليّ ﴾ فقال قتادة وغيره

هذا من المقدم والمؤخر ، تقديره إني رافعك ومتوفيك ، يعني بعد ذلك . وقيل : متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت ، وقيل : تَوَفِّيه رفعُهُ ، وقال الأكثرون : المراد بالوفاة – ها هنا – النوم ، كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي يتوفّاكم بالليل ﴾ وقال تعالى : ﴿ الله يتوفّى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴾ وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم : ٥٠٤ [الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا] وقيل : رفعه في منامه [1] . وقال تعالى : ﴿ ... وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قبل موته ﴾ عائد على عيسى عليه السلام ، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة على ما سيأتي بيانه – إن شاء الله – ﴿ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ وهكذا وقع فإن المسيح عليه السلام لما رفعه الله إليه ، تفرقت أصحابه شيعاً بعده. فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته . ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله ، وآخرون قالوا : هو الله ، وآخرون قالوا : هو ثالث ثلاثة . وقد حكى الله مقالتهم في القرآن ورد على كل فريق ، فاستمروا على ذلك قريباً من ثلاثمئة سنة ثم نبغ لهم ملك من ملوك اليونان اسمه قسطنطين ، فدخل في دين النصرانية ، قيل حيلة ليفسده، فزاد فيه ونقص منه ووضعت له القوانين وأحل في زمانه لحم الخنزير ، وصلّوا له إلى الشرق وصوروا له الكنائس والمعابد والصوامع وزاد في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه وصار دين المسيح (دين قسطنطين) إلا أنه بنى لهم من الكنائس والصوامع والمعابد والأديرة مـا يزيد على اثني عشر ألف معبد وبنى المدينة المنسوبة إليه. وهم في هذا كله قاهرون لليهود أيده الله عليهم ، لأنه أقرب إلى الحق منهم وإن كان الجميع كفاراً .

فلما بعث الله محمداً ﷺ فكان كل من آمن به، يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق ، فكان أتباع محمد هم أتباع كل نبيّ على وجه الأرض لأنه دعاهم إلى التصديق بجميع الحق فكانوا أولى بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته ، فلهذا ولما كانوا هم المؤمنين بالمسيح حقاً ، سلبوا النصارى بلاد الشام وألجؤوهم إلى الروم . فلجأوا إلى مدينتهم القسطنطينية . ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة .

---

(١) قلت : والراجح عندي والله أعلم قول قتادة وغيره : هذا من المقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إليّ ومتوفيك

وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أمته بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية ويستفيئون ما فيها من الأموال [١] ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جداً لم ير الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها. ولهذا قال تعالى: ﴿ وجاعل الذين أتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ وكذلك فعل بمن كفر من اليهود أو غلا فيه أو أطراهُ من النصارى، عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي وإزالة الأيدي عن الممالك وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق. ﴿ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم ﴾ أي في الدنيا بالنصر والظفر وفي الآخرة بالجنات العاليات ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾ أي هذا الذي قصصنا عليك يا محمد في أمر عيسى عليه السلام ومبدأ ميلاده وكيفية أمره لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿ ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذي فيه يمترون. ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ وها هنا قال تعالى:

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۞ (٥٩) ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۞ (٦٠) فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ

(١) قلت: صدقت يا رسول الله أشهد أنك رسول الله. فقد فتح المسلمون القسطنطينية، وصارت بلاد إسلام بعد أن كانت بلاد كفر، بل صارت دار الخلافة الاسلامية واستولوا بعدها على ثلث أوروبا وكادوا أن يفتحوا (روما) لولا أن [illegible]. وان المسلمين اليوم وإن كانوا متأخرين لأنهم هجروا أحكام الإسلام والحكم على أساسه، إنما سيرجعهم الله بعد العودة إلى الإسلام من جديد، وسيعلو الإسلام [illegible] بفتح القسطنطينية، [illegible] القتال [illegible] من جهادهم أولاً ثم تحرير بلادهم من كل أثر الكفر ظاهراً كان أو باطناً، ونوصي من بعدنا الأجيال جيلاً فجيلاً... نسلم كلاً منهم هذه الأمانة حتى يحققها الله.

ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَاذِبِينَ • (٦١) إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ • (٦٢) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِٱلْمُفْسِدِينَ • (٦٣)

يقول جل وعلا : ﴿ إن مثل عيسى عند الله ﴾ في قدرة الله حيث خلقه من غير أب ﴿ كمثل آدم ﴾ حيث خلقه من غير أب ولا أم بل ﴿ خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ فالذي خلق آدم من غير أب قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرى . وإن جاز ادعاء البنوّة في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب ، فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى ومعلوم اتفاقاً إن ذلك باطل ، فدعواه في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً . ولكن الربّ جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى وحواء خلقها من ذكر بلا أنثى وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، كما خلق بقية البريّة من ذكر وأنثى . ولهذا قال تعالى في سورة مريم ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ وقال ههنا : ﴿ الحقُّ من ربِّك فلا تكن من الممترين ﴾ أي هذا هو الحق في شأن عيسى الذي لا محيدَ عنه ولا صحيحَ سواه ، وماذا بعدَ الحق إلاّ الضلال .

ثم قال تعالى : ﴿ فمن حاجّك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءَكم ونساءنا ونساءَكم وأنفسنا وأنفسَكم ﴾ أيْ نُحضرهم في هذه المباهلة ﴿ ثم نبتهل ﴾ أي نلتعن ﴿ فنجعل لعنةَ الله على الكاذبين ﴾ أي منّا ومنكم .

وسبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نجران . فإن النصارى لما قدموا فجعلوا يحاجّون في عيسى ويزعمون فيه ما يزعمون من البنوّة والإلهية فأنزل الله صدر هذه السورة ردّاً عليهم ؛ كما ذكر الإمام محمد بن اسحق بن يسار في سيرته تلخيصاً وقدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكباً فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم يؤول أمرهم إليهم وأمر هؤلاء يؤول إلى ثلاثة منهم ؛ وهم العاقب وكان أميرهم وصاحب الرأي والمشورة ، والسيد وكان عالمهم ، وأبو حارثة بن علقمة وكان أسقفهم [illegible] عظمته الروم وملوكها وشرفوه [illegible] يعرف أمر رسول الله ﷺ وصفته وشأنه مما علمه من الكتب المتقدمة ولكن حمله ذلك على الاستمرار في النصرانية لما يرى من تعظيمه فيها ، وجاهه عند أهلها قال

قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر عليهم الحبَرات والجبب والأردية ، وقد حانت صلاتهم فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ : ٥٠٥ [فقال رسول الله ﷺ دعوهم] فصلوا إلى المشرق قال فكلّم الثلاثة رسول الله ﷺ فقالوا عن عيسى أنه الله وابن الله وثالث ثلاثة تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

ويحتجون في قولهم هو الله ... بأنه كان يحيي الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص والأسقام ويخبر بالغيوب وغير ذلك . وفي قولهم بأنه ابن الله انه لم يكن له أب يعلم وقد تكلم في المهد ويحتجون على قولهم بأنه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى : فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا ، فيقولون لو كان واحداً ما قال إلا فعلتُ وأمرت وقضيت وخلقت ولكنه هو وعيسى ومريم تعالى الله وتقدس وتنزه عما يقول الظالمون علواً كبيراً . وفي كل ذلك من قولهم قد نزل القرآن، فلما كلمه الحبران، قال لهما رسول الله ﷺ : (أسلما) قالا قد أسلمنا . قال : «أنكما لم تسلما فأسلما» قالا : بلى قد أسلمنا قبلك . قال : «كذبتما يمنعكما من الإسلام ادعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير» قالا فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت رسول الله ﷺ فلم يجبهما . فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها. قال ابن اسحق فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله والفصل من القضاء بينه وبينهم، وأمر بما أمر به من ملاعنتهم أن ردّوا ذلك عليه ، ودعاهم إلى ذلك فقالوا: يا أبا القاسم ، دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه. ثم انصرفوا عنه. ثم خلوا بالعاقب، وكان صاحب رأيهم فقالوا : يا عبد المسيح ماذا ترى ؟ فقال: «والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً لنبيٌّ مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم، ولقد علمتم أنه ما لاعن قومٌ نبياً قط ، فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم ، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم فأتوا النبي ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا أن لا نلاعنك ونتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا ، فإنكم عندنا رضا . قال محمد بن جعفر فقال رسول الله ﷺ: « أئتوني العشية أبعثْ معكم القويّ الأمين » فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ما أحببت الأمارة قط ، حبي إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت إلى الظهر مهجراً ، فلمّا صلى رسول الله ﷺ الظهر ، سلّم ثم نظر عن يمينه وعن شماله ، فجعلت أتطاول له ليراني فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه

فقال : « أخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه » قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة رضي الله عنه .]

والغرض : أن وفودهم كان في سنة تسع ، لأن الزهري قال : كان أهل نجران أول من أدّى الجزية إلى رسول الله ﷺ ، وآية الجزية إنما أنزلت بعد الفتح وهي قوله تعالى ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ــ إلى قوله ــ حتّى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ﴾ قال جابر : ﴿ أنفسنا وأنفسكم ﴾ رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب ﴿ وابناءنا ﴾ الحسن والحسين ﴿ ونساءنا ﴾ فاطمة . ثم قال تعالى ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾ أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد. ﴿ وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم فإن تولّوا فإن الله عليم بالمفسدين ﴾ أي من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد والله عليم به وسيجزيه على ذلك شر الجزاء وهو القادر الذي لا يفوته شيء سبحانه وبحمده ونعوذ به من حلول نقمته

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ ٱللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * (٦٤) ﴾

هذا الخطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ ﴾ والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما قال هاهنا . ثم وصفها بقوله ﴿ سواء بيننا وبينكم ﴾ أي عدل ونصف نستوي نحن وأنتم فيها ، ثم فسرها بقوله ﴿ أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ﴾ لا وثناً ولا صليباً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ولا شيئاً ، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له ، وهذه دعوة جميع الرسل ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ ؛ ثم قال تعالى : ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ قال ابن جريج : يعني يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله ﴿ فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ أي فإن تولّوا عن هذا النصَف وهذه الدعوة ، فاشهدوا أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم

وقد ذكرنا في شرح البخاري عند روايته من طريق الزهري بالسند إلى أبي سفيان في قصته حين دخل على قيصر فسأله عن نسب رسول الله ﷺ وعن صفته ونعته وما يدعو إليه فأخبره بجميع ذلك على الجلية ، مع أن ابا سفيان إذ ذاك كان مشركاً ، لم يسلم إلا بعد... وكان ذلك بعد صلح الحديبية وقبل الفتح ، كما هو مصرح به في الحديث... والغرض أنه قال ثم جيء بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فإذا فيه :

٥٠٦ [بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من أتبع الهدىٰ أما بعد ، فأسلم تسلمْ ، وأسلم يؤتـك الله أجرك مرتين فإن تولّيت فإنما عليك إثم الأريسيّين و ﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباًمن دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون ﴾] .

وقد ذكر ابن اسحق وغير واحد أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها ، نزلت في وفد نجران ، وقال الزهري هم أول من بذل الجزية ، لا خلاف أن آية الجزية نزلت بعد الفتح ، فما الجمع بين كتابة هذه الآيةقبل الفتح إلى هرقل في جملة الكتاب ، وبين ما ذكره ابن اسحق والزهري ؟ والجواب عن وجوه (١ً) يحتمل نزولها مرتين قبل الحديبية ومرة بعد الفتح (٢ً) أن صدر سورة آل عمران نزل في وفد نجران إلى هذه الآية وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك (٣ً) يحتمل أن قدوم وفد نجران كان قبل الحديبية ، وبذل الصلح عن المباهلة من دون الجزية (٤ً) يحتمل أن رسول الله ﷺ لما أمر بكتب هذا في كتابه إلى هرقل لم يكن أنزل بعد ثم أنزل القرآن موافقةً له ﷺ [1]

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ (٦٥) هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا

---

(١) والظاهر – والله أعلم – أن الأمر كما احتمله ابن كثير في الوجه الثاني : أي أن صدر سورة آل عمران نزلت في وفد نجران إلى هذه الآية وتكون هذه الآية نزلت قبل ذلك .

وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * (٦٧) إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ * (٦٨)

ينكر تبارك وتعالى على اليهود والنصارى في محاجّتهم في إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ودعوى كل طائفة أنه كان منهم كما قال محمد بن اسحق بن يسار عن ابن عباس قال : إجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ ، فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهودياً وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانياً فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجّون في إبراهيم ... ﴾ أي كيف تدّعون أيها اليهود أنه كان يهودياً وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً مع تقدمه في الزمن إذ أن اليهودية والنصرانية كانتا بعد زمنه بدهر ، ولذا قال تعالى : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم . فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم ﴾ الآية فالطرفان تحاجّا في إبراهيم بلا علم . ولو أنهما تحاجّا فيما يعلمون من دينَيْهما لكان أولى . لذا فقد أنكر الله على اليهود والنصارى ذلك ، وأمرهم برد العلم إليه تعالى ولهذا قال : ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانيا ولكن كان حنيفاً مسلماً ﴾ أي مائلاً عن الشرك إلى الإيمان ﴿ وما كان من المشركين ﴾ ثم قال تعالى ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للّذين اتَّبعوه وهذا النبيُّ والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾ أي أحق الناس بابراهيم هم الذين أتبعوه على دينه في حينه . وهذا النبي أي محمد ﷺ والذين آمنوا من أصحابه ومن تبعهم بعدهم . روى سعيد بن منصور بسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه ، ان رسول الله ﷺ : ٥٠٧ [لكل نبي ولاة من النبيين ، وإن وليّ منهم أبي وخليل ربي عز وجل إبراهيم عليه السلام ثم قرأ : « إن أولَى الناس بإبراهيم للذين أتبعوه ... » الآية] والله وليّ المؤمنين » أي جميع المؤمنين بأنبيائه ورسله .

وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * (٦٩) يَٰأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ

بِآيَاتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ * (٧٠) يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ * (٧١) وَقَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ آمِنُوا بِٱلَّذِي أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ * (٧٤)

يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين ويبغون إضلالهم ، ولم يعلموا أنهم ممكور بهم ، وأن وبال ذلك يعود على أنفسهم دون أن يشعروا، ثم أنكر عليهم فقال تعالى: ﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ﴾ أي تعلمون صدقها وحقها ﴿ يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾ أي تكتمون الحق الذي في كتبكم من صفة محمد ﷺ وأنتم تعرفون ذلك وتتحققونه ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره ﴾ هذه مكيدة بضعفاء الناس تلبيساً عليهم فإنهم اتفقوا أن يظهروا إيمانهم أول النهار ويصلّوا مع المسلمين الصبح ، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ، ليوهموا الجهلة من الناس إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين، ولهذا قالوا : ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ أي لا تطمئنوا أو تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين من التوراة من ذكر رسول الله ﷺ ولزوم اتباعه فيحتجون به عليكم فلا تظهروه إلاّ لأهل ملّتكم ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾ أي هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان وقوله تعالى : ﴿ أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، أو يحاجّوكم عند ربكم ﴾ يقولون : خشية أن يساووكم بالعلم ، أو يتخذوه حجةً عليكم في الدنيا والآخرة فلا تظهروه . قال تعالى : ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ﴾ أي تحت تصرفه، وهو المعطي المانع، يمنُ على من يشاء بالإيمان والعلم والتصرف التام، ويضل من يشاء فيعمي بصره وبصيرته، بما صرف عن الحق وله الحجة التامّة والحكمة البالغة

﴿ والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ أي اختصكم أيها المؤمنون بالفضل، وهداكم إلى أكمل شرع ، وجعلكم أتباع أشرف نبيٍّ .

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ • (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ • (٧٦) ﴾

يخبر تعالى عن اليهود بأن منهم الخونة ، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم فإن منهم ﴿ من إن تأمنه بقنطار ﴾ أي من المال ﴿ يؤدّه إليك ﴾ أي وما دونه بطريق الأولى أن يؤديه إليك ﴿ ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤدّه إليك إلا ما دمت عليه قائماً ﴾ أي بالمطالبة الملحَّة في استخلاص حقك، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار، فما فوقه أولى أن لا يؤدّيَه إليك . وقد تقدّم الكلام على القنطار في أول السورة [١] وأما الدينار فمعروف ، ومناسب أن يذكر ها هنا الحديث الذي علّقه البخاري في غير موضع من صحيحه ومن أحسنها سياقةً في كتاب الكفالة ـ وقد رواه الأمام أحمد وتقدم ذكره في سورة البقرة فلا حاجة لإعادته [٢] ـ

وقوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ﴾ أي إنما حملهم على الجحود أي جحود الحق أنهم يقولون : ليس علينا في ديننا حرجٌ في أكل أموال الأميين وهم العرب ، فإن الله قد أحلّها لنا . قال الله تعالى ﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ أي وقد اختلقوا هذه المقالة وائتفكوها بهذه الضلالة فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها وإنما هم قوم بُهْتٌ . روى ابنُ أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال : ٥٠٨

---

(١) عند قوله تعالى : « زين للناس حب الشهوات ... » رقم /١٤/ .

(٢) هو في الجزء الثالث من سورة البقرة عند قوله تعالى .. « فاكتبوه » ثم نسخ ذلك بقوله تعالى « فان أمن بعضكم ... » رقم الحديث /٤٤٢/ فليرجع إليه من يشاء .

[لما قال أهل الكتاب : ليس علينا في الأميين سبيل قال نبي الله ﷺ : « كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدميَّ هاتين إلاَّ الأمانة ، فإنها مؤدَّاة إلى البر والفاجر »][1] ثم قال تعالى : ﴿ بلى من أوفى بعهده واتقى ﴾ أي لكن من أوفى بعهده واتقى منكم يا أهل الكتاب الذي عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بعث كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم بذلك ، واتقى محارم الله ، واتبع طاعته وشريعته التي بعث بها خاتم رسله وسيدهم ﴿ فإن الله يحب المتقين ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَـٰئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٧٧)

يقول تعالى : إن الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه من اتّباع محمد ﷺ ، وذكر صفته للناس وبيان أمره ، وعن أيمانهم الكاذبة بالأثمان القليلة الزهيدة وهي ، عروض دنيوية فانية ﴿ أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ﴾ أي لا نصيب لهم فيها ﴿ ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ﴾ برحمته ولا يكلمهم كلام لطفٍ بهم ﴿ ولا يزكّيهم ﴾ أي من الذنوب والأدناس بل يأمر بهم إلى النار ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ وقد وردت أحاديث تتعلق بهذه الآية الكريمة فلنذكر منها ما تيسر :

١ ـ أخرج الشيخان من حديث الأعمش : عن شقيق عن عبد الله[2] قال : قال رسول الله ﷺ ٥٠٩ [من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال أمرىء مسلم لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان فقال الأشعث : فيَّ والله كان ذلك ، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض ، فجحدني أرضي فقدمته إلى رسول الله ﷺ فقال لي رسول الله ﷺ : ألك بيّنة ؟ قلت : لا ، فقال اليهودي أحلف . فقلت : يا رسول الله ، إذاً يحلف فيذهب مالي ؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ﴾ الآية .]

---

(١) قلت : وشتان ما بين ما عليه اليهود من أكل الأموال بالباطل بحجة مختلقة مؤتفكة، وبين ما يدعو إليه الإسلام الحنيف : فقد قال ابن عباس : انهم اذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب نفس وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أعلاه ٥٠٨ ـ فيه الفصل .

(٢) ابن مسعود .

٢ – : روَى الإمام أحمد عن عدي بن عميرة الكنْدي قال : ٥١٠ [خاصم رجل من كِندة ، يقال له امرؤ القيس بن عامر رجلاً من حضرموت إلى رسول الله ﷺ في أرض ، فقضى على الحضرمي بالبيِّنة ؛ فلم يكن له بينة فقضى على امرىء القيس باليمين ، فقال الحضرمي أمكنته من اليمين يا رسول الله ؟ ذهبتْ وربِّ الكعبة أرضي ، فقال النبي ﷺ « من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها مال أحد لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان قال رجاءُ:وتلا رسول الله ﷺ : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً ...﴾ فقال امرؤ القيس : ماذا لمن تركها يا رسول الله ؟ فقال: «الجنة» قال فاشهد أني قد تركتها له كلها] .

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * (٧٨) ﴾

يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله، أن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه، ويبدِّلون كلام الله ويزيلونه عن المراد به ، ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك وينسبونه إلى الله وهو كذب عليه، وهم يعلمون أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ وقال مجاهد وغيره : ﴿ يلوون ألسنتهم بالكتاب ﴾ يحرّفونه . ولا شك أن ما بأيديهم من ذلك، فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله﴾

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَٰئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * (٨٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ ما كان لبشر : أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ـ إلى قوله ـ بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ أي ما ينبغي لنبيّ ولا مرسل أن يقول للناس اعبدوني مع الله ! فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريق الأولى والأحرى. وذلك أن أهل الكتاب كان يعبد بعضهم بعضاً يعني أحبارهم ورهبانهم كما قال تعالى : ﴿ إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ الآية ... وفي المسند والترمذي كما سيأتي : ٥١١ [أن عديّ بن حاتم قال : يا رسول الله ما عبدوهم . قال : بلى إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم] فالجهلة من الأحبار والرهبان، ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين ، فإنهم إنما يأمرون بما يأمر الله به، وبلّغتهم إياه الرسل الكرام ، وينهون عما نهى الله ورسُلُه ، فالرسل هم السفراء الأمناء بين الله وخلقه فقاموا بذلك أتم قيام ، ونصحوا الخلق ، وبلغوا الحق . وقوله تعالى : ﴿ ولكن كونوا ربانيِّين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾ أي ولكن يقول الرسول للناس كونوا ربانيّين أي علماء حلماء فقهاء أهل عبادة وتقوى . وقال الضحاك في قوله تعالى : ﴿ بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾ أي تُفهمون الناس معانيه وتعلّمونهم أحكامه وأوامره ونواهيه،لا أن تحفظوا ألفاظه فحسب...[1] ثم قال الله تعالى : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ﴾ أي ولا يأمركم النبي بعبادة أحد غير الله : لا نبي مرسل ولا ملك مفضل ﴿ أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ أي لا يأمر النبي بالكفر ولا عبادة غير الله ، والأنبياء إنما يأمرون بالايمان وهو عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ وذلك إخباراً عن الملائكة .

۞ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ

---

(١) قلت : لقد صار حفظ ألفاظ ... القرآن فقط في زماننا ، صنعةً عند الذين اتخذوا قراءة القرآن في الحفلات والمآتم... يتعجلون أجره ولا يتأجلونه! وهو لا يتجاوز حناجرهم. وسموا ظلماً بالقرّاء..!!! وما القرّاء في مفهوم الشرع، إلا العلماء والفقهاء ... فلا حول ولا قوة إلا بالله ، وإنا إليه راجعون .

قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ ٱلشَّاهِدِينَ * (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ * (٨٢)

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبيّ بعثه من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام ، لمهما آتى الله أحدهم من كتابٍ وحكمةٍ ، وبلغ أي مبلغ ، ثم جاء رسول من بعده ليؤمننّ به ولينصرنّه ، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من أتباع من بعث بعده ونصرته. ولهذا قال تعالى وتقدس : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ﴾ أي لمهما أعطيتكم من كتاب وحكمة ﴿ ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنّه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري ﴾ قال ابن عباس وغيره: يعني عهدي ﴿ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين فمن تولّى بعد ذلك ﴾ أي عن هذا العهد والميثاق ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ قال علي وابن عمه ابن عباس رضي الله عنهما : ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق ، لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمننّ به ولينصرنّه . وقال طاووس والحسن البصري وقتادة : أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً . وهذا لا يضاد ما قاله علي وابن عباس ولا ينفيه ، بل يستلزمه ويقتضيه . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثابت قال : ٥١٢ [جاء عمر إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إني أمرت بأخ لي يهودي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال فتغير وجه رسول الله ﷺ قال عبد الله بن ثابت: قلت له ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضيت بالله رباً ، وبالاسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، قال : فسرّي عن النبي ﷺ وقال : « والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه ، وتركتموني لضللتم ، إنكم حظي من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين »] وروى الحافظ أبو يعلى عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ ٥١٣ [لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلّوا ... وإنكم إما أن تصدّقوا بباطل وإما أن تكذبوا بحق ، وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حل له إلا أن يتّبعني] .

فرسول الله ﷺ ، هو الإمام الأعظم ، الواجب الطاعة ، المقدم على الأنبياء جميعاً ، وهو إمامهم ليلة الاسراء ببيت المقدس ، وصاحب الشفاعة العظمى ، والمقام المحمود ، صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرٰهِيمَ وَإِسْمٰعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ * (٨٥) ﴾

ينكر الله سبحانه على من أراد ديناً غير دين الله الذي أنزل به كتبه ، وأرسل به رسله وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، الذي له أسلم من في السموات والأرض أي استسلم له من فيهما طوعاً وكرهاً. كما قال تعالى: ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرهاً فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالَف ولا يمانَع . وقال وكيع في تفسيره عن مجاهد : ﴿ وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً ﴾ . قال : هو كقوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ وقيل : حين أخذ الميثاق ، قاله ابن عباس . ﴿ وإليه يرجعون ﴾ ، أي يوم المعاد فيجازي كلاًّ بعمله . ثم قال تعالى : ﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا ﴾ يعني القرآن ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ﴾ أي من الصحف والوحي، ﴿والأسباط﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل ــ وهو يعقوب ــ الإثني عشر ، ﴿ وما أوتي موسى وعيسى ﴾ يعني بذلك التوراة والإنجيل ، ﴿ والنبيّون من ربهم ﴾ وهذا يعمُّ جميع الأنبياء ، ﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾ يعني بل نؤمن بجميعهم ، ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبيٍّ أرسل ، وبكل كتابٍ أنزل ، لا يكفرون بشيء من ذلك ، بل هم مصدقون بما أُنزل من عند الله وبكل نبيٍّ بعثه الله .

ثم قال تعالى : ﴿ ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ الآية... أي من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله ، فلن يقبل منه ﴿ وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ كما قال ﷺ في الحديث الصحيح : ٥١٤ [من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ] .

﴿ كَيْفَ يَهْدِي ٱللَّهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ * (٨٦) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ * (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * (٨٨) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * (٨٩) ﴾

قال ابن جرير عن ابن عباس قال : كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا لي رسول الله هل لي من توبة ؟ فنزلت ﴿ كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات ﴾ أي قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاء به الرسول ووضح لهم الأمر ، ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك ، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعد ما تلبسوا به من العماية . ولهذا قال الله تعالى: ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ثم قال تعالى ﴿ أولئك جزاؤهم أنّ عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾ أي يلعنهم الله ويلعنهم خلْقُه ﴿ خالدين فيها ﴾ أي في اللعنة ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾ أي لا يفتّر عنهم العذاب ساعةً واحدةً ثم قال تعالى : ﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾ وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته بخلقه ، أن من تاب إليه تاب عليه .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلضَّالُّونَ * (٩٠) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * (٩١) ﴾

يقول تعالى متوعداً لمن كفر بعد إيمانه ثم استمر على ذلك حتى مماته ومخبراً بأنهم لن تقبل لهم توبة عند الممات كما قال تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى

إذا حضر أحدهم الموت ﴾ الآية ولذا قال هنا : ﴿ لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالّون ﴾ أي التاركون الحق إلى الباطل . روى البزار بسنده عن ابن عباس : ٥١٥ (إن قوماً أسلموا ثم ارتدوا ثم أسلموا ثم ارتدوا ، فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم ﴾ وإسناده جيد . ثم قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ أي من مات كافراً لن يقبل منه خير أبداً ، ولو كان يقري الضيف ، ويفك العاني ، ويطعم الطعام ، لا ينفعه ذلك ، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قربة : ٥١٦ كما [سئل النبي ﷺ عن عبد الله بن جدعان وكان يقري الضيف ، ويفك العاني ، ويطعم الطعام ، هل ينفعه ذلك ؟ فقال « لا إنه لم يقل يوماً من الدهر : ﴿ رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾] وكذلك لو افتدى بملء الأرض ذهباً ما قبل منه كما قال تعالى : ﴿ ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ ويقتضي ذلك أن لا ينقذهُ من عذاب الله شيء ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهباً .

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال : ٥١٧ [يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء ، أكنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول : نعم فيقول الله : قد أردت منك أهون من ذلك قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك] وهكذا أخرجه البخاري ومسلم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾ أي وما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ولا يجيرهم من أليم عقابه .

﴿ لَنْ تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * (٩٢) ﴾

جاء في الصحيحين : أن عمر قال : ٥١٨ [يا رسول الله لم أصب مالاً قط هو

أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر ، فما تأمرني به ؟ قال : حبّس الأصل وسبِّل الثمرة] (١) .

وقال البزار عن حمزة بن عبد الله بن عمر ، قال : قال عبد الله ، حضرتني هذه الآية : ﴿ لن تنالوا البرحتّى تنفقوا مما تحبون ﴾ فذكرت ما أعطاني الله فلم أجد شيئاً أحبَّ إليّ من جارية رومية ، فقلت : هي حرة لوجه الله فلو أني أعود في شيء جعلته لله لنكحتها ، يعني تزوجتها .

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُوا بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * (٩٣) فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * (٩٤) قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * (٩٥) ﴾

روى الامام أحمد عن ابن عباس : ٥١٩ [حضرتْ عصابة من اليهود نبيَّ الله ﷺ فقالوا : حدثنا عن خلال : نسألك عنهن ولا يعلمهن إلاّ نبيٌّ ؛ قال : سلوني عما شئتم ، ولكن اجعلوا لي ذمة الله ، وما أخذ يعقوب على بنيه ، لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه ، لتتابعنّي على الإسلام ... ؟ قالوا : فذلك لك . قالوا : أخبرنا عن أربع خلال : أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه ؟ وكيف ماء المرأة وماء الرجل ؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم ، ومن وليه من الملائكة ؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنّه ، فقال : أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن اسرائيل مرض مرضاً شديداً ، وطال سقمه فنذر لله نذراً لئن شفاه الله من سقمه ليحرمنّ أحبَّ الطعام والشراب إليه ، وكان أحبُّ الطعام اليه لحم الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها . فقالوا : اللهم نعم . فقال : اللهم أشهد عليهم ...] (٢) .

---

(١) قلت : وهذا الحديث هو أصل وقف الخيرات .

(٢) إكتفيت بإيراد هذا الجزء من الحديث لمناسبته . وتمامه في سورة البقرة

قال ابن جرير في تفسيره : فاتبعه بنوه في تحريم ذلك استناناً به واقتداءً بطريقه .قال : وقوله تعالى : ﴿ من قبل أن تنزل التوراة ﴾ أي حرم ذلك على نفسه من قبل أن تنزل التوراة . قلت [1] : ولهذا السياق بعد ما تقدم مناسبتان (إحداهما) أن اسرائيل عليه السلام حرم أحب الأشياء اليه ، وتركها لله ، وكان هذا سائغاً في شريعتهم ، فله مناسبة بعد قوله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتّى تنفقوا مما تحبون ﴾ فهذا هو المشروع عندنا ، وهو الأنفاق في طاعة الله مما يحبه العبد ويشتهيه ، كما قال تعالى : ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ الآية ... (المناسبة الثانية) لما تقدم بيان الرد على النصارى ، واعتقادهم الباطل في المسيح وأمه وظهور الحق في ذلك ، شرع في الرد على اليهود قبحهم الله تعالى ، وبيان أن النسخ الذي أنكروا وقوعه وجوازه ، قد وقع . فإن الله تعالى قد نص في كتابهم التوراة : أن نوحاً عليه السلام لما خرج من السفينة ، أباح الله له جميع دواب الأرض يأكل منها ، ثم بعد هذا حرم إسرائيل على نفسه لحوم الإبل وألبانها ، فاتبعه بنوه في ذلك ؛ وجاءت التوراة بتحريم ذلك واشياء أخرى زيادة على ذلك ، وكان الله عز وجل قد أذن لآدم في تزويج بناته من بنيه ، وقد حرم ذلك بعد ذلك ، وكان التسرّي على الزوجة مباحاً في شريعة إبراهيم عليه السلام ، وقد فعله ابراهيم في هاجر لما تسرّى بها على سارة ، وقد حرم مثل هذا في التوراة عليهم ، وكذلك كان الجمع بين الأختين سائغاً ، وقد فعله يعقوب عليه السلام فجمع بين الأختين ، ثم حرم عليهم ذلك في التوراة . وهذا كله منصوص عليه في التوراة عندهم . وهذا هو النسخ بعينه . فكذلك فليكن ما شرعه الله للمسيح عليه السلام في إحلاله بعض ما حرم في التوراة ، فما بالهم لم يتبعوه بل كذّبوه وخالفوه ؟ وكذلك الذي بعث الله به محمداً ﷺ من الدين القويم ، والصراط المستقيم وملة أبيه ابراهيم فما بالهم لا يؤمنون ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ كل الطعام كان حلاً لنبي اسرائيل إلا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ﴾ أي كان حلاً لهم جميع الأطعمة ما عدا الذي حرمه إسرائيل على نفسه منها قبل نزول التوراة . ثم قال تعالى : ﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ فإنها ناطقة بما قلناه ﴿ فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون ﴾ أي فمن كذب على الله ، وادعى أنه شرع لهم السبت ، والتمسك بالتوراة دائماً ، وانه لم يبعث نبياً آخر يدعو إلى الله تعالى بالبراهين والحجج بعد هذا الذي بيناه من وقوع النسخ وظهور ما ذكرنا ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ قل صدق الله ﴾ أي قل يا محمد صدق الله فيما

(١) أي هذا قول ابن كثير رحمه الله .

أخبر به، وفيما شرعه في القرآن. ﴿ فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ هذه الملة التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ ، فهي الطريقة التي لم يأت نبي بأكمل منها ، ولا أبين ، ولا أوضح ولا أتم ، كما قال تعالى: ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ • (٩٦) فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ • (٩٧) ﴾

يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس عامة لعبادتهم ونسكهم ، يطوفون به ، ويصلّون إليه ويعتكفون عنده. ﴿ لَلَّذي بِبَكَّةَ ﴾ يعني الكعبة التي بناها ابراهيم الخليل عليه السلام، الذي يزعم كل من طائفتي النصارى واليهود أنهم على دينه ومنهجه ، ولا يحجون إلى البيت الذي بناه عن أمر الله له في ذلك ونادى الناس إلى حجه . ولهذا قال تعالى: ﴿مباركاً﴾ أي وضع مباركاً ﴿ وهدى للعالمين ﴾ . روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : ٥٢٠ [قلت يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال : المسجد الحرام . قلت : ثم أي؟ قال : المسجد الأقصى . قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة قلت : ثم أي؟ قال : ثم حيث أدركتك الصلاة فصلِّ فكلها مسجد] واخرجه البخاري ومسلم .

وروى ابن أبي حاتم عن خالد بن عرعرة قال : قام رجل إلى علي رضي الله عنه فقال: ألا تحدثني عن البيت ، أهو أول بيت وضع في الأرض ؟ قال : لا ولكنه أول بيت وضع فيه البركة مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً. وذكر تمام الخبر في كيفية بناء ابراهيم البيت(١) .

وقوله تعالى : ﴿ لَلَّذي ببكة ﴾ بكة : من أسماء مكة على المشهور وقد ذكروا لمكة أسماءً كثيرةً ، منها : مكة ، وبكة ، والبيت العتيق ، والبيت الحرام ، والبلد الأمين ، وأم القرى وغير ذلك . وقوله تعالى : ﴿ فيه آيات بيّنات ﴾ أي دلالات ظاهرة أنه من

(١) قلت : راجع الصفحة ١٠٧ من المجلد الأول من هذا المختصر .

بناء إبراهيم وأن الله عظمه وشرفه ؛ ثم قال تعالى: ﴿ مقام إبراهيم ﴾ [1] وقد كان ملتصقاً بجدار البيت حتى أخّره عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه في إمارته إلى ناحية الشرق بحيث يتمكن الطواف منه ولا يشوشون على المصلين عنده بعد الطواف ، لأن الله تعالى قد أمرنا بالصلاة عنده حيث قال: ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ وعن ابن عباس : أن من الآيات مقام ابراهيم والمشاعر وقال مجاهد : أثر قدميه في المقام آية بينة وكذا روى عن عمر بن عبد العزيز وغيره وقال أبو طالب في قصيدته اللامية المشهورة :

وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل

وقوله تعالى : ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ يعني حرم مكة إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء.وكذلك كان الأمر في الجاهلية وقال تعالى : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ وفي الصحيحين واللفظ لمسلم عن ابن عباس ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : ٥٢١ [لا هجرة ولكن جهاد ونيّةٌ وإذا استنفرتم فانفروا] وقال يوم الفتح : ٥٢٢ [ان هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وانه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ، ولا ينفر صيده ولا تلتقط لقطته إلا من عرفها ، ولا يختلى خلاها فقال العباس : يا رسول الله إلاَّ الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم ، فقال إلاَّ الإذخر] وعن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٥٢٣ [لا يحل لأحدٍ أن يحمل السلاح بمكة» رواه مسلم]

وعن عبدالله بن عدي بن الحمراء الزهري أنه سمع رسول الله ﷺ وهو واقف بالحرورة بسوق مكة ، يقول : ٥٢٤ [والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله] رواه الامام أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وقال الترمذي حديث حسن صحيح [2]

وقوله تعالى : ﴿ ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ هذه آية وجوب

---

(١) أي الحجر الذي كان يقف عليه ابراهيم عليه السلام حتى يبني الكعبة وهو الآن على ما وضعه عمر بن الخطاب . وهناك عزم من أولي الأمر ، بتأخيره منعاً للزحام المميت ، وقيل أنه شرع بذلك ولا بأس من هذا التأخير ما دام قد ثبت أن عمر أخره للسبب ذاته فجزاهم الله خيراً .

(٢) قلت : فما قول من يقول من الغلاة الجهلاء حديثاً يعزيه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وهو : اللهم أخرجتني من أحب البقاع إليّ فأسكني في أحب البقاع إليك . فأسكنه في المدينة زاعماً أن المدينة أحبُّ إلى الله من مكة ، والصحيح : إن مكة أحب أرض الله إلى الله ، كما جاء في الحديث الصحيح ، وهل يخالف رسول الله بحبه ما أحب الله ؟ فمكة أحب البقاع إلى الله وإلى رسوله ، شاءوا أم أبوا .

الحج عند الجمهور ، وقيل بل هي قوله تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ والأول أظهر . وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الأسلام ودعائمه وقواعده ،وأجمع المسلمون على ذلك إجماعاً ضرورياً ، وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع . روى الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : ٥٢٥ [أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا . فقال رجل : أكلَّ عامٍ يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ؛ فقال رسول الله ﷺ : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم. ثم قال: ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثره سؤآلهم واختلافهم على أنبيائهم ، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه] ورواه مسلم

وفي الصحيحين من حديث ابن جريج عن عطاء عن جابر عن سراقة بن مالك قال يا رسول الله : ٥٢٦ [متعتنا هذه لعامنا هذا ، أم للأبد ؟ قال : لا . بل للأبد] وفي رواية [بل لأبد الأبد] روى ابو عيسى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ٥٢٧ [قام رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : من الحاج يا رسول الله ؟ قال : الشعث التفل ، فقام آخر فقال : أي الحج أفضل يا رسول الله ؟ قال : العج والثج فقام آخر فقال : ما السبيل يا رسول الله ؟ قال : الزاد والراحلة]وهكذا رواه ابن ماجة من حديث إبراهيم بن زيد وهو الجوزي . قال الترمذي : ولا يرفعه إلا من حديثه وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه وقال : ولكن قد تابعه غيره ورواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس وأنس والحسن ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة ، نحو ذلك . ورواه الحاكم عن أنس ٥٢٨ [ان رسول الله ﷺ سئل عن قوله عز وجل ﴿ من استطاع إليه سبيلاً ﴾ فقيل ما السبيل ؟ قال : الزاد والراحلة .]ثم قال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه

وقال أحمد بن حنبل عن ابن عباس : قال : قال رسول الله ﷺ ٥٢٩ [تعجّلوا إلى الحج – يعني الفريضة – فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له] روى أحمد أيضاً عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ ٥٣٠ [من أراد الحج فليتعجّل] ورواه أبو داود ، وقوله تعالى : ﴿ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ أي ومن جحد فريضة الحج فقد كفر والله غني عنه روى سعيد بن منصور عن عكرمة ، قال : ٥٣١ [لما نزلت ﴿ ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾ قالت اليهود : فنحن مسلمون ، قال الله عز وجل : فأخصمهم فحجهم ، يعني فقال لهم النبي ﷺ : إن الله فرض على المسلمين

حج البيت من استطاع اليه سبيلاً فقالوا : لم يكتب علينا وأبوا ان يحجوا ، قال الله تعالى : ﴿ ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾ .]

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ ٱللهِ وَٱللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ❁ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ ٱلْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا ٱللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ❁ (٩٩) ﴾

هذا تعنيف من الله تعالى للكفرة أهل الكتاب على عنادهم للحق ، وكفرهم بآيات الله ، وصدهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيمان . مع علمهم بصدق ما جاء به الرسول ﷺ ، لما يعلمون ذلك عن أنبياء الله الأقدمين وما بشّروا به ونوّهوا من ذكر النبي الأمي خاتم النبيّين ورسول رب العالمين ومع ذلك جحدوا وعاندوا فأخبر تعالى أنه ليس غافلاً عن أعمالهم وسيجزيهم على ذلك يوم الدين .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ❁ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ ٱللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِٱللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ❁ (١٠١) ﴾

يحذر تبارك وتعالى المؤمنين من طاعة بعض أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على إيمانهم كما قال تعالى : ﴿ ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد ايمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ﴾ الآية ثم قال : ﴿ وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ﴾ يعني حاشاكم من الكفر ما دامت آيات الله تنزل على رسوله ليلاً ونهاراً كما جاء في الحديث إن النبي ﷺ قال لأصحابه يوماً : ٥٣٢ [أي المؤمنين أعجب اليكم إيماناً؟ قالوا : الملائكة . قال وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟ قالوا : فنحن . قال : وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ قالوا : فأي الناس أعجب إيماناً؟ قال قوم يجيئون من بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها .] ثم قال تعالى : ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدي

إلى صراط مستقيم ﴾ أي ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هما العمدة في الهداية ، ووسيلة الرشاد ، إلى طريق السداد .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۞ (١٠٢) وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ (١٠٣) ﴾

روى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن مسعود : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ قال : أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر . وهذا إسناد صحيح موقوف . وروى عنه مرفوعاً والوقف أصح . وروى عن أنس أنه قال : لا يتقي اللهَ العبدُ حق تقاته حتى يخزن لسانه. وقد ذهب سعيد بن جبير وغيره إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ وعن ابن عباس انها لم تنسخ ، ولكن ﴿ حق تقاته ﴾ أن يجاهدوا في الله حق جهاده ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وابنائهم . وقوله تعالى : ﴿ ولا تموتن إلاّ وأنتم مسلمون ﴾ أي حافظوا على الإسلام ، في كل حال لتموتوا عليه فمن سنته تعالى : أنه من عاش على شيء مات عليه ، ومن مات على شيء بعث عليه ، فعياذاً بالله من خلاف ذلك . روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٣٣ [﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ولو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن ليس له طعام إلاّ الزقوم .] رواه الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمر وقال : قال رسول الله ﷺ : ٥٣٤ [من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه]

وقوله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ قيل ﴿ بحبل الله ﴾ أي بعهد

الله كما قال في الآية بعدها ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلاّ بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ أي بعهد وذمة . وحبل الله قيل القرآن كما في حديث الحارث الأعور عن علي مرفوعاً في صفة القرآن : ٥٣٥ [هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم] وقد ورد حديث خاص بهذا المعنى فقد روى الحافظ الطبري بسنده عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٣٦ [كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض] وقوله تعالى : ﴿ ولا تفرقوا ﴾ أمرهم بالجماعة ، ونهاهم عن التفرقة وقد وردت الأحاديث المتعددة في ذلك كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : ٥٣٧ [ان الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويسخط لكم ثلاثاً ، يرضى لكم : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاّه الله أمركم ، ويسخط لكم ثلاثاً : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال .] وقد ضُمنت لهم العصمة من الخطأ عند اتفاقهم وخيف عليهم الافتراق والاختلاف فقد وقع ذلك في هذه الأمة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة ، منها فرقة ناجية إلى الجنة ومسلّمة من عذاب النار وهم الذين على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه . (١)

وقوله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ إلى آخر الآية . وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج وكانت بينهم في الجاهلية حروب طويلة فلما دخلوا في الاسلام صاروا إخواناً متحابين بجلال الله ، متواصلين في ذاته متعاونين على البر والتقوى .

قال الله تعالى : ﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألّف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفتَ بين قلوبهم ، ولكن الله ألّفَ بينهم ﴾ إلى آخر الآية ؛ وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم الله منها أنْ هداهم للإيمان .

وقد ذكر محمد بن اسحق وغيره : ٥٣٨ [أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج وذلك أن رجلاً من اليهود مر بملأ من الأوس والخزرج ، فساءه اتفاقهم وإلفتهم ، فبعث رجلاً معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بعاث وتلك الحروب ، ففعل ، فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم ، وغضب بعضهم على بعض ، وتثاوروا ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم وتواعدوا إلى الحرة ، فبلغ ذلك

---

(١) قلت : نرى نحن السلفيين أننا نحاول مجتهدين قدر الاستطاعة أن نكون من الفرقة الناجية والله الموفق وهو المستعان وعليه التكلان وحده لا شريك له .

النبي ﷺ فأتاهم فجعل يسكّنهم ويقول « أبدعوى الجاهلية وأنا بين ظهرانيكم ؟ » وتلا عليهم هذه الآية ... فندموا على ما كان منهم ، واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح رضي الله عنهم .] (١)

﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۞ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۞ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ۞ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۞ (١٠٩) ﴾

يقول تعالى : ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله، في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون . يعني المجاهدين والعلماء . وقال أبو جعفر الباقر : ٥٣٩ [قرأ رسول الله ﷺ ﴿ولتكن منكم امة يدعون إلى الخير﴾ ثم قال : (الخير اتباع القرآن وسنّتي)] رواه ابن مردويه والمراد من هذه الآية، أن تقوم فرقة من هذه الأمة تتصدى لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد بحسبه كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٤٠ [من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان] وفي رواية ٥٤١ [وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل] روى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال : ٥٤٢ [والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم لتدعُنّه فلا يستجيب لكم] ورواه ابن ماجه والترمذي وحسّنه وأحاديث الباب كثيرة .

(١) فهل تتأسى الدول العربية بهم ، ويتناسون فرقتهم ويصدقون في حرب اليهود حتى يزيحوهم عن فلسطين، فتعود لأهلها العرب ...؟ هذا ما ندعو الله أن يكون .

ثم قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ﴾ ينهانا سبحانه عن طريق الذين اختلفوا وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم . وقوله تعالى : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ يعني يوم القيامة ، حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة. قاله ابن عباس رضي الله عنهما . ﴿ فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم ﴾ وهم المنافقون ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ وهذا الوصف يعم كل كافر ﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ يعني الجنة لا يبغون عنها حولا . ثم قال تعالى : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك ﴾ أي هذه الآيات آيات الله وحججه وبيناته نتلوها عليك يا محمد ﴿ بالحق ﴾ أي نكشف ما الأمر عليه في الدنيا والآخرة ﴿ وما الله يريد ظلماً للعالمين ﴾ أي ليس بظالم لهم، بل هو الحكم العدل الذي لا يجور، لأنه القادر على كل شيء، العالم بكل شيء ، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحداً من خلقه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي الجميع ملكٌ له وعبيد له ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أي هو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة .

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ۞ (١١٠) لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ۞ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ (١١٢) ﴾

يخبر تعالى عن هذه الأمة بأنهم خير الأمم ؛ فقال : ﴿ كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس ﴾ قال البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ﴿ كنتم خير أمة أخرجتْ للناس ﴾

قال: خير الناس للناس تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام، وهكذ قال ابن عباس وجماعة من التابعين والمعنى: انهم خير الأمم وأنفع الناس للناس. ولهذا قال تعالى: ﴿ تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ قال الإمام أحمد عن درة بنت أبي لهب قالت: ٥٤٣ [قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: « خير الناس أقراهم واتقاهم لله، وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم »] وهذه الآية عامة في جميع الأمة كل قرن بحسبه وخير قرونهم الذين بعث فيهم رسول الله ﷺ، ثم الذين يلونهم. كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً ﴾ أي خياراً ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ الآية.

وثبت في الصحيحين من رواية الزهري عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة حدثه قال: ٥٤٤ [سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يدخل الجنة من أمتي زمرة وهم سبعون ألفاً، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر » قال أبو هريرة: فقام عكاشة بن محصن الأسدي يرفع نمرةً عليه فقال: يا رسول الله: ادعُ الله أن يجعلني منهم؛ فقال رسول الله ﷺ « اللهم اجعله منهم » ثم قام رجل من الأنصار فقال مثله؛ فقال: « سبقك بها عكاشة. »]

* وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ قال: ٥٤٥ [« إن ربي أعطاني سبعين الفاً يدخلون الجنة بغير حساب » فقال عمر: يا رسول الله: فهلا استزدته؟ فقال « استزدته فأعطاني مع كل ألـــف سبعين ألفاً » قال عمر فهلا استزدته؟ قال « قد استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفاً » قال عمر فهلا استزدته؟ قال « قـد استزدته، فأعطاني هكذا »؛ وفرج عبد الرحمن بن أبي بكر بين يديه وقال عبد الله: وبسط باعيه، وحثا عبد الله، وقال هاشم وهذا من الله لا يدري ما عدده

* روى الطبراني عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: ٥٤٦ [« يدخل الجنة من أمتي سبعون الفاً بغير حساب ولا عذاب » قيل: من هم قال « هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون »] رواه مسلم من طريق هشام بن حسان

* روى مسلم عن حصين بن عبد الرحمن قال: ٥٤٧ [كنت عند سعيد بن جبير فقال أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ قلت: أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة، ولكني لدغت. قال: فما صنعت؟ قلت: استرقيت. قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي. قال: وما حدثكم الشعبي؟ قلت: حـدثنا

عن بريدة بن الحصيب الأسلمي أنه قال « لا رقية إلا من عين أو حمة » . قال : قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ؛ ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال « عرضت علي الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان ، والنبي وليس معه أحد ؛ إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي ؛ فقيل لي : هذا موسى وقومه ؛ ولكن انظر إلى الأفق ، فنظرت فإذا سواد عظيم ؛ فقيل لي : انظر إلى الأفق الآخر ؛ فإذا سواد عظيم ، فقيل لي : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ ؛ وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا في الاسلام ولم يشركوا بالله شيئاً ، وذكروا أشياء ، فخرج عليهم رسول الله ﷺ ، فقال « ما الذي تخوضون فيه ؟ » فأخبروه ، فقال « هم الذين لا يرقون ، ولا يسترقون ، ولا يكتوون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلني منهم . « قال : أنت منهم » ؛ ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ؛ قال « سبقك بها عكاشة » ، وأخرجه البخاري ، وليس عنده : لا يرقون .

٥٤٨ : ثبت في الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قال : قال لنا رسول الله ﷺ [« اما ترضون ان تكونوا ربع أهل الجنة ؟ » فكبرنا ، ثم قال « أما ترضون ان تكونوا ثلث أهل الجنة ؟ » فكبرنا ؛ ثم قال « إني لأرجوا أن تكونوا شطر أهل الجنة . »]

• روى الطبراني : عن أبي هريرة ، قال : ٥٤٩ [لما نزلت : ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ قال رسول الله ﷺ : أنتم ربع أهل الجنة ، أنتم ثلث أهل الجنة أنتم نصف أهل الجنة أنتم ثلثا أهل الجنة]

• روى عبد الرزاق عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : ٥٥٠ [نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة ، نحن أول الناس دخولاً الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق . فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه ، الناسُ لنا فيه تبعٌ غداً ، لليهود وللنصارى بعد غدٍ]

* * *

فهذه الأحاديث في معنى قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ فمن اتصف من هذه الأمة بهذه الصفات دخل معهم في هذا المدح . كما قال قتاده : بلغنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حجة

حجها ، رأى من الناس دعةً ، فقرأ هذه الآية : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس... ﴾ ثم قال : من سره أن يكون من هذه الأمة ، فليؤدّ شرط الله فيها . رواه ابن جرير . ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله تعالى : ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ﴾ الآية ... ولذا قال تعالى : ﴿ ولو آمن أهل الكتاب] أي بما أنزل على محمد ﴿ لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ أي قليل مؤمنوهم وأكثرهم الكافرون الفاسقون .

ثم أخبر تعالى عباده المؤمنين ومبشراً لهم بالنصر على أهل الكتاب الكفرة الملحدين . فقال تعالى : ﴿ لن يضرّوكم إلاّ أذى وإن يقاتلوكم يولّوكم الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ هكذا وقع ، فإنهم إذّلهم الله يوم خيبر وقبلهم بنو قينقاع ، والنضير ، وقريظة ،كلهم أرغم الله أنوفهم . وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة وسلبوهم ملكهم أبد الآبدين ، ولا تزال عصابة الشام قائمة بالاسلام حتّى ينزل عيسى بن مريم [1] وهم كذلك ، ويحكم بملّة الاسلام وشرع محمد عليه الصلاة والسلام فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الإسلام . ثم قال تعالى : ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبلٍ من الله وحبلٍ من الناس ﴾ أي ألزمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا ، فلا يأمنون إلاّ بحبلٍ من الله ، أيّ بذمةٍ من الله وهو عقد الذمة لهم ، وضرب الجزية عليهم وإلزامهم

---

(١) قلت : هذا حسن ظن من المفسر الحافظ ابن كثير رحمه الله وما كان ليدري أن عصابة الإسلام بالشام لم تعد قائمة بالإسلام كما كان يعهد في زمانه.إنما خلفهم خلف أضاعوا الصلاة بل أضاعوا الاسلام برمته فلا حكم بالإسلام ولا شعور بمسؤولياته،بل ولا إيمان ولا إسلام.فقد تحلل المسلمون ليس في الشام فحسب، بل في أكثر بلاد العرب والاسلام)من كل عروة تربطهم بالإسلام . فالبلاد كان الكفار يحكمونها مباشرة بجيوشهم ثم رحلت الجيوش،ولكن ظلت القوانين الكافرة والثقافة الكافرة فولّدت حكماً كافراً,منذ أن كان الاستقلال المزعوم ... ؟!!! فمن البدهي أن لا ينصرهم الله في أي ميدان لأنهم لم ينصروا الله تعالى « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم» فمنذ أيام فقط من كتابة هذه الأسطر...واخجلتاه!انهزم المسلمون والعرب—ويشكلون دولاعديدة وجيوشاًذات قوة—أمامدويلة من اليهود هزيلةوهي:حثالاتالأمم ورذالات الشعوب، نعم ... انهزمت دول العرب العديدة أمام هذه الدويلة اليهودية وما ذلك إلا انتقام من الله العلي العزيز الجبار لدينه الذي ضيعه العرب، وقرآنه الذي هجره العرب،وشرعه الذي تنكرله العرب،فمن أين يأتي النصر للعرب ؟ إذا هم أضاعوا الرسالة ، وخانوا الأمانة وغشوا الأمة ... فالحقيقة التي ما بعدها حقيقة أنهم انهزموا انهزاماً شنيعاً ذليلا خانعاً ... فأصبحوا هزءة الأمم وسخرية الشعوب ، لأنهم كانوا لا يعتمدون على الله ولا يؤمنون بالله ... بل يتبجحون بعروبتهم الكاذبة ، ويعتمدون على عنجهيتهم الفارغة ، وعلى كفرهم بمبادىء الاسلام وشرعه الذي لولاه لما حكم العربُ المسلمون في أول الأمر,أكثر من نصف الكرة الأرضية.أجل لقد كسرهم الله ليعتبروا ويعودوا إلى الحق ، ويرجعوا إلى الهدى ... فهل يرجعون ... ؟ وإننا لمنتظرون ..؟؟!!! أقول هذا وقلبي يتفطّر ألماً ولوعة وأسى وإنا لله وإنا إليه راجعون

أحكام الملة ﴿ وحبل من الناس ﴾ أي بعهد من الله وعهد من الناس . وقوله : ﴿ وباءوا بغضب من الله ﴾ أي ألزموا : فالتزموا بغضب من الله وهم يستحقونه ﴿ وضربت عليهم المسكنة ﴾ أي ألزموها قدراً وشرعاً . ولهذا قال : ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ﴾ أي إنما حملهم على ذلك الكبر والبغي والحسد فأعقبهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة ابداً متصلاً بذل الآخرة ؛ ثم قال تعالى : ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ أي إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله وكثرة المعاصي والعصيان والعدوان ، روى ابن أبي حاتم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم ثلاثمئة نبيٍّ ، ثم يقوم سوق بقلهم في آخر النهار .

ربع الحزب

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ ٱللهِ آنَاءَ ٱللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ ٱلصَّالِحِينَ ۝ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَٱللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ۝ (١١٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ ٱللهِ شَيْئاً وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللهُ وَلَٰكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝ (١١٧) ﴾

المشهور عند كثير من المفسرين هو كما ذكره محمد بن اسحق وغيره ، ورواه العوفي عن ابن عباس ، أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب ، كعبدالله بن سلام وأسد بن عبيد ، وثعلبة بن شعبة وغيرهم ، أي لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب ، وهؤلاء الذين أسلموا ولهذا قال تعالى : ﴿ ليسوا سواء ﴾ أي ليسوا كلهم على حد سواء ، بل منهم المؤمن ، ومنهم المجرم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ أي قائمة بأمر الله ، مطيعة لشرعه ، متبعة نبيَّ الله . فهي قائمة ، يعني مستقيمة

﴿ يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ أي يقيمون الليل ويتلون القرآن في صلواتهم ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ وهؤلاء هم المذكورون في السورة ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله ﴾ الآية ... ولهذا قال تعالى ههنا ﴿ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ﴾ أي لا يضيع عند الله بل يجزيهم به أوفر الجزاء ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل ، ولا يضيع أجر من أحسن عملاً ثم أخبر تعالى عن الكفرة المشركين بأنه ﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾ أي لا ترد عنهم بأس الله ولا عذابه إذا أرادهم بهم ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ثم ضرب مثلاً لما ينفقه الكفار في هذه الدار فقال تعالى : ﴿ مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر ﴾ أي برد شديد ﴿ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ﴾ أي فأحرقته ، يعني بتلك السعفة إذا نزلت على حرث قد آن جذاذه أو حصاده فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع ، فذهبت به وأفسدته ، فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه . فكذلك الكفار يمحق الله الثواب من أعمالهم في هذه الدنيا وثمرها كما يذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه . وكذلك هؤلاء بنوها على غير أصل وعلى غير أساس ﴿ وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ۞ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۞ (١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۞ (١٢٠) ﴾

يقول تبارك وتعالى ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانةً ، أي يطلعونهم على سرائرهم وما يضمرونه لأعدائهم ، والمنافقون بجهدهم وطاقتهم ، لا يألون المؤمنين خبالاً أي يسعون في مخالفتهم وما يضرهم بكل ممكن ، وبما يستطيعون من المكر والخديعة ويودّون ما يعنت المؤمنين ويحرجهم ويشق عليهم.وقوله تعالى: ﴿ لا تتخذوا بطانة من دونكم ﴾ أي من غيركم من الأديان ، وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على داخل أمره وقد روى البخاري والنسائي عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال : ٥٥١ [ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالخير وتحضّه عليه ، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه ؛ والمعصوم من عصمه الله] وقال ابن أبي حاتم عن ابن أبي الدهقانة قال : قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن ههنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب،فلو اتخذته كاتباً فقال: (قد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين .) ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الاعداء من أهل الحرب . ولهذا قال تعالى : ﴿ لا يألونكم خبالا ودّوا ما عنتم ﴾ أي رغب المنافقون في فعل ما يحرجكم ويشقّ عليكم .

وقوله تعالى : ﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ﴾ أي ظهر على وجوههم وفلتات ألسنتهم من العداوة، مع ما خفي في صدورهم من البغضاء وما لا يخفى على لبيب عاقل ، ولهذا قال تعالى : ﴿ قد بيّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ﴾ أي تحبّونهم بما يظهرون لكم من الإيمان ، وهم لا يحبونكم لا باطناً ولا ظاهراً. ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ أي ليس عندكم شيء منه شك ولا ريب وقال ابن عباس : أي تؤمنون بكتابكم وكتابهم وبما مضى من الكتب وهم يكفرون بكتابكم فأنتم أحق بالبغضاء لهم ، منهم لكم .﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ والأنامل أطراف الأصابع وهذا شأن المنافقين يظهرون الإيمان والمودّة ، ويبطنون الكفر والبغض.كما قال تعالى : ﴿ وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ وذلك أشد الغيظ والحنق قال الله تعالى : ﴿ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ﴾ أي إن كان إيمانهم يغيظكم ،فإن الله سيعلي كلمته ويظهر دينه على أيديهم فموتوا غيظاً فالله يعلم ما تضمرون من البغضاء للمؤمنين ، وسيجازيكم بخزيكم ونصرهم في الدنيا ولكم عذاب الحريق خالدون فيه أبداً في الآخرة ثم قال تعالى : ﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾ وهذا من شدة العداوة

للمؤمنين ، فان أصابهم خير ونصر ساءهم ، وإن أصابهم شر وانكسار لما يعلمه الله من الحكمة ـ كما جرى يوم أحد ـ فرح المنافقون . فخاطب الله المؤمنين : ﴿وإن تصبروا وتتّقوا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾ أي أن تتوكلوا على الله لا يصلكم كيدهم لأنكم بحفظ الله ، فلا يقع شيء إلا بتقديره ومشيئته ، ومن توكل عليه كفاه . ثم شرع الله تعالى بذكر قصة أُحُد من اختبار المؤمنين ، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين ، وبيان الصابرين . فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۞ (١٢١) إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۞ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ (١٢٣) ﴾

المراد بهذه الوقعة ،يوم أُحُد عند الجمهور. قاله ابن عباس وغيره، وكانت الوقعة يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة . وسببها إرادة المشركين بأخذ الثأر لقتلاهم يوم بدر ، وكان قد بقي من أموال التجارة التي سلمت يوم بدر مع أبي سفيان ، وأرصدوها جميعاً لقتال محمد ﷺ هذا ما أراد أبناء القتلى إرصاده وإنفاقه فجمعوا الأحابيش والجموع العديدة ، وأقبلوا في نحو من ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريباً من أُحُد تلقاء المدينة ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من صلاة الجمعة استشار الناس : أيخرج إليهم أم يمكث في المدينة ؟ فأشار عبدالله بن أُبَيّ بالمقام بالمدينة ، وأشار آخرون ممن لم يشهدوا بدراً بالخروج إليهم . فدخل رسول الله ﷺ فلبس لامته وخرج عليهم ، وقد ندم بعضهم وقالوا : لعلنا استكرهنا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله : إن شئت أن نمكث ، فقال رسول الله ﷺ : ٥٥٢ [ما ينبغي لنبي إذا لبس لامته أن يرجع حتى يحكم الله له] فسار ﷺ في ألف من أصحابه فلما كانوا بالشوط ، رجع عبدالله بن أبي بثلث الجيش مغضباً ، لكونه لم يُرجَع إلى قوله ، واستمر رسول الله ﷺ سائراً حتى نزل الشعْبَ من أُحُد في عدوة الوادي وجعل ظهره وعسكره إلى أُحُد ، وقال : ٥٥٣ [لا يقاتلنّ أحَدٌ حتى نأمره بالقتال] وكان جيش المسلمين سبعمئة وأمّر على الرماة عبدالله بن جبير وكان عددهم خمسينَ رجلاً.وقال رسول الله ﷺ : ٥٥٤ [إنضحوا الخيل عنّا ولا نُؤتَيَنّ من

قِبَلِكُم والزموا مكانكم إن كانت النوبة لنا أو علينا ، وإن رأيتمونا تخطّفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم] وقد أعطى اللواء مصعب بن عمير وأجاز بعض الغلمان وأخّر آخرين . وتهيأ قريش وهم ثلاثة آلاف ، ومعهم مئة فرس قد جنبوها ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ، ودفعوا اللواء إلى بني عبد الدار ، ثم كان بين الفريقين ما سيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله تعالى . ولهذا قال تعالى : ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوّيء المؤمنين مقاعد للقتال ﴾ أي تنزلهم منازلهم وتجعلهم ميمنه وميسرة ﴿ والله سميع عليم ﴾ بما تقولون في ألسنتكم وضمائركم . وقوله تعالى: ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ الآية روى البخاري : عن جابر بن عبدالله قال فينا نزلت : ﴿ إذ همت طائفتان ... ﴾ قال : نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلَمة﴿والله وليهما﴾ ﴿ ولقد نصركم الله ببدر ﴾ أي يوم بدر،وكان يوم الجمعة وافق السابع عشر من رمضان من سنة اثنتين من الهجرة وهو يوم الفرقان الذي أعزّ الله فيه الإسلام وأهله،ودمغ فيه الشرك ، وخرّب محله وحزبه،هذا مع قلة المسلمين يومئذ وكان عددهم ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً فيهم فارسان وسبعون بعيراً ، والباقون مشاة والعدّة قليلة . وكان العدو بين التسعمئة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض والعدة الكاملة والخيول المسوّمة ، والحلي الزائد فأعز الله رسوله وتنزيله وقبيله ، وأخزىَ الشيطان وجيله . ولهذا قال تعالى ممتناً على عباده المؤمنين وحزبه المتقين . ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾ أي قليل عددكم ، لتعلموا أن النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العَدد والعُدد ، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً – إلى – غفور رحيم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ أي تقومون بطاعته – وبدر محلة بين مكة والمدينة تعرف ببئرها منسوبة إلى رجل حفرها اسمه (بدر)

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۞ (١٢٤) بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۞ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم

بِهِ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۞(١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ۞ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ۞(١٢٨) وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (١٢٩)

اختلف المفسرون في هذا الموعد ، هل كان يوم بدر أو يوم أحُد ؟ والأصح يوم بدر لقوله تعالى : ﴿ إذ تقول للمؤمنين ﴾ فهو متعلق بقوله تعالى : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر﴾ وهذا عن الحسن البصري وغيره واختاره ابن جرير . قال الربيع بن أنس : أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف . وقتال الملائكة إنما كان يوم بدر والله أعلم.

وقال الحسن البصري في قوله تعالى : ﴿ ألن يكفيكم أن يمدّكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ﴾ هذا يوم بدر .وقوله تعالى : ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ﴾ يعني تصبروا على لقاء عدوكم وتتقوني وتطيعوا أمري وقوله تعالى : ﴿ ويأتوكم من فورهم هذا ﴾ قال الضحاك أي من غضبهم ووجههم وقوله تعالى : ﴿ يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين ﴾ أي لهم علامات في نواحي خيولهم وقال قتادة وعكرمة « مسوّمين » أي بسيما القتال . وكان سيما الملائكة عمائم بيض قد أرسلوها في ظهورهم وسيما نواحي خيولهم الصوف الابيض وعن أبي هريرة : بالعهن الأحمر . وقوله تعالى : ﴿ وما جعله الله إلاّ بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ﴾ أي وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم وتطييباً لقلوبكم وتطميناً، وإلا فإنما النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ، من غير احتياج إلى قتالكم لهم ، كما قال تعالى : ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ... ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ وما جعله الله إلاّ بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ أي هوذو العزة التي لا ترام ، والحكمة في قدره والأحكام . ثم قال تعالى : ﴿ ليقطع طرفاً من الذين كفروا ﴾ أي أمركم بالجهاد ، والجلاد ، لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير. ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهدين فقال تعالى : ﴿ ليقطع طرفاً ﴾ أي ليهلك أمة ﴿ من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا ﴾ أي يرجعوا ﴿ خائبين ﴾ في آمالهم .

ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له ، فقال تعالى : ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ بل الأمر كله إليّ كما قال تعالى : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم ثم ذكر بقية الأقسام فقال ﴿ أو يتوب عليهم ﴾ فيهديهم بعد الضلالة ﴿ أو يعذبهم ﴾ في الدارين على كفرهم ولهذا قال : ﴿ فإنهم ظالمون ﴾ أي يستحقون ذلك روى البخاري عن سالم عن أبيه : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الثانية من الفجر ٥٥٥ [اللهم العن فلاناً وفلاناً ، اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية] فنزلت هذه الآية : ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ فتيب عليهم كلهم . ثم قال تعالى : ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ﴾ الآية .. أي الجميع ملك له ، وأهلهما عبيد بين يديه ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ أي هو المتصرف فلا معقّب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون ، والله غفور رحيم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ (١٣٠) وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۞ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۞ (١٣٢) وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۞ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ۞ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۞ (١٣٦) ﴾

نصف الحزب

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الربا وأكله أضعافاً مضاعفة ، كما كانوا في الجاهلية يقولون : إذا حل أجل الدين، إما أن تقضي وإما أن تربي. فإن قضاه وإلاّ زاد في المدة وزاده الآخر في القدر • وهكذا كل عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً ؛ وأمر عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى والآخرة ، ثم توعّدهم بالنار وحذرهم منها ؛ فقال تعالى ﴿ واتقوا النار التي أعدت للكافرين . وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾ ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارعة إلى نيل القربات - فقال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ أي كما أعدت النار للكافرين ، وقد قيل أن معنى قوله تعالى : ﴿ عرضها السموات والأرض ﴾ تنبيهاً إلى اتساع طولها ، كما قال في صفة الجنة : ﴿ بطائنها من استبرق ﴾ فما ظنك بظهائرها وقيل بل عرضها كطولها لأنها قبة فيه تحت العرش والشيء المقبب المستدير عرضه كطوله وقد دل على ذلك ما ثبت في الصحيح : ٥٥٦ ﴿ إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فانه اعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة وسقفها عرش الرحمن ﴾

وروى أحمد في مسنده : ٥٥٧ ﴿ أن هرقل كتب إلى النبي ﷺ إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات والأرض ، فأين النار فقال النبي ﷺ [سبحان الله فأين الليل اذا جاء النهار ؟] وروى البزار عن أبي هريرة قال : ٥٥٨ [جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : أرأيت قوله تعالى : ﴿ جنة عرضها السموات والأرض ﴾ فأين النار ؟ قال : « أرأيت الليل إذا جاء لبس كل شيء ، فأين النهار ؟ » قال : حيث شاء الله ، قال : « وكذلك النار تكون حيث شاء الله » ﴾ يعني : فكما أنه لا يلزم من عدم مشاهدتنا الليل إذ جاء النهار أن لا يكون في مكان ، وان كنا لا نعلمه وكذلك النار تكون حيث شاء الله عز وجل ، وهذا أظهر كما تقدم في حديث أبي هريرة عن البزار .

• ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال : ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء ﴾ أي في الشدة والرخاء والمنشط والمكره والصحة والمرض وفي جميع الحال والأحوال كما قال تعالى : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية ﴾ والمعنى أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله تعالى والإنفاق في مراضيه . وقوله تعالى : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ أي إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يعملوه ، وعفوا مع ذلك عمّن أساء اليهم . وقد ورد في بعض الآثار ٥٥٩ ﴿ يقول الله تعالى : يا ابن آدم أذكرني اذا غضبت ، أذكرك اذا غضبت فلا أهلكك فيمن أهلِكُ ﴾ رواه ابن أبي حاتم . وروى

الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال ٥٦٠ ﴿ ليس الشديد بالصُرَعة ، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب ﴾ وقد رواه الشيخان .

• روى الإمام أحمد عن حارثة بن قدامة السعدي أنه سأل رسول الله ﷺ ، فقال : ٥٦١ [يا رسول الله ، قل لي قولاً ينفعني وأقلل عليّ لعليّ أعيه ؛ فقال رسول الله ﷺ : « لا تغضب » فأعاد عليه حتى أعاد عليه مراراً كل ذلك يقول : « لا تغضب»] .

• روى الإمام أحمد عن عطية بن سعد السعدي – وقد كانت له صحبة – قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٦٢ [« إن الغضب من الشيطان ، وإن الشيطان خلق من النار ، وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ »] وهكذا رواه أبو داود .

• روى أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ ٥٦٣ [أن النبي ﷺ قال : « من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله جوفه أمناً وإيماناً »]

• روى ابن مردويه عن ابن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٦٤ [ما تجرع عبد من جرعة أفضل أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله]

وقوله تعالى : ﴿ والعافين عن الناس ﴾ أي يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم ، فلا يبقى فيها موجدة على أحد ، وهذا أكمل الأحوال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ فهذا من مقامات الإحسان ، وفي الحديث ٥٦٥ [ثلاث أقسم عليهن : ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، ومن تواضع لله رفعه الله]

• وروى الحاكم في مستدركه من حديث موسى بن عقبه بسنده عن عباده بن الصامت عن أُبيّ ابن كعب أن رسول الله ﷺ قال : ٥٦٦ [من سره أن يشرف له البنيان ، وترفع له الدرجات ، فليعفُ عمّن ظلمه ، ويعطِ من حرمَه ، ويصل من قطعه] ثم قال صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه . وقوله تعالى : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ أي اذا صدر منهم ذنب ، اتبعوه بالتوبة والاستغفار ، روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ عن النبي ﷺ قال : ٥٦٧ [« إن رجلاً أذنب ذنباً فقال : رب إني أذنبت ذنباً فاغفره لي ؛ فقال الله عز وجل : عبدي عمل ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدي . ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إني عملت ذنباً فاغفره ؛ فقال تبارك وتعالى : علم عبدي أن له رباً

يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدي . ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إني عملت ذنباً فاغفره لي ؛ فقال عز وجل : علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إني عملت ذنباً فاغفره ، فقال الله عز وجل : عبدي علم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، أشهدكم أني قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء . «] أخرجاه في الصحيحين من حديث اسحق بن أبي طلحة ، بنحوه .

• ويتأكد الوضوء وصلاة ركعتين عند التوبة ، لما رواه أحمد بن حنبل عن علي رضي الله عنه قال : ٥٦٨ [كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله بما شاء منه ، وإذا حدثني عنه غيره استحلفه فاذا حلف لي صدقته ؛ وإن أبا بكر رضي الله عنه حدثني – وصدق أبو بكر – أنه سمع رسول الله ﷺ ، قال : « ما من رجل يذنب ذنباً فيتوضأ ويحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين ، فيستغفر الله عز وجل إلاَّ غَفَرَ له »] رواه على المديني أيضاً والحميدي وابن أبي شيبة وأهل السنن وابن حبان في صحيحه والبزار ، والدارقطني من طرق عن عثمان بن المغيرة به وقال الترمذي : هو حديث حسن . وبالجملة فهو حديث حسن وهو من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عن خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق رضي الله عنهما .

• ويشهد لصحة هذا الحديث ما في الصحيحين ٥٦٩ [عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه توضأ لهم وضوءَ النبي ﷺ ثم قال : سمعت النبيَّ ﷺ يقول : « من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلىّ ركعتين لا يُحَدِّث فيهما نفسه ، غفر له ما تقدم من ذنبه »] فقد ثبت هذا الحديث من رواية الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين عن سيد الأولين والآخرين ، ورسول رب العالمين ، كما دل عليه الكتاب المبين ، من أن الاستغفار من الذنب ينفع العاصين .

• وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : ٥٧٠ [قال إبليس : يا رب وعزتك لا أزال أغوي بني آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الله تعالى : وعزّتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني] .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يغفر الذنوب إلاَّ الله ﴾ أي لا يغفرها أحد سواه . كما روى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع ٥٧١ [أن النبيَّ ﷺ أتي بأسير فقال : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ؛ فقال النبي ﷺ « عرف الحق لأهلِه »] . وقوله تعالى : ﴿ ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ أي تابوا ولم يستمروا على المعصية

ويصروا عليها ولو تكرر الذنب منهم تابوا منه كما روى الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده عن مولى لأبي بكر عن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ٥٧٢ [« ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة »] وهو حديث حسن . وقوله تعالى : ﴿ وهم يعلمون ﴾ أن من تاب تاب الله عليه وهذا كقوله تعالى : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ ونظائر هذا كثيرة جداً . وقوله تعالى : ﴿ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم ﴾ أي جزاؤهم على هذه الصفات ﴿ مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي من أنواع المشروبات ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها ﴿ ونعم أجر العاملين ﴾ يمدح تعالى الجنّة .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۞ (١٣٧) هَٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ۞ (١٣٨) وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۞ (١٣٩) إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ ۞ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَافِرِينَ ۞ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّابِرِينَ ۞ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ۞ (١٤٣) ﴾

يواسي الله عباده المؤمنين لما أصيبوا يوم أُحُد ، وقتل منهم سبعون،بقوله تعالى : ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ أي قد جرى نحو هذا على من قبلكم من أتباع الأنبياء ، ثم كانت العاقبة لهم ، والدائرة على الكافرين ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذّبين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ هذا بيانٌ للناس ﴾ يعني القرآن

فيه أخبار الغابرين مع أعدائهم جليّة ﴿ وهدى وموعظة ﴾ يعني القرآن، فيه خبر ما قبلكم، وهدى لقلوبكم، وموعظة أي زاجر عن المحارم والمآثم ثم قال تعالى مسلياً للمؤمنين ﴿ ولا تهنوا ﴾ أي لا تضعفوا بسبب ما جرى ﴿ ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ أي العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون. ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ أي إن كنتم قد أصابتكم جراح وقُتِلَ منكم طائفة، فقد أصاب أعداءكم كذلك جراح وقتل. ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ فقدر عليكم فوز أعدائكم عليكم، وإن كانت العاقبة لكم لحكمة نعلمها، ولهذا قال تعالى: ﴿ [1] وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ قال ابن عباس: في مثل هذا الذي [2] من يصبر على مناجزة الأعداء ﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ يعني يُقتَلون في سبيله ويبذلون مهجهم في مرضاته ﴿ والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ﴾ أي يُكفِّر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب وإلاّ رفع درجاتهم بحسب ما أصيبوا به. وقوله تعالى: ﴿ ويمحق الكافرين ﴾ أي فإنهم إذا ظفروا بطروا وبغوا، فيكون ذلك سبب دمارهم وفنائهم. ثم قال تعالى: ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلمَ الصابرين ﴾ أي حسبتم أن تدخلوا الجنة، دون أن تمتحنوا بالقتال والشدائد ويرى الله منكم المجاهدين الصامدين في سبيله، **والصابرين على** مقاومة الأعداء. وقوله تعالى: ﴿ ولقد كنتم تمنّوْن الموت من قبل أن تلقَوْهُ فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾ أي قد كنتم تتمنّون لقاء العدو، وتودّون مناجزتهم فهاقد حصل لكم الذي طلبتموه، فدونكم فقاتلوا وصابروا. وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: ٥٧٣ ﴿ لا تتمنّوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿ فقد رأيتموه ﴾ وقت التحام الصفوف. ﴿ وأنتم تنظرون ﴾

۞ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي ٱللَّهُ ٱلشَّاكِرِينَ ❁(١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا

(١ ـ و ٢) قلت: أن الله جل وعلا عندما يقول(ليعلم) ليس معناه أن علمه بهم، متوقف على نتيجة أعمالهم فالله خلقهم وما يعملون « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ولكن ليقيم الحجة عليهم من أعمالهم خيراً كانت أو شراً فيجزيهم بما يستحقون. وهو الذي يعلم السر وأخفى وهو عالم بما سيكون وما كان وما هو كائن قبل أن يخلق الأرض والسموات بخمسين ألف عام.

بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي ٱلشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنْصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أُحُد ، وقتل من قتل منهم ، وقيل أن الشيطان نادى : ألا إن محمداً قد قتل ، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس ، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل ، وأنه يجوز عليه ذلك كما أخبرنا الله بمثله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام ، وقد حصل بين المسلمين ضعف وتأخر عن القتال ففي ذلك أنزل الله تعالى ﴿ وما محمد إلاّ رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ أي له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه . قال ابن أبي نجيح عن أبيه : أن رجلاً من المهاجرين مرَّ على رجل من الأنصار يتشحّط في دمه فقال له : يا فلان أشعرت أن محمداً ﷺ قد قتل ؟ فقال الأنصاري : إن كان محمد قد قتل فقد بلّغ ، فقاتلوا عن دينكم . رواه البيهقي في دلائل النبوة .

ثم قال تعالى منكراً على من ضعف : ﴿ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ أي تقهقرتم ؟ ﴿ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين ﴾ أي الذين قاموا بالطاعة وقاتلوا عن دينه واتبعوا رسوله حياً وميتاً .

قال البخاري عن ابن شهاب أخبرني أبو سلمة أن عائشة رضي الله عنها ، أخبرته أن أبا بكر رضي الله عنه ، أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل فدخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة ، فتيمّم رسول الله ﷺ وهو مغطّى بثوب حبرة : فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله وبكى ، ثم قال : بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التي كتبت عليك فقدْ مِتّها وقال الزهري : وحدثني أبو سلمة عن ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس وقال : أجلس يا عمر ؛ قال أبو بكر :

أما بعد : فمن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . قال الله تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول فدخلت من قبله الرسل ـ إلى قوله ـ وسيجزي الله الشاكرين ﴾ قال فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر ، فتلاها منه الناس كلهم فما أسمع بشراً من الناس إلاّ يتلوها . وأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر قال ، والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعرقت حتى ما تقلّني رجلاي وحتى هويت إلى الأرض .

وقوله تعالى : ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجّلاً ﴾ أي لا يموت أحدٌ إلا بقدر الله وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له، ولهذا قال : ﴿ كتاباً مؤجلاً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وما يعمّر من معمّر ولا ينقص من عمره إلاّ في كتاب ﴾ وفي هذه الآية تشجيع للجبناء على القتال فإن إلا قدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يُرِد ثوابَ الدنيا نؤتِه منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ﴾ أي من عمل للدنيا فحسب،ينال ما قدّره الله له ، وما له في الآخرة من نصيب، ومن عمل لآخرته أعطاه الله منها وما قسم له في الدنيا. كما قال تعالى: ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نَزِدْلَهُ في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤتِهِ منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وسنجزي الشاكرين ﴾ أي سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم . ثم قال تعالى مسلّياً للمؤمنين عما وقع في نفوسهم يوم أحد : ﴿ وكأيّن من نبيٍّ قاتل معه ربيّون كثير ﴾ قيل معناه : كم من نبي قُتل وقُتل معه ربيون من أصحابه كثير هذا على قراءة من قرأ : ﴿ قتل معه ربيون كثير ﴾ لأن الله عاتب بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحُد وتركوا القتال لما سمعوا الصائح يصيح بأن محمداً قد قتل فعذلهم الله على فرارهم وتركِ القتال ، فقالِ لهم : ﴿ أفئن مات أو قتل ﴾ أيها المؤمنون ارتددتم عن دينكم و ﴿ انقلبتم على أعقابكم ﴾ وقيل وقيل ... ولكن قول ابن اسحق في السيرة موافق والله أعلم ـ وهو : « وكأيّن من نبيٍّ أصابه القتل ومعه ربّيّون أي جماعات فما وهنوا بعد نبيّهم ، وما ضعفوا عن عدوّهم ، وما استكانوا لما أصابهم في الجهاد عن الله وعن دينهم وذلك الصبر ﴿ والله يحب الصابرين ﴾ فجعل قوله تعالى : ﴿ معه ربيّون كثير ﴾ حالاً ، وقد نصر هذا القول السهيلي وبالغ فيه وله اتجاه لقوله تعالى:﴿ فما وهنوا لما أصابهم ﴾ الآية ... ، وقد حكاه الأموي في مغازيه عن كتاب محمد بن إبراهيم ولم يحكِ غيره . وقوله تعالى : ﴿ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ﴾ وقال قتادة والربيع : ﴿ وما ضعفوا ﴾ بقتل نبيّهم

﴿ وما استكانوا ﴾ أي فما ارتدّوا عن نُصرتهم ولا عن دينهم أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبيّ الله حتى لحقوا بالله .

وقوله تعالى : ﴿ والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله ثواب الدنيا ﴾ أي النصر والظفر والعاقبة ﴿ وحسن ثواب الآخرة ﴾ أي جمع لهم ذلك مع هذا . ﴿ والله يحبّ المحسنين . ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۝ (١٤٩) بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّاصِرِينَ ۝ (١٥٠) سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّالِمِينَ ۝ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَٱللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ (١٥٣) ﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين طاعة الكافرين والمنافقين ، فان طاعتهم تورث الرّدى في الدنيا والآخرة ؛ ولهذا قال : ﴿ إن تطيعوا الذين كفروا يردّوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ﴾ ثم أمرهم بطاعته وموالاته والاستعانة به ، والتوكل عليه ، فقال تعالى : ﴿ بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ ثم بشرهم بأنه سيُلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم والذلة لهم بسبب كفرهم وشركهم ؛ مع ما لهم من العذاب في الآخرة ، فقال تعالى : ﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم

ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين ﴾ .

وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال : ٥٧٤ : [أعطيت خمساً لم يُعطَهنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي : نصرتُ بالرعب مسيرةَ شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلّت لي الغنائم ، وأعطيتُ الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة] .

وروى العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ قال : قذف الله الرعب في قلب أبي سفيان فرجع إلى مكة ، فقال النبي ﷺ ٥٧٥ : [إن أبا سفيان قد أصاب منكم طرفاً ، وقد رجع وقذف الله في قلبه الرعب] رواه بن أبي حاتم . وقوله تعالى : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ﴾ قال ابن عباس وعدهم الله النصر .

لما واجه المسلمون المشركين كان الظفر والنصر أول النهار ، فلما حصل ما حصل من عصيان الرماة وفشل بعض المقاتلة تأخر الوعد الذي كان مشروطاً بالطاعة والثبات لقوله تعالى : ﴿ إذ تحسّونهم ﴾ أي تقتلونهم ﴿ بإذنه ﴾ أي بتسليطه إياكم عليهم ﴿ حتى إذا فشلتم ﴾ أي جبنتم قال ابن عباس : الفشل الجبن ، ﴿ وتنازعتم في الأمر وعصيتم ﴾ كما وقع للرماة ﴿ من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ من الظفر بهم أول الأمر .

﴿ منكم من يريد الدنيا ﴾ وهم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا هزيمة المشركين ﴿ ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ ثم نصرهم عليكم ليختبركم ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ أي غفر لكم ذلك الصنيع [١] ﴿ والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ أي لم يستأصلكم بما خالفتم أمر رسول الله ﷺ فعفا عنكم والله يتفضل على المؤمنين برحمته ويخصهم بها لإيمانهم به وبرسوله .

روى البخاري عن البراء قال ٥٧٦ : [لقينا المشركين يومئذ ، وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة وأمَّر عليهم عبدالله بن جبير ، وقال : « لا تبرحوا ، ان رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وان رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » فلما لقيناهم هربوا حتى

---

(١) قلت : لقد اجتهد الرماة من جهة وغرتهم الدنيا من جهة أخرى فخالفوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بينما كان أمر رسول الله صريحاً (... لو رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم) وهذه دلالة صريحة على لزوم التقيد بأمر المعصوم دون أي اجتهاد فيه . ففي الاتباع الخير كله ، وفي الابتداع الشر كله .

رأيت النساء يشتددن في الجبل رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن ، فأخذوا يقولون : الغنيمة الغنيمة . فقال عبدالله بن جبير : عهد إليّ النبي ﷺ أن لا تبرحوا فأبَوْا... فلما أبوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلاً . فأشرف أبو سفيان فقال : أفي القوم محمد ؟ « فقال لا تجيبوه » فقال : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ قال : « لا تجيبوه » فقال : أفي القوم ابن الخطاب ؟ فقال : إن هؤلاء قتلوا فلو كانوا أحياء لأجابوا ، فلم يملك عمر نفسه فقال له : كذبت يا عدو الله أبقى الله لك ما يحزنك ؛ قال أبو سفيان : أعلُ هبل ، فقال النبي ﷺ ، «أجيبوه» قالوا : ما نقول ؟ قال : « قولوا الله أعلى وأجل » . قال أبو سفيان لنا العزّى ولا عزّى لكم . فقال النبي ﷺ : « أجيبوه » قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ؛ وستجدون مُثْلَةً لم آمرْ بها ولمْ تَسؤْني]

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : لما كان يوم أحد هزم المشركون، فصرخ إبليس : أي عباد الله أخراكم ، فرجعت أولاهم فاجتلدت هي وأخراهم ، فبصر حذيفة ، فإذا بأبيه اليمان فقال : أي عباد الله أبي أبي قال : قالت : فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه ؛ فقال حذيفة : يغفر الله لكم . قال عروة : فوالله ما زالت في حذيفة بقية خير حتى لحق بالله عز وجل .

قال ابن اسحق : حدثني القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أحد بني عدي بن النجار قال : انتهى أنس ابن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيدالله في رجال من المهاجرين والأنصار قد القوا ما بأيديهم ؛ فقال : ما يُخلّيكم ؟ فقالوا : قتل رسول الله ﷺ . قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه .

روى البخاري عن أنس بن مالك أن عمه أنس بن النضر ، غاب عن بدر فقال : غبت عن أول قتال النبي ﷺ لئن أشهدني الله مع رسول الله ﷺ ، ليرينّ الله ما أجد ، فلقي يوم أحد فهزم الناس فقال : اللهم أني أعتذر اليك مما صنع هؤلاء – يعني المسلمين – وأبرأ اليك مما جاء به المشركون ؛ فتقدم بسيفه فلقي سعد بن معاذ فقال : أين يا سعد إني أجد ريح الجنة دون أحد فمضى فقتل ، فما عُرِفَ حتى عرفته أخته بشامة أو ببنانه ، وبه بضعٌ وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم ورواه مسلم .

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال ٥٧٧ : [ان النساء كنّ يوم أحد خلف

المسلمين يجهزن على جرحى المشركين ، فلو حلفت يومئذ رجوت أن أبرَّ أنه ليس منّا أحد يريد الدنيا حتى أنزل الله : ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ فلما خالف أصحاب رسول الله ﷺ وعصوا ما أُمِرُوا به ، أفرد النبي ﷺ في تسعة : سبعة من الأنصار ، ورجلين من قريش ، وهو عاشرهم ﷺ ؛ فلما أرهقوه قال : رحم الله رجلاً ردَّهم عنا » قال : فقام رجل من الأنصار فقاتل ساعةً حتى قتل فلما أرهقوه أيضاً قال: « رحم الله رجلاً ردَّهم عنا » فلم يزل يقول ذلك حتى قتل السبعة ، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه : « ما أنصفنا أصحابنا » فجاء أبو سفيان فقال : أعلُ هُبَل ؛ فقال رسول الله ﷺ : قولوا : « الله أعلى وأجل » فقالوا : الله أعلى وأجل . فقال أبو سفيان : لنا العزى ولا عُزَّى لكم فقال رسول الله ﷺ : « قولوا الله مولانا والكافرون لا مولى لهم ، فقال أبو سفيان يوم بيوم بدر ، فيوم علينا ويوم لنا ، ويوم نُساءُ ويوم نسر ، حنظلة بحنظلة ، وفلان بفلان فقال رسول الله ﷺ لا سواء . أما قتلانا فأحياء يرزقون ، وأما قتلاكم ففي النار يعذبون . فقال أبو سفيان : لقد كان في القوم مثلة ، وإن كانت لعَن غير ملأمنا ما أمرتُ ولا نهيت ، ولا أحببت ولا كرهت ولا ساءني ولا سرّني قال فنظروا فإذا حمزة قد بقر بطنه ، وأخذت هند كبده فلاكتها... فلم تستطع أن تأكلها . فقال رسول الله ﷺ : « أكلتْ شيئاً » ؟ قالوا : لا. قال: « ما كان الله ليدخل شيئاً من حمزة في النار » قال : فوضع رسول الله ﷺ حمزة فصلّى عليه ،وجيء برجل من الأنصار فوضع إلى جانبه فصلى عليه ، فرفع الأنصاري وترك حمزة حتى جيء بآخر فوضع إلى جنب حمزة فصلى عليه ثم رفع وترك حمزة حتى صلى عليه يومئذ سبعين صلاة] . تفرد به أحمد .

وقوله تعالى :﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ﴾ أي صرفكم عنهم إذ تصعدون في الجبل هاربين من أعدائكم وأنتم لا تلوون على أحد من الدهش والخوف والرعب﴿والرسول يدعوكم في أخراكم ﴾ أي وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء وإلى الرجعة والعودة والكرّة . ويدعو الناس ٥٧٨ : [إليَّ عباد الله إليَّ عباد الله] قال ابن عباس ولم يبقَ مع رسول الله ﷺ إلاَّ اثنا عشر رجلاً جاهدوا دونه ﷺ وفيهم طلحة الذي بقي منهم وقتل الآخرون فاستأذن طلحة فقاتل مثل قتال جميع من كان قبله وأصيبت أنامله فقال : حِسِّ[1] فقال رسول الله ﷺ ٥٧٩ : « لو قلت بسم

(١) كلمة يقولها من أصابه على حين غفلة ما آلمه، أو أحرقه. كقول بعضنا في هذا الزمن : (أخ ...)

الله وذكرت اسم الله لرفعتك الملائكة والناس ينظرون إليك حتى تلج بك في جو السماء] ثم صعد رسول الله ﷺ إلى أصحابه وهم مجتمعون . وقد روى البخاري عن قيس بن أبي حازم ، قال ٥٨٠ : رأيت يد طلحة شلاء، وقى بها النبي ﷺ ، يعني يوم أحد ـ وفي الصحيحين من حديث معتمر بن سليمان عن أبيه عن أبي عثمان النهدي ، قال ٥٨١ : [لم يبق مع رسول الله ﷺ في بعض تلك الأيام التي قاتل فيهن رسول الله ﷺ إلا طلحة بن عبيد وسعد] وقال الحسن بن عرفة عن سعيد بن المسيب قال سمعت سعد بن أبي وقاص ، يقول : ٥٨٢ [نثل لي رسول الله ﷺ كنانته يوم أحد وقال : إرم فداك أبي وأمي »]

وأخرجه البخاري عن سعد بن أبي وقاص ٥٨٣ : [أنه رمى يوم أحد دون رسول الله ﷺ قال سعد : فلقد رأيت رسول الله ﷺ يناولني النبل ويقول « إرم فداك أبي وأمي » حتى انه ليناولني السهم ليس له نصل فأرمي به .]

وثبت في الصحيحين من حديث إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص ، عن أبيه قال : ٥٨٤ [رأيت يوم أحد عن يمين النبي ﷺ ، وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشد القتال ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده ، يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام]

وقال أبو الأسود عن عروة عن الزبير ٥٨٥ : [كان أُبَيُّ بنُ خلف ، أخو بني جمح قد حلف وهو بمكة ، ليقتلنّ رسول الله ﷺ ، فلما بلغت رسول الله ﷺ حلفته ، قال : « بل أنا أقتله إن شاء الله » فلما كان يوم أحد ، أقبل أُبيٌّ في الحديد مقنعاً وهو يقول : لا نجوت إن نجا محمد ، فحمل على رسول الله ﷺ يريد قتله فاستقبله مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار يقي رسول الله ﷺ بنفسه ، فقتل مصعب بن عمير . وأبصر رسول الله ﷺ ترقوة أبي بن خلف من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة ، وطعنه فيها بحربته فوقع إلى الأرض عن فرسه ولم يخرج من طعنته دم.فأتاه أصحابه فاحتملوه وهو يخور خوار الثور فقالوا : ما أجزعك انما هو خدش ؟ فذكر لهم قول رسول الله ﷺ بل أنا أقتل أبياً » ثم قال : والذي نفسي بيده لو كان هذا الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون ، فمات إلى النار ﴿ فسحقاً لأصحاب السعير ﴾]

روى البخاري عن ابن عباس. قال ٥٨٦ : ﴿ إشتد غضب الله على من قتله رسول الله بيده في سبيل الله ، واشتد غضب الله على قوم أدموا وجه رسول الله ﷺ

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : ٥٨٧(إشتد غضب الله على قوم فعلوا برسول الله ﷺ ـ وهو حينئذ يشير إلى رباعيته ـ واشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله . ﴾

وقال ابن اسحق : أصيبت رباعية رسول الله ﷺ وشجّ في وجنته وكلمت شفته ، وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص ، فحدثني صالح بن كيسان عمن حدثه ، عن سعد بن أبي قاص ٥٨٨ ، قال : [ما حرصت على قتل أحد قط ما حرصت على قتل عتبة بن أبي وقاص ، وإن كان مـــا علمته لسيء الخلق مبغضاً في قومه ولقد كفاني فيه قول رسول الله ﷺ واشتد غضب الله على من دمّى وجه رسول الله ﷺ »]

قوله تعالى : ﴿ فأثابكم غماً بغم ﴾ أي فجزاكم غماً على غم. وكذا قوله تعالى ﴿ ولأصلبنّكم في جذوع النخل ﴾ أي على جذوع النخل . فالغم الأول الحرمان من غنيمة المشركين والظفر بهم والنصر عليهم وما أصاب المسلمين من القتل والجراح يومئذ ، بعد النصر الذي أحرزوه بادىء الأمر ، والذي ما فاتهم أخيراً الا بمعصية أمر الله وخلافٌ أمر رسول الله ﷺ . والغم الثاني ظنهم أن النبي ﷺ قد قتل وميل العدو عليهم وإشرافه وعلوّه عليهم فوق الجبل .

وقوله تعالى : ﴿ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ﴾ أي على ما أتاكم من الغنيمة والظفر بعدوكم ﴿ ولا ما أصابكم ﴾ من الجراح والقتل قاله ابن عباس وعبد الرحمن بن عوف وغيرهما ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ سبحانه وبحمده لا إله إلا هو جل وعلا .

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هٰهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي

قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

يمتّن الله تعالى على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة ، وهو النعاس الذي غشيهم وهم مشتملون السلاح في حال همهم وغمهم . والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان كما قال في سورة الأنفال في قصة بدر ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ﴾ الآية ... روى بن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : النعاس في القتال من الله ، وفي الصلاة من الشيطان وروى البخاري عن أنس عن أبي طلحة قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد ، حتى سقط سيفي من يدي مراراً ، يسقط وآخذه ، ويسقط وآخذه هكذا رواه في المغازي معلّقاً . ورواه في كتاب التفسير مسنداً عن شيبان ، عن قتادة عن أنس عن أبي طلحة قال : غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أُحد قال فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ، ويسقط وآخذه . وفي هذا يقول تعالى :

﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنةً نعاساً يغشى طائفة منكم﴾ يعني أهل الإيمان واليقين والثبات والتوكل الصادق. وهم الجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله ويُنجز له مأموله . ولهذا قال تعالى : ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ﴾ يعني لا يغشاهم النعاس من من القلق والجزع والخوف ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ كما قال في الآية الأخرى : ﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ﴾ إلى آخر الآية . واعتقد هؤلاء أن انتصار المشركين أصبح فاصلاً ، وان الإسلام قد باد وأهله ، وهكذا شأن أهل الشك تحصل لهم مثل هذه الظنون الشنيعة ثم أخبر تعالى أنهم : ﴿ يقولون ﴾ في تلك الحال ﴿ هل لنا من الأمر من شيء ﴾ فقال تعالى : ﴿ قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك ﴾ ثم فسّر ما أخفوه في أنفسهم ، بقوله تعالى ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ أي يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ .

روى ابن اسحق عن الزبير قال : لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم ، فما منا من رجل إلا وذقنه في صدره ، قال فوالله أني لأسمع قول معتب بن قشير ما أسمعه إلا كالحلم يقول : ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ﴾ فحفظتها منه . وفي ذلك أنزل الله تعالى ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا ﴾ رواه ابن أبي حاتم .

قال الله تعالى : ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾ أي هذا قدر قدَّره الله عز وجل ، وحكم حتم لا محيد عنه ولا مناص منه . وقوله تعالى : ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحّص ما في قلوبكم﴾ أي يختبركم بما جرى عليكم ، ليميز الخبيث من الطيب ، ويظهر أمر المؤمن من المنافق في الأقوال والأفعال ﴿والله عليم بذات الصدور﴾ أي بما يختلج في الصدور من السرائر والضمائر. ثم قال تعالى: ﴿إن الذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا﴾ أي ببعض ذنوبهم السابقة ، كما قال بعض السلف : إن من ثواب الحسنة ، الحسنة بعدها ، وإن من جزاء السيئة ، السيئة بعدها . ثم قال تعالى : ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ أي عما كان منهم من الفرار ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي يغفر الذنب ويحلم عن خلقه ويتجاوز عنهم .

﴿يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۞ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ۞ (١٥٨)﴾

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار ، في اعتقادهم الفاسد في قولهم عن اخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب لو كانوا تركوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم . فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم﴾ أي عن اخوانهم ﴿إذا ضربوا في الأرض﴾ أي سافروا للتجارة ونحوها ﴿أو كانوا غزّى﴾ أي في الغزو ﴿لو كانوا عندنا﴾ أي في البلد ، ﴿ما ماتوا وما قتلوا﴾ في السفر أو في الغزو . وقوله تعالى : ﴿ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم﴾ أي خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم ، ليزدادوا حسرة على موتاهم وقتلاهم. ثم رد تعالى عليهم ﴿والله يحيي ويميت﴾ أي بيده الخلق وإليه يرجع الأمر ، فلا يحيا أحد ولا يموت إلا بمشيئته وقدره ولا يزاد في عمر أحد ولا ينقص منه شيء إلاّ بقضائه وقدره ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي علمه وبصره نافذ في جميع مخلوقاته ، ولا يخفى

عليه من أمورهم شيء ، وقوله تعالى ﴿ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون﴾ تضمن هذا أن القتل في سبيل الله والموت أيضاً وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه ، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجميع حطامها الفاني . وان كل من مات فمرجعه اليه تعالى، فيجزيه بعمله إن خيراً كان أو شراً. فقال تعالى : ﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ❁(١٥٩) إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ❁(١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ❁ (١٦١) أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ❁ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ❁ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ❁(١٦٤)﴾

يخاطب الله تعالى رسوله ﷺ ، ممتناً عليه وعلى المؤمنين فيما ألان قلبه على أمته المتبعين لأمره التاركين لزجره وأطاب لهم لفظه﴿فبما رحمة من الله لنت لهم﴾ أي رحمة من الله . وقال الحسن البصري : هذا خُلُق محمد ﷺ بعثه الله به وهذه الآية الكريمة شبيهة بقوله تعالى : ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ ثم قال تعالى : ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾

أي لو كنت سيء الكلام قاسي القلب عليهم، لانفضوا عنك وتركوك، ولكن الله جمعهم عليك وألان جانبك لهم تأليفاً ـ لقلوبهم كما قال عبدالله بن عمرو: إني أرى صفة رسول رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة: انه ليس بفظ، ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح

وقال تعالى: ﴿ فاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر ﴾ ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث، تطييباً لقلوبهم ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه، كما شاورهم ـ يوم بدر في الذهاب الى العير، فقالوا: يا رسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك، ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك، ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى: إذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون ولكن نقول إذهب، فنحن معك وبين يديك، وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون، وشاورهم في أحد في أن يقعد في المدينة أو يخرج الى العدو، فأشار جمهورهم بالخروج إليهم، فخرج إليهم. وشاورهم يوم الأحزاب في المصالحة على ثلث ثمار المدينة فأبى سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، فترك ذلك. وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين، فقال له الصديق: إنا لم نجيء لقتال أحد وإنما جئنا معتمرين، فأجابه إلى ما قال.

وقال في قصة الإفك ٥٨٩ [اشيروا عليّ معشر المسلمين في قوم أبنوا [1] أهلي ورموهم، وأيم الله ما علمت على أهلي من سوء وأبنوهم بمن والله ما علمت عليه إلاّ خيراً]، وكان يشاورهم في الحروب ونحوها. وقد قال ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ٥٩٠: [المستشار مؤتمن] وقال أيضاً عن جابر. قال رسول الله ﷺ ٥٩١: [اذا استشار أحدكم أخاه فليُشِر عليه] وقوله تعالى: ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ أي إذا شاورتهم في الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله فيه ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾ وقوله تعالى: ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ هذه الآية كما تقدم من قوله ﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ ثم أمرهم بالتوكل عليه فقال تعالى: ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وما كان لنبي أن يغلّ ﴾ قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: فقدوا قطيفة يوم بدر فقالوا: لعل رسول الله ﷺ أخذها فأنزل الله تعالى: ﴿ وما كان لنبي أن يغل ﴾ أي يخون. وهذا تنزيه له صلوات الله وسلامه عليه من جميع وجوه الخيانة

(١) أبنوا أهلي: أي عابوهم يوم الإفك.

في أداء الأمانة ، وقسم الغنيمة وغير ذلك . ثم قال تعالى : ﴿ومن يغلل يأتِ بما غلّ يوم القيامة ثم توفّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد، وقد وردت السنة بالنهي عن ذلك أيضاً في أحاديث متعددة حديث : روى الامام احمد عن أبي مالك الأشجعي ، عن النبي ﷺ قال : ٥٩٢ [أعظم الغلول عند الله ذراع من الأرض ، تجدون الرجلين جارين في الأرض ـ أو في الدار فيقطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعاً ، فإذا قطعه طوّقه من سبع أرضين يوم القيامة .]

حديث آخر : روى الامام أحمد عن المستورد بن شداد يقول: سمعت رسول الله ﷺ ٥٩٣ يقول : ﴿من ولي لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلاً، أو ليست له زوجة فليتزوج ، أو ليس له خادم فليتخذ خادماً ، أو ليس له دابة فليتخذ دابة ، ومن أصاب شيئاً سوى ذلك فهو غال]

حديث آخر : روى الأمام أحمد عن أبي حميد الساعدي قال: ٥٩٤(استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد يقال له إبن اللّتبيّة على الصدقة، فجاء فقال: هذا لكم وهذا أهدي لي. فقام رسول الله ﷺ على المنبر ، فقال: « ما بال العامل نبعثه على عمل فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي ؟ أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدي إليه أم لا ؟ والذي نفسي بيده لا يأتي أحدكم منها بشي إلا جاء به يوم القيامة على رقبته، إن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر [1] » ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه،ثم قال: « اللهم هل بلغت » ثلاثاً] أخرجاه من حديث سفيان بن عيينة .

حديث آخر ـ : روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : ٥٩٥ [قام فينا رسول الله ﷺ فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال : « لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء ، فيقول : يا رسول الله أغثني ؛ فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد بلّغتك، لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس لها حمحمة ، فيقول : يـا رسول الله أغثني ؛ فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قد بلغتك ، لا ألفين أحدكم على رقبته صامت[2] ، فيقول : يا رسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً قـد بلغتك »] أخرجاه من حديث أبي حيان .

حديث آخر ـ : عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ

---

(١) تيعر : تصيح .
(٢) الصامت : المال : من الذهب والفضة .

٥٩٦ [ردوا الخياط والمخيط ، فان الغلول عار ونار وشنار على أهله يوم القيامة] .

حديث آخر – : روى أبو بكر بن مردويه عن بريدة عن النبي ﷺ قال ٥٩٧ : [إن الحجر يرمى به في جهنم فيهوي سبعين خريفاً ما يبلغ قعرها ويؤتى بالغلول فيقذف معه ثم يقال لمن غل به إئت به ، فذلك قوله تعالى ﴿ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ﴾]

• روى أبو داود عن سمرة بن جندب قال ٥٩٨ : [كان رسول الله ﷺ إذا غنم غنيمة أمر بلالاً فينادي بالناس ،فيجوزوا بغنائمهم، فيخمسه ويقسمه ، فجاء رجل يوماً بعد النداء بزمام من شعر فقال : يا رسول الله ، هذا كان مما أصبناه من الغنيمة ، فقال : « أسمعت بلالاً ينادي » ثلاثاً قال نعم . قال « فما منعك أن تجيء ؟ » فاعتذر اليه فقال « كلا أنت تجيء به يوم القيامة فلن أقبله منك »]

وقوله تعالى : ﴿ أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ أي لا يستوي من اتبع شرع الله فاستحق رضوانه وثوابه ، وأجير من وبيل عقابه ، ومن استحق غضب الله وألزم به فلا محيد له عنه ومأواه جهنم وبئس المصير.وهذا كقوله تعالى : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ هم درجات عند الله ﴾ يعني أهل الخير وأهل الشر درجات ، درجاتهم في الجنة ودركاتهم في النار كقوله تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ الآية ... ولهذا قال تعالى : ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ أي وسيوفيهم إياها ، وقوله تعالى: ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ﴾ أي من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به ، كما قال تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ﴾ وهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه ولهذا قال تعالى : ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ يعني القرآن ﴿ ويزكيهم ﴾ أي يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ،لتزكو نفوسهم،وتطهر من الدنس والخبث في حال شركهم وجاهليتهم ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ يعني القرآن والسنة . ﴿ وإن كانوا من قبل ﴾ أي من قبل هذا الرسول ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ أي لفي غيّ وجهل ظاهر جلي بيِّن لكل أحد .

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ (١٦٥) وَمَا

أَصَابَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞(١٦٦) وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَٱتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ۞ (١٦٧) ٱلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَٱدْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ (١٦٨)

يقول تعالى : ﴿ أولمّا أصابتكم مصيبةٌ ﴾ هي ما أصيب منهم يوم أحد من القتلى منهم ﴿ قد أصبْتُم مثلَيْها ﴾ يعني يوم بدر فان المسلمين قتَلوا من المشركين سبعين وأسروا سبعين أسيراً﴿قلتم أنّى هذا ﴾ أي من أين جرى علينا هذا ﴿ قل هو مـــن عند أنفسكم ﴾ أي بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم ، يعني بذلك الرماة ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ أي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد لا معقب لحكمه ، ثم قال تعالى : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ﴾ أي فراركم بين يدي عدوكم وقتلهم لجماعـــة منكم وجراحتهم لآخرين ، كان بقضاء الله وقدره وله الحكمة بذلك ﴿ وليعلم المؤمنين ﴾ أي الذين صبروا و ثبتوا ولم يتزلزلوا ﴿ وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ﴾ يعني بذلك أصحاب عبدالله بن أبي بن سلول الذين رجعوا معه أثنـــاء الطريق وكانوا ثلث الناس وقال عبدالله بن أبي : أطاعهم فخرج وعصاني ووالله لاندري علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ، فرجع بمن اتّبعه من الناس من قومه أهل النفاق وأهل الريب . ولحقهم عبدالله بن عمرو بن حرام أخو بني سلمة ، يقول : يا قوم أذكّركم الله أن لا تخذلوا نبيّكم وقومكم عندما حضر من عدوكم قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولكن لا نرى أن يكون قتال ، فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الإنصراف عنهم، قال : أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم ، ومضى رسول الله ﷺ

قال الله عز وجل : ﴿ هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ﴾ ثم قال تعـــالى : ﴿ يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ﴾ يعني أنهم يقولون القول ولا يعتقدون صحته،

ومنه قولهم هذا ﴿ لو نعلم قتالا لاتبعناكم ﴾ فإنهم يتحققون أن المشركين جاءوا من بلاد بعيدة ليثأروا من المسلمين ما أصيب به أشرافهم يوم بدر ، وإن القتال كائن بينهم لا محالة. ولهذا قال تعالى : ﴿ والله أعلم بما يكتمون ﴾ ثم قال : ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ أي لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل . قال الله تعالى: ﴿ قل فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ أي إن كان القعود يسلم به الشخص من الموت ، فينبغي أنكم لا تموتون ، والموت لا بد آت إليكم ولو كنتم في بروج مشيدة فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين .

قال مجاهد عن جابر بن عبدالله : نزلت هذه الآية في عبدالله بن أبيّ بن سلول وأصحابه .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ❁ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ❁ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ❁ (١٧١) ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ❁ (١٧٢) ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ❁ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَٱتَّبَعُوا رِضْوَانَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ❁ (١٧٤) إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ❁ (١٧٥) ﴾

حزب ٨

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار ، فإن أرواحهم حيّة مرزوقة في دار القرار .

روى محمد بن جرير عن إسحق بن أبي طلحة ٥٩٩ [قال حدثني أنس بن مالك في أصحاب رسول الله ﷺ الذين أرسلهم نبي الله إلى أهل بئر معونة ، قال : لا أدري أربعين أو سبعين وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفري ، فخرج أولئك النفر من أصحاب رسول الله ﷺ حتى أتوا غاراً مشرفاً على الماء فقعدوا فيه ، ثم قال بعضهم لبعض : أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهلَ هذا الماء ؟ فقال ـ أراه أبو ملحان الأنصاري ـ أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ فخرج حتى أتى حول بيتهم فاجتثى أمام البيوت ثم قال : يا أهل بئر معونة : إني رسول رسول الله إليكم ، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فآمنوا بالله ورسوله . فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح . فضربه في جنبه حتى خرج من الشق الآخر فقال : الله أكبر فزت وربِّ الكعبة ، فاتبعوا أثره حتى أتوا صاحبه في الغار فقتلهم أجمعين عامر بن الطفيل] .

* وقال ابن اسحق : حدثني أنس بن مالك ٦٠٠ : [أن الله أنزل فيهم قرآناً /بلغوا عنا قومنا أنّا قد لقينا ربنا فرضي عنا ، ورضينا عنه / ثم نسخت فرفعت بعد ما قرأناها زماناً ، وأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون ﴾]

* وقد روى مسلم في صحيحه عن مسروق قال : ٦٠١ [إنا سألنا عبدالله عن هذه الآية : ﴿ ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ فقال : أما إنّا قد سألنا رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع عليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟فقالوا أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى ، فلما رأى أن ليس لهم حاجة ، تركوا .]

حديث آخر ـ : روى الإمام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ ٦٠٢ : [ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أن ترجع إلى الدنيا إلاّ الشهيد ، فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى مما يرى من فضل الشهادة .]

حديث آخر ـ : وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما ٦٠٣ [إن أبا جابر وهو عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري رضي الله عنه قتل يوم أحد شهيداً .]

حديث آخر - : روى الإمام أحمد عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ ٦٠٤ : [أعلمت أن الله أحيا أباك فقال له : تمنَّ ، فقال له : أردُّ إلى الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى . قال : أني قضيت أنهم إليها لا يرجعون .]

حديث آخر - : روى البخاري عن ابن المنكدر٦٠٥ : [سمعت جابراً قال لما قتل أبي جعلت أبكي وأكشف الثوب عن وجهه فجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهونني والنبيّ ﷺ لم ينهَ ؛ فقال النبي ﷺ « لا تبكيه - أو ما تبكه - ما زالت الملائكة تظلّه بأجنحتها حتى رفع »] وقد أسنده مسلم والنسائي من طرق ...

حديث آخر -: روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ ٦٠٦ : [لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ، وحسن مقيلهم قالوا : يا ليت اخواننا يعلمون ما صنع الله بنا ، لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله هذه الآيات : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ وما بعدها ...]

حديث آخر : روى الإمام أحمد عن محمد بن إدريس الشافعي عن مالك بن أنس الأصبحي عن الزهري عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ٦٠٧ : [نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه] .

ففي هذا الحديث البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنة تسرح أيضاً فيها وتأكل من ثمارها وترى ما فيها من النضرة والسرور ، وتشاهد ما أعد الله لها من الكرامة وهو حديث عزيز عظيم ، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب الأربعة المتبعة .

أما أرواح الشهداء فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح المؤمنين فنسأل الله الكريم المنان أن يميتنا على الإيمان . وقوله تعالى : ﴿ فرحين بما آتاهم الله ﴾ أي من النعمة والغبطة ﴿ ويستبشرون ﴾ أي ويسرون بلحوق مَن لحقهم من إخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم ، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم . قال سعيد بن جبير لما دخلوا الجنة ورأوا ما فيها من الكرامة للشهداء قالوا : يا ليت إخواننا الذين في الدنيا يعلمون ما

عرفناه من الكرامة التي أخبر بها رسول الله ﷺ ، فأخبرهم أي ربُّهم : أني قد أنزلت على نبيكم وأخبرته بأمركم وما أنتم فيه فاستبشروا بذلك فذلك قوله تعالى : ﴿ ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴾ وقد تقدم في الصحيحين ذكر أصحاب بئر معونــــة ...

ثم قال تعالى: ﴿ ألاَّ خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ أي أنهم لا يخافون ممَّا أمامهم ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم . ثم قال تعالى : ﴿ يستبشرون بنعمةٍ من الله وفضلٍ وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ قال محمد بن اسحق استبشروا أي سروا لما عاينوا من وفاء الموعود وجزيل الثواب وقوله تعالى : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد مــا أصابهم القرح ﴾ هذا كان يوم حمراء الأسد ، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كروا راجعين إلى بلادهم ، فلما استمروا في سيرهم ندموا لمَ لا تمَّموا على أهل المدينة وجعلوها الفيصلة،فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ ، ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم،ويريهم أن بهم قوة وجلداً.ولما يأذن لأحد سوى من حضر الوقعة يوم أحد إلاَّ جابر بن عبدالله رضي الله عنهما ، ليخلف على أخواته السبع لا رجل فيهن . فانتدب المسلمون على ما فيهم من الجراح والإثخان طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ

قال بن أبي حاتم عن عكرمة قال : لما رجع المشركون من أحد قالوا : لا محمــداً قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم،بئسما صنعتم ، أرجعوا فسمع رسول الله ﷺ ، فندب المسلمين فانتدبوا حتّى بلغوا حمراء الأسد فأنزل الله تعالى : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾ .

ولما بلغ أبا سفيان أن النبي ﷺ يطلبه ، قذف الله في قلبه الرعب ، فلقي عيراً مــن التجار فقال : ردوا محمداً ولكم من الجعل كذا وكذا . وأخبرُوهم أني قد جمعت جموعاً وإني راجع اليهم . فجاء التجار فأخبروا رسول الله ﷺ بذلك فقال النبي ﷺ : « حسبنا الله ونعم الوكيل » .

وذكر ابن هشام عن أبي عبيدة قال : قال رسول الله ﷺ حين بلغه رجوعُهم ٦٠٨ [والذي نفسي بيده لقد سُوِّمت لهم حجارة لو أصبحوا بها لكانوا كأمس الذاهب] .

وقوله تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ﴾ أي الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداء فما اكترثوا لذلك بل توكلوا على الله واستعانوا به ، ﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾

روى البخاري عن ابن عباس : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ قالها ابراهيم عليــه

السلام حين أُلقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس : ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل . ولهذا قال الله تعالى : ﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ أي لما توكلوا على الله ، كفاهم ما أهمهم ورجعوا إلى بلدهم ﴿ بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ مما أضمر لهم عدوهم . ﴿ واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾ وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ﴾ قال : هذا أبو سفيان ، قال لمحمد ﷺ موعدكم بدر حيث قتلتم أصحابنا . فقال محمد ﷺ « عسى » فانطلق رسول الله ﷺ لموعده حتى نزل بدراً فوافقوا السوق فيها ، فابتاعوا ؛ فذلك قول الله عز وجل : ﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ قال وهي غزوة بدر الصغرى ، رواه ابن جرير .

ثم قال تعالى : ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه ﴾ أي يخوفكم أولياءه ، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وشدة ؛ قال الله تعالى : ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ فإني كافيكم وناصركم ، كما قال تعالى : ﴿ أليس الله بكافٍ عبده ويخوفونك بالذين من دونه ـ الى قوله ـ قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ .

۞ وَلَا يَحْزُنْكَ ٱلَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي ٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ❁ (١٧٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ❁ (١٧٧) وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ❁ (١٧٨) مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ❁ (١٧٩)

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۞ (١٨٠)

يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر ﴾ وذلك من شدة حرصه عليه السلام على الناس إذ كان يحزنه مبادرة الكفار ، إلى المخالفة والعناد والشقاق فقال تعالى : ولا يحزنك ذلك ﴿ إنهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة ﴾ أي حكمته فيهم كذلك ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان ﴾ أي استبدلوا هذا بهذا ﴿ لن يضروا الله شيئاً ﴾ أي ولكن لا يضرون إلاّ أنفسهم ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم ، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ﴾ كقوله : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق نفوسهم وهم كافرون ﴾

ثم قال تعالى ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ أي لا بد أن يعقد شيئاً من المحنة ، يعرف به المؤمن الصابر ، والمنافق الفاجر ، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين فظهر به إيمانهم وصبرهم وثباتهم وطاعتهم لله ولرسوله ﷺ ، وهتك به أستار المنافقين ، فظهرت خيانتهم لرسول الله ﷺ . قال السري : قالوا : إن كان محمد صادقاً فليخبرنا عمن يؤمن به منا ومن يكفر به فأنزل الله تعالى : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ أي حتى يخرج المؤمن من الكافر ، روى ذلك ابن جرير .

ثم قال تعالى : ﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ أي إنكم لا تعلمون الغيب حتى يميز المؤمن من الكافر ﴿ ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ﴾ كقوله تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول ... ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورسله ﴾ أي أطيعوا الله ورسوله واتبعوه فيما شرع لكم ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ولا يحسبنَّ الذين يبخلون بما أتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم ﴾ أي لا يحسبن البخيل أن جمعه المال ينفعه بل هو مضرة عليه في

دينه ، وربما كان في دنياه ، ثم أخبر بمآل أمر ماله يوم القيامة ، فقال : ﴿ سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ روى البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٦٠٩ : [من آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته مُثّل له شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، يأخذ بلهزمتيه يعني بشدقيه ثم يقول : أنا مالك ، أنا كنزك » ثم تلا هذه الآية ﴿ ولا يحسبَنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم ﴾ إلى آخر الآية]

قال العوفي عن ابن عباس نزلت في أهل الكتاب الذين بخلوا بما في أيديهم من الكتب المنزلة أن يبينوها ، رواه ابن جرير ، والصحيح الأول وان دخل هذا في معناه . وقوله تعالى : ﴿ ولله ميراث السموات والأرض ﴾ أي ﴿ فانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله عز وجل . فقدموا من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم . ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أي بنيّاتكم وضمائركم .

﴿ لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۞ (١٨١) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ۞ (١٨٢) الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ (١٨٣) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَٱلْكِتَابِ ٱلْمُنِيرِ ۞ (١٨٤) ﴾

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس : لما نزل قوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ قالت اليهود : يا محمد ، إفتقر ربك فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله سبحانه ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾

الآية ... وقوله تعالى : ﴿ سنكتب ما قالوا ﴾ تهديد ووعيد ، ولهذا قرنه تعالى بقوله عز وجل ﴿ وقتلهم الأنبياء بغير حق ﴾ أي هذا قولهم في الله ، وهذه معاملتهم رسل الله وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ونقول ذو قوا عذاب الحريق ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ أي يقال لهم ذلك ، تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً .

وقوله تعالى : ﴿ الذين قالوا إن الله عهد الينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ﴾ يقول تعالى مكذباً زعمهم بأن الله عهد إليهم في كتبهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته، فتُقُبِّلَتْ منه. أن تنزل نار من السماء تأكلها قاله ابن عباس وغيره .

قال الله عز وجل ﴿ قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات ﴾ أي بالحجج والبراهين ﴿ وبالذي قلتم ﴾ أي وبنار تأكل القرابين المتقبلة . ﴿ فلم قتلتموهم ﴾ أي قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة وقتلتموهم ـ ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ إنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل ـ ثم قال تعالى : مسلّيا لنبيه محمد ﷺ ﴿ فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ﴾ أي لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك ، فلك أسوة بمن قبلك من الرسل الذين كُذِّبوا مع ما جاءوا به من البينات وهي الحجج والبراهين القاطعة. ﴿ والزبر ﴾ وهي الكتب المتلقاة من السماء كالصحف المنزلة على المرسلين ﴿ والكتاب المنير ﴾ أي الواضح الجلي .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ ۞ (١٨٥) لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۞ (١٨٦) ﴾

ربع الحزب

يخبر تعالى جميع خلقه بأن كل نفس ذائقة الموت كقوله تعالى : ﴿ كل من عليها

فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾ فهو تعالى وحده الحي الذي لا يموت ، والجن والانس يموتون وكذلك الملائكة وحملة العرش ، وينفرد الواحد القهار بالديمومة والبقاء ، فيكون آخراً كما كان أولاً ، وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس ، فانه لا يبقى أحد على وجه الأرض. فاذا انتهت البرية أقام الله القيامة وحاسب الخلائق حساباً عدلاً . ولذا قال تعالى: ﴿ وإنما توفّون أجوركم يوم القيامة ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنّة فقد فاز ﴾ أي من جُنِّب النار وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز .

روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ٦١٠ [موضع سوط في الجنة ، خير من الدنيا وما فيها » قال ثم تلا هذه الآية : ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾] وقوله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ تصغير لشأن الدنيا وتحقير لأمرها وأنها فانية زائلة كما قال تعالى : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ وفي الحديث ٦١١ [والله ما الدنيا في الآخرة ، إلا كما يغمس أحدكم أصبعه في اليم ، فلينظر بم ترجع إليه] والمعنى أن الدنيا هي متاع متروكة ، أوشكت والله الذي لا آله الا هو أن تضمحل عن أهلها ، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم ولا قوة إلا بالله . قال قتادة : وقوله تعالى : ﴿ لتُبلَوُنَّ في أموالكم وأنفسكم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولنبلُوَنكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ﴾ إلى آخر الآيتين ... أي لا بد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله ، ويبتلى المؤمن على قدر دينه ﴿ ولتَسْمَعُنَّ من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ﴾ يخبر تعالى المؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر بما سينالهم من الأذى من الكتابيين والمشركين ويأمرهم أن يقابلوه بالصبر والصفح حتى يفرج الله فقال تعالى مسلّياً لهم : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أسامة بن زيد ٦١٢ قال : [كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى ، قال الله تعالى: ﴿ ولتَسمُعنَّ من الذين أوتو الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ﴾ قال وكان رسول الله ﷺ يتأوّل في العفو ما أمر الله به حتى أذن الله له فيهم] هكذا ذكره مختصراً .

فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً فقتل الله به صناديد كفار قريش . قال عبدالله بن أبيّ بن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان :(هذا أمر قد توجه) فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام فكل من قام بحق أو أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر فلا بد أن يؤذى فما له من دواء إلا الصبر في الله والاستعانة به . والرجوع إلى الله .

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ۞ (١٨٧) لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ (١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ (١٨٩)﴾

يوبخ الله ويهدد أهل الكتاب، الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وأن ينوهوا بذكره في الناس . فيكونوا على أهبة من أمره. فإذا أرسله الله تابعوه ، فكتموا ذلك وتعوضوا عما وعدوا من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف من الحظ الدنيوي السخيف فبئست الصفقة والبيعة ، وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم فيصيبهم ما أصابهم ؛ فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع الدال على العمل الصالح ، ولا يكتموا منه شيئاً ، فقد ورد في الحديث المروي من طرق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال ٦١٣ : [من سئل عن علم فكتمه ، ألجم يوم القيامة بلجام من نار] . وقوله تعالى : ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا﴾ الآية ، يعني بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا ، كما جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ ٦١٤ [من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة] وفي الصحيحين أيضاً ٦١٥ [المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور]

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري : ٦١٦ [إن رجالاً من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ ، كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو وتخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ فاذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا ، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فنزلت : ﴿لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون ان يحمدوا بما لم يفعلوا﴾] وكذا رواه مسلم .

وقد روى ابن مردويه عن ثابت بن قيس الأنصاري قال : ٦١٧ [يا رسول الله والله لقد خشيت أن أكون هلكت قال « لمَ ؟ » قال: نهى الله المرء أن يحب أن يحمد بمالم

يفعل ، وأجدني أحب الحمد ، ونهى الله عن الخيلاء وأجدني أحب الجمال ، ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا امرؤٌ جهير الصوت ، فقال رسول الله ﷺ « أما ترضى أن تعيش حميدا وتقتل شهيداً وتدخل الجنة . ؟ فقال بلى يا رسول الله فعاش حميداً ، وقتل شهيداً يوم مسيلمة الكذاب] .

وقوله تعالى ﴿ فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ﴾ أي لا تحسب أنهم ناجون من العذاب ، بل لا بد لهم منه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ ولله ملك السموات والأرض والله على كل شيء قدير ﴾ أي هو مالك كل شيء والقادر على كل شيء ، فلا يعجزه شيء ، فهابوه ولا تخالفوه ، واحذروا غضبه ونقمته ، فانه العظيم الذي لا أعظم منه ، والقدير الذي لا أقدر منه .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۞ (١٩٠) ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۞ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۞ (١٩٢) رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۞ (١٩٣) رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۞ (١٩٤) ﴾

يقول الله تعالى : ﴿ إنَّ في خلق السموات والأرض ﴾ أي هذه في ارتفاعها واتساعها وهذه في انخفاضها وكثافتها ، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة ، من سيارات وثوابت ، وبحار وقفار وحيوان ونبات ومعادن ومنافع مختلفات الطعوم والألوان والروائح. ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ أي تعاقبهما وتعارضهما من طول وقصر واعتدال ، وكل ذلك تقدير العزيز العليم. ولهذا قال تعالى : ﴿ لآياتٍ لأولي الألباب ﴾ أي العقول التامة الزكيّة التي تدرك حقائق الأشياء ، وليسوا كالصمّ البكم الذين لا يعقلون ، الذين قال

الله فيهم : ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرّون عليها وهم عنها معرضون . ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ ثم وصف تعالى أولي الألباب ، فقال : الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن عمر ان بن حصين : أن رسول الله ﷺ قال ٦١٨ : [صلّ قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنبك] أي لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وألسنتهم ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ أي يفهمون ما فيها من الحكم الدالّة على عظمة الخالق ، وعلمه وحكمته واختياره ورحمته .

قال سفيان بن عيينة : الفكرة نورٌ يدخل قلبك . وربما تمثّل بهذا البيت .

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

وعن ابن عباس : أنه قال : ركعتان مقتصدتان في تفكر ، خير من قيام ليلة والقلب ساه . وكان ابن عمر إذا أراد أن يتعهد قلبه ، يأتي الخربة فيقف على بابها فينادي بصوت حزين فيقول : أين أهلك ؟

ثم يرجع إلى نفسه فيقول : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ وقال الحسن عن عامر بن عبد القيس ، قال : سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ يقولون : إن ضياء الإيمان: أو نور الإيمان التفكّر .

وقد ذمّ الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدرهوآياته ، فقال : ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض ... إلى قوله : ... وهم مشركون ﴾ ومدح عباده المؤمنين ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ قائلين : ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً ﴾ أي ما خلقت هذا الخلق عبثاً ، بل بالحق لتجزي الذين أساءوا بما عملوا ، وتجزي الذين أحسنوا بالحسنى . ثم نزّهوه عن العبث فقالوا : ﴿ سبحانك ﴾ عن أن تخلق شيئاً إلاّ بالحق والعدل ، يا من هو منزّه عن النقائص والعيب والعبث [1] ﴿ فقنا عذاب النار ﴾ بحولك وقوتك ويسرنا لأعمال ترضى عنها وعنا فتهدينا بها الى جنات النعيم ، وتجيرنا من عذابك الأليم ثم قالوا : ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته﴾أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع ﴿ ومـــا

(١) قلت : أن الله منزه ولا شك عن فعل الباطل والعبث والعيب والنقيصة ولكنه هو الخالق لكل شيء وشتان بين فعله وخلقه لأن فعله صفة من صفاته ولكن خلقه ليسوا صفاته .

للظالمين من أنصار ﴾ أي يوم القيامة، لا مجير لهم منك، ولا محيد لهم عنك. ﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ﴾ أي داعياً يدعو للايمان وهو الرسول ﷺ أي يقول آمنوا بربكم فآمنا ، أي فاستجبنا له واتّبعناه ﴿ ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ﴾ أي بسبب إيماننا واستجابتنا لنبيك وأتباعه، أغفر لنا ذنوبنا واسترها ﴿ وكفّر عنا سيئآتنا ﴾ فيما بيننا وبينك، ﴿ وتوفّنا مع الأبرار ﴾ أي ألحقنا بالصالحين . ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾ أي على ألسنةِ رسلك ﴿ ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴾ أي لا تخزنا علناً على رؤوس الخلائق يوم القيامة الذي وعدت ، فإنك لا تخلف الميعاد الذي أخبرتَ عنه رسلك وهو المثول بين يديك .

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذ قام من الليل لتهجُّدهِ . وروى البخاري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال ٦١٩ : [كنت عند خالتي ميمونة فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد ، فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب ﴾ الآيات . ثم قام فتوضأ واستن ، ثم صلى إحدى عشرة ركعة . ثم أذّن بلال فصلى ركعتين ، ثم خرج فصلى بالناس الصبح .] وهكذا رواه مسلم ، ورواه أبو داود من وجوه أخر عن مخرمة .

روى ابن مردويه عن عطاء ، قال ٦٢٠ : [إنطلقتُ أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها ، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب فقالت : يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول الشاعر : زرغباً تزدد حبّاً. فقال ابن عمر : ذرينا أخبرينا بأعجب ما رأيته من رسول الله ﷺ فبكت وقالت : كل أمره كان عجباً ، أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ، ثم قال « ذريني أتعبد لربي عز وجل » قالت : فقلت والله إني لأحب قربك ، وإني أحب أن تعبد ربك ، فقام إلى القربة فتوضأ ولم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ، ثم سجد فبكى حتى بلّ الأرض ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح . قالت : فقال : يا رسول الله ، ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال « ويحك يا بلال ، «وما يمنعني أن أبكي ، وقد أنزل الله عليّ في هذه الليلة ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب ﴾ ثم قال « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها] قال الحسن بن عبد العزيز عن الأوزاعي قيل له : ما غاية التفكر فيهن ؟ قال : يقرؤهن وهو يعقلهن .

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ۞ (١٩٥) ﴾

روى سعيد بن منصور بسنده إلى أم سلمة قالت : ٦٢١ [يا رسول الله لا نسمع اللهَ ذكرَ النساءَ في الهجرة بشيء فأنزل الله تعالى : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عاملٍ منكم من ذكر أو أنثى ﴾ إلى آخر الآية ... وقالت الانصار : هي أول ظعينة قدمت علينا .] وقد رواه الحاكم في مستدركه من حديث سفيان بن عيينة ثم قال : صحيح على شرط البخاري ، ولم يخرجاه .

ومعنى الآية : إن المؤمنين ذوي الألباب لما سألوا ما سألوا مما تقدم ذكرُه ، فاستجاب لهم عقب ذلك بفاء التعقيب كما قال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعانـ فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾ هذا تفسير للإجابة ، أي قال لهم مخبراً أنه لا يضيع عمل عامل منكم لديه ، بل يوفي كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى ؛ وقوله تعالى : ﴿ بعضكم من بعض ﴾ أي جميعكم في ثوابي سواء ﴿ فالذين هاجروا ﴾ أي تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان وفارقوا الأحباب والإخوان والخلان والجيران ، ﴿ وأُخرِجوا من ديارهم ﴾ أي ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجأوهم إلى الخروج من بين أظهرهم ولهذا قال تعالى : ﴿ وأوذوا في سبيلي ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ . وقولُه تعالى : ﴿ وقاتلوا وقتلوا ﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله فيعقر جواده ويعفّر وجهه بدمه وترابه . وقد ثبت في الصحيحين : ٦٢٢ [ان رجلاً قال : يا رسول الله ، أرأيت إن قتلتُ في سبيل الله صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، أيكفّر الله عني خطاياي ؟ قال : « نعم » ثم قال : « كيف قلت ؟ » فأعاد عليه ما قال. فقال « نعم » إلا الذي قاله لي جبريل آنفا]

ولهذا قال تعالى : ﴿ لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن ، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . وقوله تعالى : ﴿ ثواباً من عند الله ﴾ أضافه ونسبه إليه ليدل على أنه العظيم الكريم الذي لا يعطي إلا جزيلاً كثيراً .

وقوله تعالى : ﴿ والله عنده حسن الثواب ﴾ أي عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحاً

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي ٱلْبِلَادِ ❁ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ❁ (١٩٧) لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ ٱللَّهِ وَمَا عِنْدَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ❁ (١٩٨) ﴾

يقول تعالى : لا يغرّك ظاهرُ ما عليه الكفارُ من الترف والنعمة والسرور ، إنما هو استدراجٌ فعمّا قليل يزول هذا كله عنهم ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة ، لأن ما هم فيه ﴿ متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ﴾ أي قليلاً ، وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا ، وذكر أن مآلهم إلى النار ، قال بعده : ﴿ لكن الذين اتقوا ربّهم لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار ﴾ روى ابن مردويه عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، عن النبي ﷺ قال : ٦٢٣ [إنما سمّوا الأبرارَ لأنهم برّوا الآباء والأبناء كما أن لوالديك عليك حقاً كذا لولدك عليك حق .]

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ ٱللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ❁ (١٩٩) يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ❁ (٢٠٠) ﴾

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الأيمان ، ويؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة ، وأنهم خاشعون لله أي مطيعون له متذلّلون بين يديه ، لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً. أي لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد ﷺ وذكر صفته وصفة أمته ، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم سواءٌ كانوا هوداً أو نصارى ؛ وقد قال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ﴾ وقد قال تعالى في سورة القصص : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ الآية وهذه الصفات توجد في اليهود ولكن قليلاً كعبدالله بن سلام وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود ولم يبلغوا عشرة أنفس ؛ وأما النصارى فكثير منهم يهتدون وينقادون للحق ، كما قال تعالى : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدنّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ــ إلى قوله تعالى ــ فأثابهم الله بما قالوا جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ... ﴾ الآية . وهكذا قال هنا : ﴿ أولئك لهم أجرهمْ عند ربّهم ﴾ الآية ؛ وقد ثبت في الحديث ٦٢٤ [أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه لما قرأ سورة كهيعص بحضرة النجاشي ملك الحبشة وعنده البطاركة والقساوسة بكى وبكوا معه حتى أخضبوا لحاهم .] وثبت في الصحيحين ٦٢٥ [أن النجاشي لما مات نعاه النبي ﷺ إلى أصحابه وقال : « إن أخالكم بالحبشة قد مات ، فصلوا عليه » فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلىّ عليه] وروى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك ، قال : ٦٢٦ [لما توفي النجاشي قال رسول الله ﷺ « إستغفروا لأخيكم » فقال بعض الناس : يأمرنا ان نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة ، فنزلت : ﴿ وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله ﴾ الآية .]

وروى ابن جرير عن جابر قال : ٦٢٧ [قال لنا رسول الله ﷺ حين مات النجاشي « إن أخاكم أصحمة قد مات » فخرج رسول الله ﷺ فصلى كما صلى على الجنائز فكبر أربعاً . فقال المنافقون : يصلي على علج مات بأرض الحبشة فأنزل الله تعالى : ﴿ وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ﴾] الآية ... وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : ﴿ وان من أهل الكتاب ﴾ يعني مسلمة أهل الكتاب . وقال الحسن البصري قال هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد ﷺ فاتّبعوه ، وعرفوا الإسلام فأعطاهم الله تعالى أجر اثنين للذي كانوا عليه من الإيمان قبل محمد ﷺ واتباعهم محمداً ﷺ . وقد ثبت في الصحيحين عن أبي

موسى ، قال : ٦٢٨ [قال رسول الله ﷺ « ثلاثة يأتون أجرهم مرتين » فذكر منهم « رجلاً من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي »] وقوله تعاله تعالى : ﴿ لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ﴾ أي لا يكتمون ما بأيديهم من العلم كما فعله الطائفة المرذولة منهم ، بل يبذلون ذلك مجاناً ؛ ولهذا قال تعالى ﴿ أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾ أي سريع الإحصاء رواه ابن أبي حاتم عن مجاهد . وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ قال الحسن البصري : أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم وهو الإسلام ، فلا يدعوه لسراء ولا لضراء ولا لشدة ولا ارخاء حتى يموتوا مسلمين ، وان يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم ، وكذلك قال غير واحد من علماء السلف ؛ وأما المرابطة فهي المداومة في مكان العباده والثبات ، وقيل : انتظار الصلاة بعد الصلاة .

وروى مسلم والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ، قال : ٦٢٩ [ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ، إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة ، بعد الصلاة فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط]

روى ابن مردويه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، قال : أقبل عليّ أبو هريرة يوماً فقال : أتدري يا ابن أخي فيم نزلت هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ﴾ ؟ قلت : لا . قال : أما أنه لم يكن في زمان النبي ﷺ غزو يرابطون فيه ، ولكنها نزلت في قوم يعمرون المساجد ويصلون الصلاة في مواقيتها ثم يذكرون الله بها فعليهم أنزلت ﴿ اصبروا ﴾ أي على الصلوات الخمس ﴿ وصابروا ﴾ أنفسكم وهواكم ، ﴿ ورابطوا ﴾ في مساجدكم ، ﴿ وأتقوا الله ﴾ فيما عليكم ﴿ لعلكم تفلحون ﴾

وقيل : المراد بالمرابطة هنا مرابطة الغزو في نحورالعدو ، وحفظ ثغور الأسلام ، وصيانتها عن دخول الاعداء إلى حوزة بلاد المسلمين ، وقد وردت الأخبار بالترغيب في ذلك ، وذكر كثرة الثواب فيه (١) . فروى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد الساعدي : أن رسول الله ﷺ ، قال : ٦٣٠ [رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها .]

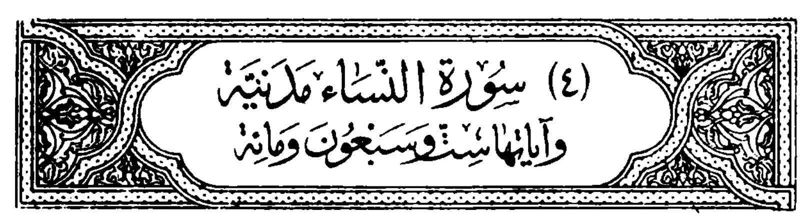
حديث آخر : روى مسلم عن سلمان الفارسي عن رسول الله ﷺ انه قال : ٦٣١

---

(١) قلت : والمراد يشمل القولين : الصلاة ، والمرابطة على ثغور المسلمين .

[رباط يوم وليلةٍ خير من صيام شهر وقيامه ، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله ، وأجري عليه رزقه وأمن الفتان] وقوله : ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في جميع أموركم وأحوالكم كما قال النبيّ ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن : ٦٣٢ [اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئةَ الحسنةَ تمحُها ، وخالقِ الناس بخلقٍ حسن] ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي في الدنيا والآخرة . وقال ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقول في قول الله عز وجل ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ يقول : اتقوني فيما بيني وبينكم لعلكم تفلحون غداً اذا لقيتموني .

انتهى اختصار تفسير سورة آل عمران ، ولله الحمد والمنة ، ونسأله الموت على الكتاب والسنة ، آمين



(نزلت بعد سورة الممتحنة)

قال العوفي عن ابن عباس : نزلت سورة النساء بالمدينة . وكذا روى ابن مردويه عن عبدالله بن الزبير ، وزيد بن ثابت

روى الحاكم في مستدركه عن معن بن عبد الرحمن بن عبدالله بن مسعود قال : ان في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ الآية ... و ﴿ ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ الآية ... ؛ و ﴿ ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ و ﴿ لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك ﴾ الآية[1] ... ثم قال : هذا إسناد صحيح إن كان عبد الرحمن سمع من أبيه فقد اختلف في ذلك ثم روي من طريق صالح المري عن قتادة عن ابن عباس قال : ثماني آيات نزلت في سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت : أولهن ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب الله عليكم والله عليم حكيم ﴾ والثانية : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾ والثالثة ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ ثم ذكر قول ابن مسعود سواء يعني في الخمسة الباقية .

بسم الله الرحمن الرحيم

نصف الحزب

يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَٱتَّقُوا ٱللهَ ٱلَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ۝ (١)

(١) قلت : فأين الخامسة ... ؟

يقول تعالى آمر خلقه بتقواه ، وهي عبادته وحده لا شريك له ، ومنبّهاً لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفسٍ واحدة ، وهي آدم عليه السلام ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ وهي حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم ، فاستيقظ فرآها فأعجبته ، فأنس إليها وأنست إليه، وفي الحديث الصحيح : ٦٣٣ [ان المرأة خلقت من ضلع وإنَّ أعوَجَ شَيْءٍ في الضلعِ اعلاهُ ، فإن ذهبتَ تقيمهُ كسرتَه ، وإن استَمْتَعْتَ بها استمتعت بها وفيها عِوَجٌ] . وقوله : ﴿ وبث منهما رجالا كثيراً ونساءً ﴾ أي وذرأ منهما أي من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساء ، ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم ، وألوانهم ولغاتهم ، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر ثم قال تعالى : ﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ﴾ أي واتقوا الله بطاعتكم إياه. قال الضحاك : واتقوا الله الذي تعاقدون وتعاهدون به ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ولكن برّوها وصلوها : ﴿ إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ أي هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم كما قال : ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ وفي الحديث الصحيح ٦٣٤ [أعبُدِ اللهَ كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك] وهذا أمْر بمراقبة الرقيب ، ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة ليعطف بعضهم على بعض ، ويحثهم على ضعفائهم ، وقد ثبت في صحيح مسلم : ٦٣٥ [أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك النفر من مضر ـ وهم مجتابو النمار أي من عريهم وفقرهم ـ قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر فقال في خطبته : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ﴾ حتى ختم الآية. ثم قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد ﴾ ثم حضهم على الصدقة فقال : تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من صاع بره ، من صاع تمره] وذكر تمام الحديث . وهكذا رواه أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود في خطبة الحاجة [1]

۞ وَءَاتُوا ٱلْيَتَامَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓا أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۞ (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِى ٱلْيَتَامَىٰ فَٱنكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ

* ليس في هذه الآية حجّة لمن يجيزون التوسّل بالمخلوقين.. إذ ليس المقصود السؤال بالأرحام ، إنّما المراد صلةُ الأرحام .

(١) وهذا نص خطبة الحاجة : راجع « التمهيد » من المجلد الأول من هذا المختصر فهو مفتتح بصلاة الحاجة التي أولها : (إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ... الخ) .

وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ❁ (٣) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا ❁ (٤)

يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم، كاملةً موفرةً، وينهى عن أكلها وضمّها إلى أموالهم . ولهذا قال: ﴿ ولا تتبدّلوا الخبيث بالطيب ﴾ قال سعيد بن جبير : لا تتبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم. وقال السدي: كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من مال اليتيم، ويجعل مكانها الشاة المهزولة ويقول شاة بشاة، ويأخذ الدرهم الجيد ويطرح مكانه الزيف ويقول درهم بدرهم . وقوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ ، أي لا تخلطوها فتأكلوها جميعاً . وقوله تعالى : ﴿ إنه كان حوباً كبيراً ﴾ أي إثماً عظيماً قاله ابن عباس وجماعة من التابعين . وفي الحديث المروى في سنن أبي داود : ٦٣٦ [اغفر لنا حوبنا وخطايانا] والمعنى أن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم وخطأ كبير فاجتنبوه . وقوله تعالى : ﴿ وإن خفتم ألاّ تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى ... ﴾ أي اذا كانت تحت حجر أحدكم يتيمة، وخاف أن لا يعطيها مهر مثلها فليعدل إلى ما سواها من النساء ، فإنهن كثير ولم يضيق الله عليه .

قال البخاري عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى : ﴿ وإن خفتم ألاّ تقسطوا في اليتامى ﴾ قالت : يا ابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن ، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن . قال عروة : قالت عائشة وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله : ﴿ ويستفتونك في النساء ﴾ قالت عائشة : وقول الله في الآية الأخرى ﴿ وترغبون أن تنكحوهن ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال ، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال .

وقوله تعالى : ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ أي انكحوا ما شئتم من النساء سواهن ، إن شاء أحدكم ثنتين ، وإن شاء ثلاثا ، وإن شاء أربعاً. وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة

عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ ان يجمع بين أكثر من أربع نسوة ، لأن ذلك من خصائصه عليه الصلاة والسلام .

روى الإمام أحمد عن سالم عن أبيه ٦٣٧ [أن غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وتحتــه عشر نسوة فقال له النبي ﷺ: « اختر منهن أربعاً » فلما كان في عهد عمر طلق نساءه وقسم ماله بين بنيه ، فبلغ ذلك عمر فقال : إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك فقذفه في نفسك ، ولعلك لا تلبث إلا قليلاً . وأيم الله لتراجعن نساءك ولترجعن مالك أو لأورثهن منك ولآمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبي رغال] وهكذا رواه الشافعي وغيره إلى قوله « اختر منهن أربعاً » وباقي الحديث في قصة عمر من أفراد أحمد وهي زيادة حسنة وهي مضاعفة لما علّل به البخاري هذا الحديث فيما حكاه عنه الترمــذي أن البخاري يقول هذا الحديث غير محفوظ ـ أي ينفي الزيادة وهذا التعليل فيه نظر والله أعلم ـ والاسناد الذي قدمناه من مسند أحمد رجاله ثقات على شرط الشيخين . وهناك أحاديث عن أبي داود ، وابن ماجة ، والشافعي شواهد لحديث غيلان كما قاله البيهقي .

وقوله تعالى : ﴿ فإن خفتم ألاّ تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ﴾ أي أن خفتم من تعداد النساء أن لا تعدلوا بينهن ، كما قال تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ فمن خاف من ذلك فليقتصر على واحدة ، أو على الجواري السراري فإنه لا يجب قسم بينهن ، ولكن يستحب ، فمن فعل فحسن ، ومن لا فلا حرج ، وقولــه تعالى : ﴿ ذلك أدنى ألاّ تعولوا ﴾ أي لا تجوروا . يقال عال في الحكم إذا قسط وظلم وجار. وفي الحديث الموقوف على عائشة على الصحيح ﴿ ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ أي لا تجوروا قاله ابن أبي حاتم . وقوله تعالى : ﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ﴾ وعن ابن عباس : النحلة المهر ، وقيل فريضة مسماة والنحلة في كلام العرب الواجب يقول : لا تنكحها الا بشيء واجب لها ، ولا ينبغي تسمية الصداق كذباً بغير حق ، وإن الرجل عليه دفع المهر عن طيب نفس ، فإن طابت هي له به بعد تسميته أو عن شيء منه فليأكله حلالاً طيباً . ولهذا قال : ﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ وقال هشيم عن سيار عن أبي صالح : كان الرجل إذا زوج بنته أخذ صداقها دونها فنهاهم الله عن ذلك ونزل ﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ﴾ رواه ابن أبي حاتم وابن جرير .

۞ وَلَا تُؤْتُوا ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا

وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً ۞ (٥) وَٱبْتَلُوا ٱلْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيباً ۞ (٦)

ينهى سبحانه وتعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً، تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها . ومن ههنا يؤخذ الحَجْرُ على السفهاء وهم أقسام : فتارة يكون الحَجْر للصِّغَر ، فإن الصغير مسلوبُ العبارة . وتارة يكون للجنون ، وتارةً لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين ، وتارة للمفلس وهو المديون ضاق ماله عن وفاء دينه، فاذا سأل الدائنون الحاكمَ الحَجْرَ عليه ؛ حجر عليه.وعن ابن عباس ، في قوله تعالى: ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم ﴾ قال : هم بنوك والنساء، وقال الضحاك : هم النساء والصبيان قال سعيد بن جبير : هم اليتامى . وقال ابن أبي حاتم عن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ ٦٣٨ [إن النساء سفهاء إلاّ التي أطاعت قيِّمَها] وقيل هم الخدم وشياطين الأنس . ورجل كان له على رجل دين فلم يُشهِدْ عليه . قال العبارة الأخيرة ابن جرير عن أبي موسى من حديث له وقوله تعالى : ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يقول : لا تعمد إلى مالك وما خوّلك الله وجعله لك معيشةً فتعطيه امرأتك أو بنتك ثم تنظر إلى ما في أيديهم ولكن امسك مالك وأصلحه وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤنتهم ورزقهم . وهذه الآية الكريمة تضمنت الإحسان إلى العائلة ومن تحت الحجر بالفعل من الإنفاق في الكساوي والأرزاق بالكلام الطيب وتحسين الأخلاق.وقوله تعالى : ﴿ وابتلوا اليتامى ﴾ أي اختبروهم ﴿ حتى إذا بلغوا النكاح ﴾ يعني الحلم وهو أن يرى في منامه ما ينزل به الماء الدافق الذي يكون منه الولد ، وفي الصحيحين : ٦٣٩ [عن ابن عمر ، قال : عُرضتُ على النبيّ ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة فلم يجزني وعرضتُ عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازني] . قال عمر بن عبد العزيز لما بلغه هذا الحديث : إن هذا هو الفرق بين الصغير والكبير .

وقوله عز وجل : ﴿ فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ قال الفقهاء : إذا بلغ الغلام مصلحاً لدينه وماله انفك الحَجْر عنه،فيسلم إليه ماله الذي تحت يد وليّه ؛ وقوله : ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ﴾ ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية ﴿ إسرافاً وبداراً ﴾ أي مبادرة قبل بلوغهم ثم قال تعالى : ﴿ ومن كان غنياً فليستعففْ ﴾ عنه ولا يأكل منه شيئاً وقال ابن أبي حاتم عن عائشة : ﴿ ومن كان فقيراً فليأكلْ بالمعروف ﴾ نزلت في والي اليتيم الذي يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجاً أن يأكل منه ، بقدر قيامه عليه . واختلفوا هل يرد إذا أيسر ؟ والصحيح : لا . لأنه أكل بأجرة عمله وكان فقيراً، ولأنّ الآية أباحتْ الأكل من غير بدل . وروى احمد عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده : أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال : ليس لي مال ولي يتيم ؟ فقال : ٦٤٠ [كل من مال يتيمك غير مسرف ولا مبذر ولا متأثل مالاً ومن غير أن تقي مالك – أو قال – تفدي مالك بماله » شك حسين أحد الرواة – وإذا استغنى استعفف] وقوله تعالى : ﴿ فإذا دفعتم إليهم أموالهم ﴾ يعني بعد بلوغهم الحلم وإيناسكم الرشد منهم فسلموا إليهم اموالهم ﴿ فأشهدوا عليهم ﴾ وهذا أمر من الله تعالى للأولياء أن يُشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحُلُم وسلّموا إليهم أموالهم،لئلاّ يقع من بعضهم جحود لما قبضه وتسلّمه ثم قال تعالى : ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ أي محاسباً وشاهداً ورقيباً على الأولياء في كل أحوالهم فلتسلّم كاملةً غير منقوصة . ولهذا ثبت في صحيح مسلم : ٦٤١ [أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لا تأمّرَنّ على اثنين ولا تَلِيَنّ مال يتيم . »]

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَالِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً ۞(٧) وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُولُوا ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً ۞ (٨) وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا ٱللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ۞ (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ۞ (١٠) ﴾

قال سعيد بن جبير وقتادة : كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ، ولا يورّثون النساء ولا الأطفال شيئاً فأنزل الله ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ الآية . ؛ أي الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى ، يستوون في أصل الوراثة وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدلي به إلى الميت من قرابة ، أو زوجية أو ولاء . فإنّه لحمة كلحمة النسب . وروى ابن مردويه عن جابر قال : أتتْ أمُّ كَحّة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله إن لي ابنتين قد مات أبوهما وليس لهما شيء ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ الآية ، وسيأتي هذا الحديث عند آيّي الميراث بسياق آخر ... وقوله تعالى : ﴿وإذا حضر القسمة﴾ قيل : المراد وإذا حضر قسمة الميراث ذوو القربى ممن ليس بوارث ﴿واليتامى والمساكين﴾ فليرضخ لهم من الترّكة نصيب ، وإن ذلك كان واجباً في ابتداء الإسلام ، وقيل يستحب . واختلفوا هل هو منسوخ أم لا ؟ على قولين : فقال البخاري عن ابن عباس في الآية ، قال : هي محكمة وليست بمنسوخة هي قائمة يعمل بها . وعن مجاهد ، هي واجبة على أهل الميراث ما طابت بها أنفسهم . وهكذا روي عن ابن مسعود وأبي موسى وعبد الرحمن بن أبي بكر وجماعة من التابعين ...

• وعن ابن عباس : ... إنما هذه الآية في الوصية يريد الميت يوصي لهم رواه ابن أبي حاتم .

• قال سفيان الثوري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : ﴿وإذا حضر القسمة ..﴾ قال : منسوخة وعنه أيضاً قال : نسختها الآية التي بعدها : ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ وقال العوفي عن ابن عباس كان ذلك قبل أن تنزل الفرائض ، فأنزل الله بعد ذلك الفرائض فاعطي كلَّ ذي حق حقه . وهذا مذهب جمهور الفقهاء والأئمة الأربعة وأصحابهم .

والمعنى أنه إذا حضر هؤلاء الفقراء من القرابة الذين لا يرثون ، واليتامى والمساكين ، قسمة مال جزيل ، فإن أنفسهم تتوق إلى شيء منه إذا رأوا هذا يأخذ وهذا يأخذ ، وهم يائسون لا شيء يُعطَونَه فأمر الله تعالى ، وهو الرؤف الرحيم ، أن يرضخ لهم شيء من الوسط يكون براً بهم وصدقةً عليهم وإحساناً إليهم وجبراً لكسرهم . كما قال تعالى : ﴿كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده﴾ وذم الذين ينقلون المال خفيةً خشية أن يطّلع عليهم المحاويج وذوو الفاقة كما أخبر عن أصحاب الجنة ﴿إذ أقسموا ليصرمُنّها مصبحين﴾ فمن جحد حق الله عليه عاقبه في أعز ما يملكه ، ولهذا جاء في الحديث ٦٤٢ [ما خالطت الصدقة مالاً إلا أفسدته] وقوله تعالى : ﴿وليخش الذين لو تركوا من

خلفهم ... ﴾ الآية قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : هذا في الرجل يحضره الموت ، فيسمعه رجل يوصي بوصية تضر بورثته ، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله ويوفقه ويسدده للصواب فينظر لورثته كما كان يحب أن يصنع بورثته إذا خشي الضيعة عليهم . وثبت في الصحيحين ٦٤٣ [أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده ، قال : يا رسول الله إني ذو مال ولا يرثني إلاّ ابنة أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : « لا » قال فالشطر ؟ قال « لا » قال : فالثلث ؟ قال : « الثلث ، والثلث كثير » ثم قال رسول الله ﷺ « إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالةً يتكففون الناس »]

وقيل المراد بالآية فليتقوا الله في مباشرة أموال اليتامى ﴿ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً﴾ وهو قول حسن يتأيد بما بعده من التهديد في أكل أموال اليتامى ظلماً . أي كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك ، فعامل الناس في ذراريهم إذا وليتهم ، ثم أعلمهم أن من أكل أموال اليتامى ظلما إنما يأكل في بطنه ناراً ولهذا قال : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ أي إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب فانما يأكلون ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة وقد ثبت في الصحيحين في جملة السبع الموبقات التي أمرنا رسول الله ﷺ أن نجتنبها ... « وأكل مال اليتيم » روى ابن مردويه عن أبي برزة ٦٤٤ [إن رسول الله ﷺ قال « يبعث يوم القيامة القوم من قبورهم تأجج أفواههم ناراً » قيل : يا رسول الله من هم ؟ قال : « ألم ترَ أن الله قال : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ﴾) الآية ...

﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۞ (١١) ﴾

هذه الآية والتي بعدها ، والآية التي هي خاتمة هذه السورة هنّ آيات علم الفرائض وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث ، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك ، ولنذكر منها ما هو متعلق بالمقصود . وأما تقرير المسائل ونصب الخلاف والأدلة فموضعه كتب الأحكام والله المستعان . وقد ورد الترغيب في تعلم الفرائض ، وهذه الفرائض الخاصة من أهم ذلك .

روى ابو داود وابن ماجه عن عبدالله بن عمرو مرفوعاً ٦٤٥ [العلم ثلاثة ، وما سوى ذلك فهو فضل : آية محكمة ، أوسنة قائمة ، أو فريضةعادلة] قال ابن عينية : إنما سمى الفرائض نصف العلم ، لأنه يبتلى به الناس كلهم .

وروى البخاري عن جابر بن عبدالله قال : ٦٤٦ [عادني رسول الله ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين ، فوجدني النبي ﷺ لا أعقل شيئاً ، فدعا بماء فتوضأ منه ، ثم رش علي فأفقت ، فقلت : ما تأمرني أن أصنع في مالي يا رسول الله ؟ فنزلت : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾] وكذا رواه مسلم والنسائي ورواه الجماعة كلهم من حديث سفيان بن عينية .

حديث آخر عن جابر في سبب نزول الآية : روى أحمد عن جابر قال : ٦٤٧ [جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع ، قتل أبوهما معك في يوم أحُد شهيدا ، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً ، ولا ينكحان إلا ولهما مال فقال : « يقضى الله في ذلك » فنزلت آية الميراث ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال : « اعط ابنتي سعد الثلثين ، وأمهما الثمن ، وما بقي فهو لك] والظاهر أن حديث جابر الأول – الذي رواه البخاري آنفاً – إنما نزل بسببه الآية الأخيرة من هذه السورة كما سيأتي ، فإنه إنما كان له إذ ذاك أخوات ، ولم يكن له بنات ، وانما كان يورث كلالة ، ولكن ذكرنا الحديث ها هنا تبعاً للبخاري فانه ذكره ها هنا ، والحديث الثاني عن جابر أشبه بنزول هذه الآية ، والله أعلم .

فقوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ أي يأمركم بالعدل فيهم ففي الجاهلية كان الميراث للذكور دون الإناث فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث وفاوت بين الصنفين فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة فناسب أن يعطي ضعفي ما تأخذه الأنثى ، ويستنبط من هذه أن الله أرحم بخلقه من الوالدة بولدها حيث أوصى الوالدين بأولادهم في هذه الآية فعلم أنه أرحم بهم منهم .

روى البخاري عن ابن عباس ، قال : كان المال للولد وكانت الوصية للوالدين ، فنسخ الله من ذلك ما أحب ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث ، وجعل للزوجة الثمن والربع ، وللزوج الشطر والربع .

وقوله تعالى : ﴿ فإن كنَّ نساءً فوق اثنتين فلهنَّ ثلثا ما ترك ﴾ قال البعض : ... قوله تعالى : ﴿ فوق ﴾ زائدة ! ! ! وهذا ممتنع فإنه ليس في القرآن شيء زائد لا فائدة فيه . ثم قوله تعالى : ﴿ فلهن ثلثا ما ترك ﴾ لو كان المراد ما قالوه ... لقال : فلهما ثلثا ما ترك . وإنما استفيد كون الثلثين للبنتين، من حكم الأختين في الآية الأخيرة ، فإنه تعالى حكم فيها للأختين بالثلثين ؛ فإذا ورث الأختان الثلثين ، فلأَنْ يرثَ البنتان الثلثين بالطريق الاولى وقد تقدم في حديث جابر أن النبي ﷺ ، حكم لابنتي سعد بن الربيع بالثلثين ، فدل الكتاب والسنة على ذلك . وأيضاً فإنه قال ﴿ وإن كانت واحدة فلها النصف ﴾ فلو كان للبنتين النصف لنص عليه أيضاً فلما حكم به للواحدة على انفرادها دل على أن البنتين في حكم الثلاث والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ ولأبويه لكل واحد منهما السدس ﴾ إلى آخره ، الأبوان لهما في الأرث أحوال « أحدها » أن يجتمعا مع الأولاد فيفرض لكل واحد منهما السدس ، فان لم يكن للميت إلاَّ بنت واحدة ، فرض لها النصف ، وللأبوين لكل واحد منهما السدس ، وأخذ الأب السدس الآخر بالتعَّصيب ، فيجمع له والحالة هذه بين الفرض والتعصيب .

« الحال الثاني » : أن ينفرد الأبوان بالميراث فيفرض للأم الثلث ، والحالة هذه أخذ الأب الباقي بالتعصيب المحض ، فيكون قد أخذ ضعفي ما حصل للأم وهو الثلثان ، فلو كان معهما زوج أو زوجة ويأخذ الزوج النصف والزوجة الربع . ثم اختلف العلماء ماذا تأخذ الأم بعد ذلك على ثلاثة أقوال : أصحها : أنها تأخذ ثلث الباقي في المسألتين ، لأن الباقي كأنه جميع الميراث بالنسبة إليهما وقد جعل الله لها النصف مما جعل للأب ، فتأخذ ثلث الباقي ، ويأخذ الأب الباقي في ثلثيه . هذا قول عمر وعثمان وأصح الروايتين عن علي ، وبه يقول ابن مسعود وزيد بن ثابت ، وهو قول الفقهاء السبعة ، والأئمة الأربعة وجمهور العلماء .

الحال الثالث : وهو اجتماعهما مع الأخوة ؛ سواء كانوا من الأبوين أو من الأب أو من الأم ، فإنهم لا يرثون مع الأب شيئاً ولكنهم مع ذلك يحجبون الأم عن الثلث إلى السدس ، فيفرض لها مع وجودهم السدس ، فإن لم يكن وارث سواها وسوى الأب ، أخذ الأب الباقي .

وحكم الأخوين فيما ذكرناه كحكم الأخوة عند الجمهور . وقوله تعالى : ﴿ فان كان له أخوة فلأمه السدس ﴾ أضروا بالأم ولم يرثوا ، ولا يحجبها الأخ الواحد عن الثلث ويحجبها ما فوق ذلك وقوله تعالى : ﴿ من بعد وصية يوصي بها أو دين ﴾ أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدَّين مقدم على الوصية ، وذلك عند إمعان النظر يفهم مــن فحوى الآية الكريمة .

وروى أحمد والترمذي وابن ماجه وأصحاب التفاسير من حديث مروي عن علي ابن أبي طالب ، قال : ٦٤٨ [إنكم تقرأون : ﴿ من بعد وصية يوصي بها أو دين ﴾ وان رسول الله ﷺ قضى بالدين قبل الوصية ، وإن أعيان بني الأم يتوارثون دون بني العلات يرث الرجل أخاه لأبيه وأمه ، دون أخيه لأبيه] ثم قال الترمذي : لا نعرفه إلاّ من حديث الحارث ، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم (قلت) لكن كان حافظاً للفرائض ، معتنياً بها وبالحساب ، فالله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ آباؤكم وابناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً ﴾ أي إنما فرضنا للآباء والأبناء وساوينا بين الكل في أصل الميراث على خلاف ما كان عليه الأمر في الجاهلية. وعلى خلاف ما كان عليه الأمر في ابتداء الاسلام من كون المال للولد ، وللأبوين الوصية كما تقدم عن ابن عباس ، إنما نسخ الله ذلك إلى هذا..ففرض لهؤلاء ولهؤلاء بحسبهم لأن الإنسان قد يأتيه النفع الدنيوي أو الأخروي أو كلاهما من أبيه ، مالا يأتيه من ابنه ، وقد يكون بالعكس ولذا قال: ﴿ آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيهم اقرب لكم نفعاً ﴾ أي إن النفع متوقع ومرجو من هذا ، كما هو متوقع ومرجو من الآخر ، فلهذا فرضنا لهذا ولهذا ، وساوينا بين القسمين في أصل الميراث،والله أعلم.وقوله تعالى : ﴿ فريضة من الله ﴾ أي هذا الذي ذكرناه من تفصيل الميراث ، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض ، هو فرض من الله حكم به وقضاه ، والله عليم حكيم الذي يضع الأشياء في محالها ، ويعطي كلاًّ ما يستحقه بحسبه ؛ ولهذا قال : ﴿ إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ .

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ

بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ❁ (١٢)

يقول تعالى ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم ، إذا متن عن غير ولد فإن كان لهن ولد ، فلكم الربع مما تركن من بعد الوصية أو الدين ، وقد تقدم أن الدين مقدم على الوصية وبعده الوصية ثم الميراث ، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء .

وحكم أولاد البنين وإن سفلوا كحكم أولاد الصلب . ثم قال تعالى : ﴿ ولهن الربع مما تركتم ﴾ الى آخره ... وسواء في الربع أو الثمن ، الزوجة والزوجتان والاثنتان والثلاث والأربع يشتركن فيه . وقوله تعالى : ﴿ من بعد وصية ﴾ الخ الكلام عليه كما تقدم ــ آنفاً ــ وقوله تعالى : ﴿ وإن كان رجل يورث كلالة ﴾ والكلالة كما عرفها أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال : أقول فيها برأيي ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وان يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه ، الكلالة من لا ولد له ولا والد ، ومروي كذلك عن عمر وهكذا قال علي وابن مسعود ، وصح عن غير واحد عن ابن عباس وزيد بن ثابت وبه يقول الشعبي والنخعي والحسن وقتادة وجابر بن زيد والحكم ، وقال به السلف والخلف وأهل المدينة ، وأهل الكوفة والبصرة وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة وجمهور السلف والخلف بل جميعهم وقد حكى الإجماع عليه غير واحد . وقوله تعالى : ﴿ وله أخ أو أخت ﴾ أي من أم كما هو في قراءة بعض السلف منهم سعد بن أبي وقاص ، وكذا فسرها أبو بكر الصديق فيما رواه عنه قتادة ﴿ فلكل واحد منها السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث ﴾ وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه: (أحدها) أنهم يرثون مع من أدلوا به وهي الأم و (الثاني) أن ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء . و (الثالث) لا يرثون إلا إن كان ميتهم يورث كلالة فلا يرثون مع أب ولا جد ولا ولد ولا ولد ابن و (الرابع) انهم لا يزادون على الثلث وإن كثر ذكورهم واناثهم . وقال ابن أبي حاتم ، عن الزهري قال : قضى عمر أن ميراث

الأخوة من الأم بينهم للذكر مثل حظ الأنثى ؛ قال الزهري : ولا أرى عمر قضى بذلك حتى علم ذلك من رسول الله ﷺ ، وهذه الآية هي التي قال الله تعالى فيها ﴿ فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث ﴾ واختلف العلماء في المسألة المشتركة وهي زوج وأم أو جدة ، واثنان من ولد الأم ، وواحد أو أكثر من ولد الأبوين ، فعلى قول الجمهور ، للزوج النصف وللأم أو الجدة السدس ، ولولد الأم الثلث ، ويشاركهم فيه ولد الأب والأم بما بينهم من القدر المشترك وهو أخوة الأم ، وقد وقعت هذه المسألة في زمان أمير المؤمنين عمر ، فأعطى الزوج النصف ، والأم السدس ، وجعل الثلث لأولاد الأم . فقال له أولاد الأبوين : يا أمير المؤمنين ، هب أن أبانا كان حماراً ، ألسنا من أم واحدة ؟ فشرّك بينهم وصح التشريك عن عثمان ، وهو إحدى الروايتين عن ابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس رضي الله عنهم ، وبه يقول سعيد بن المسيب وشريح القاضي ومسروق وطاووس ومحمد بن سيرين وابراهيم النخعي ، وعمر بن عبد العزيز والثوري وشريك ، وهو مذهب مالك والشافعي واسحق ابن راهويه ، وكان علي بن أبي طالب لا يشرّك بينهم ، بل يجعل الثلث لأولاد الأم ، ولا شيء لأولاد الأبوين ، والحالة هذه لأنهم عصبة . وقال وكيع بن الجراح : لم يختلف عنه في ذلك . وهذا قول أبي بن كعب ، وأبي موسى الأشعري . وهو المشهور عن ابن عباس وهو مذهب الشعبي وابن أبي ليلى وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن ، والحسن ابن زياد ، وزفر بن الهزيل ، والإمام أحمد ويحيى بن آدم ، ونعيم بن حماد وأبي ثور وداود الظاهري ، واختاره أبو الحسين بن اللبان الفرضي رحمه الله في كتابه الإيجاز .

وقوله تعالى : ﴿ من بعد وصية يوصي به أو دين غير مضار ﴾ أي لتكن وصيته على العدل لا على الإضرار والجور والحيف بأن يحرم بعض الورثة أو ينقصه ، أو يزيده على ما فرض الله له من الفريضة ، فمن سعى في ذلك ، كان كمن ضادّ الله في حكمه وشرعه . ولهذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس عن النبي ﷺ ٦٤٩ قال : [الإضرار في الوصية من الكبائر]

وروي موقوفاً على ابن عباس ، وذلك عن النسائي وابن أبي حاتم وابن جرير وقال :

والصحيح الموقوف . ولهذا اختلف الأئمة في الإقرار للوارث هل هو صحيح أم لا[1] على قولين (أحدهما) : لا يصح لأنه مظنة التهمة . وقد ثبت في الحديث أن رسول الله

(١) قلت : أي اقرار الموصي بشيء دون باقي الورثة بمعنى أنه يخص أحدهم بشيء دون الآخرين .

ﷺ قال : ٦٥٠ [إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصيّة لوارث] وهذا مذهب مالك وأحمد وأبي حنيفة والقول القديم للشافعي رحمهم الله وذهب في الجديد إلى أنه يصح الإقرار ، وهو مذهب طاوس وعطاء وعمر بن عبد العزيز وهو أختيار أبي عبدالله البخاري في صحيحه واحتج : بأن رافع بن خديج أوصى أن لا تكشف الفزارية عما أغلق عليه بابها قال . وقال بعض الناس لا يجوز إقراره لسوء الظن بالورثة ، وقد قال النبي ﷺ ٦٥١ [إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث] وقال الله تعالى : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ فلم يخص وارثاً ولا غيره ، إنتهى قول البخاري .[1] فمتى كان الإقرار صحيحاً مطابقاً في نفس الأمر ، جرى فيه هذا الخلاف ، ومتى كان حيلةً ووسيلةً إلى زيادة بعض الورثة ونقصان بعضهم فهو حرام بالإجماع وبنص هذه الآية الكريمة : ﴿ غير مضار وصيةً من الله والله عليم حليم ﴾ ثم قال تعالى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ وَمَنْ يُطِعِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ (١٣) وَمَنْ يَعْصِ ٱللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ (١٤) ﴾

أي هذه هي الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قربهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه، هي حدود الله فلا تعتدوها ولا تجاوزوها ، ولهذا قال : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ أي فيها فلم يزد بعض الورثة ، ولم ينقص بعضها بحيلة ووسيلة ، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته ﴿ يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ومن يعصَ الله ورسوله ويتعدً حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين . ﴾ أي لكونه غيّر ما حكم الله ، وضادّ الله في حكمه ، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به ، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم

---

(١) هذا قول مجرد للبخاري رحمه الله ولكن فيما يبدو والله أعلم أن حجة خصومه أقوى؛ لأن الله يقول « غير مضار » والرسول يقول « لا وصية لوارث » إلا أن يكون الإقرار ناتجاً عن أن الموصَى له، له أتعاب خاصة على الموصي فخصَّه بشيء لقاءها .

﴿ وَٱللَّاتِي يَأْتِينَ ٱلْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ۞ (١٥) وَٱللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً ۞ (١٦) ﴾

كان الحكم في ابتداء الإسلام، أن المرأة اذا ثبت زناها بالبيّنة العادلة ، حبست في بيت ، فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت ، ولهذا قال ﴿ واللاتي يأتين الفاحشة ﴾ يعني الزنا ﴿ من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعةً منكم فان شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهنّ الموت أو يجعلَ الله لهن سبيلاً ﴾ فالسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك . قال ابن عباس رضي الله : كان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور ، فنسخها بالجلد أوالرجم وكذا روى عن جماعة التابعين أنها منسوخة ، وهو أمر متفق عليه ـ روى الامام أحمد عن عبادة بن الصامت ٦٥٢ [كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي ، أثر عليه وكرب لذلك ، وتغير وجهه ، فأنزل الله عز وجل عليه ذات يوم فلما سرّي عنه قال : « خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلاً ، الثيب بالثيب ، والبكر بالبكر ، الثيب جلد مئة ورجم بالحجارة ، والبكر جلد مائة ثم نفي سنة »] وقد رواه مسلم وأصحاب السنن من طرق ...

وذهب ابن حنبل إلى القول بمقتضى هذا الحديث ، وهو الجمع بين الجلد والرجم في حق الثيب الزاني ، وذهب الجمهور إلى أن الثيب الزاني إنما يرجم فقط من غير جلد ، قالوا : لأن النبي ﷺ رجم ماعزاً والغامدية واليهوديّيْن ، ولم يجلدهم قبل ذلك ، فدلّ على أن الجلد ليس بحتم ، بل هو منسوخ على قولهم ، والله أعلم . وروى الطبراني عن ابن عباس ٦٥٣ قال : [لما نزلت سورة النساء قال رسول الله ﷺ [« لا حبس بعد سورة النساء »]

وقوله تعالى : ﴿ واللذان يأتيانها منكم فآذوهما ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أي بالشتم والتعيير والضرب بالنعال ، وكان الحكم كذلك ، حتى نسخه الله تعالى بالجلد

والرجم ، وقال عكرمة وغيره : نزلت في الرجل والمرأة إذا زنيا ، وقال السدي :نزلت في الفتيان قبل أن يتزوجوا . وقال مجاهد : نزلت في الرجلين إذا فعلا — لا يكني ، وكأنه يريد عمل قوم لوط والله أعلم ، وقد روى أهل السنن عن ابن عباس مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ ٦٥٤ : [من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به] وقوله تعالى : ﴿فإن تابا وأصلحا﴾ أي أقلعا وصلحت أعمالهما ﴿فأعرضوا عنهما﴾ أي لا تعنفوهما بعد ذلك ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿إنّ الله كان تواباً رحيماً﴾ وقد ثبت في الصحيحين ٦٥٥ [إذا زنت أمة أحدكم ، فليجلدها الحد ولا يثرّب عليها] أي لا يعيّرها بما صنعت بعد الحد الذي هو كفارة لما صنعت .

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ❁ (١٧) وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ❁ (١٨)﴾

يقول سبحانه وتعالى : إنما يقبل الله التوبة من عمل السوء بجهالة ثم يتوب ولو بعد معاينة الملك يقبض روحه قبل الغرغرة قال مجاهد وغير واحد وكل من عصى الله خطأً أو عمداً ، فهو جاهل حتى ينزع عن الذنب . وقال أبو صالح عن ابن عباس : من جهالته عمل السوء ﴿ثم يتوبون من قريب﴾ عن ابن عباس : ما بينه وبين أن ينظر إلى ملك الموت ، وقال الضحاك ما كان دون الموت فهو قريب وقال الحسن : ما لم يغرغر وقال عكرمة : الدنيا كلها قريب .

﴿ ذكر الأحاديث في ذلك ﴾

روى الأمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ ٦٥٦ [ان الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر] ورواه الترمذي وابن ماجة .

روى ابن مردويه عن عبدالله بن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ ٦٥٧ يقول [ما

من عبد مؤمن يتوب قبل الموت بشهر إلا قبل الله منه أدنى من ذلك ، وقبل موته بيوم وساعة يعلم الله منه التوبة والإخلاص إليه إلا قبل منه] .

روى أبو بكر بن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٦٥٨ : [ان الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر] .

روى الامام أحمد عن أبي سعيد عن النبي ﷺ ٦٥٩ [قال ابليس : يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم ؛ فقال الله عز وجل : وعزتي وجلالي لا أزال اغفر لهم ما استغفروني] .

فقد دلت هذه الأحاديث على أن من تاب إلى الله عز وجل، وهو يرجو الحياة فإن توبته مقبولة ولهذا قال الله تعالى ﴿ فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً ﴾ وأما متى غرغرت النفس صاعدة في الغلاصم فلا توبة مقبولة حينئذٍ ، ولات حين مناص . ولهذا قال تعالى :

﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ﴾ كما حكم على أهل الأرض بعدم قبول توبتهم إذا عاينوا الشمس طالعةً من مغربها في قوله تعالى : ﴿ يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل. أو كسبت في إيمانها خيراً ﴾ الآية ... وقوله تعالى : ﴿ ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ يعني أن الكافر إذا مات على كفره وشركه ، لا ينفعه ندمه ولا توبته ، ولا يقبل منه فدية ولو بملء الأرض ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ أي موجعاً شديداً مقيماً .

۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ۞ (١٩) وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا

مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴿٢١﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴿٢٢﴾

قال البخاري عن ابن عباس: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً قال: إذا مات الرجل، كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوّجوها، فهم أحق بها من أهلها؛ فنزلت هذه الآية: ﴿ياأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً﴾ هكذا ذكر البخاري وأبو داود والنسائي وابن مردويه وابن أبي حاتم وغيرهم أحاديث وأخبار بنفس المآل. وقال ابن جريج: ٦٦٠ قال عكرمة [أنزلت في كبيشة بنت معن بن عاصم بن الأوس، توفي عنها أبو قيس بن الأسلت، فجنح عليها ابنه، فجاءت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، لا أنا ورثت زوجي، ولا أنا تركت فأنكح، فأنزل الله هذه الآية.] وقال السدي عن أبي مالك: كانت المرأة في الجاهلية إذا مات زوجها جاء وليه فألقى عليها ثوباً، فإن كان له ابن صغير، أو أخ، حبسها حتى يشب، أو تموت فيرثها فإن هي انفلتت فأتت أهلها ولم يُلقِ عليها ثوباً، نجت. فأنزل الله ﴿لا يحل لكم أن ترثوا..﴾ الآية ... وقوله تعالى: ﴿ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ أي تضارّوهن في العشرة، لتترك لكم ما أصدقتموها أو بعضه أو حقاً من حقوقها عليك، أو شيئاً من ذلك على وجه القهر لها والإضرار. قال عبدالله بن المبارك: يعني قوله تعالى: ﴿لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها﴾ في الجاهلية، ﴿ولا تعضلوهن﴾ في الإسلام. وقوله تعالى: ﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ قال ابن مسعود وابن عباس وجماعة التابعين، يعني بذلك الزنا، يعني إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها، وتضاجرها حتى تتركه لك وتخالعها وقيل: أنها النشوز والعصيان وقال ابن جرير: إنه يعم ذلك كله: الزنا والعصيان والنشوز وبذاء اللسان وغير ذلك، يعني هذا كله يبيح مضاجرتها حتى تُبرئه من حقها أو بعضه ويفارقها، وهذا جيد والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ أي طيّبوا أقوالكم لهن وحسّنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم، كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله؛ كما قال تعالى: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾ وقال رسول الله ﷺ: ٦٦١ [خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي]

وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة ، دائم البشر ، يداعب أهله ، ويتلطف بهم ويوسعهم نفقته ، ويضاحك نساءه ، حتى أنه كان يسابق عائشة يتودّد إليها بذلك . يجمع نساءه كل ليلةٍ في بيت التي يبيت عندها فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها وكان إذا صلى العشاء يدخل منزله يسمر مع أهله قليلاً قبل أن ينام يوآنسهم بذلك ﷺ ، وقد قال الله تعالى: ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ أي فعسى إن صبرتم على إمساكهن مع الكراهة فيه أن يكون في ذلك خيركثيرلكم في الدنيا والآخرة كما قال ابن عباس في هذه الآية : هو أن يعطف عليها فيرزق منها ولداً ويكون فيه خير كثير . وقوله تعالى ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتانا وإثماً مبيناً ﴾ أي إذا أراد أحدكم مفارقة زوجته ، والزواج من غيرها فما له أن يسترد من مهرها شيئاً ولو كان قنطاراً من المال . وفي هذه الآية دلالة على جواز الإصداق بالمال الجزيل . وقد كان عمر نهى عن كثرة الإصداق ، ثم رجع عن ذلك .

روى ابن المنذر عن أبي عبد الرحمن السلمي قال قال عمر بن الخطاب : [لا تغالوا في مهور النساء فقالت امرأة : ليس ذلك لك ، إن الله يقول : ﴿ وآتيتم إحداهن قنطاراً ﴾ – من ذهب – قال وكذلك هي في قراءة ابن مسعود فلا يحل لكم أن تأخذوا منه شيئاً ، فقال عمر : ان امرأة خاصمت عمر فخصمته .] وقد ثبت في الصحيحين ٦٦٢ : [أن رسول الله ﷺ قال للمتلاعنين بعد فراغهما من تلاعنهما:الله يعلم أن أحدكما كاذب ، فهل منكما تائب ؟ قالها ثلاثاً فقال الرجل : يا رسول الله : ما لي ؟ – يعني ما أصدقها – قال : لا مال لك ، إن كنت صدقت ، فهو بما استحللت من فرجها ، وإن كنت كذبت عليها فهو أبعد لك منها .] وفي سنن أبي داوود عن نضرة بن أبي نضرة ٦٦٣ : [أنه تزوج امرأة بكراً في خدرها فإذا هي حامل من الزنا فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له فقضى لها بالصداق وفرّق بينهما وأمر بجلدها ، وقال : « الولد عبد لك والصداق في مقابلة البضع .] ولهذا قال تعالى . ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً . ﴾ روي عن ابن عباس أن المراد بذلك العقدُ. وعنه أيضاً قال : ﴿ إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ وقوله هو قوله ﷺ ٦٦٤ : [أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله] وعن الربيع بن أنس : إن كلمة

الله هي التشهد في الخطبة . وفي صحيح مسلم : عن جابر في خطبة حجة الوداع أن النبي ﷺ قال فيها ٦٦٥ : [... واستوصوا بالنساء خيراً فإنكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله .]

وقوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم ... ﴾ الآية ... يحرم الله تعالى زوجات الآباء تكرمةً لهم ، وإعظاماً واحتراماً أن توطأ من بعده ، حتى إنها لتحرم على الأبن بمجرد العقد عليها ، وهذا أمر مجمع عليه . وقال ابن جرير عن ابن عباس : قال : كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله ، إلاّ امرأة الأب والجمع بين الأختين فأنزل الله تعالى :

﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ﴾ و ﴿ وان تجمعوا بين الأختين ﴾ على أن هذا الأمر حرام في هذه الأمة ، مبشع غاية التبشع ولهذا قال تعالى ﴿ إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً ﴾ إن الله تعالى قال : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ فزادها ها هنا : ﴿ ومقتاً ﴾ أي بغضاً أي هوأمركبير في نفسه ويؤدي إلى مقت الأبن أباه بعد أن يتزوج بامرأته فإن الغالب ، أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله ولهذا حرّمت أمهات المؤمنين على الأمة لأنهن أمهاتهم لكونهن زوجات النبي ﷺ وهو كالأب بل حقه أعظم من حق الآباء بالإجماع ، بل حبه مقدم على حب النفوس صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وساء سبيلاً ﴾ أي وبئس طريقاً لمن سلكه من الناس فمن تعاطاه بعد هذا ، فقد ارتد عن دينه ، ويقتل ويصير ماله فيئاً لبيت المال كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من طرق عن البراء بن عازب قال : ٦٦٦ [مرَّ بي عمي الحارث بن عمير ، ومعه لواء قد عقده له النبي ﷺ فقلت له أي عم اينَ بعثك النبي ؟ قال : بعثني إلى رجل تزوج امرأة أبيه فأمرني أن اضرب عنقه]

وقد أجمع العلماء على تحريم من وطئها الأب بتزويج أو شبهة ، واختلفوا فيمن باشرها بشهوةٍ دون الجماع ، أو نظر إلى ما لا يحل له النظر إليه منها لو كانت أجنبية .

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ ٱللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ ٱللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ ٱللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا

دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ۞ (٢٣) وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلنِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ۞ (٢٤)

هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب وما يتبعه من الرضاع ، والمحارم بالصهر . كما قال ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : حرمت عليكم سبعٌ نسباً وسبعٌ صهراً. وقرأ : ﴿ حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم وأخواتكم ﴾ الآية ... وعن ابن عباس ايضاً قال : يحرم من النسب سبعٌ ومن الصهر سبعٌ. ثم قرأ : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعمّاتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت ﴾ فهنّ النسب . وقد استدل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزاني عليه بعموم قوله تعالى : ﴿ وبناتكم ﴾ فانها بنت فتدخل في العموم كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك وابن حنبل وقد حكى عن الشافعي شيء في إباحتها لأنها ليست بنتاً شرعية فكما لم تدخل في قوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ فإنها لا ترث بالإجماع فكذلك لا تدخل في هذه الآية ، والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ﴾ أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك. ولهذا ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين ٦٦٧ [أن رسول الله ﷺ قال « إن الرضاعة تحرّم ما تحرّم الولادة »] وفي لفظ مسلم ٦٦٨ [يحرُم من الرضاعة ما يحرُم من النسب] دون استثناء ثم اختلف الأئمة في عدد الرضعات المحرّمة . فذهب ذاهبون إلى أن مجرد الرضاع يحرم لعموم هذه الآية وهذا قول مالك ويروى عن ابن عمر وبعض التابعين وقال آخرون لا يحرّم أقل من ثلاث

رضعات لما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة ٦٦٩ [أن رسول الله ﷺ ، قال : « لا تحرّم المصة ولا المصتان] وذهب إلى هذا الإمام أحمد وغيره وهو مرويّ عن علي وعائشة وأم الفضل وغيرهم وقال آخرون : لا يحرم أقل من خمس رضعات لما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : ٦٧٠ [كان فيما أنزل من القرآن «عشر رضعات معلومات يحرمن » ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفي النبي ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن] وروى عبد الرزاق عن عائشة نحو ذلك وفي حديث سهلة بنت سهيل ، ٦٧١ [ان رسول الله ﷺ أمرها أن ترضع سالماً مولى أبي حذيفة خمس رضعات] وكانت عائشة تأمر من يريد أن يدخل عليها أن يرضع خمس رضعات . وبهذا قال الشافعي وأصحابه . ثم ليعلم انه لا بد ان تكون الرضاعة في سن الصغر دون الحولين ، على قول الجمهور . وقد قدمنا الكلام على هذه المسألة في سورة البقرة عند قوله تعالى : ﴿ يرضعن اولادهن حولين كاملين [1] ﴾ ثم اختلفوا هل يحرم لبن الفحل ، كما هو قول جمهور الأئمة الأربعة وغيرهم أو إنما يختص الرضاع بالأم فقط ، ولا ينتشر إلى ناحية الأب كما هو قول لبعض السلف على قولين . تحرير هذا في كتاب الأحكام الكبير [2] وقوله تعالى : ﴿ وامهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ﴾ أما أم المرأة فإنها تحرم بمجرد العقد على بنتها سواء دخل بها أو لم يدخل بها ، وأما الربيبة وهي بنت المرأة فلا تحرم حتى يدخل بأمها ، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ﴾ في تزويجهن فهذا خاص بالربائب وحدهنّ بخلاف من فهم أن عود الضمير إلى الأمهات والربائب فقال : لا تحرم واحدة من الأم ولا البنت بمجرد العقد على الأخرى حتى يدخل بها . **لقوله﴿ فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم﴾**

روى ابن جرير عن علي (رض) في رجل تزوج امرأةً فطلقها قبل أن يدخل بها ، أيتزوج بأمها ؟ قال هي بمنزلة الربيبة . وحدثنا ابن بشار عن زيد بن ثابت قال : إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها فلا بأس أن يتزوج أمها ، ولكنّ جمهورَ العلماء على أن الربيبة لا تحرم بالعقد على الأم بخلاف الأم فأنها تحرم بمجرد العقد على البنت وقال ابن عباس : إذا طلق الرجل المرأة قبل أن يدخل بها أو ماتت ، لم تحل له أمها وهذا مذهب الأئمة الاربعة والفقهاء السبعة وجمهور الفقهاء قديماً وحديثاً ولله الحمد والمنة .

---

(١) راجع سورة البقرة : الأحاديث رقم ٣٦٣ - ٣٦٧ .

(٢) للمفسر ابن كثير رحمه الله .

قال ابن جريج والصواب قول من قال : الأم [١] من المبهمات ، لأن الله تعالى لم يشترط معهن الدخول كما اشترط مع أمهات الربائب مع أن ذلك أيضاً إجماع الحجة التي لا يجوز خلافها فيما جاءت به متفقة عليه . وقد روي بذلك عن النبي ﷺ خبر غريب وفي اسناده نظر وهو ما حدثني به ابن المثنّى بسنده عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال ٦٧٢ : [إذا نكح الرجل المرأة فلا يحل له أن يتزوج أمها دخل بالبنت أو لم يدخل فإذا تزوج بالأم فلم يدخل بها ثم طلقها فان شاء تزوج الابنة .] وهـذا الخبر وان كان في إسناده ما فيه ، فإن في إجماع الحجة على صحة القول به مستغنى عن الاستشهاد على صحته بغيره .

وأما قوله تعالى : ﴿ وربائبكم اللاتي في حجوركم ﴾ فالجمهور على أن الربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل ، أو لم تكن في حجره ، قالوا : وهذا الخطاب خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له . كقوله تعالى : ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً ﴾ وفي الصحيحين ٦٧٣ : [إن أم حبيبة قالت : يا رسول الله أنكح أختي بنت أبي سفيان ، وفي لفظ مسلم : عزة بنت أبي سفيان ، قال : « أو تحبين ذلك ؟ » قالت : نعم لست بك بمخلية ، وأحب من شاركني في خيرٍ أختي ، قال « فإن ذلك لا يحل لي » قالت : فإنا نحدث أنك تريد أن تنكح بنت أبي سلمة ، قال : « بنت أم سلمة » ؟ قالت نعـم . قال : إنها لم لو تكن ربيبتي في حجري ما حلت لي ، إنها لبنت أخي من الرضاعـة ، أرضعتني وأبا سلمة ثويبة . فلا تعرُضنَّ عليَّ بناتكن ولا أخواتكن »] وفي رواية البخاري ٦٧٤ : [انها لو لم أتزوج أم سلمة ما حلت لي ... [٢]] فجعل مناط التحريم تزوجه أم سلمة وحكم بالتحريم بذلك [٣] وهذا مذهب الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة وجمهور الخلف والسلف .

وقد قيل : بأنه لا تحرم الربيبة إلا إذا كانت في حجر الرجل ، فإذا لم تكن كذلك فلا تحرم ، وقد ثبت عن علي بن أبي طالب أنه قال بهذا واحتج بمفهوم الآية : ﴿ وربائبكم اللاتي في حجوركم ﴾ وهو قول غريب جداً ، وإلى هذا ذهب داود بن علي الظاهري

---

(١) قلت : المقصود بالأم : أم الزوجة . وبأمهات الربائب : الزوجات اللاتي لهن بنات من أزواج آخرين ومعنى المبهمات أي عامة في المدخول بها وغير المدخول بها فتحرم بمجرد العقد عليها أي على البنت .

(٢) قلت : والمعنى : وكيف وأني متزوج أم سلمة ... وهي ربيبتي في حجري ... ؟ زيادة على كونها ابنة أخي من الرضاع .

(٣) بل بالجهتين معاً : كونها ابنة أخيه من الرضاع ، وكونها ربيبته في حجره . .

وأصحابه وحكي عن مالك واختاره ابن حزم ، وروى الذهبي عن ابن تيمية رحمه الله إنّه إستشكله وتوقف في ذلك والله أعلم .

وروي عن قتادة: بنت الربيبة وبنت ابنتها، لا تصلح وإن كانت أسفل ببطون كثيرة، ومعنى قوله تعالى : ﴿ اللاتي دخلتم بهن ﴾ أي نكحتموهن وفي إجماع الجميع على أن خلوة الرجل بامرأة لا تحرم إبنتها عليه ، إذا طلقها قبل مسيسها ومباشرتها .

وقوله تعالى : ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ أي وحرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم ، يحترز بذلك عن الأدعياء الذين يتبنّونهم في الجاهلية ، كما قال تعالى : ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم ﴾ الآية ... قال عطاء : كنا نحدث ـ والله أعلم ـ أن النبي ﷺ لما نكح امرأة زيد ، قال المشركون في ذلك ، فأنزل الله تعالى ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ ونزلت ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ ونزلت . ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ وقال ابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد : إن هؤلاء الآيات مبهمات : ﴿ وحلائل أبنائكم ﴾ ﴿ وأمهات نسائكم ﴾ وروى عن جماعة من التابعين نحو ذلك (قلت) معنى مبهمات أي عامة في المدخول بها وغير المدخول ، فتحرم بمجرد العقد عليها ، وهذا متفق عليه ، فإن قيل : من أين تحرم امرأة ابنه من الرضاعة كما هو قول الجمهور ، ومن الناس من يحكيه إجماعاً وليس من صلبه ، فالجواب من قوله ﷺ ٦٧٥ « [يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب]

وقوله تعالى : ﴿ وإن تجمعوا بين الأختين ﴾ أي وحرم عليكم الجمع بين الأختين معاً في التزويج ، وكذا في ملك اليمين ﴿ إلا ما قد سلف ﴾ إلا ما كان في جاهليتكم فقد عفونا عنه وغفرناه ، قال ابن ماجة عن أبي خراش الرعيني، قال ٦٧٦ [قدمت على رسول الله ﷺ وعندي أختان تزوجتهما في الجاهلية فقال ٦٧٧ : [إذا رجعت فطلقْ إحداهما] (قلت) فيحتمل أن أبا خراش هذا هو الضحاك بن فيروز الديلمي ، والله أعلم . روى ابن مردويه عن الديلمي قال : قلت يا رسول الله ، إن تحتي أختين . قال ٦٧٨ : [طلق أيّهما شئتَ] فالديلمي المذكور أولا هو الضحاك بن فيروز الديلمي رضي الله عنه ، وكان من جملة الأمراء باليمن الذين تولّوا قتل الأسود العنسي المتنبىء لعنه الله .

وأما الجمع بين الأختين في ملك اليمين فحرام أيضاً لعموم الآية وقال الإمام مالك عن ابن شهاب عن قبيصة بن ذؤيب أن رجلاً سأل عثمان بن عفان عن الأختين في ملك

اليمين ، هل يجمع بينهما فقال عثمان : أحلتهما آية وحرمتهما آية ، وما كنت لأمنع ذلك فخرج من عنده ، فلقي رجلاً من أصحاب النبي ﷺ فسأله عن ذلك فقال : لو كان لي من الأمر شيء ، ثم وجدت أحداً فعل ذلك لجعلته نكالاً . وقال مالك قال ابن شهاب : أراه علي بن أبي طالب .

قال أبو عمر بن عبد البرعن إياس بن عامر ، سألت علي بن أبي طالب فقلت : إن لي أختين مما ملكت يميني اتخذت إحداهما سرية فولدت لي أولاداً ثم رغبت في الأخرى فما أصنع؟ فقال علي رضي الله عنه. تعتق التي كنت تطأ ثم تطأ الأخرى... (إلى أن قال) انه يحرم عليك مما ملكت يمينك ما يحرم عليك في كتاب الله عز وجل من الحرائر إلا العدد ، أو قال إلا الأربع ، ويحرم عليك من الرضاع ما يحرم عليك في كتاب الله عز وجل من النسب . ثم قال أبو عمر : هذا الحديث : رحلة رجل و لم يصب من أقصى المغرب والمشرق إلى مكة غيره لما خابت رحلته . قال أبو عمر وقد روي مثل قول عثمان عن طائفة من السلف منهم ابن عباس ولكن اختلف عليهم ، ولم يلتفت إلى ذلك أحد من فقهاء الأمصار ... وقد أجمع المسلمون على أن معنى : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم .. ﴾ أن النكاح وملك اليمين في هؤلاء كلهم سواء .

وقوله تعالى : ﴿ والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم ﴾

أي وحرم عليكم من الأجنبيات المحصنات وهن المزوجات إلا ما ملكت أيمانكم ، يعني إلا ما ملكتموهن بالسبي فإنه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن فإن الآية نزلت في ذلك روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال ٦٧٩ : [أصبنا سبياً من سبي أوطاس، ولهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن ولهن أزواج ، فسألنا النبي ﷺ ، فنزلت هذه الآية ﴿ والمحصنات من النساء إلا ما ملكت ايمانكم ﴾ فاستحللنا فروجهن .] وهكذا رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه ورواه مسلم في صحيحه .

وقد روى الطبراني عن ابن عباس : أنها نزلت في سبايا خيبر . وذكر مثل حديث أبي سعيد ، وقد ذهب جماعة من السلف إلى أن بيع الأمة طلاقها ومن ابن مسعود قال : إذا بيعت الأمة ولها زوج فسيدها أحق ببضعها وعن ابن عباس : بيعها طلاقها ، وكذا قال أبي بن كعب وجابر بن عبدالله وعن ابن عباس قال : طلاق الأمة ست : بيعها طلاقها وعتقها طلاقها ، وهبتها طلاقها وبراءتها طلاقها ، وطلاق زوجها طلاقها . [1]

---

(١) قلت : وأين السادسة فلتحرر الرواية وراويها ابن جرير عن يعقوب عن ابن علية عن خليد عن عكرمة عن ابن عباس . أقول ولعلّها : بيعُهُ طلاقُها، أي بيع زوجها والله أعلم .

روى عبد الرزاق عن ابن المسيب قوله : ﴿ والمحصنات من النساء ﴾ قال : ذوات الأزواج حرم الله نكاحهن إلا ما ملكت يمينك ، فبيعها طلاقها .

وقد خالفهم الجمهور قديماً وحديثاً . فرأوا أن بيع الأمة ليس طلاقها ... واعتمدوا في ذلك على حديث بريرة المخرَّج في الصحيحين وغيرهما : فإن عائشة أم المؤمنين اشترتها وأعتقتها ولم ينفسخ نكاحها من زوجها مغيث بل خيَّرها رسول الله ﷺ بين الفسخ والبقاء ، فاختارت الفسخ وقصتها مشهورة ، فلو كان بيع الأمة طلاقها كما قال هؤلاء ما خيرها النبي ﷺ فلما خيرها دل على بقاء النكاح ، وإن المراد من الآية : المسبيّات فقط والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ كتاب الله عليكم ﴾ أي هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم يعني الأربع فالزموا كتابه وحدوده وشرعه وما فرضه . وقوله تعالى : ﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم ﴾ أي ما عدا من ذكرن من المحارم ، هنَّ لكم حلال .

وقوله تعالى : ﴿ أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ﴾ أي تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع ، أو السراري ما شئتم بالطريق الشرعي ولهذا قال ﴿ محصنين غير مسافحين﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ﴾ أي كما تستمتعون بهن فآتوهن مهورهن في مقابلة ذلك كما قال تعالى : ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾ وقد استُدِل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة، ولا شك أنه كان مشروعاً في ابتداء الإسلام ، ثم نسخ بعد ذلك وقد ذهب الشافعي وطائفة من العلماء أنه أبيح ثم نسخ مرتين وقال آخرون أكثر من ذلك وقال جماعة بإباحتها للضرورة ، ولكن الجمهور على خلاف ذلك والعمدة ما ثبت في الصحيحين عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال : [نهى رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة ، وعن لحوم الحمر الأهلية يوم خيبر] ٦٨٠ وفي صحيح مسلم عن الربيع بن سبره بن معبد الجهني ، عن أبيه ٦٨١ [أنه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة فقال « يا أيها الناس : إني كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عنده منهنَّ شيء فليخلِّ سبيله ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً »] وفي رواية مسلم ٦٨٢ : [في حجة الوداع] وله ألفاظ موضعها كتب الأحكام .

وقوله تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ﴾ قال ابن جرير عن المعتمد بن سليمان عن أبيه قال زعم الحضرمي أن رجالاً كانوا يفرضون المهر ، ثم

عسى أن يدرك أحدهم العسرة ، فقال تعالى﴿ ولا جناح عليكم﴾أيها الناس ﴿ فيماتراضيتم به من بعد الفريضة ﴾ يعني إن وضعت لك منه شيئاً فهو لك سائغ ، واختار هذا القول ابن جرير وقوله تعالى : ﴿ إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ مناسب ذكر هذين الوصفين بعد شرع هذه المحرمات .

﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ ٱلْمُحصَنَاتِ ٱلْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتِ وَٱللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَاتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۞ (٢٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ ومن لم يستطع منكم طولاً ﴾ أي سعة وقدرةً ﴿ أن ينكح المحصنات المؤمنات ﴾ أي الحرائر العفائف المؤمنات ﴿ فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ﴾ اي فتزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكهن المؤمنون.ولهذا قال تعالى:﴿ من فتياتكم المؤمنات﴾ قال ابن عباس وغيره فلينكح من إماء المؤمنين ثم اعترض بقوله تعالى : ﴿ والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض ﴾ أي هو العالم بحقائق الأمور؛ ثم قال تعالى : ﴿ فانكحوهن بإذن أهلهن ﴾ فدل على أن السيد هو وليّ أمته لا تتزوج إلا بإذنه ، وكذلك هو وليّ عبده ليس له أن يتزوج إلاّ بإذنه كما جاء في الحديث ٦٨٣ : [أيما عبد تزوج بغير إذن مواليه فهو عاهر] أي زان . فإن كان مالكُ الأمَة امرأةً ، زوّجها من يزوج المرأة بإذنها لما جاء في الحديث ٦٨٤ : [لا تزوج المرأةُ المرأةَ ، ولا المرأةُ نفسها ، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها] .

وقوله تعالى : ﴿ وآتوهن أجورهن بالمعروف ﴾ أي وادفعوا مهورهن عن طيب نفس منكم ولا تبخسوا منه شيئاً استهانةً بهن،لكونهن إماء مملوكات ، وقوله تعالى :

﴿محصنات﴾ أي عفائف عن الزنا لا يتعاطينه؛ ولهذا قال ﴿غير مسافحات﴾ أي الزواني المعلنات ﴿ولا متخذات أخدانٍ﴾ يعني أخلاَّء ، فقد نهى الله عن تزويجها ما دامت كذلك . وقوله تعالى :

﴿فإذا أحصنَّ فإن آتين بفاحشةٍ فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾

اختلف القُرَّاء في ﴿أُحْصِنَّ﴾ قيل المراد بالإحصان ههنـــا الإسلام والأظهر ــ والله أعلم ــ التزويج لأن سياق الآية يدل عليه. يقول سبحانه تعالى ﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ والله أعلم . والآية الكريمة سياقها في الفتيات المؤمنات فتعين أن المراد بقوله تعالى : ﴿فـــإذا أحصنَّ﴾ أي تزوَّجْنَ كما فسره ابن عباس وغيره .

وقد وقع خلاف على حدِّ الأمة إذا زنت ، فالجمهور يقولون : إن الأمةَ إذازنت فعليها خمسون جلدة سواء كانت مسلمة أو كافرة ، مزوجة أو بكراً مع أن مفهوم الآية يقتضي أنه لا حد على غير المحصنة ممن زنى من الإماء ، وقد اختلفت أجوبتهم عن ذلك ، فأما الجمهور فقالوا : لا شك أن المنطوق مقدم على المفهوم . وقد وردت أحاديث عامة في إقامة الحد على الإماء ، فقدمناها على مفهوم الآية فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن علي (رض) أنه خطب ٦٨٥ فقال: [يا أيها الناس أقيموا الحد على إمائكم من أحصن منهن ومن لم يحصن ، فإن أمة لرسول الله ﷺ زنت ، فأمرني أن أجلدها ، فإذا هي حديثة عهد بنفاس فخشيت إن جلدتّها أن أقتلها فذكرت ذلك لنبي الله ﷺ فقال : « أحسنت اتركها حتى تتماثل »] .

وعن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ٦٨٦ : [إذا زنت أمة أحدكم فتبين زناها ، فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ولا يثرب عليها ، ثم إن زنت الثالثة فتبين زناها فليبعها ولو بحبل من شعر.] ولمسلم ٦٨٧ [إذا زنت ثلاثاً فليبعها في الرابعة] وروى مالك بسنده إلى عبدالله بن عباس بن أبي ربيعة المخزومي قال : أمرني عمر بن الخطاب في فتيةٍ من قريش فجلدنا من ولائد الامـــارة خمسين خمسين من الزنا .

وقيل إنه ليس على الأمة حد قبل الإحصان وإنما تضرب تأديباً وعمدتهم مفهوم الآية وهو من مفاهيم الشرط وهو حجة عند أكثرهم فقدم على العموم عندهم ؛ وحديث أبي هريرة وزيد بن خالد ٦٨٨ [أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن ؟

قال : إن زنت فحدوها ثم إن زنت فاجلدوها ، ثم بيعوها ولو بضفير] أخرجاه وأصرح من ذلك ما رواه سعيد بن منصور بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ ٦٨٩ [ليس على أمة جلد حتى تحصن - يعني حتى تزوج فإذا أحصنت بزوج فعليها نصف ما على المحصنات] ولكن قال ابن خزيمة رفعه خطأ إنما هو من قول ابن عباس وكذلك قال البيهقي وقيل ... وقيل ... والله أعلم بالصواب [١] .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك لمن خشي العنت منهم ﴾ أي إنما يباح نكاح الإماء بالشروط المتقدمة لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا ، وشق عليه الصبر عن الجماع ، وعنت بسبب ذلك كله ، فله حينئذ أن يتزوج بالأمة وإن ترك تزوجها وجاهد نفسه في الكف عن الزنا فهو خير له لأنه إذا تزوجها جاء أولاده أرقاء لسيدها ... ولهذا قال تعالى : ﴿ وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم ﴾ وهذه الآية عامة في الحرائر والإماء ،كما قال الجمهور. والله أعلم .

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۞ (٢٦) وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ۞ (٢٧) يُرِيدُ ٱللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنْسَانُ ضَعِيفاً ۞ (٢٨) ﴾

يخبر تعالى أنه يريد أن يبين لكم أيها المؤمنون ما أحل لكم وحرم عليكم مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها ﴿ ويهديكم سنن الذين من قبلكم ﴾ يعني طرائقهم الحميدة ﴿ ويتوب عليكم ﴾ أي من الاثم والمحارم ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي في شرعه وقدره وأفعاله وأقواله ، وقوله تعالى : ﴿ ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾ أي يريد اتباع الشياطين من اليهود والنصارى والزناة أن تميلوا عن الحق إلى الباطل ميلاً عظيماً ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ أي في شرائعه وأوامره أن تميلوا عن الحق إلى الباطل أي في شرائعه وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم . ولهذا أباح الإماء بشروط ﴿ وخُلِقَ

(١) قلت : والراجح - والله أعلم - قول الجمهور لورود الأحاديث الصحيحة في حدها خمسين جلدة فيمن أحصنت أو لم تحصن كما تقدم من حديث علي رضي الله عنه لأن حديث علي وعمر قضايا أعيان .

الإنسان ضعيفاً ﴾ فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه وعزمه وهمته وقال طاوس : أي في أمر النساء .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِٱلْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ۞ (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيراً ۞ (٣٠) إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً ۞ (٣١) ﴾

ينهى الله تعالى عباده المؤمنين عن أكل أموال بعضهم بعضاً بالباطل ، أي بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية كأنواع الربا والقمار [١] ، وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل ، وان ظهرت في غالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا. حتى قال ابن جرير عن ابن عباس: في الرجل يشتري من الرجل الثوب فيقول إن رضيته أخذته وإلا رددت معه درهماً قال : هو الذي قال الله عز وجل فيه : ﴿ لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ وقال ابن أبي حاتم عن علقمة عن عبدالله في الآية، قال : إنها محكمة ما نسخت ولا تنسخ إلى يوم القيامة ، وقوله تعالى : ﴿ إلا أن تكون تجارةٌ عن تراض منكم ﴾ أي لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال ، لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها،وتسببوا بها في تحصيل الأموال ، وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: بيعاً أو عطاءً يعطيه أحد أحداً. وقال ابن جرير عن ميمون بن مهران قال: قال رسول الله ﷺ ٦٩٠ : [البيع عن تراض ، والخيار بعد الصفقة ولا يحل لمسلم أن يغش مسلماً [٢] ، ومن تمام التراضي إثبات خيار المجلس، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال ٦٩١ : [البيّعان بالخيار مالم يتفرقا]

---

(١) قلت : من أنواع الربا ما هو مشهور تعامله في زماننا هذا كبيع التقسيط والبيعتين في بيعة بأن يبيع بالحاضر بعشرة ولأجل باثنا عشر وما أشبه . وكذلك عمل اليانصيب فهو قمار صرف .

(٢) هذا حديث مرسل ميمون تابعي .

وفي لفظ البخاري ٦٩٢ : [إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا] وقال بذلك أحمد والشافعي وأصحابهما وجمهور السلف والخلف ، ومن ذلك مشروعية خيار الشرط بعد العقد ، إلى ثلاثة أيام بحسب ما يتبين فيه مال البيع ولو إلى سنة في القرية ونحوها ، كما هو المشهور عن مالك رحمه الله . وقوله تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ أي بارتكاب محارم الله ، وتعاطي معاصيه وأكل أموالكم بينكم بالباطل ﴿ إن الله كان بكم رحيماً ﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه . وروى الإمام أحمد عن عمرو بن العاص رض ٦٩٣ أنه قال : [لما بعثه النبي ﷺ عام ذات السلاسل قال : احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد فأشفقت إن أغتسلت أن أهلك . فتيممت ثم صليت بأصحابي صلاة الصبح قال : فلما قدمنا على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له فقال : « يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب »؟ قال : يا رسول الله إني احتلمت في ليلة باردة شديدة البرد ، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك ، فذكرت قول الله عز وجل : ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً ﴾ فتيممت ثم صليت ، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً.] وهكذا رواه أبو داود ، وذكر نحوه ، وهذا والله أعلم أشبه بالصواب . وقال أبو بكر بن مردويه عن ابن عباس أن عمرو بن العاص ... وذكر نحوه ثم أورد عنه هذه الآية الكريمة من حديث الأعمش بسنده إلى أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٦٩٤ : [من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأبها بطنه يوم القيامة في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ومن قتل نفسه بسم فسمُّه في يده يتحسّاه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً][1] وهذا الحديث ثابت في الصحيحين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً ﴾ ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه معتدياً فيه ظالماً في تعاطيه ، أي عالماً بتحريمه ، متجاسراً على انتهاكه ﴿ فسوف نصليه ناراً ﴾ الآية وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، فليحذر منه كل عاقل لبيب ممن ألقى السمع وهو شهيد .

وقوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيئاتكم ﴾ أي إذا اجتنبتم كبائر الآثام التي نهيتم عنها ، كفّرنا عنكم صغائر الذنوب وأدخلناكم الجنة ، ولهذا قال : ﴿ وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة فلنذكر منها ما تيسر :

روى الإمام أحمد عن سلمان الفارسي قال : قال رسول الله ﷺ ٦٩٥ : [أتدري ما يوم الجمعة ؟ » قلت : هو اليوم الذي جمع فيه أباكم قال : « لكن أدري ما يوم الجمعة ، لا يتطهر الرجل فيحسن طهوره ، ثم يأتي الجمعة فينصت حتى يقضي الإمام

(١) فما يقول أهل الطرق الذين يضربون أنفسهم بالحديد (الشيش) ويزعمون أنهم يتحسون السم إدعاء منهم أن هذه من (الكرامات ...؟!!) زعموا ... ألا فليتوبوا إلى الله ، وإلا فإن الخاتمة السيئة تنتظرهم ، ونار جهنم ترتقبهم ، كما في الحديث أعلاه .

صلاته إلا كانت كفارة له ما بينها وبين الجمعة المقبلة ما اجتنبت المقتلة »] وقد روي البخاري من وجه آخر عن سلمان نحوه .

روى أبو جعفر عن أبي هريرة وأبي سعيد قالا ٦٩٦ : [خطبنا رسول الله ﷺ يوماً فقال : « والذي نفسي بيده » ثلاث مرات ثم أكب فأكب كل رجل منا يبكي لا ندري ماذا حلف عليه ، ثم رفع رأسه وفي وجهه البشرى ، فكان أحب إلينا من حمر النعم فقال : « ما من عبد يصلي الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ، ويُخرج الزكاة ، ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة ، ثم قيل له : أدخل بسلام . »] وهكذا رواه النسائي والحاكم في مستدركه وابن حيان في صحيحه ثم قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

تفسير هذه السبع : وذلك بما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ وسلم قال ٦٩٧ : [« اجتنبوا السبع الموبقات » قيل : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : « الشرك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، والسحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات »]

فالنص على هذه السبع بأنهن كبائر لا ينفي ما عداهن ... كما سنورده من الكبائر الواردة في أحاديث يحتج بها ، ومن أقوال بعض الصحابة والتابعين مثل التعرُّب بعد الهجرة وهو أن يهاجر الرجل حتى إذا وقع سهمه في الفيء ووجب عليه الجهاد خلع ذلك من عنقه فرجع أعرابياً كما كان ، وعقوق الوالدين ، واستحلال البيت الحرام قبلتنا أحياء وأمواتاً ، والذي يستسخر [١] وبكاء الوالدين من العقوق وقول الزور أو شهادة الزور وقتل الولد وشرب الخمر واليمين الغموس وأن يسب الرجل أباه فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه ، ومن أقوال بعض الصحابة : كالجمع بين الصلاتين بلا عذر وترك الصلاة ، والأمن من مكر الله ، واليأس من روح الله ، والزنا والسرقة ، والاضرار بالوصية ، والغلول والذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً فقد قال رسول الله ﷺ : فأين تجعلون الذين يشترون بعهد الله وإيمانهم ثمناً قليلاً إلى آخر الآية .

ومن أقوال بعض السلف : وفراق الجماعة ، ونكث الصفقة ، ومنع فضول الماء بعد الري ومنع طروق الفحل إلا بجُعل والبهتان . قال أبو القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي في

(١) إما إنها من السخرية والاستهزاء بالناس .. أو من السخرة بأن يكلف الناس عملا يعملونه له بلا أجر ولكن أميل إلى أنها من السخرية والاستهزاء بالناس . أو لعلها الأثنتان والله تعالى أعلم .

كتابه الشرح الكبير في كتاب الشهادات : ثم اختلف الصحابة رضي الله عنهم فمن بعدهم في الكبائر، وفي الفرق بينها وبين الصغائر. ولبعض الأصحاب في تفسير الكبيرة وجوه أحدها: انها المعصية الموجبة للحد والثاني : انها المعصية التي يلحق صاحبها الوعيد الشديد، بنص كتاب أو سنة، وهذا أكثر ما يوجد لهم. وإلى الأول أميل، لكن الثاني أوفق لما ذكروه عند تفسير الكبائر. والثالث، قال إمام الحرمين في الإرشاد وغيره : كل جريمة تنبيء بقلة اكتراث مرتكبها بالدين ورقة الديانة، فهي مبطلة للعدالة. والرابع، ذكر القاضي أبو سعيد الهروي: أن الكبيرة كل فعل نص الكتاب على تحريمه وكل معصية توجب في جنسها حداً من قتل أو غيره. وترك كل فريضة مأمور بها على الفور ، والكذب في الشهادة والرواية واليمين هذا ما ذكروه على سبيل الضبط ثم قال :

وفصّل القاضي الروياني فقال : الكبائر سبع : قتل النفس بغير الحق ، والزنا ، واللواطة ، وشرب الخمر ، والسرقة، واخذ المال غصباً ، والقذف ؛ وزاد في الشامل على السبع المذكورة : شهادة الزور ، أضاف اليها صاحب العدة: أكل الربا، والإفطار في رمضان بلا عذر، واليمين الفاجرة وقطع الرحم ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف وأكل مال اليتيم ، والخيانة في الكيل والوزن، وتقديم الصلاة على وقتها وتأخيرها عن وقتها بلا عذر ، وضرب المسلم بلا حق، والكذب على رسول الله ﷺ عمداً ، وسب الصحابة، وكتمان الشهادة بلا عذر ، وأخذ الرشوة ، والقيادة بين الرجال والنساء ، والسعاية عند السلطان ، ومنع الزكاة ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة ، ونسيان القرآن بعد تعلّمه ، وإحراق الحيوان بالنار ، وامتناع المرأة من زوجها بلا سبب ، واليأس من رحمة الله ، والأمن من مكر الله ويقال : الوقيعة في أهل العلم وحملة القرآن ، ومما يعد من الكبائر ــ الظهار ، وأكل لحم الخنزير والميتة إلاّ عن ضرورة ثم قال الرافعي : وللتوقف مجال في بعض هذه الخصال . (قلت) وقد صنف في الكبائر مصنفات منها ما جمعه شيخنا الحافظ أبو عبدالله الذهبي الذي بلغ نحواً من سبعين كبيرة . واذا قيل : إن الكبيرة ما توعّد عليها الشارع بالنار بخصوصها كما قال ابن عباس وغيره وما يتبع ذلك اجتمع منه شيء كثير ، وإذا قيل كل ما نهى الله عنه فكثير جدا والله أعلم .

قال ابن عباس لما ذكروا عنده الكبائر وقالوا هي سبع فقال هي أكثر من سبع وسبع قال فلا أدري كم قالها من مرة . وقال ابن ابي حاتم عن طاوس قال : قلت لأبن عباس : ما السبع الكبائر قال : هي إلى السبعين اقرب منها إلى السبع .

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا ٱكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَٱسْأَلُوا ٱللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾ (٣٢)

روى الأمام أحمد عن مجاهد قال : قالت أم سلمة : ٦٩٨ (يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو ، ولنا نصف الميراث فانزل الله : ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾] ورواه الترمذي وغيره ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردويه والحاكم في مستدركه عن مجاهد قال:قالت أم سلمة : ٦٩٩ [يا رسول الله لا نقاتل فنستشهد ، ولا نقطع الميراث فنزلت الآية ، ثم أنزل الله تعالى : ﴿إني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى﴾] الآية . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية قال : ولا يتمنى الرجل فيقول : [ليت لو أن لي مال فلان وأهلَه ، فنهى الله عن ذلك ولكن يسأل الله من فضله .] وهو الظاهر من الآية ولا يرُد على هذا ما ثبت في الصحيح : ٧٠٠ [لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق فيقول رجل لو أن لي مثل ما لفلان لعملت مثله فهما في الأجر سواء] فإن هذا شيء غير ما نهت عنه الآية وذلك أن الحديث حضً على تمنيّ مثل نعمة هذا،والآية نهت عن تمنيّ عين نعمة هذا ، يقول تعالى ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ أي في الأمور الدنيوية والدينية .

ثم قال تعالى : ﴿ للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾ أي كل له جزاء على عمله بحسبه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، قاله ابن جرير ، وقيل : المراد بذلك في الميراث أي كل يرث على حسبه. قال ابن عباس. ثم أرشدهم إلى ما يصلحهم فقال : ﴿ واسألوا الله من فضله﴾ لا تتمنوا ما فضلنا به بعضكم على بعض . فالتمني لا يجدي شيئاً ولكن سلوني من فضلي أعطكم فإني كريم وهاب . وروى أبو نعيم عن ابن عباس: قال قال رسول الله ﷺ : ٧٠١ [سلوا الله من فضله،فإن الله يحب أن يسأل وإن أحب عباد الله إلى الله الذي يحب الفرج] . ثم قال تعالى:﴿ إن اللهَ كان بكل شيء عليماً ﴾أي عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه وبمن يستحق الفقر فيفقره،وبمن يستحق الآخرة فيقيّضه الله لأعمالها، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه؛ ولهذا قال: ﴿ إن اللهَ كان بكل شيء عليما ﴾

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ﴾ (٣٣)

قال ابن عباس وجماعة من التابعين في قوله تعالى : ﴿ ولكل جعلنا موالي ﴾ أي ورثة ، والمعنى : ولكلكم أيها الناس جعلنا عصبة يرثونه مما ترك والداه وأقربوه من ميراثهم له . وقوله تعالى : ﴿ والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ﴾ أي والذين تحالفتم بالأيمان المؤكدة فآتوهم نصيبهم من الميراث كما وعدتموهم في الأيمان المغلظة ، وقد كان هذا في ابتداء الاسلام ، ثم نسخ. روى البخاري عن ابن عباس: ٧٠٢ [﴿ ولكل جعلنا موالي ﴾ قال ورثة ﴿ والذين عقدت أيمانكم ﴾ الآية كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجريُّ الأنصاريَّ دون ذوي رحمه بالأخوة التي آخى رسول الله ﷺ بينهم ؛ فلما نزلت هذه : ﴿ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ نسخت . ثم قال : والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم] فكان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل ويقول : وترثني وأرثك ، وكان الأحياء يتحالفون ، فقال رسول الله ﷺ : ٧٠٣ [كل حلف في الجاهلية أو عقد أدركه الإسلام فلا يزيده الإسلام إلا شدة ولا عقد ولا حلف في الإسلام] ثم نسخ الميراث بالحلف وبقي تأثير الحلف بعد ذلك وهكذا رد الميراث إلى دوي الرحم والعصبَة كما قال ابن عباس آنفاً : كان المهاجريُّ يرث الأنصاريَّ دون قرابته وذى رحمه حتى نسخ ذلك . وفي هذا رد على من يقول أن هذه الآية محكمة غير منسوخة .

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيراً ﴾ (٣٤)

يقول تعالى : ﴿ الرجال قوّامون على النساء ﴾ أي الرجل رئيس المرأة وكبيرها والحاكم ، عليها ومؤدّبها إذا اعوجّت. ﴿ بما فضل الله بعضكم على بعض ﴾ أي لأن الرجال أفضل من النساء والرجل خير من المرأة ، ولهذا كانت النبوّة مختصة بالرجال، وكذلك الملك الأعظم لقوله ﷺ : ٧٠٤ [لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة] رواه البخاري وكذا منصب القضاء وغير ذلك ﴿ وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ أي من المهور والنفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهن، في كتابه وسنة نبيه ﷺ ولما كان الرجل أفضل من المرأة ناسب أن يكون قيّماً عليها. كما قال تعالى: ﴿وللرجال عليهن درجة ﴾ الآية وعليها أن تطيعه فيما أمرها الله به من طاعتـه وطاعتـُه ، أن تكون محسنة لأهله ، حافظة لماله . وكذا قال مقاتل والسدي والضحاك .

روى ابن مردويه عن علي ، قال : ٧٠٥ [أتى رسول الله ﷺ رجل من الأنصار بأمرأة له فقالت : يا رسول الله إن زوجها فلان بن فلان الأنصاري وأنه ضربها فأثر في وجهها فقال رسول الله ﷺ « ليس له ذلك » فأنزل الله تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ أي في الأدب فقال رسول الله ﷺ « أردت أمراً وأراد الله غيره »] وقوله تعالى: ﴿ بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ قال الشعبي : الصداق الذي أعطاها ألا ترى أنه لو قذفها لاعنها ، ولو قذفته جلدت . وقوله تعالى : ﴿ فالصالحات ﴾ أي من النساء ﴿ قانتات ﴾ أي مطيعات لأزواجهن ﴿ حافظات للغيب ﴾ أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله . وقوله تعالى : ﴿ بما حفظ الله ﴾ أي المحفوظ من حفظه الله روى ابن جرير بسنده إلى أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٠٦ [خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك] قال : ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ الرجال قوّامون على النساء ﴾ إلى آخرها . وقوله تعالى : ﴿ واللاتي تخافون نشوزهن ﴾ أي والنساء اللاتي تتخوفون أن ينشزن على أزواجهن ، والمرأة الناشزة المترفعة على زوجها ، الناكرة لأمره ، المعرضة عنه المبغضة له ، فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقاب الله في عصيانه ، فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته ، وحرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والإفضال وقد قال رسول الله ﷺ : ٧٠٧ [لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها] وروى االبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : ٧٠٨ [إذ دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه ، لعنتها الملائكة حتى تصبح] ورواه مسلم . ولهذا قال تعالى : ﴿ واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن ﴾

وقوله تعالى : ﴿ واهجروهن في المضاجع ﴾ قال ابن عباس: يعظها فإن هي قبلت، وإلا هجرها في المضجع وعن ابن عباس، الهجر هو: أن لا يجامعها ويضاجعها على فراشها ويوليها ظهره .

وفي السنن والمسند عن معاوية بن حيدة القشيري أنه قال : ٧٠٩ [يا رسول الله ما حق امرأة أحدنا عليه قال : أن تطعمها إذا طعمتَ ، وتكسوها إذا اكتسيتَ ، ولا تضرب الوجه ولا تقبح ، ولا تهجر إلاَّ في البيت] وقوله تعالى : ﴿ واضربوهن ﴾ أي اذا لم يرتدعن بالموعظة ولا بالهجران ، فلكم أن تضربوهن ضرباً غير مبرح .كما ثبت في صحيح مسلم عن جابر عن النبي ﷺ في حجة الوداع : ٧١٠ [واتقوا الله في النساء فانهن عندكم عوان ، ولكم عليهن ان لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فان فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف] قال الفقهاء : الضرب غير المبرح : أن لا يكسر فيها عضواً ولا يؤثر فيها شيئاً .

وقوله تعالى : ﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ﴾ أي إذا أطاعت زوجها في جميع ما يريده منها مما أباحه الله له منها فلا سبيل له عليها بعد ذلك وليس له ضربها ولا هجرانها . وقوله تعالى : ﴿ إن الله كان علياً كبيراً ﴾ أي فإنه تعالى وليهن إذا بغى الرجال على النساء من غير سبب سينتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن .

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً خَبِيراً ۞ (٣٥) ﴾

ذكر حال نشوز الزوجة ، ثم شرع بذكر حال نفور الزوجين فقال تعالى : ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ﴾ أي حكماً ثقة من أهل المرأة وحكماً ثقة من قوم الرجل. ليجتمعا فينظرا في أمرهما، ويفعلا ما في المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق؛ وتشوّف الشارع إلى التوفيق . ولهذا قال تعالى : ﴿ إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ﴾ فينظر الحكمان فإن كان الرجل هو المسيء حجبوا عنه امرأته ، وقصروه

على النفقة ، وان كانت المرأة هي المسيئة قصروها على زوجها ومنعوها النفقة ، فإن اجتمع رأيهما على التفريق أو التجميع، فأمرهما جائز . فإن رأيا أن يجمعا فرضي أحد الزوجين وكره الآخر ، ثم مات أحدهما فإن الذي رضي يرث الذي لم يرض ولا يرث الكاره الراضي رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس . قال عبد الرزاق عن ابن عباس : بعثت أنا ومعاوية حكمين، قال معمر بلغني أن عثمان بعثهما وقال لهما : إن رأيتما أن تجمعا جمعتما وإن رأيتما أن تفرقا ففرقا . وروى عن علي رضي الله عنه بمثله ، وقد أجمع العلماء : على أن الحكمين لهما الجمع والتفرقة حتى قال ابراهيم النخعي : إن شاء الحكمان أن يفرقا بينهما بطلقة أو بطلقتين أو ثلاث فعلا . وهو رواية عن مالك ومن قال بأن الحكمين يحكمان في الجمع لا في التفرقة ومأخذهم قوله تعالى : ﴿ إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ﴾ ولم يذكر التفريق وأما إذا كانا وكيلين من جهة الزوجين فإنه ينفذ حكمهما في الجمع والتفرقة بلا خلاف • وقد اختلف الأئمة في الحكمين ، هل هما منصوبان من جهة الحاكم ، فيحكمان وإن لم يرض الزوجان ؟ أوهما وكيلان من جهة الزوجين ؟ على قولين والجمهور على الأول لقوله تعالى : ﴿ فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ﴾ فسمّاهما حكمين ومن شأن الحكم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه وهذا ظاهر الآية . وقال ابن عبد البر : وأجمع العلماء على أن الحكمين إذا اختلف قولهما فلا عبرة بقول الآخر .

﴿ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَٱلْجَارِ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنْبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً • (٣٦) ﴾

يأمر تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآنات والحالات ، فهو المستحق منهم أن يوحّدوه ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته. كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل : ٧١١ [أتدري ما حق الله على العباد ؟ قال الله ورسوله أعلم ، قال : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » ثم قال « أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم] ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين ، فإن الله سبحانه جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود ، وكثيراً ما يقرن الله بين عبادته

والإحسان إلى الوالدين كقوله : ﴿ أنِ اشكرْ لي ولوالديك ﴾ وكقوله ﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ ثم عطف عليهما الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء كما جاء في الحديث : ٧١٢ [الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة] ثم قال تعالى : ﴿ واليتامى ﴾ وذلك لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم والإنفاق عليهم فأمر الله بالإحسان إليهم والحنو عليهم ثم قال تعالى : ﴿ والمساكين ﴾ وهم المحاويج من ذوي الحاجات الذين لا يجدون من يقوم بكفايتهم ، فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم وتزول به ضرورتهم وسيأتي الكلام على الفقير والمسكين في سورة براءة ــ رقم ٩ ــ وقوله تعالى : ﴿ والجار ذي القربى والجار الجُنُب ﴾ قال ابن عباس : والجار ذي القربى الذي بينك وبينه قرابة ، والجار الجنب الذي ليس بينك وبينه قرابة

• روى الامام أحمد عن عبدالله بن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : ٧١٣ [ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه] أخرجاه في الصحيحين ورواه الترمذي وابو داود . وروى أحمد عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال : ٧١٤ [خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره]

• روى الإمام أحمد عن عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ ٧١٥ [إن لي جارين فإلى أيهما أهدي ؟ قال : « إلى أقربهما منك باباً »] ورواه البخاري .

وقوله تعالى : ﴿ والصاحب بالجُنُب ﴾ وعن علي وابن مسعود أنهما قالا : هي المرأة وقوله تعالى : ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو الذي يمر عليك مجتازاً في السفر وسيأتي الكلام على أبناء السبيل في سورة براءة وبالله الثقة وعليه التكلان .

وقوله تعالى : ﴿ وما ملكت أيمانكم ﴾ وصيةٌ بالأرقاء ، لأن الرقيق ضعيف الحيلة أسير في أيدي الناس وقد ثبت قوله ﷺ في مرض الموت : ٧١٦ [الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم]

وروى مسلم عن عبدالله بن عمرو ٧١٧ [أنه قال لقهرمان له : هل أعطيت الرقيق قوتهم ؟ قال : لا قال : فانطلق فأعطهم ، فإن رسول الله ﷺ قال : « كفى بالمرء إثماً ان يحبس عمن يملك قوتهم »] وقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ﴾ أي مختالاً في نفسه ، معجباً متكبراً فخوراً على الناس ، يرى أنه خير منهم فهو في نفسه كبير وهو عند الله حقير . وروى ابن أبي حاتم عن رجل من بني الهجيم قال: قلت يا رسول الله ، أوصني . قال : ٧١٨ [إياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة] .

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۞ (٣٧) وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ۞ (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ۞ (٣٩) ﴾

يقول تعالى ذاماً الذين يبخلون بأموالهم أن ينفقوها فيما أمرهم الله به من بر الوالدين والإحسان إلى الأقارب واليتامى، والمساكين، والجار ذي القربى، والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم من الأرقاء، ولا يدفعون حق الله فيها، ويأمرون الناس بالبخل أيضاً. وقد قال رسول الله ﷺ ٧١٩ [وأي داء أدوأ من البخل]! وقال ٧٢٠ [إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة، فقطعوا. وأمرهم بالفجور، ففجروا.]

وقوله تعالى: ﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾ فالبخيل جحودٌ لنعمة الله، ولا يظهر عليه في ملبسه أو في مأكله أو في بذله ولهذا توعده بقوله: ﴿وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ والكفر هو الستر، فالبخيل يستر نعمة الله عليه، فهو كافر لنعمة الله عليه، وفي الحديث ٧٢١ [إن الله إذا أنعم نعمةً على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه]. إن سياق الآية البخل بالمال، وإن كان البخل بالعلم داخلاً في ذلك بطريق الأولى فإن السياق في الإنفاق على الأقارب والضعفاء وكذلك الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس﴾ فإنه ذكر الممسكين المذمومين وهم البخلاء، ثم ذكر الباذلين المرائين الذين يقصدون السمعة؛ وأن يمدحوا بالكرم لا لوجه الله. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن عبدالله بن جدعان: هل ينفعه إنفاقه وإعتاقه؟ فقال: لا، انه لم يقل يوماً من الدهر رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين ولهذا قال تعالى: ﴿ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر﴾ الآية؛ أي إنما حملهم على صنيعهم هذا القبيح، وعدو لهم عن فعل الطاعات على وجهها، الشيطان، فإنه سوّل لهم وأملى لهم. وقارنهم فحسّن لهم القبائح. ولهذا قال

تعالى : ﴿ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً﴾ ثم قال تعالى : ﴿وماذا عليهم لوآمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله﴾ الآية أي وأي شيء يضرهم لو آمنوا بالله وسلكوا الطريق الحميدة ، وعدلوا عن الرياء إلى الإخلاص،والإيمان بالله رجاء موعوده في الدار الآخرة لمن يحسن عمله ، وأنفقوا مما رزقهم الله في الوجوه التي يحبها الله ويرضاها؟ وقوله تعالى : ﴿وكان الله بهم عليما﴾ أي وهو عليم بنياتهم الصالحة والفاسدة ، وبمن يستحق التوفيق فيوفقه ويلهمه رشده،فيعمل صالحاً يرضاه ، وبمن يستحق الخذلان والطرد عن جنابه الأعظم، فيخسر الدنيا والآخرة نعوذ بالله من ذلك .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ۞ (٤٠) فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيداً ۞ (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثاً ۞ (٤٢)﴾

يخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً يوم القيامة مثقال حبة خردل ولا مثقال ذرة،بل يوفيها له ويضاعفها له إن كانت حسنة ، كما قال تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط﴾ وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل وفيه : ٧٢٢ [فيقول الله عز وجل ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار وفي لفظ أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقول أبو سعيد : إقرأوا إن شئتم ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾] وقوله تعالى : ﴿وان تك حسنةً يضاعفها ويؤت من لدنه اجراً عظيماً﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي عثمان قال: قلت : ٧٢٣ [يا أبا هريرة سمعت إخواني بالبصرة يزعمون أنك تقول : سمعت رسول ﷺ يقول « إن الله يجزي بالحسنة ألف ألف حسنة » فقال أبو هريرة : والله بل سمعت نبي الله ﷺ يقول : « ان الله يجزي بالحسنة ألفي ألف حسنة » ثم تلا هذه الآية : ﴿فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾.] وقوله تعالى : ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وشدة أمره وشأنه فكيف يكون الأمر يوم القيامة حين يجيء من كل أمة بشهيد ، يعني الأنبياء عليهم الصلاة

والسلام كما قال تعالى : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ﴾ الآية .

روى البخاري عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٢٤ [« إقرأ عليّ » فقلت يا رسول الله أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال « نعم إني أحب أن أسمعه من غيري » فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ فقال : « حسبك الآن » فإذا عيناه تذرفان] ورواه هو ومسلم من حديث الأعمش به .

روى ابن جرير عن عبدالله بن مسعود في هذه الآية قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٢٥ [شهيد عليهم ما دمت فيهم فإذا توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم] وقوله تعالى : ﴿ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ أي لو انشقت وبلعتهم مما يرون من أهوال الموقف وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ وقوله تعالى : ﴿ ولا يكتمون الله حديثا ﴾ إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ولا يكتمون منه شيئاً . وقال ابن جرير عن سعيد بن جبير ، قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال له : سمعت الله عز وجل يقول ـ يعني إخباراً عن المشركين يوم القيامة أنهم قالوا ـ ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ وقال في الآية الأخرى : ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ فقال ابن عباس : أما قوله : ﴿ والله ربّنا ما كنا مشركين ﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الاسلام ، قالوا تعالوا فلنجحد ، فقالوا : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ . فذلك قوله : ﴿ يود الذين كفروا وعصوا ... ﴾ الآية ...

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ۞ (٤٣) ﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السكر، الذي لا يدري معه المصلي ما يقول ، وعن قربان محالها التي هي المساجد للجنب، إلا أن يكون مجتازاً من باب إلى باب من غير مكث ؛ وقد كان هذا قبل تحريم الخمر ، كما دل عليه الحديث الـذي ذكرناه في سورة البقرة عند قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ﴾ الآية . [1] فإن رسول الله ﷺ تلاها على عمر فقال : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً فلما نزلت هذه الآية تلاها عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً . فكانوا لا يشربون الخمر في أوقات الصلوات حتى نزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ فقال عمر : انتهينا انتهينا . وفي رواية اسرائيل عن عمر بن الخطاب في قصة تحريم الخمر فذكر الحديث وفيه : فنزلت الآية التي في النساء ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ فكان منادي رسول الله ﷺ إذا قامت الصلاة ينادي ٧٢٦ [إن لا يقربنّ الصلاة سكران] . لفظ أبي داود

وذكر ابن أبي شيبة في سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن أبي حاتم عن مصعب بن سعد يحدث عن سعد قال : ٧٢٧ [نزلت في أربع آيات ، صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعا أناساً من المهاجرين ، وأناساً من الأنصار ، فأكلنا وشربنا حتى سكرنا ، ثم افتخرنا فرفع رجل لحي بعير فغرز بها أنف سعد فكان سعد مغروز الأنف وذلك قبل تحريم الخمر فنزلت : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾] الآية الحديث بطوله عند مسلم ورواه أهل السنن إلا ابن ماجه

روى ابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال : ٧٢٨ [صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر ، فأخذت الخمرة منا ، وحضرت الصلاة فقدموا فلانا قال فقرأ : قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون ؛ فأنزل الله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾] وكـذا رواه الترمذي وقال حسن صحيح وفي رواية ابن جرير أن القارىء كان عبد الرحمن بن عوف وفي رواية أخرى له أنه كان علي بن أبي طالب والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ حتى تعلموا ما تقولون ﴾ هذا أحسن ما يقال في حد السكران أنه الذي لا يدري ما يقول ، فإن المخمور فيه تخليط في القراءة وعدم تدبّره وخشوعه فيها .

---

(١) (٢١٩) الآية رقم البقرة والحديث في الصفحة ذاتها : (ان لا يقربن الصلاة سكران)

روى الامام أحمد عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٢٩ [إذا نعس أحدكم وهو يصلي فلينصرف وليم حتى يعلم ما يقول] انفرد بأخرجاه البخاري دون مسلم ورواه النسائي وفي بعض الفاظه ٧٣٠ [فلعله يذهب يستغفر فيسب نفسه] وقوله تعالى : ﴿ ولا جنباً إلاّ عابري سبيل حتى تغتسلوا ﴾ أي لا تدخلوا المسجد وانتم جنب إلاّ عابري سبيل ، تمرّ به مراً ولا تجلس . قاله ابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين وقد ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ : ٧٣١ [ناوليني الخمرة من المسجد فقلت : إني حائض فقال : إنَّ حيضتك ليست في يدك] وله عن أبي هريرة مثله وفيه دلالة على جواز مرور الحائض في المسجد والنفساء في معناها ، والله أعلم . وقال بعضهم يجوز مرور الحائض إذا امِنَتْ التلويثَ حال المرور ، وإلاّ فلا . واحتج أكثر الأئمة من هذه الآية على حرمة المكث في المسجد للجنب حديث آخر في معنى الآية قال ابن أبي حاتم عن علي ﴿ ولا جنباً إلاّ عابري سبيل ﴾ قال : لا يقرب الصلاة ، إلا أن يكون مسافراً تصيبه الجنابة فلا يجد الماء فيصلي حتى يجد الماء .

ويستشهد لهذا القول بالحديث الذي رواه أحمد وأهل السنن عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٣٢ [الصعيد الطيب طهور المسلم وإن لم تجد الماء عشر حجج فإذا وجدتَ الماء فأمسه بشرتك فإن ذلك خير لك] وقال ابن جرير بعد حكايته القولين : والأولى قول من قال : ﴿ ولا جنباً إلا عابري سبيل ﴾ أي إلاَّ عابري طريق فيه [1] ، وذلك انه قد بين حكم المسافر إذا عدم الماء وهو جنب ، في قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر ﴾ إلى آخره فكان معلوماً بذلك إن قوله تعالى : ﴿ ولا جنباً إلاَّ عابري سبيل حتى تغتسلوا ﴾ لو كان معنياً به المسافر ، لم يكن لإعادة ذكره في قوله تعالى : ﴿ وان كنتم مرضى أو على سفر ﴾ معنى مفهوم وقد مضى حكم ذكره قبل ذلك ، وهذا الذي نصره هو قول الجمهور وهو الظاهر من الآية . والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ حتى تغتسلوا ﴾ دليل لما ذهب إليه أبو حنيفة ومالك والشافعي أنه يحرم على الجنب المكثَ في المسجد حتى يغتسل أو يتيمّم إن عدم الماء ، أو لم يقدر على استعماله . وذهب الإمام أحمد إلى أنه متى توضأ الجنب جاز له المكث في المسجد لما روى هو وسعيد بن منصور في سننه بسند صحيح ، أن الصحابة كانوا يفعلون ذلك ، روى سعيد بن منصور عن عطاء بن يسار قال : ٧٣٣ [رأيت رجالاً من الصحابة أصحاب

---

(١) أي في المسجد .

رسول الله ﷺ يجلسون في المسجد وهم مجنبون ، إذا توضأوا وضوء الصلاة] وهــذا إسناد صحيح على شرط مسلم والله أعلم .

وقوله تعالى ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لا مستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمّموا صعيداً طيباً ﴾ أما المرض المبيح للتيمم ، فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء فوات عضو أو شينهُ أو تطويل البُرء ومن العلماء من جوّز التيمم بمجرد المرض لعموم الآية . والسفر معروف ، ولا فرق فيه بين الطويل والقصير . وقوله تعالى: ﴿ أو جاء أحد منكم من الغائط ﴾ هو الحدث الأصغر ، وأما قوله : ﴿ أو لامستم النساء ﴾ فقرىء لمستم ولامستم ، واختلف المفسرون والأئمة في معنى ذلك على قولين : (أحدهما) أن ذلك كنايةً عن الجماع لقوله تعالى : ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسّوهن وقد فرضتم لهن فريضةً فنصف ما فرضتم ﴾ وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتــم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فمالكم عليهن من عدة تعتدونها ﴾ روى ابن أبي حاتم [عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ أو لامستم النساء ﴾ قال:الجمـــاع.وروى علي وأبيّ بن كعب وجماعة من التابعين نحو ذلك وروى ابن جرير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس إن اللمس والمس والمباشرة : الجماع ، ولكن الله يكني ما شاء بما شاء . (والثاني) وقال آخرون عنى الله تعالى بذلك كلّ لمسٍ بيد أو بغيرها من أعضاء الإنسان وأوجب الوضوء على كل من مسَّ بشيء من جسده شيئاً من جسدها مفضياً إليه وعن عبدالله مسعود قال : اللمس ما دون الجماع وعنه أيضاً قال : القبلة من المس وفيها الوضوء وكان يقول : [﴿ أو لامستم النساء ﴾ هو الغمز وعن ابن عمر أنه كان يتوضأ من قبلة المرأة وروي كذلك عن ابن عمر وغيره وأبي عثمان النهدي ، وأبي عبيدة يعني ابن عبدالله بن مسعود وغيرهم من التابعين . وروي عن عمر بن الخطاب نحو ذلك (قلت) ولكن روينا عنه من وجه آخر أنه كان يقبل امرأته ثم يصلي ولا يتوضأ فالرواية عنه مختلفة والقول بالوضوء من المس هو قول الشافعي واصحابه ومالك والمشهور عن أحمد بن حنبل . قال ناصروه : قد قريء في هذه الآية : لامستم ولمستم واللمس يطلق على الجس باليد قال تعالى : ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم ﴾ أي جسوه وفي الحديث الصحيح : ٧٣٤ [واليد زناها اللمس] وثبت في الصحيحين : ٧٣٥ [ان رسول الله ﷺ نهى عن بيع الملامسة] [1]

---

(١) قلت : لا خلاف في أن من معاني اللمس،الجس باليد ؛ ولكن هل هو مقتصر على ذلك فقط ؟ الجواب : لا ... فتارة يعني الجس باليد أو بغيرها وتارة يعني الجماع ... فإذا كان يعني مرة الجس باليد فليس معناه أنه لا يعني شيئاً آخر محتملا أن يكون، بل هو قد يعني شيئاً آخر يوجبه السباق والسياق. فقوله تعالى: ــ

واستأنسوا أيضاً بالحديث الذي رواه أحمد عن معاذ ـ ومفاده ـ ٧٣٦ [ان رجلاً أصاب امرأة فعل معها كل شيء إلا الجماع فسأل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال رسول الله ﷺ توضأ ثم صل" قال معاذ فقلت يا رسول الله : ألـهُ خاصة أم للمؤمنين عامة فقال : بل للمؤمنين عامة] ورواه الترمذي وقال ليس بمتصل ورواه النسائي عن عبد الرحمن بن أبي ليلى مرسلاً" فقالوا : فأمره بالوضوء لأنه لمس المرأة ولم يجامعها وأجيب بأنه منقطع بين ابن أبي ليلى ومعاذ ثم يحتمل أنه انما أمره بالوضوء والصلاة المكتوبة كما تقدم في حديث الصديق ٧٣٧ [ما من عبد يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر الله له] ثم قال ابن جرير : وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال : عنى الله بقوله تعالى : « أو لامستم النساء » الجماع دون غيره من معاني اللمس لصحة الخبر عن رسول الله ﷺ انه قَبَّل بعض نسائه ثم صلى ولم يتوضأ ثم قال عن عروة عن عائشة قالت : ٧٣٨ [كان رسول الله ﷺ يتوضأ ثم يقبل ثم يصلي ولا يتوضأ] ثم روى ابن جرير عن حبيب عن عروة عن عائشة ٧٣٩ [إن رسول الله ﷺ قبّل بعض نسائه ولم يتوضأ قلت : من هي إلا أنت فضحكت] وهكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن جماعة من مشايخهم وقد ضعفه بعض أهل الحديث فقال من قال أن حبيباً لم يسمع من عروة وقال آخرون أن حبيباً ما حدثنا إلا عن عروة المزني وأبلغ من ذلك : ما رواه الامام أحمد من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة وهذا نص في كونه عروة بن الزبير ويشهد له قوله : من هي إلا أنت فضحكت ... ثم روى ابن جرير عن أم سلمة ٧٤٠ [أن رسول الله ﷺ كان يقبلها وهو صائم ثم لا يفطر ولا يحدث وضوءً] ثم روى أيضاً عن زينب الأسهمية عن عائشة عن النبي ﷺ ٧٤١ [انه كان يقبل ثم يصلي ولا يتوضأ] وقد رواه الإمام أحمد عن زينب الأسهمية عن عائشة عن النبي ﷺ به .

وقوله تعالى : ﴿ فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً ﴾ فالتيمم في اللغة هو القصد والصعيد قيل هو كل ما صعد على وجه الأرض فيدخل فيه التراب والرمل والشجر والحجر والنبات وهو قول مالك وقيل ما كان من جنس التراب كالرمل والزرنيخ والنورة وهذا مذهب أبي حنيفة وقيل هو التراب فقط وهو قول الشافعي وأحمد وأصحابهما ، واحتجوا

= أو لا مستم النساء » فقد يعني الجس باليد ويعني الجماع فمن أجل تحديد المعنى نرجع إلى فهم من نزلت عليه هذه الآية صلى الله عليه وسلم وكيف طبقها ؟ فمن تحرى معاني هذه الآية يجد أن القرآن عنى باللمس الجماع وكذلك فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل عائشة وما توضأ كما ثبت ذلك عنه عليه الصلاة والسلام . وقال الشافعي : إذا صح هذا الحديث فأنا أقول به . وقد صح ...

بقوله تعالى : ﴿ فتصبح صعيداً زلقاً ﴾ أي تراباً أملس طيباً ، وبما ثبت في صحيح مسلم عن حذيفة بن اليمان: قال قال رسول الله ﷺ ٧٤٢ [فُضّلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً ، وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء] قالوا فخصص الطهورية بالتراب في مقام الأمتنان ، فلو كان غيره يقوم مقامه لذكره معه . والطيب ههنا قيل الحلال ، وقيل الذي ليس بنجس ، كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن إلاّ ابن ماجة من حديث أبي قلابة عن عمرو بن نجدان عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ : ٧٤٣ [الصعيد الطيب طهور المسلم إن لم يجد الماء عشرَ حجج فإذا وجده فليمسه بشرته فإن ذلك خير له] وقال ابن عباس : [أطيب الصعيد تراب الحرث] ورفعه ابن مردويه في تفسيره .

وقوله تعالى : ﴿ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ﴾ التيمم بدل الوضوء في التطهير به ، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه ، بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع ، ولكن اختلف الأئمة في كيفية التيمم على أقوال : فمنهم من قال : أن يمسح الوجه واليدين إلى المرفقين بضربتين. والقول الثاني: أن يمسح الوجه واليدين إلى الكفين بضربتين. والقول الثالث أن يمسح الوجه والكفين بضربة واحدة وهذا هو الأصح لحديث عمار فقد روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه ٧٤٤ [أن رجلاً أتى عمر ، فقال : إني أجنبت فلم أجد ماءً فقال عمر : لا تصلِّ ، قال عمار : أما تذكر يا أمير المؤمنين إذ أنا وأنت في سرية فأجنبنا فلم نجد ماءً فأما أنت فلم تصلِّ وأما أنا فتمعكت في التراب فصليت ، فلما أتينا النبي ﷺ ذكرت ذلك له فقال « إنما كان يكفيك ، وضرب النبي ﷺ بيده الأرض ثم نفخ فيها ومسح بها وجهه وكفيه »] روى أحمد عن عمار ، [ان رسول الله ﷺ ٧٤٥ قال في التيمم « ضربة للوجه والكفين »]

وقد خص الله تعالى أمة عبده ورسوله محمد ﷺ بمشروعية التيمم دون سائر الأمم كما ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ ٧٤٦ [أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي ، : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعِلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيّما رجل من أمّتي أدركته الصلاة فليصلِ » وفي لفظٍ : « فعنده مسجده وطهوره »] ثم ذكر بقية الحديث ... وقال تعالى في هذه الآية الكريمة : ﴿ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ان الله كان عفواً غفوراً ﴾ أي ومن عفوه عنكم وغفرانه لكم ، أن شرع لكم التيمم ، وأباح لكم فعل الصلاة به ، إذا فقدتم الماء ، توسعة عليكم ورخصة لكم . وفي هذه الآية تنزيه الصلاة ، أن تفعل على هيئة ناقصة ، من سكر حتى

يصحو المكلف ويعقل ما يقول ، أو جنابة حتى يغتسل ، أو حدث حتى يتوضأ إلا أن يكون مريضاً أو عادماً للماء فأنه تعالى قد أرخص في التيمم رحمة ورأفة وتوسعة .

سبب مشروعية التيمم :

روى البخاري عن عائشة ، قالت : ٧٤٧ [خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش ، انقطع عقد لي ، فأقام رسول الله ﷺ على التماسه ، وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فأتى الناس إلى أبي بكر فقالوا : ألا ترى ما صنعت عائشة ، أقامت برسول الله ﷺ وبالناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضع رأسه على فخذي قد نام ، فقال حبست رسول الله ﷺ والناس وليسوا على ماء ؟وليس معهم ماء ؟قالت عائشة : فعاتبني أبو بكر ، وقال ما شاء الله أن يقول وجعل يطعن بيده في خاصرتي ولا يمنعني من التحرك إلاّ مكان رأس رسول الله ﷺ على فخذي فقام رسول الله ﷺ على غير ماء حين أصبح ، فأنزل الله آية التيمم ، فتيمّموا فقال أسيد بن حضير : ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر ؛ قالت: فبعثنا البعير الذي كنت عليه فوجدنا العقد تحته]وقد رواه البخاري أيضاً عن قتيبة ، ورواه مسلم عن يحيى بن يحيى .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبـاً مِنَ ٱلْكِتَابِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا ٱلسَّبِيلَ ۞ (٤٤) وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيراً ۞ (٤٥) مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِنْ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً ۞ (٤٦) ﴾

يخبر تعالى عن اليهود ــ عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ــ أنهم يشترون الضلالة بالهدى ، ويعرضون عما أنزل الله على رسوله ﷺ ، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد ﷺ ليشتروا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا ﴿ ويريدون أن

تضلوا السبيل ﴾ أي يودون لو تكفرون وتتركون ما أنتم عليه من الهدى ﴿ والله أعلم بأعدائكم ﴾ أي هو أعلم بهم ويحذركم منهم، ﴿ وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيرا ﴾ أي ولياً لمن لجأ اليه ونصيراً لمن استنصره. ثم قال تعالى ﴿ من الذين هادوا ﴾ من هنا لبيان الجنس كقوله تعالى: ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ وقوله تعالى: ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ أي يتأولونه على غير تأويله ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل ﴿ ويقولون سمعنا ﴾ أي سمعنا ما قلته يا محمد ولا نطيعك فيه، وهذا أشد في الكفر والعناد ويصدون عن كتاب الله بعدما عقلوه وهم يعلمون ما عليهم في ذلك من العقوبة وقولهم: ﴿ واسمع غير مسمع ﴾ أي أسمع ما نقول لا سمعت. وهذا استهزاء منهم واستهتار عليهم لعنة الله. ﴿ وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ﴾ أي يوهمون أنهم يقولون راعنا سمعك، وانما يريدون الرعونة بسبهم النبي، وقد تقدم الكلام على هذا عند قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا ﴾ ولهذا قال تعالى عن هؤلاء اليهود: أنهم يريدون بكلامهم خلاف ما يظهرونه لياً بألسنتهم وطعناً في الدين، يعني بسبهم النبي ﷺ. ثم قال تعالى: ﴿ ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ أي قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة عنه، فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم. وقد تقدم الكلام على قوله تعالى: ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾ المقصود أنهم لا يؤمنون إيماناً نافعاً.

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ ٱلسَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ۞ (٤٧) إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ ٱفْتَرَى إِثْماً عَظِيماً ۞ (٤٨) ﴾

يأمر تعالى أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على رسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم الذي فيه تصديق الاخبار التي بأيديهم من البشارات. ومتهدداً لهم إن لم يفعلوا بقوله تعالى: ﴿ من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها ﴾ قال بعضهم: معناه أن نطمس وجوها

فطمسها هو ردّها إلى الأدبار وجعلُ أبصارِهم من ورائهم . فيمشون القهقرى وهذا أبلغ في العقوبة . وهذا مثل ضربه الله تعالى لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ورجوعهم عن المحجة البيضاء إلى سبيل الضلالة يهرعون ويمشون القهقرى على أدبارهم .

وقد ذكر أن كعب الأحبار أسلم حين سمع هذه الآية فقد روى ابن جرير عن عيسى بن المغيرة قال تذاكرنا عند ابراهيم إسلام كعب ، فقال أسلم كعب زمان عمر أقبل وهو يريد بيت المقدس فمر على المدينة ، فخرج إليه عمر فقال : يا كعب أسلم . فقال : ألستم تقولون في كتابكم : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفاراً ﴾ وأنا قد حملت التوراة ، قال: فتركه عمر ثم خرج حتى انتهى إلى حمص ، فسمع رجلاً من أهلها حزيناً وهو يقول: ﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها ﴾ الآية قال كعب : يا رب أسلمت. مخافة أن تصيبه هذه الآية ثم رجع فأتى أهله في اليمن ثم جاء بهم مسلمين ، وكذا رواه ابن أبي حاتم بلفظ آخر من وجه آخر ... وقوله تعالى : ﴿ أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت ﴾ يعني الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد وقد مسخوا قردةً وخنازير [1] وسيأتي بسط قصتهم في سورة الاعراف إن شاء الله . وقوله تعالى : ﴿ وكان أمر الله مفعولا ﴾ أي إذا أمر بأمر فانه لا يخالف ولا يمانع . ثم أخبر تعالى أنه لا يغفر أن يشرك به أي لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ، ويغفر ما دون ذلك أي من الذنوب لمن يشاء من عباده ، وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة نذكر ما تيسر منها :

الحديث الاول : روى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن أنس بن مالك ، عن النبي ﷺ : ٧٤٨ [الظلم ثلاثة : فظلم لا يغفره الله ، وظلم يغفره الله ، وظلم لا يترك الله منه شيئاً،فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك ، وقال ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ واما الظلم الذي يغفره الله فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم؛وأما الظلم الذي لا يتركه فظلم العباد بعضهم بعضاً حتى يدين لبعض من بعض .]

الثاني – : روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : ٧٤٩ [إن رسول الله ﷺ قال : « ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك ، إلاّ دخل الجنة قلت وإن زنى وإن سرق قال « وإن زنى وإن سرق » قلت : وإن زنى وإن سرق ، قال : « وإن زنى وإن سرق » ثلاثاً ثم قال في الرابعة : « على رغم أنف أبي ذر » قال فخرج أبو ذر وهو يجر إزاره وهو

(١) راجع سورة البقرة الآية ٦٥ و ٦٦ . من هذا المختصر ، وراجع سورة الأعراف الآية : ١٦٦ واقرأ التعليق

يقول : وإن رغم أنف أبي ذر وكان أبو ذر يحدث بهذا بعدُ ويقول : وإن رغم أنف أبي ذر .] أخرجاه من حديث حسين به .

الثالث ـ : وروى الحافظ أبو يعلى في مسنده عن جابر : ٧٥٠ [أن النبي ﷺ قال : « لا تزال المغفرة على العبد ما لم يقع الحجاب » قيل : يا نبيّ الله ، وما الحجاب ؟ قال : « الإشراك بالله ما من نفس تلقى الله لا تشرك به شيئاً إلاّ حلّت لها المغفرة من الله تعالى ، إن شاء أن يعذبها وان شاء أن يغفر لها » ثم قرأ نبيُّ الله : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾]

الرابع ـ : روى الطبراني عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : ٧٥١ [قال الله عز وجل : من علم أني ذوقدرة على مغفرة الذنوب ، غفرت له ولا أبالي ما لم يشرك بي شيئا]

وعن ابن عمر قال : كنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر حتى سمعنا نبينا ﷺ يقرأ ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وقال ﷺ : ٧٥٢ [أخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة] وإن المغفرة مشروطة بالتوبة فمن تاب من أي ذنب وإن تكرر منه تاب الله عليه ولهذا قال تعالى : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ أي بشرط التوبة (١) وقوله تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيماً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ وثبت في الصحيحين عن ابن مسعود انه قال : ٧٥٣ [قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : « ان تجعل لله نداً وهو خلقك »] وذكر تمام الحديث وروى ابن مردويه عن عمران بن حصين : ٧٥٤ [أن رسول الله ﷺ قال : « أخبركم بأكبر الكبائر ، الإشراك بالله » ثم قرأ : ﴿ ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾ « وعقوق الوالدين » ثم قرأ : ﴿ أنِ اشكر لي ولوالديك إليّ المصير ﴾]

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ۞ (٤٩) ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ

---

(١) قلت : حتى أن الشرك نفسه يغفره الله إذا تاب صاحبه منه في الحياة ولكن الذي لا يغفره الله أبداً هو الشرك الذي مات عليه صاحبه وسيخلد في جهنم أبداً لا يخفف عنه العذاب كلما نضج جلده بدله الله جلداً غيره ليذوق العذاب .

ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْماً مُبِيناً ❁ (٥٠) أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ ٱلْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَٱلطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلاً ❁ (٥١) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ❁ (٥٢)

قال الحسن وقتادة نزلت هذه الآية وهي قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين يزكّون أنفسهم ﴾ في اليهود والنصارى حين قالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه وفي قولهم : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى . على أنها وإن كانت قد نزلت بخصوص اليهود والنصارى إنما هي أيضاً عامة في كل من يمتدح أو يزكي نفسه أو غيره وهي . في ذم التمادح والتزكية ففي صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال : ٧٥٥ [أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المداحين التراب] وفي الصحيحين عن أبي بكرة : ٧٥٦ [أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يثني على رجل فقال : « ويحك قطعت عنق صاحبك » ثم قال : « إن كان أحدكم مادحاً صاحبه لا محالة ، فليقل أحسبه كذا ولا يزكي على الله أحدا »]

روى الإمام أحمد عن معبد الجهني قال : كان معاوية قلما كان يحدّث عن النبي ﷺ قال وكان قلما يكاد أن يدع يوم الجمعة هؤلاء الكلمات أن يحدّث بهن عن النبي ﷺ يقول ٧٥٧ [من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإن هذا المال حلو خضر . فمن يأخذه بحقه يبارك له فيه ؛ وإياكم والتمادح فإنه الذبح] وسيأتي الكلام على ذم التمادح والتزكية عند قوله تعالى : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ (١) ولهذا قال تعالى : ﴿ بل الله يزكي من يشاء ﴾ أي المرجع في ذلك إلى الله عز وجل لأنه أعلم بحقائق الأمور وغوامضها ثم قال تعالى : ﴿ ولا يظلمون فتيلاً ﴾ ولو بمقدار فتيل وهو ما يكون في شق النواة أو ما فتلت بين أصابعك وقوله تعالى : ﴿ انظر كيف يفترون على الله الكذب ﴾ أي في تزكية اليهود والنصارى أنفسهم ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه وقولهم ﴿ لن يدخل الجنة الا من كان هوداً أو نصارى » وقولهم : ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ﴾ واتكالهم على اعمال آبائهم الصالحة ، وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزي عن الأبناء شيئاً في قوله تعالى : ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ﴾ الآية ثم قال تعالى : ﴿ وكفى

(١) راجع سورة النجم آية رقم /٣٢/ .

به إثماً مبيناً ﴾ أي وكفى بصنيعهم هذا كذباً وافتراءً ظاهراً . وقوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ أما الجبت : فكلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك.وفي الحديث : ٧٥٨ [الطيرة والعيافة والطرق من الجبت] ورواه الإمام أحمد في مسنده عن قبيصة بن مخارق إنه سمع النبي ﷺ قال:٧٥٩ [إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت] وقال عوف : العيافة : زجر الطير ، والطرق : الخط يخط في الأرض [١] أما الطاغوت فقد تكلمنا عنه في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته وذلك عند قوله تعالى ﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ [٢] روى ابن أبي حاتم عن أبي الزبير انه سمع جابر بن عبدالله انه سئل عن الطواغيت فقال هم كهان تنزل عليهم الشياطين وقال الإمام مالك : هو كل ما يعبد من دون الله عز وجل وقوله تعالى : ﴿ ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴾ أي يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم ، وقلة دينهم ، وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم.روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : لما قدم كعب بن الاشرف مكة قالت قريش : ألا ترى هذا الصنبور المنبتر من قومه؟يزعم أنه خير منا...! ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية قال:أنتم خير.قال:فنزلت : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ ونزلت ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ــ إلى ــ نصيراً ﴾ . وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة ، لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين ، وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم وقد أجابوهم وجاءوا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق ، فكفى الله شرهم ﴿ وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾

﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذاً لَا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيراً ۞ (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً ۞ (٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً ۞ (٥٥) ﴾

---

(١) ولعله الذي نسميه (المندل) الرملي في زماننا هذا وهو علم خبيث كاذب يزعم أصحابه أنهم يستكشفون به المغيبات . وهم أكذب الناس وأجهلهم .

(٢) الآية رقم /٢٥٦/ و /٢٥٧/ من سورة البقرة المجلد الأول من هذا المختصر .

يقول تعالى : ﴿ أم لهم نصيب من الملك ﴾ وهذا استفهام إنكارى ، أي ليس لهم نصيب من الملك ثم وصفهم بالبخل فقال : ﴿ فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً ﴾ أي لأنهم لو كان لهم نصيب في الملك والتصرف ، لما أعطوا أحداً من الناس ولا سيما محمداً ﷺ شيئاً ولا ما يملأ النقير ، وهو النقطة التي في النواة في قول ابن عباس والأكثرين . ثم قال تعالى : ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ يعني بذلك حسدهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوّة العظيمة ، ومنعهم من تصديقهم إياه حسدهم له لكونه من العرب وليس من بني إسرائيل . قال ابن عباس : نحن الناس دون الناس [1] قال الله تعالى : ﴿ فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً ﴾ أي فقد جعلنا في بني إسرائيل الذين هم من ذرية إبراهيم النبوّة ، وأنزلنا عليهم الكتب وحكموا فيهم بالسنن وهي الحكمة ، وجعلنا منهم الملوك . ومع كل هذا فمنهم من آمن ومنهم من كفر وأعرض وصد الناس عن الإيمان بأنبيائهم وهم من جنسهم فكيف بك يا محمد ولست من بني اسرائيل ؟ ﴿ وكفى بجهنم سعيراً ﴾ أي وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ، ومخالفتهم كتب الله ورسله

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً ۞ (٥٦) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلّاً ظَلِيلاً ۞ (٥٧) ﴾

يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته وصدّ عن رسله فقال : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا ﴾ الآية أي ندخلهم ناراً دخولاً يحيط بكل ذرة من أجسامهم مع دوام العقوبة والنكال فقال : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ﴾ قال الأعمش عن ابن عمر : إذا احترقت جلودهم بُدّلوا جلوداً غيرها بيضاً أمثال القراطيس

---

(١) أي المقصود بالناس في هذه الآية هم العرب من دون الناس فإن اليهود كانوا يظنون أن النبي الذي سيأتي هو منهم فلما أتى من العرب ، حسدوهم على هذه النعمة العظمى . اللهم أوزعنا أن نشكر نعمتك التي أنعمت علينا بهذا النبي الكريم، ونتمسك بهداه ، والحمد لك أولا وآخراً .

رواه ابن أبي حاتم ٧٦٠ [وقرأ رجل عند عمر هذه الآية فقال عمر : أَعِدْها عَليَّ، فأعادها فقال معاذ بن جبل : عندي تفسيرها: تبدَّلُ في ساعة مأة مرة.فقال عمر : هكذا سمعت رسول الله ﷺ .] وقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهارخالدين فيها أبداً﴾ هذا إخبارعن مآل السعداءفي جنات عدنالتي تجري من تحتها الأنهار في جميع فجاجها، خالدون فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون، ولا يبغون عنها حولاً . وقوله تعالى : ﴿لهم فيها أزواج مطهرة ﴾ أي من الحيض والنفاس ، والأذى والأخلاق الرذيلة ، والصفات الناقصة . وقوله تعالى : ﴿وندخلهم ظلاً ظليلاً ﴾ أي ظلاً عميقاً غزيراً طيباً أنيقاً . روى ابن جرير عن شعبة ، قال سمعت الضحاك يحدث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال : ٧٦١ [إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائةعام لا يقطعها ــ شجرة الخلد]

نصف الحزب

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا ٱلْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ۞ (٥٨) ﴾

يأمر تعالى بأداء الأمانات إلى أهلها وفي حديث الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال : ٧٦٢ [أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك] رواه الإمام أحمد وأهل السنن وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله عز وجل على عباده كالصلاة والزكاة والصيام ، والكفارات والنذور،وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه،لا يطلع عليه العباد ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك،مما يأتمنون به من غير اطلاع بينة على ذلك ، فأمَرَ الله تعالى بأدائها ، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه يوم القيامة ، كما ثبت في الصحيح ٧٦٣ [أن رسول الله ﷺ قال : [لتؤدنَّ الحقوق إلى أهلها حتى يقتص للشاة الجماء من القرناء] وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبي طلحة حاجب الكعبة المشرفة وسبب نزولها فيه لما أخذ رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة يوم الفتح ثم رده عليه قال ابن اسحق : فحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة ، فقال : ٧٦٤ [لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدَّعَى فهو تحت قدميَّ هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج » وذكر بقية

الحديث في خطبة النبي ﷺ يومئذ إلى أن قال : ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد ، فقام إليه علي ابن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده فقال يا رسول الله ، أجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك ، فقال رسول الله ﷺ « أين عثمان بن طلحة ؟ » فدُعِيَ لــه فقال له : « هاكَ مفتاحك يا عثمان اليوم يوم وفاء وبر »] إن هذه الآية وإن كانت قــد نزلت في رد مفتاح الكعبة لأنه كان أمانة سلمه عثمان بن طلحة لرسول الله ﷺ ، ثم ردّه إليه كما في الحديث آنفاً ، فحكمها أي حكم هذه الآية عام في كل أمانة يأتمنهـا الإنسان . ولهذا قال ابن عباس : هي للبر والفاجر ، أي هي أمر لكل أحد بردّ الأمانات إلى أهلها .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس ؛ وفي الحديث ٧٦٥ [ان الله مع الحاكم ما لم يجُرْ فإذا جار وكله إلى نفسه.] وقوله تعالى : ﴿ إنّ الله نعمّا يعظكم به ﴾ أي يأمركم به من أداء الأمانات والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة . وقوله تعالى : ﴿ إن الله كان سميعاً بصيراً ﴾ أي سميعاً لأقوالكم ، بصيراً بأفعالكم . روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة يقرأ هذه الآية: ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ إن الله نِعِمّا يعظكم به إنّ الله كان سميعاً بصيراً ﴾ ويضع إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه ويقول ٧٦٦ [هكذا سمعت رسول الله ﷺ يقرأها ويضع أصبعيه.] رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه ، وابن مردويه في تفسيره . وأبو يونس هذا مولى أبي هريرة واسمه سليم بن جبير .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ وَأُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۞ (٥٩) ﴾

روى البخاري عن ابن عباس ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ قال : ٧٦٧ [نزلت في عبدالله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية ...] وهكذا أخرجه بقية الجماعة إلا ابن ماجة وروى الامام أحمد عن علي قال : ٧٦٨ [بعث رسول الله ﷺ سريةً واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار ، فلما خرجوا

وجد عليهم في شيء ، قال : فقال لهم : أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني ؟ قالوا بلى . قال فاجمعوا لي حطباً ، ثم دعا بنار فأضرمها فيه ، ثم قال : عزمت عليكم لتدخلنها ، قال : فقال لهم شاب منهم إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار ، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ،فإن أمركم أن تدخلوها،فادخلوها.قال فرجعوا إلى رسول الله ﷺ،فأخبروه.فقال لهم : « لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً إنما الطاعة في المعروف »] أخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش به وروى ابو داود عن عبدالله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال : ٧٦٩ [السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ، مالم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة] أخرجاه

وروى البخاري عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : ٧٧٠ [إسمعوا وأطيعوا وإن أمّر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة] . روى ابن جرير عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ٧٧١ [سيليكم ولاةٌ بعدي ، فيليكم البَرُّ ببرّه والفاجرُ بفجوره فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ما وافق الحق ، وصلّوا وراءهم فإن أحسنوا فلكم ولهم وإن أساءوا فلكم وعليهم] وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ ٧٧٢ [من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر ، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلامات ميتةً جاهلية] رواه مسلم والبخاري . وقوله تعالى : ﴿ وأولي الامر منكم ﴾ من قال هم الأمراء ومن قال هم العلماء والظاهر والله أعلم،أنها عامة في كل أولى الأمر،من الأمراء والعلماء . وفي الحديث الصحيح المتفق على صحته،عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ انه قال : ٧٧٣ [من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني] ، فهذه أوامر بطاعة العلماء والأمراء ولهذا قال تعالى : ﴿ أطيعوا الله ﴾ أي اتّبعوا كتابه ، ﴿ وأطيعوا الرسول ﴾ أي خذوا بسنّته • ﴿ وأولي الأمر منكم ﴾ أي فيما أمروكم به من طاعة الله لا في معصية الله فأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله،كما تقدم في الحديث ، إنما الطاعة في المعروف . وقوله تعالى : ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول ﴾ أي إلى الكتاب والسنة وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة . كما قال تعالى: ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق،وماذا بعد الحق الا الضلال . ولهذا قال تعالى : ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ أي ردوا الخصومات والجهالات إلى كتاب الله وسنة رسوله ، فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم وهذه الآية فيها دلالة على أن من لم يتحاكم

في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك ، فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر . وقوله تعالى : ﴿ ذلك خير ﴾ أي التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله والرجوع إليهما في فصل النزاع خير ﴿ وأحسن تأويلاً ﴾ أي وأحسن عاقبة ومآلاً وأحسن جزاءً .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى ٱلطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً ۞ (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُوداً ۞ (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً ۞ (٦٢) أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً ۞ (٦٣) ﴾

هذا إنكار من الله عز وجل على من يدَّعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين على نبينا وعليهم الصلاة والسلام وهو مع ذلك يتحاكم إلى غير الكتاب والسنة . وهكذا فإن هذه الآية ذامة لمن عدل عن حكم الله ورسوله وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل وهو المراد بالطاغوت هنا . ولهذا قال تعالى ﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ﴾ إلى آخرها . وقوله تعالى : ﴿ يصدّون عنك صدودا ﴾ أي يعرضون عنك إعراضا ، كالمستكبرين عن ذلك كما قال تعالى عن المشركين : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ ثم قال تعالى في ذم المنافقين : ﴿ فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ﴾ أي فكيف بهم إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم ، واحتاجوا إليك في ذلك ﴿ ثم جاءوك يحلفون بالله إنْ أردنا إلاّ إحساناً وتوفيقاً ﴾ أي يعتذرون إليك ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك إلاّ للمداراة والمصانعة لا اعتقاداً منا صحة تلك الحكومة . ثم قال تعالى : ﴿ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم ﴾ هذا الضرب من الناس هم المنافقون ، والله يعلم ما في قلوبهم وسيجزيهم على ذلك فانه لا

تخفى عليه خافية فاكتفِ به يا محمد فيهم فانه عالم بظواهرهم وبواطنهم . ولهذا قال له: ﴿ فأعرض عنهم ﴾ أي لا تعنفهم على ما في قلوبهم. ﴿ وعظهم ﴾ أي وانههم عمّا في قلوبهم من النفاق وسرائر الشر ﴿ وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ أي وأنصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ رادع لهم .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا ٱللهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا ٱللهَ تَوَّاباً رَحِيماً ۝ (٦٤) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ۝ (٦٥) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول الا ليطاع ﴾ أي فرضت طاعته على من أرسله إليهم وقوله تعالى : ﴿ بإذن الله ﴾ قال مجاهد : أي لا يطيع أحد إلاّ بإذني ، يعني لا يطيعه إلاّ من وفقته لذلك ، كقوله تعالى : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ﴾ أي عن أمره وقدره ومشيئته وتسليطه إياكم عليهم . وقوله تعالى : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ﴾ يرشد تعالى العصاة ، والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده ويسألوه أن يستغفر لهم ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لوجدوا الله توابا رحيماً ﴾ [1]

---

(١) قلت : يستدل بعض من المسلمين بهذه الآية على جواز التوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته وهذا كما يبدو خطأ واضح. لأن الآية صريحة في أن من أذنب ذنباً ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، و ذلك حال حياته فاستغفر الله عند رسول الله ثم سأل رسول الله أن يستغفر له، فإذا فعل ذلك ، غفر الله له ذنبه باستغفاره هو ، أي المذنب، ثم استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم له. هذا هو معنى الآية ... فأين هذا من فهم من يجيزون التوسل به صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ... ؟؟!!! ولو أمعنوا جيداً في الآية لرأوا أنهم ينقصهم عنصر هام وهو : استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم لهم ... وهذا غير ممكن وقوعه اليوم !! إذ كيف يستغفر لهم بعد ما توفي وانقطع عمله؟ إن عنصر الشفاعة الذي كان قائماً حال حياته ... لم يعدْ قائماً بعد وفاته ... والقياس بينهما قياس مع الفارق . أما حديث «العتبي» الذي يستدلون به أيضاً، فهو حديث غير صحيح البتة. لما فيه من علل ذكرناها في كتابنا : « التوصل إلى حقيقة التوسل » والله الموفق للصواب

وقوله تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ﴾ يقسم تعالى بنفسه المقدسة انه لا يؤمن أحد حتى يحكِّم الرسولَ ﷺ في جميع الأمور ، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ أي إذا حكَّموك يطيعونك في بواطنهم ، فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به ، وينقادون إليه في الظاهر والباطن ، فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة كما ورد في الحديث : ٧٧٤ [والذي نفسي بيده ، لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به] . روى البخاري عن عروة قال : ٧٧٥ [خاصم الزبير رجلاً في شراج الحرة ، فقال النبي ﷺ « إسقِ يا الزبير ثم ارسل الماء إلى جارك » فقال الأنصاري : يا رسول الله إن كان ابن عمتك فتلوّن وجه رسول الله ﷺ ثم قال : « اسق يا زبير . ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجدر ثم أرسل الماء إلى جارك » فاستوعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري ، وكان أشار عليهما ﷺ بأمرٍ لهما فيه سعة ، قال الزبير : فما أحسب هذه الآية إلاّ نزلت في ذلك : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴾ الآية .] ورواه أحمد منقطعاً بين عروة وبين أبيه الزبير فإنه لم يسمع منه والمقطوع به أنه سمعه من أخيه عبدالله كما رواه ابن أبي حاتم أن عروة حدثه ان عبدالله بن الزبير حدثه الزبير بن العوام وساق الحديث ... وهكذا رواه النسائي ورواه أيضاً ابن أبي حاتم — عن سعيد بن المسيب ... ٧٧٦ [قال نزلت في الزبير بن العوام وحاطب بن أبي بلتعة] هذا مرسل ولكن فيه فائدة تسمية الأنصاري . . . « ذُكر سببٌ آخر لنزول هذه الآية » :

روى الحافظ أبو اسحق ابراهيم بن عبد الرحمن عن ضمرة قال : ٧٧٧ [إن رجلين اختصما إلى النبي ﷺ فقضى للمحق على المبطل فقال المقضي عليه : لا أرضى ، فقال صاحبه : فما تريد ؟ قال : أن نذهب إلى أبي بكر الصديق ، فذهبا إليه ، فقال الذي قضي له : قد اختصمنا إلى النبي ﷺ فقضى لي ، فقال أبو بكر : انتما على ما قضى به رسول الله ﷺ ، فأبى صاحبه أن يرضى فقال : نأتي عمر بن الخطاب ، فقال المقضي له : قد اختصمنا إلى النبي ﷺ فقضى لي عليه، فأبى أن يرضى، فسأله عمر بن الخطاب ، فقال : كذلك ، فدخل عمر منزله وخرج والسيف في يده قد سلّه ، فضرب رأس الذي أبى أن يرضى فقتله . فأنزل الله تعالى : ﴿ فلا وربّك لا يؤمنون ﴾ الآية] .

﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً ۞ (٦٦) وَإِذاً لَآتَيْنَاهُم مِن لَدُنَّا أَجْراً عَظِيماً ۞ (٦٧) وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ۞ (٦٨) وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَٱلصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً ۞ (٦٩) ذَلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَى بِٱللَّهِ عَلِيماً ۞ (٧٠) ﴾

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبوه من المناهي لما فعلوه ، لأن طباعهم الرديئة مجبولة على مخالفة الأمر ، وهذا من علمه تبارك وتعالى بما لم يكن، فكيف بما كان ويكونُ ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم ﴾ الآية وروى ابن أبي حاتم عن الأعمش قال: ٧٧٨ [لما نزلت ﴿ولو أنا كتبناعليهم أنِ اقتلوا أنفسكم ﴾ الآية قال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ : لو فعل ربنا لفعلنا فبلغ النبي ﷺ فقال : « لَلايمانُ أثبت في قلوب أهله من الجبال الرواسي »] وروى ابن أبي حاتم عن شريح ابن عبيد قال : ٧٧٩ [لما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أنِ اقتلوا أنفسكم ﴾ الآية أشار رسول الله ﷺ هذه بيده إلى عبدالله بن رواحة فقال « لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل »] يعني ابن رواحة ، ولهذا قال تعالى ﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به ﴾ أي ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما ينهون عنه، ﴿ لكان خيراً لهم ﴾ أي من مخالفة الأمر وارتكاب النهي. ﴿ وأشد تثبيتاً ﴾ قال السدي : أي وأشد تصديقاً ﴿ وإذاً لآتيناهم من لدنا ﴾ أي من عندنا ﴿ أجراً عظيماً ﴾ يعني الجنة ، ﴿ ولهديناهم صراطاً مستقيماً ﴾ أي في الدنيا والآخرة ثم قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ أي من عمل بما أمره الله به ورسوله وترك ما نهاه الله عنه ورسوله يسكنه الله دار كرامته ويجعله مرافقاً للأنبياء ثم لمن بعدهم في الرتبة من الصديقين فالشهداء فالصالحين ، الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم ، ثم أثنى عليهم تعالى فقال : ﴿ وحسن أولئك رفيقا ﴾

وروى البخاري عن عائشة ، قالت: ٧٨٠ [سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من نبي يمرض إلاّ خيرّ بين الدنيا والآخرة » وكان في شكواه التي قبض فيها أخذته بحّةّ شديدة فسمعته يقول : ﴿ مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴾ فعلمت أنه خيرّ ؛] وكذا رواه مسلم وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الآخر : ٧٨١ [اللهم الرفيق الأعلى] ثلاثاً ثم قضى ــ بأبي هو وأمي ــ عليه أفضل الصلاة والسلام .

روى أبو بكر بن مردويه عن عائشة ، قالت : ٧٨٢ [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ، إنك لأحب إليّ من نفسي ، وأحب إليّ من أهلي وأحب إليّ من ولدي ؛ وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك وإذا ذكرت موتي وموتك، عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك ، فلم يرد عليه النبي ﷺ حتى نزلت عليه : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾) وثبت في صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي، أنه قال : ٧٨٣ [كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته ، فقال لي : « سل » فقلت يا رسول الله : أسألك مرافقتك في الجنة فقال « أو غير ذلك » قلت : هو ذاك . قال « فأعني على نفسك بكثرة السجود »]

قال تعالى : ﴿ ذلك الفضل من الله ﴾ أي من عند الله برحمته وهو الذي أهّلهم لذلك لا بأعمالهم ﴿ وكفى بالله عليماً ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا جَمِيعاً ۞ (٧١) وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيداً ۞ (٧٢) وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُن بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً ۞ (٧٣) فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ۞ (٧٤) ﴾

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم ، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعُدد ، وتكثير العدد بالنفير في سبيل الله ﴿ ثباتٍ ﴾ أي جماعة بعد جماعة ﴿ أو انفروا جميعاً ﴾ يعني كلكم . وقوله تعالى : ﴿ وإنَّ منكم لمن ليُبَطِّئنَّ ﴾ أي ليتخلّفنَّ عن الجهاد ويبطّىء غيرَه كما كان يفعل عبدالله بن أبي بن سلول ــ قبحه الله ــ ولهذا قال تعالى عن المنافق إخباراً أنه يقول : إذا تأخر عن الجهاد ﴿ فإن أصابتكم مصيبة ﴾ أي قتلٌ وشهادةٌ وغلبكم العدو لحكمة يعلمها الله ﴿ قال قد أنعم الله عليَّ إذ لم أكن معهم شهيداً ﴾ أي حاضراً وقعة القتال ، يعدّ ذلك من نعم الله عليه ولم يدرِ ما فاته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتل . ﴿ ولئن أصابكم فضل من الله ﴾ أي نصر وغنيمةٌ ﴿ ليقولنّ كأن لم تكن بينكم وبينهُ مودَّةٌ ﴾ أي كأنه ليس من أهل دينكم ﴿ يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً ﴾ بأن يُسهم لي معهم وهذا منتهى مراده . ثم قال تعالى : ﴿ فليقاتلْ ﴾ أي المؤمنُ النّافرُ ﴿ في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ أي يبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا ، وما ذلك إلا لكفرهم ثم قال تعالى : ﴿ ومن يقاتلْ في سبيل الله فيُقتلْ أو يَغلبْ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ أي كل من قُتِل أو غَلَبَ فله عند الله مثوبة عظيمة كما ثبت في الصحيحين ٧٨٤ [وتكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجرٍ أو غنيمة .]

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَانِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۞ (٧٥) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ۞ (٧٦) ﴾

يُحرِّض الله تعالى المؤمنين على الجهاد في سبيله ، وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء والصبيان المتبرمين من المقام بها ولهذا قال تعالى : ﴿ الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية ﴾ أي مكة ﴿ الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا ﴾ أي سخرْ لنا من عندك ولياً ونصيرا .

روى البخاري عن ابن عباس قال : كنت أنا وأمي من المستضعفين ثم قال تعالى : ﴿ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ﴾ أي المؤمنون يقاتلون في طاعة الله، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان. ثم هيج تعالى المؤمنين على قتال أعدائه بقوله : ﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ❁ (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ❁ (٧٨) مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ❁ (٧٩) ﴾

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة، وإن لم تكن ذات النصب وكانوا مأمورن بمواساة الفقراء منهم ، وبالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرّقون شوقاً إلى قتال أعدائهم ليشتفوا منهم ولكنهم كانوا قليلي العـــدد والعُدد ، وهم في البلد الحرام ، ولذا فلم يشرع الجهاد إلا في المدينة التي صارت دار منعة وأنصار ، ولما أمروا بالجهاد جزع بعضهم منه وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً ﴿ وقالوا ربنا لمَ كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجلٍ قريب ﴾ أي أخّرت فرضَهُ إلى مدة أخرى . روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : ٧٨٥ [أنّ عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا يا نبي الله كنا في عزةٍ ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة ،

قال : « إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم » فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله : ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم ﴾] الآية ورواه النسائي والحاكم وابن مردويه من حديث علي بن الحسن بن شقيق به . وقال السدى : لم يكن عليهم إلا الصلاة والزكاة فسألوا الله أن يفرض عليهم القتال ، فلما فرض عليهم القتال : ﴿ إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لمَ كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ وهو الموت . قال الله تعالى : ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً ﴾ أي من أعمالكم بل توفونها أوفى الجزاء وهذه تسلية لهم عن الدنيا وترغيب لهم في الآخرة ، وتحريض لهم على الجهاد ، وكان أبو مصهر ينشد :

ولا خير في الدنيا لمن لم يكن لـــــه ... من الله في دار المقام نصيـــــبُ
فإن تُعجبِ الدنيا رجالاً فإنهـــــا ... متاع قليـــل والزوال قريـــــبُ

وقوله تعالى : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ أي أنتم ميتون حتماً جميعاً كما قال تعالى ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ فكلٌ له أجل محتوم ومُقام مقسوم .

وقوله تعالى : ﴿ ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ أي حصينة منيعة فلا يغني حذر ولا تحصن من الموت كما قال زهير بن أبي سُلمى :

ومن هاب أسباب المنايا ، ينلنـــــه ... ولو رام أسباب السماء بسلّـــم

وقوله تعالى : ﴿ وإن تصبهم حسنة ﴾ أي خصب ورزق وثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك ﴿ يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة ﴾ أي قحط وجدب ونقص في الثمار والزروع ﴿ يقولوا هذه من عندك ﴾ أي من قبلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك كما قال تعالى عن قوم فرعون ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيّروا بموسى ومن معه ﴾ وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا في الاسلام ظاهراً وهم كارهون له في نفس الأمر ، فعندما تصيبهم حسنة كالخصب في الزروع والمواشي والخيول وتلد نساؤهم الغلمان قالوا : ﴿ هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة ﴾ كالجدب والضرر في الأموال والأولاد تشاءموا بمحمد ﷺ وقالوا : ﴿ هذه من عندك ﴾ بتركنا ديننـــا واتباعنا محمداً أصابنا هذا البلاء ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ قل كل من عند الله ﴾ أي الجميع بقضاء الله وقدره وهو نافذ في البر والفاجر ، والمؤمن والكافر . قال ابن عباس قل كل من عند الله أي الحسنة والسيئة . ثم قال تعالى منكراً على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة

عن شك وريب ، وقلة فهم وعلم ، وكثرة جهل وظلم ﴿ فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ ثم قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ والمراد جنس الإنسان ليحصل الجواب ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ﴾ أي من فضله ومنه وكرمه ولطفه ورحمته ، ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ أي فمن قبلك ، ومن عملك أنت ، كما قال تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ وفي الصحيح ٧٨٦ [والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا حزن ، ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه] روى ابن أبي حاتم عن مطرف بن عبدالله قال : ما تريدون من القدر أما تكفيكم الآية التي في سورة النساء : ﴿ وإن تصبْهم حسنة ... ــ إلى قوله ــ من عندك ﴾ ؟ أي من نفسك والله ما وكلوا إلى القدر وقد أمروا وإليه يصيرون ؛ وهذا كلام متين قوي في الرد على القدرية والجبرية أيضاً ، ولبسطه موضع آخر . وقوله تعالى : ﴿ وأرسلناك للناس رسولا ﴾ أي تبلغهم شرائع الله وما يحبه ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه. ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ أي على إنك مرسل منه وهو شهيد ايضاً بينك وبينهم ، وعالم بما تبلغهم إياه ، وبما يردون عليك من الحق كفراً وعناداً .

﴿ مَنْ يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ۞ (٨٠) وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِي تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً ۞ (٨١) ﴾

يخبر تعالى بأن من أطاع عبده ورسوله محمداً ﷺ فقد أطاع الله ، ومن عصاه فقد عصى الله وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٧٨٧ [من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني ، ومن عصى الأمير فقد عصاني] وهذا الحديث في الصحيحين عن الأعمش به . وقوله تعالى : ﴿ ومن تولىّ فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ أي ما عليك إلا البلاغ من اتبعك سعد ونجا وكان لك من الأجر نظير ما حصل له . ومن تولىّ عنك خاب وخسر وليس عليك من أمره شيء. كما جاء في الحديث : ٧٨٨ [من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه] وقوله

تعالى : ﴿ ويقولون طاعة ﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة ، ﴿ فإذا برزوا من عندك ﴾ أي خرجوا ﴿ بيّت طائفة منهم غير الذي تقول ﴾ أي استسرّوا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه لك ؛ فقال تعالى : ﴿ والله يكتب ما يبيّتون ﴾ أي يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين والمعنى أنه تعالى عالم بما يُسِرّون من مخالفة الرسول ﷺ وعصيانه بعد إظهار الطاعة وسيجزيهم على ذلك .كما قال تعالى : ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فأعرض عنهم ﴾ أي أصفح واحلم ، ولا تكشفهم ، ولا تخف منهم ﴿ وتوكلْ على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ أي كفى به ناصراً ومعينا لمن توكل عليه وأناب .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَافاً كَثِيراً ۞ (٨٢) وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً ۞ (٨٣) ﴾

يأمر تعالى بتدبر القرآن وتفهم معانيه وينهاهم عن الإعراض عنه وعن مفاهيمه المحكمة والفاظه البليغة ومخبراً لهم بأنه لا أختلاف ولا اضطراب فيه ولا تعارض لأنه حق نزل من حق ثم قال : ﴿ ولو كان من عند غير الله ﴾ أي لو كان مختلقاً كما يقول المشركون والمنافقون سراً ، لوجدوا فيه تضاداً كثيراً والمعنى أنه سالم من الاختلاف فهو من عند الله كما أخبر عن الراسخين في العلم إذ قالوا : ﴿ آمنا به كل من عند ربنا ﴾ أي محكمهُ ومتشابههُ حقٌ فَرَدُّوا المتشابه إلى المحكَم فاهْتدَوْا وأما الزائغون ردّوا المحكمَ إلى المتشابه فغوَوْا . روى الإمام أحمد عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال : ٧٨٩ [لقد جلست أنا وأخي مجلساً ما أحب أن لي به حمر النعم ، أقبلت أنا وأخي واذا مشيخةٌ من أصحاب رسول الله ﷺ على باب من أبوابه ، فكرهنا أن نفرق بينهم ، فجلسنا حجزة. إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم فخرج رسول الله ﷺ مغضباً حتى احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول : « مهلاً يا قوم بهذا أهلكت الأمم من قبلكم ،

باختلافهم على انبيائهم ، وضربهم الكتب بعضها ببعض ، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضاً إنما نزل يصدق بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمِه »] ورواه مسلم والنسائي من حديث حماد بن زيد . وقوله تعالى : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف اذاعوا به ﴾ إنكار على من يبادر إلى إفشاء الأمور قبل تحققها فقد روى مسلم في مقدمة صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : ٧٩٠ [كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع] وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ قال : ٧٩١ [بئس مطية الرجل زعموا] ومن المتفق على صحته ٧٩٢ [أن عمر بن الخطاب بلغه أن رسول الله ﷺ طلق نساءه فجاء من منزله حتّى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك . فلم يصبر حتّى أستأذن على النبي ﷺ فاستفهمه : أطلّقت نساءك فقال « لا » فقلت الله أكبر ...] وعند مسلم ٧٩٣ [فقلت : أطلقتهن ؟ فقال : « لا » فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه ونزلت هذه الآية : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر] ومعنى يستنبطونه أي يستخرجونه من معادنه.وقوله تعالى : ﴿ لا تبعتم الشيطان إلاّ قليلاً ﴾ يعني كلكم . قاله قتادة ولكن قال ابن عباس : يعني المؤمنين وهذا أصح واللهُ أعلم .

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا ۞ (٨٤) مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً ۞ (٨٥) وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً ۞ (٨٦) اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثاً ۞ (٨٧) ﴾

يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ بأن يباشر القتال بنفسه ومن نكل عنه فلا عليه

منه ولهذا قال : ﴿ لا تكلف إلا نفسك ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي اسحق قال : ٧٩٤ [قلت للبراء : (١) الرجل يحمل على المشركين أهو ممن ألقى بيده إلى التهلكة ؟ قال لا ، إن الله بعث رسوله ﷺ وقال : ﴿ فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ﴾ إنما ذلك في النفقة (٢) وقوله تعالى : ﴿ وحرض المؤمنين ﴾ أي على القتال ورغبهم فيه كما قال يوم بدر وهو يسوي الصفوف ٧٩٥ [قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض] ومن ذلك ما رواه البخاري ٧٩٦ [... إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ؛ فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه وسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة] وقوله تعالى : ﴿ عسى اللهُ أن يكفَّ بأس الذين كفروا ﴾ أي بتحريضك إياهم على القتال تنبعث هممهم على مناجزة الأعداء ، ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وقوله تعالى : أشد بأساً وأشد تنكيلا﴾ أي هو قادر عليهم في الدنيا والآخرة كما قال تعالى · ﴿ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ﴾ أي من يسعى في أمر فيترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك ﴿ ومن يشفع شفاعةً سيئة يكن له كفل منها ﴾ أي يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ انه قال : ٧٩٦ [اشفعوا تؤجروا ،] ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء وقال مجاهد بن جبر : نزلت هذه الآية في شفاعات الناس بعضهم لبعض .

وقوله تعالى : ﴿ وكان الله على كل شيء مقيتا ﴾ أي حفيظاً وقيل شهيداً وحسيباً وقوله تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ أي إذا سلم عليكم المسلم فردوا أفضل مما سلّم أو ردوا عليه بما سلم فالزيادة مندوبة والمماثلة مفروضة . روى ابن جرير عن سلمان الفارسي قال : ٧٩٧ [جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : السلام عليك يا رسول الله فقال : « وعليك السلام ورحمة الله » ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله فقال رسول الله ﷺ « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته » ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته فقال له : وعليك » فقال

---

(١) ابن عازب . (٢) راجع سورة البقرة عند تفسير الآية رقم /١٩٥/ .

له الرجل يا نبي الله بأبي أنت وأمي ، أتاك فلان وفلان فسلما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت علي فقال : « إنك لم تدعْ لنا شيئاً قال الله تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ فرددناها عليك » .]

وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا زيادة في السلام على هذه الصفة ، : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إذ لو شرع أكثر من ذلك لزاده رسول الله ﷺ فإن بلغ المسلم غاية ما شرع في السلام ، رد عليه مثل ما قال فأما أهل الذمة فلا يبدأون بالسلام ولا يزادون بل يرد عليهم بما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر ان رسول الله ﷺ قال : ٧٩٨ [اذا سلم عليكم اليهود فإنما يقول أحدهم : السام عليكم فقل : وعليك]

قال ابن عباس : من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه وإن كان مجوسياً ، ذلك بأن الله يقول : ﴿ فحيوا بأحسن منها أو ردّوها ﴾ وعن الحسن البصري ، قال : السلام تطوع والرد فريضة ، وهذا الذي قاله هو قول العلماء قاطبة ، أن الرد واجب على من سُلِّم عليه فيأثم إن لم يفعل لأنه خالف أمر الله في قوله ﴿ فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ وجاء في الحديث الذي رواه أبو داود بسنده إلى أبي هريرة ، قال : ٧٩٩ [قال رسول الله ﷺ « والذي نفسي بيده ، لا تدخلوا الجنة حتّى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم »] وقوله تعالى : ﴿ الله لا إله الا هو ﴾ إخبار بتوحيده وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات وتضمن قسماً لقوله تعالى : ﴿ ليجمعنّكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ وهذه اللام موطئة للقسم ، فقوله : ﴿ الله لا إله الا هو ﴾ خبر وقسم أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد فيجازي كل عامل بعمله . وقوله تعالى : ﴿ ومن أصدق من الله حديثاً ﴾ أي لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ووعده ووعيده فلا إله إلا هو ولا رب سواه .



۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ۞ (٨٨) وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا

نَصِيراً ❁ (٨٩) إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ❁ (٩٠) سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً مُبِيناً ❁ (٩١)

يقول تعالى منكراً على المؤمنين اختلافهم في المنافقين على قولين : روى الإمام أحمد عن زيد بن ثابت ٨٠٠ [أن رسول الله ﷺ خرج إلى أُحُد فرجع ناس خرجوا معه ، فكان أُصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين : فرقة تقول نقتلهم وفرقة تقول : لا .. هم المؤمنون فانزل الله تعالى : ﴿ فمالكم في المنافقين فئتين ﴾ فقال رسول الله ﷺ « إنّها طيبة وانها تنفي الخبث كما ينفى الكير خبث الحديد »] أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة وقد ذكر محمد بن اسحق بن يسار في وقعة أحد أن عبدالله بن أُبَيْ بن سلول رجع يومئذ بثلث الجيش ، رجع بثلاثمأة وبقي النبي ﷺ في سبعمأة .

وقوله تعالى : ﴿ والله أركسهم ﴾ أي ردّهم وأوقعهم في الخطأ وقوله تعالى : ﴿ بما كسبوا ﴾ أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل ﴿ أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾ أي لا طريق له إلى الهدى ، وقوله تعالى : ﴿ ودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾ أي لشدة عداوتهم يودون لكم الضلالة لتستووا وإياهم فيها ولهذا قال : ﴿ فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا ﴾ أي تركوا الهجرة ﴿ فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيرا ﴾ أي لا توالوهم ولا تستنصروهم على أعداء الله ما داموا كذلك ، ثم استثنى الله من هؤلاء ، فقال : ﴿ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ أي الذين لجأوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة ، أو عقد ذمة ، فاجعلوا حكمهم كحكمهم ، وفي

صحيح البخاري في قصة صلح الحديبية : فكان من أحب أن يدخل في صلح قريش وعهدهم ، ومن أحب أن يدخل في صلح محمد ﷺ وأصحابه وعهدهم . وقد روي عن ابن عباس أنه قال : نسخها قوله تعالى : ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ أو جاؤوكم حصرت صدورهم ﴾ الآية ؛ هؤلاء قوم آخرون من المستثنين من الأمر بقتالهم وهم الذين يجيئون إلى المصاف ضيقةً صدورهم ، مبغضين أن يقاتلوكم ولا يهون عليهم أن يقاتلوا قومهم معكم بل هم لا لكم ولا عليكم ﴿ ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم ﴾ أي من لطفه بكم أن كفّهم عنكم ﴿ فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم ﴾ أي المسالمة ﴿ فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً ﴾ أي فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك ، وهؤلاء الجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضروا القتال وهم كارهون كالعباس ونحوه ، ولهذا نهى النبي ﷺ عن قتل العباس وأمر بأسره . وقوله تعالى : ﴿ ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ﴾ الآية ... هؤلاء في الظاهر كمن تقدمهم ولكن النية مختلفة ، فهؤلاء منافقون يظهرون الاسلام ليأمنوا بذلك عند المسلمين على دمائهم وأموالهم وذراريهم ، ويصانعون الكفار في الباطن فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم وهم في الباطن مع أولئك كما قال تعالى : ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ﴾ وقال تعالى ههنا ﴿ كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها ﴾ قال السدي : الفتنة ها هنا الشرك . وحكى ابن جرير عن مجاهد أنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ فيُسلمون رياءً ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا ها هنا وها هنا فأمر بقتلهم ان لم يعتزلوا ويصلحوا ، ولهذا قال تعالى ﴿ فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ﴾ ، المهادنة والصلح ﴿ ويكفوا أيديهم ﴾ أي عن القتال ، ﴿ فخذوهم ﴾ أسراء ﴿ وأقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ أي اين لقيتموهم ، ﴿ وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً ﴾ أي بيناً واضحاً .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ

وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ❁ (٩٢) وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً ❁ (٩٣)

يقول تعالى : ليس لمؤمن أن يقتل اخاه المؤمن بوجه من الوجوه ، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال ٨٠١: [لايحل دم امريء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلاّ باحدى ثلاث النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة] ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله وانما ذلك إلى الإمام أو نائبه ؛ وقوله تعالى (إلاّ خطأً) قالوا : هو استثناء منقطع .

وسبب نزول هذه الآية فقال مجاهد وغير واحد : نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه وهي أسماء بنت مخرمة . وذلك أنه قتل رجلاً يعذبه مع أخيه على الإسلام وهو الحارث بن يزيد الغامدي ، فأضمر له عياش السوء ، فأسلم ذلك الرجل وهاجر وعياش لا يشعر ، فلما كان يوم الفتح رآه ، فظن أنه على دينه فحمل عليه فقتله ، فأنزل الله هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿ ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله ﴾ هذان واجبان في قتل الخطأ ، أحدهما الكفارة ، لما ارتكبه من الذنب العظيم وإن كان خطأً، ومن شرطها أن تكون عتق رقبة مؤمنة فلا تجزيء الكافرة ، ولا يجزىء الصغير الكافر حتى يكون قاصداً للإيمان والجمهور على أنه متى كان مسلماً أجزأ إن كان كبيراً أو صغيراً .

روى أحمد عن رجل من الأنصار : ٨٠٢ [أنه جاء بأمة سوداء فقال يا رسول الله إن عليَّ عتق رقبة مؤمنة فإن كنت ترى هذه مؤمنة أعتقتها ، فقال رسول الله ﷺ « أتشهدين أن لا اله الا الله » قالت : نعم . قال : « أتشهدين أني رسول الله ؟ » قالت : نعم قال « أتؤمنين بالبعث بعد الموت ! » قالت : نعم قال : أعتقها »] وهذا اسناد

صحيح وجهالة الصحابي لاتضره وفي موطأ مالك ، ومسند الشافعي وأحمد وصحيح مسلم وسنن أبي داود والنسائي من طريق هلال بن أبي ميمونة عن عطاء بن يسار عن معاوية بن الحكم ٨٠٣ : [أنه لما جاء بتلك الجارية السوداء قال لها رسول الله ﷺ : « أين الله ؟ » قالت : في السماء . قال : « من أنا ؟ » قالت : رسول الله ﷺ ، قال : « أعتقها فإنها مؤمنة »] [1] وقوله تعالى : ﴿ ودية مسلمة إلى أهله ﴾ هو الواجب الثاني فيما بين القاتل وأهل القتيل عوضاً لهم عما فاتهم من قتيلهم . وهذه الدية انما تجب على عاقلة القاتل لا في ماله ؛ قال الشافعي رحمه الله : لم أعلم مخالفاً أن رسول الله ﷺ قضى بالدية على العاقلة - والعاقلة عصبَةُ القاتل أو قرابته من قبل الأب - فقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : ٨٠٤ [أقتتلت امرأتان من هذيل ، فرمت إحداهما الأخرى بحجر فقتلتها وما في بطنها ، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ فقضى أن دية جنينها غرة عبد أو أمَة وقضى بدية المرأة على عاقلتها ،] وهذا يقتضي أن حكم عمد الخطأ المحض في وجوب الدية لكن هذا تجب فيه الدية أثلاثاً لشبهة العمد أما الخطأ الذي مر ذكره آنفاً في قوله : هو الواجب الثاني ففيه الدية أخماس كما رواه الامام أحمد عن ابن مسعود قال ٨٠٥ : [قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ عشرين بنت مخاض وعشرين بني مخاض ذكوراً وعشرين بنت لبون ، وعشرين جذعة وعشرين حقة] لفظ النسائي ؛ وقال الترمذي : لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه وروي موقوفاً عن عبد الله بن مسعود وفي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر قال : ٨٠٦ [بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة ، فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون : صبأنا صبأنا ، فجعل خالد يقتلهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فرفع يديه وقال « اللهم إني أبرأ اليك مما صنع خالد » وبعث علياً فودَى قتلاهم ، وما أتلف من أموالهم حتى ميلغة الكلب] وهذا الحديث يؤخذ منه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال .

وقوله تعالى : ﴿ إلا أن يصَّدقوا ﴾ أي إلاَّ أن يتصدَّق أهل القتيل فيعفوا عن الدية فلا تجب وقوله تعالى : ﴿ فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ أي إذا كان القتيل مؤمناً وأولياؤه كفار أهل حرب فلا دية لهم ، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير. وقوله تعالى : ﴿ وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ الآية فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة أو هدنة فلهم دية قتيلهم ، فإن كان مؤمناً فدية كاملة ، وإن كان

(١) قلت : فما بال الذين يقولون - والعياذ بالله - « « إن الله في كل مكان » ولا يخفى ما في هذا الكلام من معاني الحلول والاتحاد والوحدة تعالى الله عن ذلك وهناك من يقول : « أن الله ليس فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا أمام ولا خلف وليس هو في داخل الكون ولا في خارجه » وهذا كما لا يخفى ، وصف للمعدوم والعياذ بالله . والقولان من دسائس اليهود لعنهم الله

كافراً أيضاً عند طائفة من العلماء ، وقيل : يجب في الكافر نصف دية المسلم ؛ وقيل : ثلثها كما هو مفصل في كتب الأحكام . ويجب على القاتل تحرير رقبة مؤمنةٍ ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ﴾ أي لا إفطار بينهما بل يسرد صومهما إلى آخرهما، فإن أفطر من غير عذر من مرض أو حيض أو نفاس استأنف ، واختلفوا في السفر هل يقطع أم لا ، على قولين ...

وقوله تعالى : ﴿ توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً ﴾ أي هذه توبة القاتل خطأ إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين ، واختلفوا فيمن لا يستطيع الصيام : هل يجب عليه إطعام ستين مسكيناً كما في كفارة الظهار ، على قولين أحدهما : نعم كما في الظهار ولم يذكره هنا لأن هذا مقام تهديد وتحذير فلا يناسب ذكر التسهيل والترخيص . والثاني لا يعدل إلى الطعام لأنه لو كان واجباً لما أخر بيانه عن وقت الحاجة ﴿ وكان الله عليماًحكيماً ﴾ قد تقدم تفسيره غير مرة هذا قتل الخطأ أما بيان حكم القتل العمد ، فقال : ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً ﴾ وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله حيث يقول سبحانه في سورة الفرقان :

﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ وقال تعالى والآيات والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جداً فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٠٧ [أول ما يقضي بين الناس يوم القيامة في الدماء] وروى أبو داود عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : ٧٠٨ [لا يزال المؤمن معنقاً[1] صالحاً ما لم يصب دماً حراماً ، فإذا أصاب دماً حراماً بلح[2]]

وفي الحديث الآخر : ٨٠٩ [لو اجتمع أهل السموات والأرض على قتل رجل مسلم لأكبهم الله في النار]

وفي حديث آخر : ٨١٠ [لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم] وقد كان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً لقوله تعالى : ﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم ﴾ وهي آخر ما نزل وما نسخها شيء، وقد روى هذا عن ابن عباس من طرقٍ كثيرة . وممن ذهب إلى ذلك أيضاً زيد بن ثابت وأبو هريرة وعبد الله بن عمر وأبو سلمة

---

(١) معنقاً : أي مسرعاً في سيره .
(٢) « بلح » بالتخفيف والتشديد ، أي انقطع من الأعياء والوهن .

ابن عبد الرحمن وعبيد بن عمير والحسن وقتادة والضحاك نقله ابن أبي حاتم – وهناك بعض أحاديث في الباب قد لا تبلغ مبلغ الاحتجاج بها .

والذي عليه جمهور السلف والخلف : ان القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل فإن تاب وأناب وخشع وخضع وعمل عملاً صالحاً بدل الله سيئاته حسنات ، وعوض المقتول من ظلامته وأرضاه عن ظلامته قال الله تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴾ إلى قوله – ﴿ إلاّ من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ﴾ وهذا خبر لا يجوز نسخه وحمله على المشركين ، وقال تعالى ﴿ قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾ وهذا عام في جميع الذنوب من كفر وشرك وشك ونفاق وقتل وفسق وغير ذلك ما عدا الشرك إذا مات عليه قال الله تعالى: ﴿ ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وهذه الآية مذكورة في هذه السورة الكريمة قبل قوله تعالى (١) : ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً ... ﴾ وبعدها لتقوية الرجاء والله أعلم . وثبت في الصحيحين : ٨١١ [خبر الاسرائيلي الذي قتل مئة نفس ثم سأل عالماً هل لي من توبة ؟ فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ؟ ثم أرشده إلى بلد يعبد الله فيه ، فهاجر إليه فمات في الطريق فقبضته ملائكة الرحمة ...] واذا كان هذا في بني اسرائيل فلأن تكون التوبة مقبولةً في هذه الأمة ، بطريق الأولى والأحرى ، لأن الله وضع عنّا الآصار والأغلال التي كانت عليهم ، وبعث نبينا بالحنيفية السمحة . وهذا أحسن ما يسلك في باب الوعيد من قوله تعالى : ﴿ ... خالداً فيها ... ﴾ والله أعلم بالصواب وبتقدير دخول القاتل في النار . أما على قول ابن‌عباس ومن وافقه انه لا توبة له ، أو على قول الجمهور حيث لا عمل له صالحاً ينجو به فليس بمخلد فيها أبداً ، بل الخلود هو المكث الطويل.وقد تواترات الأحاديث عن رسول الله ﷺ عليه وسلم أنه : ٨١٢ [يخرج من النار من كان في قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان] وأما حديث معاوية : ٨١٣ [كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً] فعسى للترجي ، فإذا انتفى **الترجي** في هاتين الصورتين ، لا تنفي وقوع ذلك في أحدهما وهو القتل لما ذكرنا من الأدلّة ، وأما من مات كافراً ، فالنص أن الله لا يغفر له ألبتة ، وأما مطالبة المقتول القاتل يوم القيامة فإنه حق من حقوق الآدميين . وهي لا تسقط بالتوبة بل بردها إليهم ولا فرق بين المقتول والمسروق منه والمغصوب منه والمقذوف وسائر حقوق الآدميين ، فإن تعذر رد الحقوق فلا بد من المطالبة يوم القيامة ، ولكن لا يلزم من وقوع

---

(١) الآية /٤٨/ الآية /١١٦/ من هذه السورة .

المطالبة وقوع المجازاة فقد يُعطى من أعمال القاتل الصالحة ما يفي حق المقتول، ويبقى فضل يدخل به الجنّة أو يعوض الله المقتول بما يشاء من فضله من قصور الجنة ونعيمها، ورفع درجته فيها ونحو ذلك والله أعلم، ولقاتل العمد أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة، فأما في الدنيا فتسلط أولياء المقتول عليه قال الله تعالى: ﴿ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً﴾ الآية ... ثم هم مخيرون بين: أن يقتلوا، أو يعفوا، أو يأخذوا دية مغلظة أثلاثاً: ثلاثون حقّه، وثلاثون جذعة، وأربعون خلفة، كما هو مقرر في كتاب الأحكام. واختلف الأئمة في الكفاءة هل تجب عليه كما وجبت على القاتل خطأً وهي عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام، على أحد القولين. ففي ذلك قولان أحدهما أن ما عليه كفارة ولا سبيل إلى ذلك لأن قتل العمد أعظم من أن يكفّر فلا كفارة فيه. لكن الذين أوجبوا الكفارة فقد احتجوا بما رواه الإمام احمد قال بسنده إلى واثلة بن الأسقع، قال: أتى النبيَّ ﷺ نفرٌ بن بني سليم فقالوا: ٨١٤ [إن صاحباً لنا قد أوجب، قال: « فليعتق رقبة يفدي الله بكل عضو منها عضوا منه من النار »]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرا ۞ (٩٤) ﴾

عن ابن عباس، قال: لحق المسلمون رجلاً في غنيمة له، فقال: السلام عليكم، فقتلوه وأخذوا غنيمته؛ فنزلت (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا).

وقد ورد [١] في ترجمة: أن أخاه فزاراً هاجر إلى رسول الله ﷺ، عن أمر أبيه بإسلامهم وإسلام قومهم، فلقيته سرية لرسول الله ﷺ في عماية الليل، وكان قد قال لهم إنه مسلم، فلم يقبلوا منه فقتلوه فقال أبوه: فقدمت على رسول الله ﷺ فأعطاني ألف دينار ودية أخرى، وسيّرني، فنزل قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله﴾

وروى البخاري عن ابن عباس قال: (قال رسول الله ﷺ للمقداد: إذا كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتلته؟! وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة من قبل.) هكذا رواه البخاري مختصراً معلقاً.

---

(١) بياض في الأصل.

روى الامام أحمد عن ابن عباس قال : ٨١٥ [مرَّ رجل من بني سليم بنفر من أصحاب رسول الله ﷺ يرعى غنماً له فسلّم عليهم فقالوا : لا يسلم علينا إلاّ ليتعوذ منا فعمدوا إليه فقتلوه ، وأتوا بغنمه النبي ﷺ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم في سبيل الله ...﴾ إلى آخرها] كما روى البخاري عن ابن عباس : ٨١٦ [﴿ ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ﴾ قال ابن عباس : كان رجل في غنيمة له فلحقه المسلمون ، فقال : السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته ؛ فأنزل الله في ذلك : ﴿ ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً ﴾] قال ابن عباس: عرض الدنيا تلك الغنيمة . وقوله تعالى : ﴿ فعند الله مغانم كثيرة ﴾ أي خير مما رغبتم فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حملكم على قتل مثل هذا الذي ألقى إليكم السلام ، وأظهر لكم الإيمان فتغافلتم عنه، واتّهمتموه بالمصانعة والتقية لتبتغوا منه ما أخذتموه فما عند الله من الرزق الحلال خير لكم من مال هذا . وقوله تعالى : ﴿ كذلك كنتم من قبل فمنَّ الله عليكم ﴾ ، اي كنتم مثل هذا الذي يُسرّ إيمانه ، ويخفيه من قومه كما تقدم في الحديث آنفاً . وكما قال تعالى : ﴿ واذكروا إذْ أنتم قليـــل مستضعفون في الأرض ﴾ قال سعيد ابن جبير في قوله تعالى : ﴿كذلك كنتم من قبل ﴾ أي تخفون إيمانكم في المشركين ﴿ فمنَّ الله عليكم ﴾ أي تاب عليكم . وقوله تعالى ﴿ فتبيَّنوا ﴾ تأكيد لما تقدم وقوله تعالى : ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ قال سعيد بن جبير : هذا تهديد ووعيد .

﴿ لَا يَسْتَوِي ٱلْقَاعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللهُ ٱلْمُجَاهِدِينَ عَلَى ٱلْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً ۞ (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحِيماً ۞ (٩٦) ﴾

٨١٧ [روى البخاري عن البراء قال : لما نزلت ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين .. ﴾ دعا رسول الله ﷺ زيداً[1] فكتبها ، فجاء ابن أم مكتوم فشكا ضرارته

(١) زيد بن ثابت رضي الله عنه أحد كتاب الوحي .

فأنزل الله ﴿ غير أولي الضرر ﴾] روى البخاري أيضاً عن سهل بن سعد الساعدي ٨١٨ [أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد قال: فأقبلت حتى جلستُ إلى جنبه، فأخبرنا : أن زيداً بن ثابت أخبره : أن رسول الله ﷺ أملى عليّ : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله ﴾ فجاء ابن أم مكتوم وهو يمليها عليّ ، قال : يا رسول الله ، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى ؛ فأنزل الله على رسوله ﷺ ، وكان فخذه على فخذي فثقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي ثم سُرّي عنه ، فأنزل الله ﴿ غير أولي الضرر ﴾ تفرّد به البخاري دون مسلم وروي من وجه آخر عند أحمد ورواه أبو داود ورواه عبد الرزاق .

روى الترمذي عن ابن عباس قال : ٨١٩ [لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر ﴾ عن بدر والخارجون إلى بدر ، ولما نزلت غزوة بدر قال عبد الله بن جحش وابن أم مكتوم : إنّا أعميان يا رسول الله ، فهل لنا رخصة ؟ فنزلت : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر ﴾ ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين درجة ﴾ فهؤلاء القاعدون غير أولى الضرر ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً درجاتٍ منه ﴾ على القاعدين من المؤمنين غير أولي الضرر .) هذا لفظ الترمذي ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

فقوله ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون ﴾ كان مطلقاً ؛ فلما نزل بوحي سريع : ﴿ غير أولي الضرر ﴾ صار ذلك مخرجاً لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد من العمى والعرج والمرض ، عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ثم أخبر تعالى بفضيلة المجاهدين على القاعدين ، قال ابن عباس : غير أولي الضرر وكذا ينبغي أن يكون ، كما ثبت في صحيح البخاري من طريق زهير بن معاوية ، عن حميد عن أنس : ان رسول الله ﷺ قال : ٨٢٠ [إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسيرٍ ولا قطعتم من واد إلاّ وهم معكم فيه ، قالوا : وهم بالمدينة يا رسول الله ؟ قال : نعم حبسهم العذر .] وهكذا رواه أحمد وأبو داود وقوله تعالى: ﴿ وكلاًّ وعدالله الحسنى ﴾ أي الجنة والجزاءالجزيل. وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين بل هو فرض على الكفاية . [1] قال تعالى : ﴿ وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾ بما فضلهم به من

(١) قلت : هذا في حالة الهجوم أما في حالة الدفاع وهجوم العدو الكافر علينا فالجهاد فرض عين على كل مسلم على الشكل الذي يطيق ولو بكلمة ... كل بحسب عذره وطاقته وتحمله والله أعلم. أما المخلّفون عن الجهاد وهم يستطيعون،فلهم من الله عذاب أليم .

الدرجات في غرف الجنان والمغفرة والرحمة والبركة إحساناً منه وتكريماً . ولهذا قال : ﴿ درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ وقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : ٨٢١ [ان في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ ٱلْمَلَٰئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً * (٩٧) إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَاءِ وَٱلْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * (٩٨) فَأُولَٰئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُوراً * (٩٩) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً * (١٠٠) ﴾

ربع الحزب

روى البخاري عن محمد بن عبد الرحمن أبي الأسود قال : قطع على أهل المدينة بعث ، فاكتتبت فيه ، فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته ، فنهاني عن ذلك أشد النهي ، قال : ٨٢٢ [أخبرني ابن عباس أن ناساً من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سوادهم على عهد رسول الله ﷺ ، يأتي السهم يرمي به فيصيب أحدهم ، فيقتله أو يضرب عنقه فيقتل،فأنزل الله.﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم ﴾] رواه الليث عن أبي الأسود . فقوله تعالى: ﴿ ... ظالمي أنفسهم ﴾ أي بترك الهجرة ﴿ قالوا فيم كنتم ﴾ أي لمِ مكثتم ها هنا وتركتم الهجرة ﴿ قالوا كنا مستضعفين في الأرض ﴾ أي لا نقدر على الخروج من البلد ، ولا الذهاب في الأرض ﴿ قالوا ألم تكن أرض الله واسعة ﴾ الآية روى أبو داود عن سمرة بن جندب أما بعد : قال رسول الله ﷺ : ٨٢٣ [من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله] وقال : ٨٢٤ [لما أسر العباس وعقيل ونوفل قال رسول الله ﷺ

للعباس « افدِ نفسَك وابنَ أخيك » فقال : يا رسول الله ، ألم نصلّ إلى قبلتك ، ونشهد شهادتك ، قال يا عباس « إنكم خاصمتم فخصمتم » ثم تلا عليه هذه الآية ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة ﴾] الآية رواه ابن أبي حاتم .

وقوله تعالى : ﴿ إلا المستضعفين ﴾ إلى آخر الآية هذا عذر من الله لهؤلاء في ترك الهجرة ، وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين ، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق ، ولهذا قال : ﴿ لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً ﴾ يعني طريقاً . وقوله تعالى : ﴿ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ﴾ أي بترك الهجرة و ﴿ عسى ﴾ من الله موجبة ﴿ وكان الله عفواً غفوراً ﴾ روى البخاري عن أبي هريرة قال : [بينا رسول الله ﷺ يصلي العشاء إذ قال : سمع الله لمن حمده ، ثم قال قبل أن يسجد : ٨٢٥ : [اللهم أنجِ عياش بن ربيعة، اللهم أنجِ سلمة بنَ هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد ، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين ، اللهم اشدد وطأتك على مضر اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف] روى البخاري عن ابن عباس ﴿ إلا المستضعفين ﴾ قال : كنت أنا وامي ممن عذر الله عز وجل. وقال عبد الرزاق عن ابن عباس، كنت أنا وأمي من المستضعفين من النساء والولدان. وقوله تعالى: ﴿ ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مُراغَماً كثيراً وسعة ﴾ وهذا تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين ، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحةً ،وملجأً يتحصَّن فيه ، والمُراغمَ مصدر تقول العرب : راغم فلان قومه مراغَماً ومُراغَمةً وقال ابن عباس : المُراغَم : التحول من أرض إلى أرض ، وقوله تعالى ﴿ وسعة ﴾ يعني الرزق . وقوله تعالى : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ أي من يخرج من منزله ناوياً الهجرة إلى الله ورسوله، ثم مات . فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر كما ثبت في الصحيحين وغيرهما من الصحاح والمسانيد والسنن عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٢٦ [إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه] وهذا عام في الهجرة وفي جميع الأعمال ومنه الحديث الثابت في الصحيحين في الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ثم أكمل بذلك العابد المئة ... الذي قبض في طريق هجرته فقبضته ملائكة الرحمة . [1] وفي رواية أنه لما جاءه الموت ناءَ بصدره إلى الأرض التي هاجر إليها .

---

(١) راجع الحديث رقم (٨٠٤) .

روى الامام أحمد عن عبدالله بن عتيك ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٨٢٧ [من خرج من بيته مجاهداً في سبيل الله ثم قال وأين المجاهدون في سبيل الله فخرّ عن دابته فمات ، فقد وقع أجره على الله ، أو لدغته دابة فمات ، فقد وقع أجره على الله أو مات حتف أنفه فقد وقع أجره على الله] .

وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، قال : ٨٢٨ [خرج ضمرة بن جندب إلى رسول الله ﷺ فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ فنزلت : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ﴾) الآية ...

روى الحافظ أبو يعلى عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٢٩ [من خرج حاجاً فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة ، ومن خرج معتمراً فمات ، كتب لهأجرالمعتمر الى يوم القيامة ؛ ومن خرج غازياً في سبيل الله فمات ، كتب له أجر الغازي إلى يوم القيامة] وهذا حديث غريب من هذا الوجه .

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ ٱلْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِيناً ۞ (١٠١) ﴾

يقول تعالى : ﴿ وإذا ضربتم في الأرض ﴾ أي سافرتم كما قال تعالى : ﴿ علم أنْ سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ﴾ الآية ... وقوله تعالى : ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ أي تخففوا فيها إمّا من كمّيتها بأن تجعل الرباعية ثنائية كما فهمه الجمهور من هذه الآية . واستدلوا بها على قصر الصلاة في السفر على اختلافهم في ذلك : فمن اشترط أن يكون السفر في طاعة [1] ، ومنهم مَنْ لم يشترط ذلك ... على أن يكون السفر مباحاً يعني في الأمور المباحة فخرج من ذلك السفر في المعصية وهذا قول الشافعي وأحمد وغيرهما من الأئمة . ومن قال : يكفي مطلق السفر حتى ولو كان في معصية. وهذا قول أبو حنيفة والثوري وداود لعموم الآية وخالفهم الجمهور[2] . وأما قوله تعالى : ﴿ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول هذه الآية ... فإن في ابتداء الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة ،

(١) كما هو مروي عن ابن عمر ، وعطاء ، ويحيى عن مالك في رواية عنه نحوه .

(٢) ما دامت الآية عامة فعلى المخالفين الدليل .

بل ما كانوا ينهضون إلاّ إلى غزو عام أو في سرية خاصة ، وسائر الأحيان حرب للاسلام وأهله. والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له[1] كقوله تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً»[2] . روى الامام أحمد عن يعلى بن أميه قال : سألت عمر بن الخطاب قلت له : قوله ـ تعالى ـ ٨٣٠ [﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ وقد أمن الناس ؟ فقال لي عمر رضي الله عنه : عجبتُ مما عجبتَ منه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك ، فقال : صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته »] وهكذا رواه مسلم وأهل السنن وقال الترمذي حديث حسن صحيح . وقال علي بن المديني : هذا حديث حسن صحيح من حديث عمر ولا يحفظ إلا من هذا الوجه ورجاله معروفون .

روى ابو بكر بن أبي شيبة عن ابن عباس ، قال : ٨٣١ [صلينا مع رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة ، ونحن آمنون لا نخاف بينهما ركعتين ركعتين] وهكذا رواه النسائي والترمذي وروى البخاري عن يحيى بن أسحق عن أنس قال : ٨٣٢ [خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة فكان يصلي ركعتين ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة قلت : أقمتم بمكة شيئاً ؟ قال : أقمنا بها عشراً] وهكذا أخرجه بقية الجماعة عن يحيى بن اسحق الحضرمي به .

روى البخاري عن حارثة بن وهب قال : ٨٣٣ [صلى بنا رسول الله ﷺ آمن ما كان بمنى ركعتين] روى البخاري عن عبدالله بن عمر قال : ٨٣٤ [صليت مع رسول الله ﷺ ركعتين وأبي بكر وعمر وعثمان صدراً من إمارته ثم أتمها] وكذا رواه مسلم [3]

فهذه الأحاديث دالة صريحاً على أن القصر ليس من شروطه الخوف . ولهذا قال من قال من العلماء ان المراد من القصر ههنا إنما هو قصر الكيفية لا الكمية . [4] وهو قول مجاهد والضحاك والسدي واعتضدوا أيضاً بما رواه الامام مالك عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : ٨٣٥ [فرضت الصلاة ركعتين ركْعَتيْن في السفر والحضر ، فأقرت صلاة السفر ، وزيد في صلاة الحضر] [5] وقد روى هذا الحديث البخاري ومسلم وأبو داود

(١) وهذه قاعدة أصولية .

(٢) أي لا يفهم من ذلك أنه اذا لم يردن تحصناً يكرهن على البغاء ! !

(٣) قلت : اعتذر لعثمان رضي الله عنه بأنه تزوج في منى، فاعتبر نفسه «قيماً» فأتم .

(٤) لأن الكمية في الأساس ركعتان كما في حديث عائشة : (فرضت الصلاة ركعتين ركعتين في السفر والحضر ... فأقرت صلاة السفر وزيدت في صلاة الحضر) .

(٥) وهذا يدل على ان الركعتين في السفر عزيمة لا رخصة . وقد قال بعض أهل العلم أنها سنة مؤكدة

والنسائي أربعتهم عن مالك به . قالوا : فإذا كان أصل الصلاة في السفر هي الثنتين ، فكيف يكون المراد بالقصر ههنا قصر الكمية ؟ لأن ما هو الأصل لا يقال فيه : ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ وأصرح من ذلك دلالة على هذا ... ما رواه الامام أحمد عن عمر رضي الله عنه ، قال : ٨٣٦ [صلاة السفر ركعتان ، وصلاة الأضحى ركعتان ، وصلاة الفطر ركعتان وصلاة الجمعة ركعتان تمام غير قصر ، على لسان محمد ﷺ .] وهكذا رواه النسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من طرق عن زبيداليامي به وهذا إسناد على شرط مسلم . اعترض يحي بن معين على صحة هذه الحديث لأنه يقول : آن عبد الرحمن بن أبي ليلى الذي روى الحديث المتقدم عن عمر لم يسمع من عمر ولكن ثبت في مقدمة مسلم في صحيحه سماع ابن أبي ليلى عن عمر في الحديث المتقدم وفي غيره وهو الصواب إن شاء الله . لا سيما وقد روى هذا الحديث موصولاً إلى عمر هكذا : عبد الرحمن بن أبي ليلى عن كعب بن عجرة عن عمر وقد روى مسلم في صحيحه وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث أبي عوانه الوضاح عن عبدالله اليشكري ، زاد مسلم والنسائي وأيوب بن عائذ كلاهما عن بكير بن الاخنس عن مجاهد عن عبدالله بن عباس ، قال : ٨٣٧ [فرض الله الصلاة على لسان نبيكم محمد ﷺ في الحضرأربعاًوفي السفرركعتين وفي الخوف ركعة . فكما يصلي في الحضر قبلها وبعدها فكذلك يصلي في السفر] ولا ينافي ما تقدم عن عائشة رضي الله عنها إنمااتفق على أن صلاة السفر ركعتان وأنها تامة غير مقصورة كما هو مصرح به في حديث عمر رضي الله عنه[1] ، فإذا كان كذلك فيكون المراد بقوله تعالى : ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ قصر الكيفية كما في صلاة الخوف ، ولهذا قال : ﴿ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ الآية ولهذا قال بعدها:﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ﴾ الآية فبين المقصود من القصر ها هنا ، وذكر صفته وكيفيته ، ولهذا لما عقد البخاري كتاب صلاة الخوف صدره بقوله: ﴿ وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ـ إلى قوله ـ ان الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ وهكذا قال جويبر عن الضحاك في قوله : ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾قال : ذاك عند القتال يصلي الرجل الراكب تكبير تين حيث كان وجهه .

قال السدي : إن الصلاة إذا صليت ركعتين في السفر ، فهي تمام التقصير لا يحل إلاّ أن يخاف من الذين كفروا أن يفتنوه عن الصلاة فالتقصير ركعة . وقال مجاهد : ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ يوم كان النبي ﷺ وأصحابه بعسفان ، والمشركون

---

(١) راجع الحديث رقم /٨٣٦/

بضجنان فتواقفوا ، فصلى النبي ﷺ بأصحابه صلاة الظهر أربع ركعات بركوعهم ، وسجودهم ، وقيامهم معاً جميعاً فهمّ بهم المشركون أن يغيروا على أمتعتهم واثقالهم ؛ رواه ابن أبي حاتم وابن جرير واختاره بعد ما حكى كثيراً من الأقوال وقال : وهو الصواب .

وروى ابن جرير عن سماك الحنفي قال : ٨٣٨ [سألت ابن عمر عن صلاة السفر فقال : ركعتان تمام غير قصر ، انما القصر في صلاة المخافة ، فقلت : وما صلاة المخافة ؟ فقال : يصلي الإمام بطائفة ركعة ، ثم يجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء ، ويجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء فيصلي بهم ركعة فيكون للإمام ركعتان ولكل طائفة ركعة ركعة .] (٭)

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝ (١٠٢) ﴾

صلاة الخوف أنواع كثيرة ، فإن العدو تارة يكون تجاه القبلة ، وتارة يكون في غير صوبها ، والصلاة تارة تكون رباعية ، وتارة تكون ثلاثية كالمغرب ، وتارة تكون ثنائية كالصبح وصلاة السفر ، ثم تارة يصلون جماعة ، وتارة يلتحم الحرب فلا يقدرون على الجماعة بل يصلون فرادى مستقبلي القبلة وغير مستقبليها ورجالاً وركباناً ، ولهم أن يمشوا والحالة هذه ويضربوا الضرب المتتابع في متن الصلاة ومن العلماء من قال : يصلون والحالة

(٭) هذا الحديث وان كان موقوفاً على ابن عمر إلا أن له حكم المرفوع إذ ليس له أن يقول فيه برأيه لا سيما وان الأحاديث الصحيحة تؤيد ما قاله ابن عمر .

هذه ركعة واحدة لحديث ابن عباس المتقدم [١] وبه قال أحمد ابن حنبل وجماعة من التابعين . وعن محمد بن نصر المروزي أنه يرى رد الصبح إلى ركعة واحدة في الخوف وإليه ذهب ابن حزم أيضاً . وقال ابن راهويه : أما عند المسايفة فتجزيك ركعة واحدة تومىء بها إيماء* . وقال آخرون : يكفي تكبيرة واحدة وإليه ذهب الأمير عبد الوهاب بن بخت المكي حتى قال: فإن لم يقدر على التكبيرة فلا يتركها في نفسه يعني بالنية . رواه سعيد بن منصور في سننه فالله أعلم . ومن العلماء من أباح تأخير الصلاة لعذر القتال كما أخر النبي ﷺ يوم الأحزاب الظهر والعصر فصلاهما بعد الغروب ثم صلى بعدها المغرب ، ثم العشاء وأما الجمهور فقالوا : هذا منسوخ بصلاة الخوف فانها لم تكن نزلت بعد ؛ فلما نزلت ، نُسِخَ تأخير الصلاة لذلك ،وهو الصواب

وقوله تعالى ﴿ واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ﴾ أي إذا صليت بهم إماماً في صلاة الخوف وهذه حالة غير الأولى ، فإن تلك قصرها إلى ركعة كما دل عليه الحديث [٢] فرادى ورجالاً وركباناً مستقبلي القبلة وغير مستقبليها . ثم ذكر حال الاجتماع والائتمام بإمام واحد . وما أحسن ما استدل به من ذهب إلى وجوب صلاة الجماعة من هذه الآية الكريمة حيث اغتفرت أفعال كثيرة لأجل الجماعة فلولا أنها واجبة ما ساغ ذلك .

أما سبب نزول هذه الآية قال ابن جرير عن علي رضي الله عنه قال : ٨٣٩ [سأل قوم من بني النجار رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله إنا نضرب في الأرض فكيف نصلي ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ ثم انقطع الوحي فلما كان بعد ذلك بحول ، غزا النبي ﷺ فصلى الظهر ؛ فقال المشركون لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم ، هلاَّ شددتم عليهم ؟ فقال قائل منهم : إن لهم أخرى مثلها في أثرها ، قال : فأنزل الله تعالى بين الصلاتين : ﴿ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ فنزلت صلاة الخوف ،] وهذا سياق غريب جداً ولكن لبعضه شاهد من رواية أبي عياش الزرقي واسمه زيد بن الصامت رضي الله عنه عند الإمام أحمد وأهل السنن ، فقال الإمام أحمد عن أبن عياش الزرقي قال : ٨٤٠ [كنا مع رسول الله ﷺ بعسفان ، فاستقبلنا المشركون عليهم خالد بن الوليد وهم بيننا وبين القبلة فصلى بنا رسول الله ﷺ الظهر ، فقالوا : لقد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم ، ثم قالوا : يأتي عليهم الآن صلاة هي أحب اليهم من أبنائهم وأنفسهم ، قال : فنزل جبريل

---

(١) راجع الحديث رقم ٨٣٧ . * : هذا من كلامي

(٢) حديث ابن عباس نفسه

بهذه الآيات بين الظهر والعصر : ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ﴾ قال : فحضرت فأمرهم رسول الله ﷺ فأخذوا السلاح ، قال : فصفّنا خلفه صفّين ، قال : ثم ركع فركعنا جميعاً ثم رفع فرفعنا جميعاً ، ثم سجد النبي ﷺ بالصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم ، فلما سجدوا وقاموا جلس الآخرون فسجدوا في مكانهم ، ثم تقدم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ، ثم هؤلاء إلى مصاف هؤلاء ، ثم ركع فركعوا جميعاً ، ثم رفع فرفعوا جميعاً ثم سجد النبي ﷺ والصف الذي يليه والآخرون قيام يحرسونهم ، فلما جلسوا جلس الآخرون فسجدوا ثم سلم عليهم ، ثم انصرف قال فصلاها رسول الله ﷺ مرتين : مرةً بعسفان ، ومرة بأرض بني سليم .] ورواه أحمد وأبو داود والنسائي وعبد العزيز بن عبد الصمد كلهم عن منصور به ، وهذا اسناد صحيح وله شواهد من البخاري ومسلم وابن أبي حاتم .

وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية وهو أحد قولي الشافعي ويدل عليه قول الله تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم ﴾ أي بحيث تكونون على أهبة إذا احتجتم اليها لبستموها بلا كلفة ﴿ إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ﴾

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰباً مَوْقُوتاً ۞ (١٠٣) وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَاءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ۞ (١٠٤) ﴾

يأمر الله تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف وإن كان مشروعاً مرغباً فيه أيضاً بعد غيرها ، ولكن ها هنا أكد لما وقع فيها من التخفيف في أركانها ، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب ، وغير ذلك مما لا يوجد في غيرها ، كما قال تعالى في الأشهر الحرم ﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ وان كان منهياً عنه في سائر الاشهر ولكن في الأشهر الحرم أكد لحرمتها وعظمها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فاذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً

وعلى جنوبكم ﴾ أي في سائر أحوالكم ثم قال تعالى : ﴿ فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ﴾ أي فإذا أمنتم وذهب الخوف فأتموا الصلاة وأقيموها بأركانها .

وقوله تعالى : ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ أي مفروضاً ووقتها كوقت الحج [١] قاله ابن عباس وقيل منجماً كلما مضى نجم جاء نجم أي كلما مضى وقت جاء وقت .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تهنوا في ابتغاء القوم ﴾ أي لا تضعفوا في طلب عدوكم بل قاتلوهم وأرصدوهم ﴿ إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون ﴾ أي يصيبكم الجراح والقتل كذلك يحصل لهم ، كما قال تعالى : ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ ثم قال تعالى ﴿ وترجون من الله ما لا ترجون ﴾ أي ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد وهم لا يرجون شيئاً من ذلك فأنتم أولى منهم بالجهاد وأشد رغبة فيه لتعلوا كلمة الله ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ أي هو أعلم وأحكم فيما يقدّره ويقضيه ويمضيه، في احكامه الشرعية والكونية وهو المحمود على كل حال .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَىٰكَ ٱللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۞ (١٠٥) وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ (١٠٦) وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۞ (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۞ (١٠٨) هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ۞ (١٠٩) ﴾

---

(١) أي إذا خرج وقتها لم يعد الوقت الثاني وقتها إنما هو وقت الصلاة التي تليها لذا فليس لمخرج الصلاة عن وقتها صلاة يصليها في الوقت... الآخر إنما قد ارتكب إثماً عظيماً نرجو الله أن يغفره بالتوبة النصوح، والعزم على عدم العودة إلى إخراجها عن وقتها، وان القول بقضاء الفائتة تسبب للناس إخراج الصلاة عن وقتها بل وتركها والعياذ بالله.

يقول تعالى مخاطباً رسوله ﷺ : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ أي هو حق من الله وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه ؛ وقوله تعالى : ﴿ لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ احتج به من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له ان يحكم بالاجتهاد بهذه الآية وبما ثبت في الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال : ٨٤١ [ألا انما أنا بشر وإنما أقضي بنحوٍ مما أسمع ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له. فمن قضيت له بحقٍّ مسلم، فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو ليذرها .] ورواه الامام أحمد قريباً منه وزاد ابو داود على رواية أحمد: ٨٤٢ [إنما أقضي بينكما برأي فيما لم ينزل عليَّ فيه]

وقد روى ابن مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس : ٨٤٣ [إن نفراً من الأنصار غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته ، فسرقت درع لأحدهم ، فأظنَّ بها رجل من الأنصار فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال : إن طعمة بن أبيرق سرق درعي فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل بريء وقال لنفر من عشيرته : إني غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان وستوجد عنده . فانطلقوا إلى نبي الله ﷺ ليلاً فقالوا : يا نبي الله أن صاحبنا بريء وإن صاحب الدرع فلان ، وقد أحطنا بذلك علماً ، فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس ، وجادل عنه ، فانه إن لم يعصمه الله بك يهلك ، فقام رسول الله ﷺ ، فبرأه وعذره على رؤوس الناس [1] فأنزل الله تعالى : ﴿ إنا انزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً . واستغفر الله ان الله كان غفوراً رحيماً ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾ الآية .]

ثم قال تعالى للذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب : ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ﴾ الآيتين ، يعني الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين يجادلون عن الخائنين : أي عن السارق والذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب ، ولا يستخفون من الله وهذا إنكار على المنافقين في كونهم يستخفون بقبائحهم من الناس لئلاَّ ينكروا عليهم ويجاهرون الله بها ، لأنه مطلع على سرائرهم ، ولهذا قال : ﴿ وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً ﴾ تهديد لهم ووعيد ثم قال تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا ﴾ الآية أي هب ان هؤلاء انتصروا في الدنيا بما أبدوه أو أبدي لهم عند الحكام الذين يحكمون بالظاهر وهم متعبدون بذلك فماذا يكون

(١) وهذا دليل على عدم معرفة الغيب من أحد ، حتى ولا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما أطلعه الله عليه. فلينتبه المبطلون . . .

صنيعهم يوم القيامة بين يدي الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى ؟ ومن ذا الذي يتوكل لهم يومئذ في ترويج دعواهم ؟ أي لا أحد يومئذ يكون لهم وكيلاً ولهذا قال : ﴿ أم من يكون عليهم وكيلاً ﴾ .

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً ۝ (١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْماً فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ۝ (١١١) وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ۝ (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ۝ (١١٣) ﴾

يخبر تعالى عن كرمه أن كل من تاب إليه تاب عليه من أي ذنب كان. فقال تعالى : ﴿ ومن يعمل سوءً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ قال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس انه قال في هذه الآية : اخبر الله عباده بعفوه وكرمه ومغفرته ، فمن اذنب ذنباً صغيراً أو كبيراً ﴿ ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال . رواه ابن جرير

وقال ابن مردويه عن كعب بن ذهل الأزدي ، قال سمعت أبا الدرداء يحدث قال : كان رسول الله ﷺ إذا جلسنا حوله وكانت له حاجة فقام إليها وأراد الرجوع ، ترك نعليه في مجلسه أو بعض ما عليه وانه قام فترك نعليه ، قال ابو الدرداء : فأخذ ركوة من ماء فاتبعته فمضى ساعةً ثم رجع ولم يقضِ حاجته ، فقال : ٨٤٤ [إنه أتاني آتٍ من ربي فقال : انه : ﴿ من يعمل سوءً أو يظلم نفسه يُجزَ به ﴾ فقلت : يا رسول الله وإن زنى وإن سرق ، ثم استغفر ربه غفر له ؟ قال « نعم » ثم قات الثانية ، قال « نعم » . قلت الثالثة قال : « نعم » وإن زنى وإن سرق ثم استغفر الله ، غفر الله له على رغم أنف أبي

الدرداء . قال فرأيت أبا الدرداء يضرب أنف نفسه بأصبعه] هذا حديث غريب جداً من هذا الوجه بهذا السياق وفي اسناده ضعف [١]

وقوله تعالى : ﴿ ومن يكسب إثماً فإنّما يكسبه على نفسه ﴾ الآية كقوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ الآية يعني أنه لا يغني أحد عن أحد وإنما على كل نفس ما عملت لا يحمل عنها غيرها ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ أي من علمه وحكمته ، وعدله ورحمته كان ذلك ، ثم قال : ﴿ ومن يكسب خطيئةً أو إثماً ثم يرمِ به بريئاً ﴾ الآية يعني كما اتهم بنو أبيرق بصنيعهم القبيح ذلك الرجل الصالح وهو لبيد بن سهل ، وقد كان بريئاً وهم الظلمة الخونة ، كما أطْلَعَ الله على ذلك رسولَهُ ﷺ ، ثم هذا التقريع عام فيهم وفي غيرهم ممن اتصف بصفتهم فارتكب مثل خطيئتهم فعليه مثل عقوبتهم .

وقوله تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمّت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلاّ أنفسهم وما يضرّونك من شيء ﴾ قال الإمام ابن أبي حاتم عن قتادة الأنصاري ... وذكر قصة بني أبيرق فأنزل الله تعالى : ﴿ لهمّت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء ﴾ يعني أسيد بن عروة وأصحابه ، يعني بذلك لما أثنوا على بني أبيرق ولاموا قتادة بن النعمان في كونه اتهمهم وهم صلحاء برآء ، ولم يكن الأمر كما أنهوه إلى رسول الله ﷺ ، ولهذا انزل الله فصل القضية وجلاءها لرسول الله ﷺ ثم امتنّ عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال ، وعصمته له ، وما أنزل عليه من الكتاب وهو القرآن ، والحكمة وهي السنّة ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾ أي قبل نزول ذلك عليك كقوله تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ﴾ وقال تعالى : ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمةً من ربك ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾

نصف الحزب

﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ۝ (١١٤) وَمَنْ يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ۝ (١١٥) ﴾

(١) ولكنّ له شاهداً من الصحيح سبق ذكره عن أبي ذر

يقول تعالى : ﴿ لا خير في كثير من نجواهم ﴾ يعني كلام الناس ﴿ إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ﴾ أي إلا نجوى من قال ذلك ، كما جاء في الحديث الذي رواه ابن مردويه عن أم حبيبة قالت : قال رسول الله ﷺ ٨٤٥ [كلام ابن آدم كله عليه لاله ، إلا ذكر الله عز وجل ، أو أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر »]

روى الامام أحمد عن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول :٨٤٦ [« ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً ، أو يقول خيراً » وقالت : « لم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث : « في الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها »] وكانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتي بايعن رسول الله ﷺ . وقد رواه الجماعة سوى ابن ماجه .

روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ ٨٤٧ [« ألاأخبركم بأفضل من درجة الصيام ، والصلاة ، والصدقة » قالوا : بلى يا رسول الله . قال : «إصلاح ذات البين » قال « وفساد ذات البين هي الحالقة »] ورواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح .

وقال تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله ﴾ أي مخلصاً محتسباً ﴿ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ أي ثواباً جزيلاً واسعاً .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ﴾ أي ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ فصار في شق ، والشرع في شق ، وذلك عن عمد منه بعد ما ظهر له الحق وتبين له واتضح . وقوله تعالى : ﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ هذا ملازم للصفة الاولى ، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع وقد تكون المخالفة لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً ، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريفاً لهم ، وتعظيماً لنبيهم ؛ وقد وردت احاديث كثيرة صحيحة في ذلك . ومن العلماء من ادعى تواتر معناها . والذي عول عليه الشافعي رحمه الله تعالى في الاحتجاج على كون الإجماع حجة ، تحرم مخالفته هذه الآية الكريمة بعدالتروي والتفكير وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها ، ومنهم من استشكل ذلك فاستبعد الدلالة منها على ذلك . ولهذا توعد تعالى على ذلك بقوله تعالى : ﴿ نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ أي إذا سلك طريق غير المؤمنين جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره ، ونزينها

استدراجاً له كما قال تعالى : ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ وجعل النار مصيره في الآخرة وما بعد الحق الا الضلال .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيداً * (١١٦) إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً * (١١٧) لَعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً * (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ ٱلْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً * (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً * (١٢٠) أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصاً * (١٢١) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا * (١٢٢) ﴾

قد تقدم الكلام على هذه الآية الكريمة ، وهي قوله تعالى : ﴿ ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وذكرنا ما يتعلق بها من الأحاديث في صدر هذه السوره[١] وقوله تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ أي فقد سلك غير الطريق الحق وضل عن الهدى وبعد عن الصواب ، وأهلك نفسه وخسرها في الدنيا والآخرة وفاتته سعادتهما .

وقوله تعالى : ﴿ إن يدعون من دونه إلا إناثاً ﴾ وقال ابن جرير عن الضحاك في الآية قال المشركون للملائكة ، بنات الله ؛ وإنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، قال : فاتخذوهن أرباباً وصوروهن جواري فحكموا وقلدوا وقالوا : هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبده ، يعنون الملائكة ، وهذا التفسير شبيه بقوله تعالى : ﴿ افرأيتم اللات والعزى ﴾

---

(١) عند الآية رقم /٤٨/ من هذه السورة والأحاديث رقم /٧٥١/ و /٧٥٢/ و /٧٥٣/ و /٧٥٤/

الآيات ... وقوله تعالى : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ . وقوله تعالى: ﴿ وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً ﴾ أي هو الذي أمرهم بذلك وحسنه وزينه لهم ، وهم إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر ، كما قال تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألاّ تعبدوا الشيطان ﴾ الآية وقوله تعالى : ﴿ لعنه الله ﴾ أي طرده من رحمته ؛ وقال تعالى حكايةً عنه : ﴿ لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ﴾ أي معيّناً مقدراً معلوماً ﴿ ولأضلّنهمّ ﴾ أي عن الحق ﴿ ولأمنيّنهم ﴾ أي أزين لهم ترك التوبة ، وأعدهم الأماني ، وآمرهم بالتسويف وأغرهم من أنفسهم ؛ وقوله تعالى : ﴿ ولآمرنّهم فليبتكنّ آذان الأنعام ﴾ يعني تشقيقها وجعلها سمةً ، وعلامةً للبحيرة ، والسائبة ، والوصيلة .[1] ﴿ ولآمرنّهم فليغيرنّ خلق الله ﴾ كخصي الدواب والوشم وفي الصحيح عن ابن مسعود أنه قال : ٨٤٨ [لعن الله الواشمات والمستوشمات ؛ والنامصات والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عز وجل ثم قال ألا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ وهو في كتاب الله عز وجل : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ وعن ابن عباس وجماعة من التابعين في قوله تعالى : ﴿ ولآمرنّهم فليغيرنّ خلق الله ﴾ أي دين الله عز وجل ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ أي لا تبدلوا فطرة الله ودعوا الناس على فطرتهم كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله (ص : ٨٤٩ (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تجدون بها من جدعاء ثم قال تعالى : ﴿ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ﴾ أي فقد خسر الدنيا والآخرة ، وقوله تعالى : ﴿ يعدهم ويمنّيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان ... ﴾

وقوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ أي المستحسنون له فيما وعدهم ومنّاهم ﴿ مأواهم جهنم ﴾ أي مآلهم يوم القيامة ﴿ ولا يجدون عنها محيصاً ﴾ أي مخلص منها ثم ذكر تعالى حال السعداء والأتقياء فقال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي صدقت قلوبهم وعملت جوارحهم بما أمروا به وتركوا ما نهوا عنه ﴿ سندخلهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار

---

(١) البحيرة : هي التي يمنع درها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس . والسائبة : كانوا يسيبونها لآلهتهم لا يحمل عليها شيء . والوصيلة : الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل بل تثنى بعد بأنثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت احداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر (ابن كثير) من سورة المائدة الآية (١٠٣) .

خالدين فيها أبداً ﴾ أي بلا زوال ولا انتقال ﴿ وعد الله حقاً ﴾ أي واقع لا محالة ﴿ ومن أصدق من الله قيلا ﴾ أي لا أحد أصدق منه قولاً أي خبراً لا إله الا هو ولا رب سواه وكان رسول الله ﷺ يقول : ٨٥٠ [إن أصدق الحديث كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .]

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ۝ (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ۝ (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا ۝ (١٢٦) ﴾

قال قتادة : ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم . وقال المسلمون : نحن أولى بالله منكم ونبينا خاتم النبيين وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله فأنزل الله تعالى : ﴿ ليس **بأمانيكم** ولا أمانيّ أهل الكتاب من يعمل سوءً يجزَ به ﴾ والمعنى أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال وليس كل من ادعى شيئاً حصل له بمجرد دعواه ، ولا كل من قال أنه على الحق سمع قوله بمجرد ذلك ، حتى يكون له من الله برهان والعبرة بطاعة الله سبحانه واتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام ولهذا قال : ﴿ **من يعمل سوءً يجزَ به** ﴾ وقد روي أن هذه الآية شقّت على كثير من الصحابة

• روى الإمام أحمد عن أبي بكر الصديق انه قال : ٨٥١ [يا رسول الله **كيف الفلاح** بعد هذه الآية ﴿ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءً يجز به ﴾ **فكل سوء** عملناه جزينا به ؟ فقال رسول الله ﷺ « **غفر الله لك يا أبا بكر ألست تمرض ، ألست**

تنصب ، ألست تحزن ، ألست تصيبك اللأواء ؟ » قال : بلى قال : « فهو مما تجزون به »]
ورواه سعيد بن منصور به ورواه ابن حبان به .

• روى ابن جرير عن عطاء بن أبي رباح قال : ٨٥٢ [لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر : جاءت قاصمة الظهر ، فقال رسول الله ﷺ « إنما هي المصيبات في الدنيا »]

روى سعيد بن منصور عن أبي هريرة قال : ٨٥٣ [لما نزلت : ﴿ من يعمل سوءً يجزَ به ﴾ شق ذلك على المسلمين ، فقال لهم رسول الله ﷺ « سدّدوا وقاربوا فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها »] وهكذا رواه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وقوله تعالى : ﴿ ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ إلاّ أن يتوب فيتوب الله عليه رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس . وقوله تعالى : ﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن [(١)] ﴾ الآية ، لما ذكر الجزاء على السيئات وأنه لا بد أن يأخذ مستحقها من العبد إما في الدنيا أو الآخرة والصفح والعفو والمسامحة ، شرع في بيان إحسانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده ، ذُكرانهم وإناثهم بشرط الإيمان وانه سيدخلهم الجنة ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقير وهو النقرة التي في ظهر نواه التمرة ، وقد تقدم الكلام على الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة ، وهذا النقير وهما في نواة التمرة ، والقطمير وهو اللفافة التي على نواة التمرة والثلاثة في القرآن . ثم قال تعالى : ﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله ﴾ أي أخلص العمل لربه عز وجل فعمل إيماناً واحتساباً ، ﴿ وهو محسن ﴾ أي اتبع في عمله ما شرعه الله له ، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق . وهذان الشرطان لا يصح عمل بدونهما . والصواب دائماً يكون متابعاً للشريعة فمن تابع الشريعة وصح ظاهره بذلك وكان باطنه مخلصاً وصحيحاً كظاهره كان عمله مقبولاً ، ولكن إذا فقد الأخلاص كان منافقاً ، وإذا فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً ومتى جمعهما كان عمله عمل المؤمنين الذي يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيآتهم ، الآية . ولهذا قال تعالى : ﴿ واتبع ملة ابراهيم حنيفاً ﴾ وهم محمد وأتباعه إلى يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم لَلّذين اتبعوه وهذا النبي ﴾ الآية وقال تعالى : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشركين والحنيف هو المائل عن الشرك قصداً أي تاركاً له عن بصيرة ، ومقبل على الحق بكليته لا يصده عنه صاد .

---

(١) قلت : وهكذا فإن الإيمان أساس كل عمل وبدونه لا يقبل أي عمل صالح ولو كان زنة السموات والأرض قال الله تعالى : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً » .

وقوله تعالى : ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ وهذا من باب الترغيب في اتباعه ، لأنه إمام يقتدى به حيث وصل إلى غاية ما يتقرب به العباد له ، فإنه انتهى إلى درجة الخلة التي هي أرفع مقامات المحبة وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه ، كما وصفه به في قوله تعالى : ﴿ وابراهيم الذي وفى ﴾ قال كثير من علماء السلف : أي قام بجميع ما أمر به ، وفي كل مقام من مقامات العبادة فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير ، ولا كبير عن صغير وقال تعالى : ﴿ إن ابراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ﴾ الآية والآية بعدها. وقال البخاري عن عمرو بن ميمون قال : إن معاذاً لما قدم اليمن صلى بهم الصبح فقرأ : ﴿ واتخذ الله ابراهيم خليلاً ﴾ فقال رجل من القوم : لقد قرت عين أم ابراهيم . وقد ثبت في الصحيحين من رواية أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها ، قال : ٨٥٤ [أما بعد ، أيها الناس فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلاً ولكن صاحبكم خليلُ الله] وجـاء من طريق جندب ابن عبدالله بسنده إلى عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال : ٨٥٥ [إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ ابراهيم خليلاً] . وقوله تعالى : ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي الجميع ملكه وعبيده وخلقه وهو المتصرف في جميع ذلك[1] لاراد لما قضى ، ولا معقب لما حكم ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته. وقوله تعالى : ﴿ وكان الله بكل شيء محيطاً ﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك لاتخفى عليه خافية من عباده ولا يعزب عن علمه مثقـال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر . (وهو عليّ على خلقه ، بائن عنهم ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾)

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي ٱلنِّسَاءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَابِ فِي يَتَامَى ٱلنِّسَاءِ ٱللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِٱلْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيماً ﴿١٢٧﴾ ﴾

---

(١) قلت : ولكن رغم كل ما في القرآن الكريم من التصريح بأن لله ملك السموات والأرض، تسمع من حلقات الذكر البدعية اليوم، أصواتاً منكوة تقول : (عبد القادر الجيلاني المتصرف بالأكوان) ونسوا أن المتصرف في الأكوان (هو القادر) جل وعلا لا (عبد القادر) اللهم نعوذ بك من الكفر ومن سوء المنقلب .

قال البخاري عن عائشة رضي الله عنها في هذه الآية : ﴿ ويستفتونك في النساء... ﴾ قالت : هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها ، فأشركته في ماله حتى في العذق، فيرغب أن ينكحها، ويكره أن يزوجها رجلاً فيشركه في ماله بما شركته ، فيعضلها. فنزلت هذه الآية وكذلك رواه مسلم . والمقصود : ان الرجل اذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها ، فتارة يرغب في أن يتزوجها ، فأمره الله تعالى أن يمهرها أسوة أمثالها من النساء ، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء، فقد وسّع الله عز وجل. وهذا المعنى في الآيات الأولى التي في أول السورة .[1] وتارة لا يكون له رغبة لدمامتها عنده أو في نفس الأمر ، فنهاه الله عز وجل أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه في ماله الذي بينه وبينها ، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية وهي قوله تعالى : ﴿ في يتامى النساء ﴾ كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقى عليها ثوبه فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً ، فإن كانت جميلة وهويها ، تزوجها وأكل مالها ، وان كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت فإذا ماتت ورثها فحرم الله ذلك ونهى عنه . وقال في قوله تعالى : ﴿ والمستضعفين من الولدان ﴾ كانوا في الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات وذلك قوله تعالى : ﴿ لا تؤتونهن ما كتب لهن ﴾ فنهى الله عن ذلك وبيّن لكل سهم سهمه فقال تعالى : ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ صغيراً أو كبيراً قال سعيد بن جبير في قوله تعالى ﴿ وأن تقوموا لليتامى بالقسط ﴾ إن كانت ذات جمال ومال نكحتها واستأثرت بها ، كذلك إذا لم تكن ذات جمال فأنكحها واستأثر بها . وقوله تعالى : ﴿ وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً ﴾ تهيجاً على فعل الخيرات وامتثالاً للأوامر ، وأنه تعالى عالم بجميع ذلك ، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه .

۞ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ۞ (١٢٨) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ ٱلنِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ

(١) راجع الآية ٢ و ٣ من سورة النساء

فَلا تَمِيلُوا كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ❁ (١٢٩) وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ ٱللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً ❁ (١٣٠)

يخبر تعالى مشرِّعاً من حال الزوجين: تارة في حال نفور الرجل عن المرأة ، وتارة في حال اتفاقه معها ، وتارة في حال فراقه لها . فالحالة الأولى ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر أو يعرض عنها ، فلها أن تسقط عنه حقها أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من حقوقها عليه وله ان يقبل ذلك منها فلا حرج عليها في بذلها ذلك له ، ولا عليه في قبوله منها. ولهذا قال تعالى: ﴿ فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ والصلح خير ﴾ أي من الفراق. ولهذا لما كبرت سودة بنت زمعة عزم رسول الله ﷺ على فراقها فصالحته على أن يمسكها وتترك يومها لعائشة، فقبل ذلك منها وأبقاها على ذلك[1] .

روى ابو داود الطيالسي عن ابن عباس قال : ٨٥٦ [خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، لا تطلقني وأجعلُ يومي لعائشة ففعل ونزلت هذه الآية: ﴿ وإن امرأة خافت... ﴾ قال ابن عباس : فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز] ورواه الترمذي وقال حسن غريب وفي الصحيحين عن عائشة قالت: ٨٥٧ [لما كبرت سودة بنت زمعة وهبت يومها لعائشة فكان النبي ﷺ يقسم لها بيوم سودة] وفي صحيح البخاري عن عائشة نحوه.

روى البخاري عن عائشة : الرجل تكون عنده المرأة المسنة ليس بمستكثر منها يريد ان يفارقها فتقول: أجعلك من شأني في حل، فنزلت هذه الآية: ﴿ وإن امرأة خافت... ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والصلح خير ﴾ أي صلحها على ترك بعض حقّها للزوج وقبول الزوج ذلك خير من المفارقة بالكلية كما أمسك النبي ﷺ سوده بنت زمعة وقد فعل ﷺ ذلك لتتأسّى به أمته في مشروعية ذلك وجوازه فهو أفضل في حقه عليه الصلاة والسلام . ولما كان الوفاق أحبَّ إلى الله من الفراقِ قال تعالى : ﴿ والصلح خير ﴾ بل الطلاق بغيض إليه سبحانه وتعالى . وقوله تعالى : ﴿ وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ وان تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن وتقسموا لهن كأمثالهن فإن الله عالم بذلك وسيجزيكم أوفر الجزاء . وقوله تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ أي لن تستطيعوا أيها الناس المساواة بين النساء من جميع الوجوه فإنه وإن وقع

(١) وقصده صلى الله عليه وسلم تعليم أمته وإلا فهو الرؤوف الرحيم بسائر أمته فكيف بزوجه نداه أبي وأمي وقصده من إمساكها ، بقاء الزوجية بينهما لتضمن لنفسها الجنة، لأن نساءه يحشرن معه

القسم الصوري ليلةً ليلةً فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع . قاله ابن عباس وجماعة من التابعين وقال ابن أبي حاتم عن ابن أبي مليكة قال : نزلت هذه الآية : ﴿ ولن تستطيعوا ... ﴾ في عائشة ، يعني أن النبي ﷺ كان يحبها أكثر من غيرها ؛ كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن عائشة قالت : ٨٥٨ [كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول « اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » يعني القلب]

وقوله تعالى : ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾ أي لا تبالغوا في الميل بالكلية ﴿ فتذروها كالمعلقة ﴾ لا ذات زوج ولا مطلقة . روى أبو داود الطيالسي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ٨٥٩ [من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما[1] ، جاء يوم القيامة وأحد شقّيه ساقط] وهكذا رواه الإمام أحمد وأهل السنن. وقوله تعالى : ﴿ وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ أي إن أصلحتم في أموركم وقسمتم بالعدل فيما تملكون واتقيتم الله في جميع الأحوال غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض ثم قال تعالى : ﴿ وإن يتفرقا يغنِ الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيماً ﴾ وهذه الحالة الثالثة وهي حالة الفراق وقد أخبر الله تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها ويغنيها عنه ويعوض لكل خيراً ﴿ وكان الله واسعاً حكيماً ﴾ أي واسع الفضل ، عظيم المنّ ، حكيماً في جميع أفعاله وأقداره وشرعه .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيداً ۞ (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۞ (١٣٢) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيراً ۞ (١٣٣) مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً ۞ (١٣٤) ﴾

---

(١) ليس الميل هنا، الميل القلبي... فهذا بيد الله تعالى، ولا يستطيع أحد أن يبدي فيه ولا يعيد، إنما الميل المنهي عنه في هذا الحديث : هو الميل في المعاملة ؛ كأن ينام هنا ليلة ، وينام هناك أكثر ، أو يشتري لهذه أشياء من مأكل وكساء دون الأخرى ، فلا يعدل في المعاملة ... فهذا الذي يأتي يوم القيامة ، وشقّه ساقط. والله أعلم.

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض والحاكم فيهما ولهذا قال : ﴿ ولقد وصّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم ﴾ أي وصيناكم بما وصيناهم به من تقوى الله عز وجل بعبادته وحده لا شريك له ، ثم قال: ﴿ وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ الآية.كقوله تعالى : ﴿ فكفروا وتولوّا واستغنى الله والله غني حميد ﴾ أي غني عن عباده ﴿ حميد ﴾ أي محمود في جميع ما يقدّره ويشرّعه ؛ وقوله تعالى : ﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾ أي هو القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب الشهيد على كل شيء . وقوله تعالى: ﴿ إن يشأ يذهبْكم أيها الناس ويأتِ بآخرين وكان الله على ذلك قديراً ﴾ أي هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه ، كما قال تعالى : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ قال بعض السلف : ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره.وقال تعالى:﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ﴾ أي : يا من ليس له هم إلاّ الدنيا ، إعلم أن عند الله ثواب الدنيا والآخرة وإذا سألته مِنْ هذه وهذه أعطاك وأغناك كما قال تعالى : ﴿ فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . أولئك لهم نصيب مما كسبوا ﴾ الآية فلا يقتصرنّ قاصر الهمة على السعي للدنيا فقط ، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة ، فإن مرجع ذلك كله، إلى الذي بيده الضر والنفع ، وهو الله سبحانه لا إله إلا هو الذي قسم السعادة والشقاوة بين الناس في الدنيا والآخرة وعدل بينهم فيما علمه فيهم ممن يستحق هذا وممن يستحق هذا . ولهذا قال تعالى: ﴿ وكان الله سميعاً بصيراً ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَالِدَيْنِ وَٱلأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ۞ (١٣٥) ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوّامين بالقسط أي بالعدل ، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالا ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، وأن تناصروا فيه . وقوله تعالى : ﴿ شهداء لله ﴾ أي أدّوا شهادتكم لله وابتغاء وجهه تعالى ، فحينئذ تكون صحيحة غير محرّفة . ولهذا قال تعالى : ﴿ ولو على أنفسكم ﴾ أي أشهد الحق ولو عادت مضرته عليك ، فإن الله سيجعل لمن اطاعه فرجاً من كل ضيق . وقوله تعالى : ﴿ أو الوالدين والأقربين ﴾ أي وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك فلا تراعيهم واشهد الحق وإن تضرروا ، فإن الحق حاكم على كل أحد .

وقوله تعالى : ﴿ إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ﴾ أي لا ترعاه لغناه ، ولا تشفق عليه لفقره فالله أولى بهما منك . وقوله تعالى : ﴿ فلا تتّبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ أي فلا يحملنكم الهوَى والعصبيةُ والبغضُ على ترك العدل في أموركم بل الزموا العدل كما قال تعالى ﴿ ولا يجرمنّكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإن تلووا أو تعرضوا ﴾ أي تحرفوا الشهادة وتغيروها . واللّيُّ هو التحريف وتعمُّد الكذب . كما قال تعالى : ﴿ وإن منهم لفريقاً يلْوون ألسنتهم بالكتاب ﴾ والإعراض هو كتمان الشهادة وتركها . كما قال تعالى : ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ ، وقال النبي ﷺ ٨٦٠ [خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يُسألها) وقولــه تعالى : ﴿ فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ أي سيجازيكم على كتمانها .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل، بل من باب تكميل الكامل وتثبيته، والاستمرار عليه كما يقول المؤمن في صلاته : ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ أي بصّرنا فيه وزِدْنا هدى وثبتنا عليه فأمرهم بالإيمان به وبرسوله . وقوله تعالى : ﴿ والكتاب الذي نزّل على رسوله ﴾ يعني القرآن ﴿ والكتاب الذي أنْزل من قبلُ ﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة .

وقال في القرآن نزَّلَ لأنه نزل مفرقاً منجماً على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم ، وأما الكتب المتقدمة ، فكانت تنزل جملة واحدة لهذا قال تعالى : ﴿ والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ ثم قال تعال : ﴿ ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ أي فقد خرج عن طريق الهدى ، وبعد عن القصد كل البعد .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ٱزْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ ٱللهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ❁ (١٣٧) بَشِّرِ ٱلْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ❁ (١٣٨) ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً ❁ (١٣٩) وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ ٱللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ ٱللهَ جَامِعُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً ❁ (١٤٠)

يخبر تعالى عمن دخل في الايمان ثم تردّد بين الإيمان والكفر ثم ازداد كفراً حتى مات . فإنه لا يغفر الله له لأنه لم يمت إلا وقد زاد كفراً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ﴾ وعن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ ثم ازدادوا كفراً ﴾ قال : تمادوا على كفرهم حتى ماتوا ، وعن علي رضي الله عنه أنه قال:يستتاب المرتد ثلاثاً ثم تلا هذه الآية : ﴿ ان الذين آمنوا ثم كفروا ــ إلى قوله ــ سبيلاً ﴾ ثم قال : ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما ﴾ يعني إن المنافقين من هذه الصفة ، فانهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ، لأنهم أظهروا أنهم مع المؤمنين ثم قالوا للكفار إنما نحن معكم إنما نحن مستهزئون ، أي بالمؤمنين ، في إظهارنا لهم الموافقة فأنكر الله عليهم بقوله تعالى : ﴿ أيبتغون عندهم العزة ﴾ ثم أخبر تعالى بأن العزة كلها له وحده لاشريك له ولمن جعلها له كما قال تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله

وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ والمقصود طلب العزة من الله والإقبال على عبوديته ، والأنتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا والآخرة .، ويناسب هذا ما رواه الإمام أحمد عن أبي ريحانة أن النبي ﷺ قال : ٨٦١ [من انتسب إلى تسعة أباء كفار يريد بهم عزاً وفخراً ، فهو عاشرهم في النار] تفرد به أحمد .

وقوله تعالى : ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم ﴾ أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ورضيتم بالجلوس معهم وأقررتموهم [1] على ذلك فقد شاركتموهم في الذي هم فيه فلهذا قال تعالى : ﴿ إنكم إذاً مثلهم ﴾ في المأثم كما في الحديث : ٨٦٢ [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر] وقوله تعالى : ﴿ إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً ﴾ أي كما أشركوهم في الكفر كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم .

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ۞ (١٤١) ﴾

يخبر تعالى عن المنافقين:ينتظرون زوال دولتكم وظهور الكفار عليكم وذهاب دينكم ﴿ فان كان لكم فتح من الله ﴾ أي نصر وغنيمة ﴿ قالوا ألم نكن معكم ﴾ أيّ يتوددّون للمؤمنين بهذه المقالة ﴿ وإن كان للكافرين نصيب ﴾ أي انتصر الكافرون كما وقع يوم أحد فإن الرسل تُبتلى ثم تكون العاقبة لهم ﴿ قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ﴾ أي ساعدناكم باطناً فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم وماذاك إلا لضعف ايمانهم.قال تعالى : ﴿ فالله يحكم بينكم يوم القيامة ﴾ أي

(١) قوله : (وأقررتموهم) الإقرار على الكفر كفر، إن جلس مع المستهزئين أو لم يجلس.وما أظن أن في الآية معنى الإقرار إنما فيها مجرد الاستمرار في الجلوس مع المستهزئين مع استطاعة القيام وهجر المجلس نعم ان مجرد الأستمرار في الجلوس حكمه أنه مثلهم تغليظاً له لرضائه عن البقاء في مجلس يستهزأ فيه بآيات الله .

أيها المنافقون يعلم الله بواطنكم ، فلا تغترّوا بما له تعالى من الحكمة في جريان حكم الشريعة عليكم ظاهراً،فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم . وقوله تعالى : ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ قال ابن عباس : ذاك يوم القيامة أي فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً كما قال رضي الله عنه ويحتمل أن يكون المعنى : أي لن يجعل للكافرين في الدنيا سبيلاً على المؤمنين بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان ، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة [١] وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية الكريمة على منع بيع العبد المسلم للكافرين ، لما في صحة ابتياعه من التسليط لهم عليه والإ ذلال ، وفي هذا يكون للكافر على العبد المسلم سبيل ، ويكون هذا العمل مخالفاً للآية المتقدمة ولذلك حرم بيع العبد المسلم للكافر .

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ (١٤٢) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ۝ (١٤٣) ﴾

قد تقدم في أول سورة البقرة قولـه تعالى : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ [٢] وقال ههنا : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ ولا شك أن الله لا يخادع فإنه العالم بالسرائر ولكن المنافقين لقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً ، فكذلك يكون حكمهم عند الله يوم القيامة ، وأن أمرهم يروج عنده.كما قال تعالى : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ﴾ الآية ؛ وقوله تعالى : ﴿ وهو خادعهم ﴾ أي هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ، ويخذلهم عن الوصول إلى الحق في الدنيا وكذلك يوم القيامة وقد ورد في الحديث : ٨٦٣

---

(١) قلت : إن الله تعالى لن يجعل للكافرين حجة ولا نصراً عليهم.أي على المؤمنين ما داموا مؤمنين حقاً وإن الله ليضيع من دولة المسلمين بقدر ما يضيع أهلها من دينهم فإن حكموا بما أنزل الله في جميع شئونهم العامة والخاصة كان الله معهم وقواهم على أعدائهم وإلا فحالتنا اليوم تدل على أن الله تعالى نصر علينا اليهود، لأننا حاربناه في جميع أحكامه،فسلط علينا أحقر عباده وقهرنا بهم لنتعظ ونعتبر ونعود إلى ديننا القويم

(٢) قلت : راجع سورة البقرة الآية رقم /٩/

[إن الله يأمر بالعبد إلى الجنةفيما يبدو للناس ويعدل به إلى النار] وقوله تعالى : ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالىٰ ﴾ الآية . هذه صفات المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها ، وهي الصلاة إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها لأنه لانيّةً لهم فيها ولا إيمان ولا خشية ، ولا يعقلون معناها،وهذه صفة ظواهرهم.ثم ذكر صفة بواطنهم الفاسدة،فقال تعالى : ﴿ يراؤون الناس ﴾ أي لا إخلاص لهم ، إنما يصلون أمام الناس تقيّة لهم ومصانعةً ولهذا يتخلّفون كثيراً عن الصلاة التي لا يُرَوْنَ فيها كصلاتَيْ العشاء والصبح .كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : ٨٦٤ [أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر . ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً ، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ، ثم آمر رجلاً فيصلي بالناس ، ثم انطلق معي برجالٍ ومعهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فأُحَرِّق عليهم بيوتهم بالنار] وفي رواية : ٨٦٥ [والذي نفسي بيده لو علم أحدهم أنه يجد عرقاً سميناً أو مرماتين حسنتين ، لشهد الصلاة ولولا ما في البيوت من النساء والذرية لحرقت عليهم بيوتهم بالنار] .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يذكرون الله إلاَّ قليلاً ﴾ أُي في صلاتهم لا يخشون ولا يعقلون، بل هم ساهون لاهون معرضون . وقد روى مالك عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٦٦ [تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ،يجلس يرقب الشمس حتى اذا كانت بين قرني الشيطان ، قام فنقر اربعاً لا يذكر الله فيها الا قليلا،] وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي من حديث اسماعيل بن جعفر وقال الترمذي : حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾ أي لا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً،ولا مع الكافرين.كذلك إنمّا ظواهرهم مع المؤمنين ، وبواطنهم مع الكافرين . ومنهم الحيرَى بين الإيمان والكفر فتارة يميل إلى هؤلاء وطوراً يميل إلى أولئك. روى ابن جرير عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : ٨٦٧ [مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين ، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة ، لا تدري أيّهما تتبع] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً ﴾ أي ومن صرفه عن طريق الهدى ﴿ فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ والمنافقون الذين ضلوا عن سبيل النجاة فلا هادي لهم ، ولا منقذ لهم مماهم فيه،فإنه تعالى لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً مُبِيناً ۞ (١٤٤) إِنَّ ٱلْمُنَافِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ۞(١٤٥) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَٱعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً ۞ (١٤٦) مَا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً ۞ (١٤٧) ﴾

ينهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، وذلك بمصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم،وإسرار المودة إليهم،وإفشاء أحوال المؤمنين إليهم.كما قال تعالى : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاةً ويحذّركمُ الله نفسَه ﴾ أي يحذركم الله عقوبته في ارتكابكم نهيه . ولهذا قال هنا ﴿أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ﴾ أي حجة عليكم في عقوبته إياكم ، وعن ابن عباس : [كل سلطان في القرآن حجة] وهذا إسناد صحيح . وكذا قال جماعة من التابعين . ثم أخبر تعالى : ﴿ إن المنافقين في الدْرك الأسفل من النار ﴾ أي يوم القيامة جزاءً على كفرهم الغليظ . وعن ابن عباس : أي في أسفل النار، وروى ابن أبي حاتم عن ابن مسعود انه سئل عن المنافقين فقال : يُجعلون في توابيت من نار تطبق عليهم في أسفل درك من النار . ﴿ ولن تجد لهم نصيراً ﴾ أي ينقذهم من أليم العذاب. ثم أخبر تعالى : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ﴾ أي بدّلوا الرياء بالإخلاص فينفعهم العمل الصالح وإن قل . روى ابن أبي حاتم عن معاذ ابن جبل أن رسول الله ﷺ قال : ٨٦٨ [أخلصْ دينك يكفك القليل من العمل] ﴿ فأولئك مع المؤمنين ﴾ أي في زمرتهم ﴿ وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾ ثم قال تعالى بقوله : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ أي إنْ أصلحتم العمل ، وآمنتم بالله ورسوله ، فهو غني عما سواه ، وإنه إنما يعذب العباد بذنوبهم . ﴿ وكان الله شاكراً عليماً ﴾ أي يشكر له عمله ، ويعلم ما في قلبه ويجازيه على ذلك أوفر الجزاء .

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ ﴾

قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية يقول : لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلاّ أن يكون مظلوماً فإنه قد أرخص له يدعو على من ظلمه وذلك قوله تعالى : ﴿ إلاّ من ظُلم ﴾ وإن صبر فهو خير له. روى أبو داود عن عائشة قال سُرِق لها شيء، فجعلت تدعو عليه ، فقال النبي ﷺ : ٨٦٩ [لا تسبخي عنه] (١) .

وقال الحسن البصري : لا يدعُ عليه وليقل : اللهم أعنّي عليه ، واستخرج حقي منه.

وقيل في هذه الآية : هو الرجل يشتمك فتشتمه، ولكن إن افترى عليك فلا تفترِ عليه وعن مجاهد قال : ضاف رجل رجلاً فلم يؤدّ إليه حق ضيافته ، فلما خرج أخبر الناس فقال : ضفت فلاناً فلم يؤدّ إليّ حق ضيافتي .قال فذلك الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم حتّى يؤدي الآخر إليه حق ضيافته .

روى الامام أحمد عن المقدام بن أبي كريمة ، عن النبي ﷺ أنه قال : ٨٧٠ [أيّما مسلم ضاف قوماً فأصبح الضيف محروماً ، فإن حقاً على كل مسلم نصره حتّى يأخذ بقرى ليلته مِن زرعه وماله] ومن هذا الحديث وأمثاله ذهب أحمد وغيره إلى وجوب الضيافة .

وقد روى الحافظ البزّار عن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : ٨٧١ [إن لي جاراً يؤذيني فقال له « أخرج متاعك فضعه على الطريق » فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق؛ فكل من مر به قال له ما لَك؟ قال : جاري يؤذيني ، فيقول : اللهم العنه اللهم أخزه قال : فقال الرجل : إرجع إلى منزلك واللهِ لا أوذيك أبداً] وقوله تعالى : ﴿ إنْ تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً ﴾ أي أن تظهروا الخير أو تخفوه أو تعفوا عمن أساء إليكم فإن ذلك مما يقربكم عند الله ويجزل ثوابكم لديه. فان من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم. ولهذا قال تعالى:

(١) أي:لا تخفضي بمعنى لا تدعي عليه .

﴿ عفواً قديراً ﴾ وفي الحديث الصحيح : ٨٧٢ [ما نقص مال من صدقة ، ولا زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، ومن تواضع لله رفعه]

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ ٱللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذٰلِكَ سَبِيلاً ❁ (١٥٠) أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ❁ (١٥١) وَٱلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللهُ غَفُوراً رَحِيماً ❁ (١٥٢) ﴾

يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به وبرسله ، من اليهود والنصارى ، حيث فرقوا بين الله ورسله في الايمان ، فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض ، بمجرد التشهّي والعادة ، وما ألفوْا عليه آباءهم ، لا عن دليل قادهم إلى ذلك ، بل بمجرد الهوى والعصبية . فاليهود – عليهم لعائن الله – آمنوا بالأنبياء إلاّ عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، والنصارى كفروا بمحمد ﷺ وآمنوا بغيره من الأنبياء ، والسامرة لا يؤمنون بنبي بعد يوشع خليفة موسى والمجوس يقال أنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له زرادشت ، ثم كفروا بشرعه فرفع من بين أظهرهم والله أعلم . والمقصود أن من كفر بنبيٍّ من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء.ولهذا قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ﴾ فوسمهم بأنهم كفار بالله ورسله ﴿ ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ﴾ أي في الايمان ﴿ ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ﴾ أي طريقاً ومسلكاً. ثم قال تعالى : ﴿ أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ أي كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به، لأنه ليس شرعياً إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسولَ الله ، لآمنوا بنظيره وبمن هو أوضح دليلاً وأقوى برهاناً منه ، أو نظروا حق النظر في نبوّته .

وقوله تعالى : ﴿ واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ أي كما استهانوا بمن كفروا به ، إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله وإعراضهم عنه وإما بكفرهم به بعد علمهم بنبوته. كما كان يفعله كثير من أحبار اليهود في زمان رسول الله ﷺ حيث حسدوه على ما آتاه الله

من النبوة العظيمة وخالفوه وكذبوه ، فسلط الله عليهم الذل الدنيوي ، الموصول بالذل الأخروي . وقوله تعالى : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴾ يعني بذلك أمة محمد ﷺ ، فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله وكل نبي بعثه الله كقوله تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله ﴾ الآية ثم أخبر تعالى بأنه قد أعدّ لهم الجزاء الجزيل فقال : ﴿ أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ﴾ على ما آمنوا بالله ورسله ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أي لذنوبهم .

﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَاناً مُبِيناً ۝(١٥٣) وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً ۝ (١٥٤) ﴾

وقال محمد بن كعب القرظي والسدي وقتادة : سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة . قالوا ذلك على سبيل التعنت والكفر وقد سألوا موسى أكبر مما سألوك ، فقد قالوا : ﴿ أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ﴾ أي بطغيانهم وبغيهم وهذا مفسر في سورة البقرة عنه قوله تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ... ﴾ [١]

وقوله تعالى : ﴿ ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات ﴾ أي على يد موسى عليه السلام بمصر وما كان من اهلاك عدوهم فرعون وجنوده في اليم ، فما جاوزوه إلا يسيراً حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا لموسى : ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ ثم ذكر تعالى قصة اتخاذهم العجل مبسوطة في سورتي الأعراف [٢] و طه [٣] بعد

(١) البقرة : /٥٥/ . (٢) الأعراف : /١٥٢/ . (٣) طه : /٨٨/ .

ذهاب موسى إلى مناجاة الله عز وجل وقال تعالى : ﴿ فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبيناً ﴾ ثم قال تعالى ﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ﴾ وذلك حين امتنعوا عما جاءهم به موسى عليه السلام رفع الله على رؤوسهم جبلاً ثم ألزموا فالتزموا وسجدوا كما قال تعالى : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ... ﴾ الآية ﴿ وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً ﴾ أي أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس سجداً ويقولوا حطّة أي اللهم حطّ عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ونكولنا عنه ، فلم يقولوا ، ﴿ وقلنا لهم لا تعدوا في السبت ﴾ أي وصيناهم بحفظ السبت والتزام ما حرم الله عليهم فيه ﴿ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ أي شديداً فخالفوا وعصوا وتحيلوا على ارتكاب ما حرم الله عز وجل كما هو مبسوط في سورة الأعراف [١] وسيأتي حديث صفوان بن عسال في سورة الإسراء عند قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ [٢] وفيه :وعليكم خاصة يهود أن لا تعدوا في السبت .

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ ٱللهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ ٱللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ۞ (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ۞ (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ ٱللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ۞ (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ۞ (١٥٩) ﴾

(١) الأعراف : /١٦٣/ . (٢) الاسراء : /١٠١/ .

وهذا من الذنوب التي ارتكبوها ، مما أوجب لعنتهم وطردهم ، وإبعادهم عن الهدى ، وهو نقضهم المواثيق والعهود التي أخذت عليهم ، وكفرهم بآيات الله أي حججه وبراهينه ، والمعجزات التي شاهدوها على يد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وقوله تعالى : ﴿ وقتلهم الأنبياء بغير حق ﴾ وذلك لكثرة أجرامهم واجترائهم على أنبياء الله ، فإنهم قتلوا جماً غفيراً من الأنبياء عليهم السلام ﴿ وقولهم قلوبنا غلف ﴾ قال ابن عباس وجماعة من التابعين : أي في غطاء . أي كأنهم يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعي ما يقول ، لأنها في غُلُفٍ وأكنّة . وقيل أن معناه : إنهم ادَّعوا أن قلوبهم غلفٌ للعلم أي أوعية للعلم قد حوته وحصلته ، رواه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس . فقال الله تعالى راداً عليهم : ﴿ بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ فعكس عليهم ما ادعوه من كل وجه.وقد تقدم الكلام على مثل هذا في سورة البقرة : ﴿ فلا يؤمنون إلاّ قليلاً ﴾ أي تمرّنت قلوبهم على الكفر والطغيان وقلة الإيمان . ﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : يعني أنهم رموها بالزنا وكذلك قال جماعة من السلف وهو ظاهر من الآية . أي أنها حملت بولدها من ذلك ، زاد بعضهم : وهي حائض فعليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ﴾ أي هذا الذي يدعي لنفسه هذا المنصب قتلناه ، وهذا منهم من باب التهكم والاستهزاء ، كقول المشركين : ﴿ يا أيها الذي نزّل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ وكان من خبر اليهو د عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه ، انه لما بعث الله عيسى بن مريم بالبينات والهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات التي كان يبرىء بها الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ، ويصور من الطين طائراً ثم ينفخ فيه ، فيكون طائراً يشاهد طيرانه بإذن الله عز وجل ، ومع هذا .... كذبوه وخالفوه وسعوا في أذاه بكل ما أمكنهم حتى جعل نبيُّ الله عيسى عليه السلام لا يساكنهم في بلدة بل يكثر السياحة هو وأمه عليهما السلام ، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا فيه إلى ملك دمشق في ذلك الزمن وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب ، وكان يقال لأهل ملته اليونان وأنهى اليهود إلى هذا الملك أن في بيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويضلهم ويفسد على الملك رعاياه (١) فغضب الملك ، وكتب إلى نائبه بالمقدس ان يقبض على هذا المذكور وأن

(١) قلت : وهذا شأن كل السعاة عند الحكام في أي زمان يشون على المصلحين بأنهم يفسدون على الحاكم رعاياه ليجعلوا منه عدواً شخصياً للمصلحين والأنبياء . فيستثيرون غضبه ويصلون من وراء ذلك إلى مبتغاهم من المصلحين بمنعهم من الدعوة أو قتلهم ... وما إلى ذلك .

يصلبه ويضع الشوك على رأسه ، فلما وصل الكتاب امتثل والي بيت المقدس ذلك وذهب هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى عليه السلام ، وهو في جماعة من أصحابه اثنى عشر أو ثلاثة عشر ، ويقال انه كان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ليلة السبت ، فحصروه هنالك فلما أحس بهم وأنه لا محالة من دخولهم عليه أو خروجه إليهـــم ، قال لأصحابه : (أيكم يلقيَ عليه شبهي وهو رفيقي في الجنة ؟ فانتدب لذلك شاب منهم ، فكأنه استصغره عن ذلك ، فاعادها ثانية وثالثة ، وكل ذلك لا ينتدب إلاّ ذلك الشاب ، فقال : أنت هو وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو وفتحت روزنة من سقف البيت ، وأخذت عيسى سِنَةٌ من النوم ، فرفع إلى اسماء وهو كذلك ، كمـــا قال الله تعالى : ﴿ إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي [1] ﴾ الآية فلما رفع خرج أولئك النفر ، فلما رأى أولئك ذلك الشاب ، ظنوا أنه عيسى ، فأخذوه في الليل وصلبوه ، ووضعوا الشوك على رأسه ، وأظهر اليهود ، أنهم سعوا في صلبه ، وتبجحوا بذلك ، وسلّم لهم طوائف النصارى ذلك لجهلهم وقلة عقولهم ، ما عدا من كان في في البيت مع المسيح ، فإنهم شاهدوا رفعه .

وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود ، أن المصلوب هو عيسى عليه السلام . وقد أوضح الله الأمر وجلاّه وأظهره في القرآن العظيم الذي أنزله على رسوله الكريم فقال تعالى وهو أصدق القائلين ، المطلع على الأسرار والسرائر ، والعالم بما كان وما سيكون : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم ﴾ أي رأوا شبهَهُ فظنوه إياه ولهذا قال ﴿ وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ﴾ يعني بذلك من ادّعى أنه قتله من اليهود ، ومن سلمّه إليهم من جهال النصارى ، ولهذا قال : ﴿ وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ أي منيع الجانب ، لايرام جنابه ، ولا يضام من لاذ ببابه، حكيماً في جميع ما يقدّره ويقضيه من الأمور التي يخلقها ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس ما ملخصه لا يختلف عما ورد آنفاً من خبر عيسى ورفعه إلى السماء إلى أن قال : ... وافترقوا ــ أي جماعة عيسى ــ ثلاث فرق ، فقالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء ، وهؤلاء اليعقوبية ، وقالت فرقة : كان ابن الله فينا ما شاء ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة : كان فينا عبدالله

---

(١) راجع الآية ٥٥ من آل عمران .

ورسوله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء المسلمون ؛ فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ . وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس . ورواه النسائي وكذا ذكره غير واحد من السلف ، انه قال لهم : أيّكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ، وهو رفيقي في الجنة . أما الحواريون فكانوا اثني عشر رجلاً : فرطوس ، ويعقوبس ، ويلاونحس أخو يعقوب ، واندرايس ، وفيلبس ، وابن يلما ، ومنتا ، وطوماس ، ويعقوب بن حلقايا ، ونداوسيس ، وقتابيا ، وليودس ركريايوطا [1]

وقال ابن اسحق : وكان فيما ذكر لي رجل اسمه سرجس وكانوا ثلاثة عشر رجلاً رجلاً سوى عيسى عليه السلام جحدته النصارى ؛ وذلك أنه هو الذي شبه لليهود مكان عيسى قال : فلا أدري هو من هؤلاء الأثني عشر أو كان ثالث عشر . وكان هو الذي صلبوه وشبه لهم به . وكان الذين قبضوا عليه لا يعرفون عيسى ، حتى جعلو ليودس ركريا يوطا ثلاثين درهماً على أن يدلهم عليه ويعرفهم إياه فقال لهم : إذا دخلتم عليه فإني سأقبله ، وهو الذي أقبّل فخذوه فلما دخلوا ، وقد رفع عيسى ورأى سرجس في صورة عيسى فلم يشك أنه هو ، فأكب عليه فقبله فأخذوه وصلبوه . ثم أن ليودس ركريا يوطا ندم على ما صنع فاختنق بحبل حتى قتل نفسه وهو ملعون في النصارى . وبعض النصارى يزعم أن ليودس ركريا يوطا هو الذي شبه لهم فصلبوه وهو يقول : إني لست بصاحبكم أنا الذي دللتكم عليه والله اعلم أي ذلك كان . وهكذا فقد رفع عيسى إلى السماء حياً .

وقوله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ قال ابن جرير : اختلف أهل التأويل في معنى ذلك فقال بعضهم : يعني قبل موت عيسى يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال ، فتصير الملل كلها واحدة ، وهي ملة الإسلام الحنيفية ، دين إبراهيم عليه السلام .

« ذكر من قال ذلك »

عن أبن عباس وعن سعيد بن جبير : ﴿وان من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنن به قبل موته﴾ قال : قبل موت عيسى عليه السلام وفي قول له أيضاً مثل ذلك عن العوفي . وقال ابو مالك : ذلك عند نزول عيسى وقبل موته عليه السلام لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا

(١) ولكن المنقول عن الكتب اليونانية المعوّل عليها نصه هكذا : سمعان الملقب بطرس ، واندراوس ويعقوب بن زيدي ، ويوحنا ، وفيلبس ، ورتولماوس ، وتوما ، ومتّى العشار ، ويعقوب ابن حلفي ، ولباوس الملقب تداوس ، وسمعان القانوي ، ويهوذا الأسخريوطي ، أهـ .

آمن به وهذا القول هو الحق ، كما سنبينه بعد بالدليل القاطع إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان ، وقيلت تفاسير شتى في تفسير هذه الآية ولكن أولى الأقوال بالصحة القول الأول وهو انه لا يبقى أحد من أهل الكتاب بعد نزول عيسى عليه السلام إلا آمن به قبل موت عيسى عليه السلام . وهذا هو الصحيح ، لأنه المقصود من سياق الآي في تقرير بطلان ما ادّعته اليهود من قتل عيسى وصلبه ، وتسليم من سلّم لهم من النصارى الجهلة ذلك ، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك ، وإنّما شبه لهم ، فقتلوا الشبهَ وهم لا يتبينون ذلك ثم إنه رفعه إليه وإنه باقٍ حيٌّ ، وإنه سينزل قبل يوم القيامة كما دلّت عليه الأحاديث المتواترة التي سنوردها إن شاء الله قريباً ، فيقتل مسيح الضلالة ، ويكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، يعني لا يقبلها من أحد من أهل الأديان ، بل لا يقبل إلاّ الإسلام أو السيف . والمراد بهذا الذي ذكرناه من تقرير وجود عيسى عليه السلام وبقاء حياته في السماء وانه سينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة ، ليكذب هؤلاء من اليهود والنصارى الذين تباينت أقوالهم فيه ، وتصادمت وتعاكست ، وتناقضت ، وخلت من الحق ، ففرط هؤلاء اليهود ، وأفرط هؤلاء النصارى ، تنقّصه اليهود بما رموه به وأمه من العظائم ، وأطراه النصارى بحيث ادّعوا فيه ما ليس فيه ، فرفعوه في مقابلة أولئك عن مقام النبوة إلى مقام الربوبية،تعالى الله عما يقول هؤلاء وهؤلاء علواً كبيراً ، وتنزّه وتقدس لا آله الا هو .

أحاديث مختارة صحيحة واردة في نزول عيسى بن مريم إلى الأرض
من السماء آخر الزمان قبل يوم القيامة وانه يدعو إلى عبادة
الله وحده لا شريك له

* روى البخاري رحمه الله عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٧٣ [« والذي نفسي بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد وحتى تكون السجدة خيراً له من الدنيا وما فيها »] ثم يقول أبو هريرة إقرأوا ان شئتم : [وإن من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنَنَّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً]

وكذا رواه مسلم وأخرجه البخاري ومسلم ورواه ابن مردويه عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٧٤ [يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، يقتل

الدجال ، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ، ويضع الجزية ويفيض المال وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين » قال أبو هريرة : أقروا إن شئتم ﴿ وإن من أهل الكتاب إلاَّ ليؤمننَّ به قبل موته ﴾موت عيسى بن مريم ، ثم يعيدها أبو هريرة ثلاث مرات] .

* طريق أخرى : روى الامام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : ٨٧٥ [ليهلَّنَّ عيسى بن مريم بفج الروحاء بالحج أو العمرة أو ليثنينهما جميعاً]كذا رواه مسلم منفرداً به .

* قال البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٧٦ [كيف بكم إذا نزل فيكم المسيح بن مريم وإمامكم منكم] .

* طريق أخرى : روى الامام أحمد عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ٨٧٧ [الأنبياء إخوةٌ لعلاّت(١) أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وإني أولى الناس بعيسى بن مريم ،لأنه لم يكن نبي بيني وبينه ، وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه : رجل مربوع إلى الحمرة والبياض عليه ثوبان ممصّران ، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ؛ فيدّق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويدعو الناس إلى الاسلام ، ويهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجّال ، ثم تقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل ، والنمار مع البقر ، والذئاب مع الغنم ، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرُّهم فيمكث أربعين سنة ثم يُتَوفىَّ ، ويُصلي عليه المسلمون .] وكذا رواه أبو داود .

* حديث آخر : روى مسلم في صحيحه عن النواس بن سمعان قال : ٨٧٨ [ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة ، فخفض فيه ورفع حتّى ظنناه في طائفة النخل ، فلما رحنا إليه عرف ذلك في وجوهنا فقال : « ما شأنكم ؟ قلنا : يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتّى ظنناه في طائفة النخل قال : غير الدجال أخوفني عليكم ... إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم ، فامرؤٌ حجيج نفسه ، والله خليفتي على كل مسلم . إنه شاب قطط (٢) عينه طافية ، كأني أشّبهه بعبد العزّى بن قطن ، من أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف إنه خارج من خلة بين الشام والعراق ، فعاث يميناً وعاث شمالاً ، ياعباد الله فاثبتوا قلنا : يا رسول

---

(١) الأخوة لعلات : أمهاتهم شتى وأبوهم واحد . (٢) قصير شعر الرأس اجعده .

الله فما لبثه في الأرض ؟ قال أربعون يوماً يوم كسنة ، ويوم كشهر ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم. قلنا : يا رسول الله وذلك اليوم الذي كسنة ، أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا... أقدروا له قدره. قلنا: يا رسول الله وما إسراعه في الأرض ؟ قال: كالغيث استدبرته الريح فيأتي على قوم فيدعوهم فيؤمنون به ، ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذُرىً ، وأسبغه ضروعاً ، وأمده خواصر ، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردّون عليه قوله ، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ، ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل ، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل ، ويتهلل وجهه ويضحك، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم عليه السلام ، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، اذا طأطأ رأسه قطر ، واذا رفعه تحدّر منه كجمان اللؤلؤ ، ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات. ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لدّ ، فيقتله ، ثم يأتي عيسى عليه السلام قوماً قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة ، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله عز وجل إلى عيسى إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم ، فحرّز عبادي إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون. فيمر أولهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون لقدكان بهذه مرةً ماء ويحضر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم ، خيراً من مئة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه ، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسىَ [1] كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض ، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلاّ ملأ زهمهم ونتنهم ، فيرغب نبيُ الله عيسى وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البخت ، فتحملهم فتطرحهم . حيث شاء الله ، ثم يرسل الله مطراً لا يكنُ منه بيت مدرولاوبر ، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة [2] ثم يقال للأرض : أخرجي ثمرك وردي بركتك . فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ، ويبارك الله

---

(١) يعني هلكي والنغف : دود يكون في أنوف الأبل والغنم . والمعنى أن الله يرسل عليهم الدود في رقابهم فيهلكهم هلكة واحدة . (٢) الزلفة بالتحريك : المرآة .

في الرسل[1] حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام. فبينما هم كذلك، إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم ، فيقبض الله روح كل مؤمن وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر ، فعليهم تقوم الساعة] ورواه الإمام أحمد ، وأهل السنن

* روى أحمد عن مجمع بن جارية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ٨٧٩ [يقتل ابنُ مريم ، المسيحَ الدجال بباب لد -أو إلى جانب لد-] وكذا رواه الترمذي وقال هذا حديث صحيح فأما أحاديث ذكر الدجال فقط . فكثيرة جداً ، وهي أكثر من أن تحصى لانتشارها ، وكثرة روايتها في الصحاح والحسان والمسانيد وغير ذلك .

* روى الامام أحمد عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال : ٨٨٠ [أشرف علينا رسول الله ﷺ من عرفة، ونحن نتذاكر الساعة فقال : «لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى بن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ،وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق — أو تحشر — الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا .]

الدجال يهودي وجنوده من اليهود

وفي بعض حديث لعبد الرحمن المحاربي عن اسماعيل بن رافع قال : ٨٨١ [... فقالت أم شريك : يا رسول الله ، فأين العرب يومئذ ؟ قال : « هم قليل وجلّهم يومئذ ببيت المقدس ، وإمامهم رجل صالح[2] فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح، إذ نزل عليهم عيسى بن مريم ، فرجع ذلك الإمام يمشي القهقرى ليتقدم عيسى عليه السلام ، فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول : تقدم فصلّ فانها لك أقيمت . فيصلي بهم إمامهم ، فإذا انصرف قال عيسى : افتحوا الباب ، فيفتح ووراءه الدجال،معه سبعون ألف يهودي كلهم ذو سيف محلّى وتاج ، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء وينطلق هارباً ، فيقول عيسى : إن لي فيك ضربة لن تسبقني بهـا ، فيدركه عند باب لدّ الشرقي فيقتله ، ويهزم الله اليهود فلا يبقى شيء ممـا خلق الله تعالى يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك شيء لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة ، الا الغرقدة — فإنها من شجرهم لا تنطق — إلا قال : يا عبدالله المسلم هذا يهودي فتعال أقتلهُ ..]

---

(١) الرسل بالتحريك : القطيع . الجمع أرسال . واللقحة : ذات اللبن . والفئام : الجماعة . (٢) هو المهدي المنتظر من نسل فاطمة .

وهكذا فقد تقدم كثير من الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من رواية أبي هريرة ، وابن مسعود ، وعثمان بن أبي العاص ، وأبي أمامة ، والنورس بن سمعان وعبد الله بن عمرو بن العاص ، ومجمع بن جارية ، وأبي شريحة ، وحذيفة بن أسيد رضي الله عنهم وفيها دلالة على صفة نزول عيسى عليه الصلاة والسلام ومكانه من أنه بالشام بل بدمشق عند المنارة الشرقية وإن ذلك يكون عند إقامة صلاة الصبح ، فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام كما تقدم في الصحيحين فتنزاح علل أهل الكتاب وترتفع شبههم من أنفسهم ، ولهذا كلهم يدخلون في دين الاسلام متابعين لعيسى عليه السلام ولهذا قال تعالى : ﴿ وان من أهل الكتاب إلاّ ليؤمنَنّ به قبل موته ﴾ الآية ؛ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وإنه لعِلْم للساعة ﴾ وقرىء : ﴿ لَعَلَمٌ ﴾ بالتحريك أي أمارة ودليل على اقتراب الساعة وذلك لأنه ينزل بعد خروج الدجال فيقتله الله على يديه ؛ كما ثبت في الصحيح إن الله لم يخلق داء إلا أنزل له شفاء ، ويهلك الله ببركة دعائه يأجوج ومأجوج وقد قال تعالى :﴿ حتّى اذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَبٍ ينسلون واقترب الوعد الحق ﴾ الآية .

* * *

﴿ صفة عيسى عليه السلام ﴾

روى مسلم عن ابن عمر قال :

قال رسول الله ﷺ : ٨٨٢ [وأراني الله عند الكعبة في المنام ، واذا رجل آدم كأحسن ما ترى من آدم الرجال ، تضرب لمته بين منكبيه ، رجل الشعر ، يقطر رأسه ماءً ، واضعاً يديه على منكبي رجلين وهو يطوف بالبيت ، فقلت : من هذا ؟ فقالوا : هو المسيح بن مريم — ثم رأيت وراءه رجلاً جعداً قططاً أعور العين اليمنى ، كأشبه من رأيت بابن قطن ، [1] واضعاً يديه على منكبي رجل يطوف بالبيت فقلت من هذا قالوا المسيح الدجال] .

روى عن ابن عمر [أنه — أي عيسى — يمكث سبع سنين] وتوفيقاً بين هذا القول وبين من يقول اربعين سنة فانه يحتمل أن يكون المراد بلبثه في الأرض أربعين سنة مجموع إقامته فيها قبل رفعه ، وبعد نزوله ؛ فإنه رفع وله ثلاث وثلاثون سنة في الصحيح .

---

(١) قال الزهري : ابن قطن رجل من خزاعة هلك في الجاهلية .

وفي حديث عبد الرحمن بن آدم عن أبي هريرة : ٨٨٣ [أن عيسى عليه السلام يمكث في الأرض بعد نزوله أربعين سنة ثم يُتوفَّى ويصلي عليه المسلمون .] رواه الإمام أحمد وكذا رواه ابو داود وذكر الحافظ ابو القاسم بن عساكر في ترجمة عيسى بن مريم من تاريخه عن بعض السلف انه يدفن مع النبي ﷺ في حجرته والله أعلم . وقوله تعالى : ﴿ ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ قال قتادة ، يشهد عليهم انه قد بلغهم الرسالة من الله وأقر بعبوديته لله عز وجل وهذا كقوله تعالى في آخر سورة المائدة ﴿ واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس – إلى قوله – العزيز الحكيم ﴾ .

﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ ٱللهِ كَثِيراً ۞ (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ۞ (١٦١) لَٰكِنِ ٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً ۞ (١٦٢) ﴾

يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبوه من الذنوب العظيمة ، حرم عليهم طيبات كان أحلّها لهم كما روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس انه قرأ : طيبات كانت أحلت لهم . والمراد أن جميع الأطعمة كانت حلالاً لهم من قبل أن تنزل التوراة ما عدا ما كان حرّم إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل ، وألبانها ، ثم إنه تعالى حرم أشياء كثيرة في التوراة كما قال في سورة الأنعام : ﴿ وعلى الذين هادوا حرّمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلاّ ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون [1] ﴾ أي إنما حرمنا عليهم ذلك ، لأنهم يستحقون ذلك بسبب بغيهم وطغيانهم ومخالفتهم رسولهم واختلافهم عليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله

(١) الأنعام الآية /١٤٦/ .

كثيراً ﴾ أي صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق وهذه سجية لهم ، متصفون بها من قديم الدهر وحديثه ، ولهذا كانوا أعداء الرسل ، وقتلوا خلقاً من الأنبياء ، وكذبوا عيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهما .

وقوله تعالى : ﴿ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ﴾ أي أن الله تعالى قد نهاهم عن الربا فأخذوه محتالين عليه بأنواع الحيل وصنوف من الشبه ، وأكلوا أموال الناس بالباطل ، قال تعالى: ﴿ وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ لكن الراسخون في العلم منهم ﴾ أي الثابتون في الدين لهم قدم راسخة في العلم النافع وقد تقدم الكلام في ذلك في سورة آل عمران[1] ، ﴿ والمؤمنون ﴾ عطف على الراسخين وخبره ﴿ يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ﴾ قال ابن عباس : أنزلت في عبدالله بن سلام ، وثعلبة بن سَعَيْه ، وأسد بن سَعَيْه ، وأسد بن عبيد الذين دخلوا في الاسلام وصدّقوا بما أرسل الله به محمد ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ والمقيمين الصلاة ﴾ هكذا هو في جميع مصاحف الأئمة وكذا هو في مصحف أُبيّ بن كعب وهو منصوب على المدح ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ﴾ قال : وهذا سائغ في كلام العرب. كما قال الشاعر : لا يبعدَنْ قومي همو * أسد العداة وآفةُ الجزر * النازلين بكل معترك * والطيبون معاقد الأزر . وقوله تعالى : ﴿ والمؤتون الزكاة ﴾ أي زكاة الأموال ﴿ والمؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ أي يصدّقون بأنه لا إله إلا هو، ويؤمنون بالبعث بعد الموت، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها . وقوله تعالى: ﴿ أولئك ﴾ هو الخبر عما تقدم ﴿ سنؤتيهم أجراً عظيماً ﴾ يعني الجنة .

ربع الحزب

﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً * (١٦٣) وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً * (١٦٤) رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً * (١٦٥) ﴾

(١) آل عمران الآية /٧/ .

ذكر الله سبحانه أنه أوصى إلى عبده ورسوله محمد ﷺ كما أوصى إلى غيره من الأنبياء المتقدمين فقال: ﴿ انا أوحينا اليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ — إلى قوله — ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ والزبور اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود عليه السلام وسنذكر ترجمة كلّ نبي من هؤلاء الأنبياء عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام عند قصصهم من سورة الأنبياء إن شاء الله وبه الثقة،وعليه التكلان . روى محمد بن اسحق عن ابن عباس : قال سكن وعدي بن زيد : يا محمد ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ إنّا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ إلى آخر الآيات .

وقوله تعالى : ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ﴾ أي من قبل هذه الآية ، يعني في السور المكية وغيرها وهذه تسمية الأنبياء الذين نص الله تعالى على اسمائهم في القرآن وهم : أدم وإدريس ونوح وهود وصالح وابراهيم ولوط واسماعيل واسحق ويعقوب ويوسف وأيوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريا ويحيى وعيسى ، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين وسيدهم محمد ﷺ .

روى الحافظ أبو بكر البزار عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : ٨٨٤ [إني لخاتم ألف نبي أو أكثر ، وإنه ليس منهم نبي إلا وقد أنذر قومه الدجال ، وإني قد بُيّنَ لي ما يُبيّن لأحد منهم وإنه أعور ، وإن ربكم ليس بأعور] وقوله تعالى : ﴿ ورسلاً لم نقصصهم عليك ﴾ اي خلقاً آخرين لم يذكروا في القرآن وقد اختلف في عدة الأنبياء والمرسلين ففي حديث أبي ذر أنّهم ٨٨٥: [«مائة الف واربعة وعشرون ألفاً» قال قلت يا رسول الله كم الرسل من ذلك ؟ قال « ثلثمائة وثلاثة عشر جم غفير كثير طيب » قلت : فمن كان أولهم ؟ قال « آدم » قلت : أنبي مرسل ؟ قال : « نعم ، خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وسواه قبيلاً » ثم قال : « يا أبا ذر ، أربعة سريانيون : آدم وشيث وخنوخ وهو إدريس ، وهو أول من خط بقلم ، ونوح ؛ وأربعة من العرب : هود وشعيب وصالح ونبيك يا أبا ذر ، وأول أنبياء بني إسرائيل موسى ، وآخرهم عيسى ، وإن أول الرسل آدم وآخرهم محمد »] ... رواه محمد بن حسين الآجري بطوله . ورواه الامام أحمد عن أبي أمامة أن أبا ذر سأل النبي ﷺ فذكر أمر الصلاة والصيام والصدقة وفضل آية الكرسي ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، وأفضل الشهداء ، وأفضل الرقاب ونبوة آدم وأنه مكلم وعدد الأنبياء والمرسلين كنحو ما تقدم .

وقال عبدالله بن الإمام أحمد : وجدت في كتاب أبي بخطه بالسند إلى أبي الوداك قال : قال أبو سعيد هل تقول الخوارج بالدجال ؟ قال : لا ، فقال : قال رسول الله ﷺ ٨٨٦ [إني خاتم الف نبي أو أكثر ، وما بُعِثَ نبيٌّ يتبع إلا وقد حذر أمته منه ، وإني قد بين لي فيه ما لم يبين ، وإنه أعور ، وان ربكم ليس بأعور ، وعينه اليمنى عوراء جاحظة لا تخفى كأنها نخامة في حائط مجصص ، وعينه اليسرى كأنها كوكب دري ، معه من كل لسان ، ومعه صورة الجنة الخضراء يجري فيها الماء ، وصورة النـــار سوداء تدخن]

وقوله تعالى : ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ وهذا تشريف لموسى عليه السلام بهـــذه الصفة ، ولهذا يقال له الكليم ، وقد روى الحافظ أبو بكر بن مردويه عن عبد الجبار بن عبدالله ٨٨٧ قال : [جاء رجل إلى أبي بكر بن عياش فقال سمعت رجلاً يقرأ : ﴿ وكلّم الله مُوسى تكليماً ﴾ أي قرأ لفظ الجلالة بالنصب فقال أبو بكر : ما قرأ هذا إلا كافر . قرأت على الأعمش ، وقرأ الأعمش على يحيى بن وثاب ، وقرأ يحيى بن وثاب على أبي عبد الرحمن السلمي وقرأ عبد الرحمن السلمي على علي بن أبي طالب ، وقرأ علي بن أبي طالب على رسول الله ﷺ : ﴿ وكلم اللهُ مُوسى تكليماً ﴾] أي لفظ الجلالة بالرفع ، إنما اشتد غضب أبي بكر بن عياش رحمه الله على من قرأ لفظ الجلالة بالنصب وموسى بالرفع لأنه حرف لفظ القرآن ومعناه ، وكان هذا الذي قرأ لفظ الجلالة بالنصب مـــن (المعتزلة) الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى عليه السلام أو يكلم أحداً من خلقه كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ عن بعض المشايخ : ﴿ وكلم اللهَ موسى تكليماً ﴾ فقال له يا ابن اللخناء ، كيف تصنع بقوله تعالى : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلّمَهُ ربُّهُ ﴾؟ يعني أن هذا لا يحتمل التحريف ولا التأويل .

وقوله تعالى : ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين ﴾ أي يبشرون من أطاع الله بالخيرات وينذرون من خالف أمره وكذب رسله بالعقاب والعذاب . وقوله تعالى : ﴿ لئلاً يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ أي أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة ، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه ، لئلا يبقى لمعتذر عذر كما قال تعالى : ﴿ ولولا أنَّا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينـــا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ الآية ... وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ ٨٨٨ [لا أحد أغيرَ من الله . من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب اليه المدح من الله عز وجل ، من أجل

ذلك مدح نفسه، ولا احد أحب اليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين] وفي لفظ آخر : أنزل رسله وأنزل كتبه » .

﴿ لَٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيداً ۞ (١٦٦) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَٰلاً بَعِيداً ۞ (١٦٧) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقاً ۞ (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيراً ۞ (١٦٩) يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا خَيْراً لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ۞ (١٧٠) ﴾

لما تضمن قوله تعالى : ﴿ إنّا أوحينا اليك ﴾ الآية اثبات نبوته ﷺ ، والرد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب ، قال الله تعالى : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك ﴾ أي وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك ، فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب وهو القرآن العظيم ، ولهذا قال : ﴿ أنزله بعلمه ﴾ أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع عليه عباده من البينات والهدى والفرقان وما يرضاه الله ويأباه ، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل ، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التي لا يعلمهاني مرسل أو ملك مقرب إلا أن يُعلمه الله به ، كما قال تعالى : ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾

روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن السائب قال : أقرأني أبو عبد الرحمن السلمي القرآن، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال : قد أخذت علم الله ، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا بعمل . ثم يقرأ قوله تعالى : ﴿ أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾ وقوله تعالى : ﴿ والملائكة يشهدون ﴾ أي بصدق ما جاءك وأوحى إليك وأنزل عليك

مع شهادة الله بذلك ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ قال محمد بن اسحق عن ابن عباس قال :
٨٨٩ [دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود ، فقال لهم : « إني لأعلم واللهأنكم لتعلمون أني رسول الله » فقالوا : ما نعلم ذلك فأنزل الله عز وجل : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه ﴾ الآية] .

وقوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً ﴾ أي كفروا فلم يتبعوا الحق وصدوا الناس عنه ، وضلّوا أي بعدوا منه بعداً عظيماً شاسعاً ثم أخبر تعالى عن حكمه في الكافرين الظالمين لأنفسهم بانتهاك المحارم ، بأنه لا يغفر لهم ﴿ ولاليهديهم طريقاً ﴾ أي سبيلاً إلى الخير ﴿ إلاّ طريق جهنم ﴾ وهذا استثناء منقطع ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ الآية ... ثم قال تعالى ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم ﴾ أيّ قد جاءكم محمد صلوات الله عليه وسلامه بالهدى ودين الحق من الله عز وجل ، فآمنوا بما جاءكم به واتبعوه يكن خيراً لكم . ثم قال : ﴿ وان تكفروا فإن لله ما في السموات والأرض ﴾ أي فهو غني عنكموعن إيمانكم، ولا يتضرر بكفرانكم كما قال تعالى : ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ وقال هاهنا : ﴿ وكان الله عليماً ﴾ بمن يستحق منكم الهداية فيهديه ، وبمن يستحق الغواية فيغويه ﴿ حكيماً ﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا * (١٧١) ﴾

ينهى الله تعالى أهل الكتاب عن الغلوّ والإطراء ، وهذا كثير في النصارى ، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى عليه السلام حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله اياها ، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه ، بل غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه ، فادّعوا فيهم العصمة ، واتبعوهم في كل ما قالوه ،

سواء كان حقاً أو باطلاً ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ الآية ...روى الإمام أحمد عن ابن عباس عن عمر أن رسول الله ﷺ قال٨٩٠ : [لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله] ورواه البخاري بهذا اللفظ . روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رجلاً قال : يا محمد يا سيدنا وابن سيدنا ، وخيرنا وابن خيرنا فقال رسول الله ﷺ ٨٩١[أيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهوينّكم الشيطان ، أنا محمد بن عبدالله ، عبدالله ورسوله ، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل] تفرد به أحمد من هذا الوجـــه .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾ أي لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولداً ، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً ، وتنزه وتقدس وتوحد في سؤدده وكبريائه وعظمته ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه . ولهذا قال تعالى : ﴿ إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ أي إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه.قال اللهله: كن فكان ، ورسول من رسله وكلمته ألقاها إلى مريم ، خلقه بالكلمة [1] التي أُرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم ، فنفخ فيها من روحه بإذن الله عز وجل فكان عيسى بإذنه عز وجل وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها، فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم ، والجميع مخلوق لله عز وجل ، ولهذا قيل لعيسى : إنه كلمة الله وروح منه لأنه لم يكن له أب تولد منه ، وانما هو ناشىء عن الكلمة التي قال له بها كن فكان . والروح التي أرسل بها جبريل . قال تعالى : ﴿ ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ وقال تعالى : ﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها ﴾ روى البخاري عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال ٨٩٢ : [من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وأن الجنة حق والنار حق،

---

(١) قلت : نعم هو مخلوق بالكلمة وليس هو الكلمة ، لأن الكلمة هي (كن) وكلمة كن عندما يقولها الله فهي إذاً من كلامه تعالى، وكلامه غير مخلوق. وعيسى عليه السلام هو مخلوق لله وعبده ورسوله. وبهذا وضح أن عيسى عليه السلام ليس هو نفس(كن) إنما هو مخلوق تحت أمر(كن) فكان. وفي هذا سقطت حجة من يحتج على من يحرم الحلف بغير الله : (بأنه لا يجوز الحلف بكلام الله، لأنه اذا جاز ذلك، لجاز الحلف بعيسى لأنه كلمة الله) ، وهذا كما لا يخفى مردود بالحجة الآنفة أي أن عيسى ليس هو كلمة (كن) إنما كان بـ (كن) فإذا اتضح هذا ... فإنه يجوز الحلف بكلام الله لأنه كلامه ، وهو صفة له سبحانه . أما عيسى عليه السلام ، لا يجوز الحلف به لأنه مخلوق خلق بـ (كن) وليس هو (كن) والحمد لله على توفيقه .

أدخله الله الجنة على ما كان من العمل] وقال الوليد عن جنادة زاد ٨٩٣ : [من أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء] وكذا رواه مسلم فقوله تعالى في الآية والحديث ﴿ وروح منه ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ﴾ أي من خلقه ومن عنده وليست من للتبعيض كما يقول النصارى ـ عليهم من الله ما يستحقون ـ بل هي لابتداء الغاية . وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله تعالى : ﴿ ناقة الله ﴾ وقوله تعالى ﴿ وطهّر بيتي للطائفين ﴾ .

وكما روي في الحديث الصحيح ٨٩٤ [فأدخل على ربي في داره] أضافها إليه إضافة تشريف وهذا كان من قبيل واحد .وقوله تعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ﴾ أي فصدقوا بأن الله واحد أحد ، لا صاحبة له ولا ولد ، وان عيسى عبده ورسوله ولا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وهذه الآية والتي في سورة المائدة حيث يقول تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ﴾ وقال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ . الآية . والنصارى ـ عليهم من الله ما يستحقون ـ ليس لهم ضابط ، ولا لكفرهم حد فمنهم من يعتقد المسيح إلهاً ، ومنهم من يعتقده شريكاً ، ومنهم من يعتقده ولداً وهم طوائف ، أراؤهم مختلفة وأقوالهم غير مؤتلفة ؛ ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال : لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولاً .

ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم وهو سعيد بن بطريق بترك الاسكندرية أنهم اجتمعوا المجمع الكبير أيام قسطنطين ، وأنهم اختلفوا عليه اختلافاً لا ينضبط ولا ينحصر فكانوا أزيد من ألفين أسقفاً ، فكانوا أحزاباً كثيرة : كل خمسين منهم على مقالة ، وعشرون على مقالة ،ومائة على مقالة ، وسبعون على مقالة ، فلما رأى قسطنطين عصابة منهم قد زادوا على الثلثمائة بثمانية عشر وتوافقوا على مقالة فأخذها الملك قسطنطين ونصرها وأيدها.. ومحق ما عداها من الأقوال ، وبنى لهم الكنائس ووضعوا لهم كتباً وقوانين واتباع هؤلاء هم الملكانية . ثم اجتمعوا مجمعاً ثانياً فحدث فيهم اليعقوبية ، ثم مجمعاً ثالثاً فحدث فيهم النسطورية ، وكل هؤلاء يثبتون الأقانيم الثلاثة في المسيح ويختلفون في كيفية ذلك وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم هل اتحدا ، أو ما اتحدا أو امتزجا ، أو حل فيه على ثلاث مقالات ، وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى . ونحن نكفر الثلاثة . ولهذا قال تعالى : ﴿ انتهوا خيراً لكم ﴾ أي يكن خيراً لكم ﴿ إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ﴾ أي تعالى وتقدس عن ذلك ﴿ له ما في السموات وما

في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾ أي الجميع ملكه وخلقه ، وجميع ما فيهما عبيده ، وهم تحت تدبيره وتصريفه ، وهو وكيل على كل شيء ، فكيف يكون له منهم صاحبة وولد كما قال في الآية الأخرى : ﴿ بديع السموات والأرض أنىَّ يكون له ولد ﴾ الآية ..

﴿ لَنْ يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً ❁ (١٧٢) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا وَٱسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً ❁ (١٧٣) ﴾

﴿ لن يستنكف ﴾ أي لن يستكبر ويمتنع ﴿ المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ﴾ إنما ذكر الملائكة هنا لأنهم اتُّخِذوا أيضاً آلهةً مع الله كما اتُّخِذ المسيح، فأخبر تعالى أنهم عبيد من عباده وخلق من خلقه . كما قال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ﴾ الآيات. ولهذا قال : ﴿ ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ﴾ أي فيجمعهم إليه يوم القيامة ، ويفصل بينهم بحكمه العدل الذي لا يجور فيه ولا يحيف. ولهذا قال : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفّيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ أي فيعطيهم من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسعة رحمته وامتنانه ﴿ وأما الذين استنكفوا واستكبروا ﴾ أي امتنعوا عن طاعة الله وعبادته واستكبروا عن ذلك . ﴿ فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أي صاغرين حقيرين ذليلين كما كانوا ممتنعين مستكبرين .

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً ❁ (١٧٤) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ❁ (١٧٥) ﴾

يخاطب الله تعالى جميع الناس ومخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم ، وهو الدليل القاطع للعذر ، والحجة المزيلة للشُّبه ، ولهذا قال ﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبينـاً ﴾ أي ضياء واضحاً على الحق وهو القرآن . ﴿ فأمـا الذين آمنوا بالله واعتصموا به ﴾ أي جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم ، وقال ابن جريج : آمنوا بالله واعتصموا بالقرآن ﴿ فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ﴾ أي يرحمهم فيدخلهم الجنة ، ويزيدهم ثواباً ، ومضاعفةً ورفعاً في درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم ﴿ ويهديهم اليه صراطاً مستقيماً ﴾ أي طريقاً لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة ، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة ، وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات ، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال ٨٩٥ [القرآن صراط الله المستقيم ، وحبل الله المتين] .

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ (١٧٦) ﴾

روى البخاري عن البراء قال : آخر سورة نزلت ﴿ براءة ﴾ ، وآخر آية نزلت : ﴿ يستفتونك . ﴾

روى الإمام أحمد عن جابر بن عبدالله قال ٨٩٦ : [دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل قال : فتوضأ ثم صب عليَّ أو قال : صبّوا عليه ، فعقلت . فقلت : إنه لا يرثني إلا كلالة فكيف الميراث؟ فأنزل الله آية الفرائض] أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة ورواه الجماعة من طريق ابن عيينة . وفي بعض الألفاظ : فنزلت آيـة الميراث : ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة ﴾ الآية . وكأن معنى الكلام ــ والله أعلم ــ يستفتونك عن الكلالة ﴿ قل الله يفتيكم ﴾ فيها ، فدل المذكور على المتروك .

وقد تقدم الكلام على الكلالة واشتقاقها ، وأنها مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه ، ولهذا فسرها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ولا والد ومنهم من يقول : الكلالة من لا ولد له ، كما دلت عليه الآية : « إن امرؤ هلك ليس له ولد » وقد أشكل حكم الكلالة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كما ثبت عنه في الصحيحين أنه قال : ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه: الجد والكلالة وباب من أبواب الربا. روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال ٨٩٧ : [ما سألت رسول الله ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلالة حتى طعن بأصبعه في صدري ، وقال : يكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء »] هكذا رواه مختصراً وأخرجه مسلم مطولاً أكثر من هذا وكأن المراد بآية الصيف ، أنها نزلت في فصل الصيف والله أعلم ولما أرشده النبي ﷺ إلى تفهمها ، فإن فيها كفاية نسي أن يسأل النبي ﷺ عن معناها .

وذكر لنا أنَّ أبا بكر الصديق قال في خطبته : ألا أن الآية التي نزلت في أول سورة النساء [١] في شأن الفرائض أنزلها الله في الولد والوالد ، والآية الثانية [٢] أنزلها في الزوج والزوجة والأخوة من الأم ، والآية التي ختم بها سورة النساء أنزلها في الأخوة والأخوات من الأب والأم [٣] . والآية التي ختم بها سورة الأنفال [٤] أنزلها في أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ، مما جرت الرحم من العصبة ، رواه ابن جرير .

﴿ ذكر الكلام على معناها ﴾

وبالله المستعان وعليه التكلان . قوله تعالى : ﴿ إن امرؤ هلك ﴾ أي مات ﴿ ليس له ولدَ ﴾ ، تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد ، بل يكفي في وجود الكلالة انتفاء الولد وهو رواية عن عمر بن الخطاب بأسناد صحيح من رواية بن جرير . ولكن الذي يرجع إليه هو قول الجمهور وقضاء الصديق : أنه الذي لا ولد له

---

(١) راجع النساء الآية ١١ . (٢) راجع النساء الآية / ١٢ / . (٣) النساء الآية رقم / ١٧٦ / .
(٤) الأنفال : الآية رقم /٧٥/ .

ولا والد . ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وله أخت فلها نصف ما ترك ﴾ ولو كان معها أبٌ لم ترثْ شيئاً لأنه يحجبها بالإجماع ، فدلَّ على أنه من لا ولَد له بنص القرآن ولا والد بالنص عند التأمل أيضاً ، لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد بل ليس لها ميراث بالكلية .

روى الإمام أحمد عن زيد بن ثابت ٨٩٨ [أنه سئل عن زوج ، وأخت لأب وأم ، فأعطى الزوج النصف . والأخت النصف ، فكُلِّم في ذلك فقال : حضرت رسول الله ﷺ قضى بذلك] تفرد به أحمد من هذا الوجه . وقد نقل ابن جرير وغيره عن ابن عباس وابن الزبير أنهما كانا يقولان في الميت : ترك بنتاً وأختاً إنه لا شيء للأخت لقوله تعالى : ﴿ إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك ﴾ فإذا ترك بنتاً فقد ترك ولداً فلا شيء للاخت .

وخالفهما الجمهور فقالوا في هذه المسألة : للبنت النصف بالفرض ، وللأخت النصف الآخر بالتعصيب بغير هذه الآية وهذه الآية نصت أن يفرض لها في هذه الصورة ، وأما وراثتها بالتعصيب فلما رواه البخاري عن الأسود قال ٨٩٩ : [قضى فينا معاذ بن جبل على عهد رسول الله ﷺ النصف للبنت والنصف للأخت ثم قال سليمان : قضى فينا ولم يذكر على عهد رسول الله ﷺ] وفي صحيح البخاري أيضاً عن هزيل بن شرحبيل ٩٠٠ قال : [سئل أبو موسى الأشعري عن ابنة ، وابنة ابن ، وأخت . فقال : للإبنة النصف ، وللأخت النصف ، وأتِ ابن مسعود فسيتابعني ... فسأل ابن مسعود فأخبره بقول أبي موسى فقال : لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين ... !!! أقضي فيها بما قضى النبي ﷺ : النصف للبنت ، ولبنت الابن السدس تكملة الثلثين ، وما بقي فللأخت . فأتينا أبا موسى فأخبرناه بقول ابن مسعود فقال : لا تسألوني ما دام هذا الحَبْرُ فيكم .]

وقوله تعالى : ﴿ وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ﴾ أي والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلالة ، وليس لها ولد أي ولا والد ، لأنها لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئاً ، فإن فرض أن معه من له فرض صرف إليه فرضه كزوج أو أخ أو أم ، وصرف الباقي إلى الأخ ، لما ثبت في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال ٩٠١ : [الحقوا الفرائض بأهلها ، فما أبقت الفرائض فلأولي رجل ذكر] وقوله تعالى : ﴿ فإن كانتا اثنتين

فلهما الثلثان مما ترك ﴾ أي فإن كان لمن يموت كلالة أختان ، فرض لهما الثلثان وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما ومن ههنا أخذ الجماعة حكم البنتين كما استفيد حكم الأخوات من البنات في قوله (فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك)

وقوله تعالى : ﴿ وإن كانوا أخـــوة رجالاً ونساءً فللذكر مثل حظّ الأنثيين ﴾

هذا حكم العصبات من البنين ، وبني البنين والأخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم ، أعطي الذكر مثل حظ الأنثيين . وقوله تعالى : ﴿ يبين الله لكم ﴾ أي يفرض لكم فرائضه ويحد لكم حدوده ويوضح لكم شرائعه . وقوله تعالى : ﴿ أن تضلوا ﴾ أي لئلا تضلوا عن الحق بعذ البيان ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ أي هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها وما فيهما من الخير لعباده ، وما يستحقه كل واحد من القرابات بحسب قربه من المتوفىً .

ولقد روي عن عمر بن الخطاب أن الكلالة من لا ولد له ثم رجع إلى قول أبي بكر الصديق . قال ابن جرير : وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : إني لأستحي أن أخالف فيه أبا بكر ، وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول : هو ما عدا الولد والوالد. وهذا الذي قاله الصديق عليه جمهور الصحابة والتابعين والأئمة في قديم الزمان وحديثه ، وهو مذهب الأربعة والفقهاء السبعة ، وقول علماء الأمصار قاطبة ، وهو الذي يدل عليه القرآن ، كما أرشد الله أنه قد بين ذلك ووضحه في قوله تعالى : ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا والله بكل شيء عليم ﴾ والله تعالى أعلم .

* * *

تم بعونه تعالى المجلد الأول وسيليه المجلد الثاني وأوله سورة المائدة .

فهرس المحتويات

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

الصفحة

(٤) سورة النساء . مدنية وآياتها /١٧٦/ نزلت بعد سورة الممتحنة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

أهم ما ورد في الصفحة من مواضيع الآيات المفسرة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

فهرس الأحاديث

الجزء الأول

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٤٥	صح فق	لا يزال العبد بخير ما لم يستعجل قالوا وكيف يستعجل ...	٢٠٨
١٤٦	صح	ان النبي ﷺ ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ﴾ .	٢٠٩
١٤٦	صح	يقول الله تعالى : يا ابن آدم واحدة لك ، وواحدة لي ...	٢١٠
١٤٦	صح	للصائم عند افطاره دعوة مستجابة	٢١١
١٤٦	صح	ثلاثة لا ترد دعوتهم : الامام العادل والصائم حتى يفطر..	٢١٢
١٤٧	صح	ان الرجل من الصحابة ، إذا كان صائماً فنام قبل أن يفطر	٢١٣
١٤٧	صح	ثم إن هناك رجالاً من المسلمين كانوا يختانون أنفسهم أي	٢١٤
١٤٧	صح	قلت يا رسول الله : ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود أهما الخيطان	٢١٥
١٤٨	صح فق	تسحروا فإنّ في السحور بركة	٢١٦
١٤٨	صح	إن رسول الله ﷺ سماه : الغداء المبارك	٢١٧
١٤٨	صح فق	لا يمنعنّكم أذان بلال عن سحوركم فإنه ينادي بليل فكلوا واشربوا حتى	٢١٨
١٤٨	صح فق	كان رسول الله ﷺ يصبح جنباً من جماع غير احتلام ثم يغتسل ويصوم	٢١٩
١٤٨	صح فق	وفي حديث أم سلمة ــ عندهما ــ ثم لا يفطر ولا يقضي	٢٢٠
١٤٨	صح فق	إذا أقبل الليل من ههنا ، وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم	٢٢١
١٤٨	صح فق	لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر	٢٢٢
١٤٨	صح فق	لا تواصلوا . قالوا : يا رسول الله إنّك تواصل قال فإني لست مثلكم	٢٢٣
١٤٨	صح فق	لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر	٢٢٤
١٤٩	صح فق	كان رسول الله ﷺ يدني إليّ رأسه فأرجله وأنا حائض	٢٢٥
١٤٩	صح فق	إنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله	٢٢٦

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
١٦٥	صح م	سبحان الله ، لا تطيقه ولا تستطيعه فهلا قلت : ربنا آتنا	٢٧٩
١٦٥	صح	إنه سمع النبي ﷺ يقول فيما بين الركنين : ربنا آتنا في الدنيا حسنة	٢٨٠
١٦٥		ما مررت على الركن إلاّ رأيت عليه ملكاً يقول : آمين . .	٢٨١
١٦٦	صح	يوم عرفة ، ويوم النحر ، وأيام التشريق ، عيدنا أهل الاسلام	٢٨٢
١٦٦	صح	لا تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل	٢٨٣
١٦٦	صح	إلاّ من كان عليه صوم من هدي	٢٨٤
١٦٦	صح	نهى رسول الله ﷺ عن صوم أيام التشريق وهي أيام أكل وشرب وذكر الله	٢٨٥
١٦٦	ح مرسل	إنما جعل الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة ... ورمي الجمار	٢٨٦
١٦٨	صح	آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر ...	٢٨٧
١٦٨	صح بخ	ان أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم	٢٨٨
١٦٨	صح	إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون واتوها وعليكم السكينة	٢٨٩
١٦٨	صح	لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لي قريش : يا صهيب	٢٩٠
١٧٠	مشهور	إن الناس اذا اهتموا لموقفهم من العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء	٢٩١
١٧١	صح	أنفق يا بلال ولا تخشى من ذي العرش إقلالا	٢٩٢
١٧١	صح	إن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم فيقول أحدهما اللهم أعط	٢٩٣

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٢٣٦	صح	ان عائشة زوج النبي قالت لها ام بحنه أم ولد زيد بن أرقم : يا أم المؤمنين :	٤٢٧
٢٣٦	صح م	من لم يذر المخابرة فليؤذن بحرب من الله ورسوله	٤٢٨
٢٣٦	صح فق	ان الحلال بيّن والحرام بيّن وبين ذلك أمور مشتبهات. . .	٤٢٩
٢٣٧	صح	دع ما يريبك إلى ما لا يريبك	٤٣٠
٢٣٧	صح	الإثم ما حاك من القلب وترددت فيه النفس وكرهت أن ...	٤٣١
٢٣٧	صح	يأتي على للناس زمان يأكلون فيه الربا » قال : قيل له الناس كلهم ؟ قال	٤٣٢
٢٣٧	صح بخ	لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الربا خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد	٤٣٣
٢٣٧	صح	لعن الله آكل الربا ومؤكله وشاهديه وكاتبه	٤٣٤
٢٣٧	صح	إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل	٤٣٥
٣٧٨	صح	من تصدّق بعدل تمرة عن كسب طيب ، ولا يقبل الله الا الطيب	٤٣٦
٢٣٨	صح	وقد ذكر زيد بن أسلم وغيره أن هذا السياق نزل في بني عمر بن عمير من ثقيف	٤٣٧
٢٣٣	صح	من سرّه أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر على معسر أو يضع عنه	٤٣٨
٢٣٩	صح	سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقه »	٤٣٩
٢٣٩	صح بح	كان تاجر يداين الناس فان رأى معسراً قال لفتيانه تجاوزوا عنه....	٤٤٠
٢٤١	صح فق	من أسلف فليسلف من كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم	٤٤١
٢٤١	صح	أن رجلاً من بني اسرائيل سأل بعض بني بعض بني إسرائيل ان يسلفه الف دينار	٤٤٢
٢٤٢		إن من الصدقة أي تعين صانعاً أو تصنع لأخرق	٤٤٣

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٢٤٢	صح م	« يا معشر النساء تصدّقن وأكثرن الاستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار	٤٤٤
٢٤٣	صح	ان النبيّ ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي ، فاستتبعه النبي ﷺ ليقضيه عن فرسه	٤٤٥
٢٤٤	صح فق	أن رسول الله ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقا	٤٤٦
٢٤٥	صح	على اليد ما أخذت حتى تؤدّيه	٤٤٧
٢٤٥	صح	لما نزلت على رسول الله ﷺ لله ما في السموات وما في الأرض	٤٤٨
٢٤٦	صح م	فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله : لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها	٤٤٩
٢٤٦	صح بخ	﴿ وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه ﴾ قال نسختها الآية التي بعدها	٤٥٠
٢٤٦	صح فق	قال الله : إذا همّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها	٤٥١
٢٤٦		. قال الله : إذا همّ عبدي بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنه ، فإن عملها	٤٥٢
٢٤٦	صح م	سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة فقال تلك صريح الإيمان	٤٥٣
٢٤٧	صح فق	من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلته كفتاه . .	٤٥٤
٢٤٧	صح م	اعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش	٤٥٥
٢٤٧		إن الله كتب كتاباً قبل ان يخلق السموات والأرض بألفي عام	٤٥٦
٢٤٧	صح	أعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش ، والمفصل ناخلة	٤٥٧
٢٤٨	صح	ويحق له أن يؤمن.	٤٥٨
٢٤٨	صح	لما نزلت على رسول الله ﷺ « آمن الرسول – إلى قوله واليك المصير	٤٥٩

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٣٧٨	مرسل	البيع عن تراض والخيار بعد الصفقة ولا يحل لمسلم أن يغش مسلماً	٦٩٠
٣٧٨	صح فق	البيّعان بالخيار ما لم يتفرقا	٦٩١
٣٧٩	صح بخ	اذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا	٦٩٢
٣٧٩	صح	لما بعثه النبي ﷺ عام ذات السلاسل قال : احتلمت في ليلة باردة	٦٩٣
٣٧٩	صح	من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها بطنه يوم القيامة...	٦٩٤
٣٨٠	صح	أتدري ما يوم الجمعة ؟ » قلت هو اليوم الذي جمع فيه أباكم	٦٩٥
٣٨٠	صح	خطبنا رسول الله ﷺ يوما فقال « والذي نفسي بيده » ثلاث مرات ثم اكب	٦٩٦
٣٨٠	صح فق	« اجتنبوا السبع الموبقات » قيل يا رسول ما هن ؟ قال « الشرك بالله	٦٩٧
٣٨٢	صح	قالت أم سلمة يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزوا ...	٦٩٨
٣٨٢	صح	قالت أم سلمة يا رسول الله لا نقاتل فنستشهد ...	٦٩٩
٣٨٢	صح	لا حسد إلاّ في اثنتيْن رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هكلته بالحقّ	٧٠٠
٣٨٢	.	سلوا الله من فضله ، فإن الله يحبُّ أن يسأل ...	٧٠١
٣٨٣	صح بخ	ولكلّ جعلنا موالي) أي ورثة	٧٠٢
٣٨٣	صح	كلُّ حلفٍ في الجاهلية أو عقد أدركه الإسلام فلا يزيده الإسلام إلاّ شدة	٧٠٣
٣٨٤	صح بخ	لن يفلح قوم ولو أمرهم إمرأة	٧٠٤
٣٨٤	للنظر	أتى رسول الله ﷺ رجل من الأنصار بامرأة فقلت يا رسول الله ان زوجها ...	٧٠٥
٣٨٤	صح	خير النساء امرأة إذا نظرت اليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك	٧٠٦
٣٨٤	صح	لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها	٧٠٧

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٤٠٤	صح فق	بعث رسول الله ﷺ سريّة واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار ، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء	٧٦٨
٤٠٥	صح فق	السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره	٧٦٩
٤٠٥	صح بخ	إسمعوا وأطيعوا وإن أمّر عليكم عبدٌ حبشيٌ كأن رأسه زبيبة)	٧٧٠
٤٠٥	صح	سيليكم ولاة بعدي ، فيليكم البرّ ببرّه ، والفاجر بفجوره فاسمعوا لهم	٧٧١
٤٠٥	صح فق	من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر	٧٧٢
٤٠٥	صح فق	من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله	٧٧٣
٤٠٨	متكلم فيه	والذي نفسي بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به	٧٧٤
٤٠٨	صح بخ	خاصم الزبير رجلاً في شراج الحرة ، فقال النبي ﷺ اسقه يا زبير ثم أرسل الماء	٧٧٥
٤٠٨	مرسل	قال نزلت في الزبير بن العوام وحاطب بن أبي بلتعة . . .	٧٧٦
٤٠٨	صح	إن رجلين اختصما إلى النبي ﷺ فقضى للمحق على المبطل..	٧٧٧
٤٠٩	.	لما نزلت (ولو إنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) الآية فقال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ لو فعل ربّنا لفعلنا..	٧٧٨
٤٠٩		...لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل) يعني ابن رواحة	٧٧٩
٤١٠	صح بخ	سمعت رسول الله ﷺ يقول ما من نبيّ يمرض إلا خيّر بين الدنيا والآخرة)	٧٨٠
٤١٠	صح م	اللهم الرفيق الأعلى	٧٨١
٤١٠	صح	جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال يا رسول الله إنك لأحب إليّ من نفسي	٧٨٢
٤١٠	صح	كنت أبيت عند النبي ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي « سل » قلت يا رسول الله مرافقتك في الجنة	٧٨٣
٤١١	صح فق	وتكفّل الله للمجاهد في سبيله إن توفّاه أن يدخله الجنّة ...	٧٨٤
٤١٢	صح	إنّ عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتو النبيّ ﷺ بمكة وقالوا :	٧٨٥

الصفحة	درجة الحديث	مطلع الحديث النبوي الشريف	رقمه
٤٧٩	صح بخ	ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر	٩٠٠
٤٧٩	صح فق	الحقوا الفرائض بأهلها، فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر	٩٠١

انتهى المجلد الأول ويليه المجلد الثاني